المناقب المزيدية في اخبار الملوك الاسدية

ابو البقاء الحلي

To PDF: www.al-mostafa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

للأزدهاق، و الأزدهاق فيما روي: هو بيرواسب، و هو الذي كان يقال له الضحّاك، و كان جبّاراً عاتياً ساحراً، و هو الذي إنه كان على كتفه لحمتاك زائدتان كالحيتين تؤلمانه فلا تسكنان حتى يطليهما بمخ أبن آدم، و كان يقتل في كل يوم رجلين و يطليهما بمخهما، و هو الذي قتل جمَّ الشيّذ الملك، و ملك بعده فيما روي الف سنة.

ملوك الفرس عهد يوسف عليه السلام

وجمَّ الشيذ هو جم بن يونجان بن أنجهد بن أوشهنج بن واوك بن سامك بن مرشي بن جيومرت بن يافث بن نوح عليه السلام. و قيل إنه سمي جَمّ الشيذ لجماله، و إن الشيذ الشعاع، و الضحاك منسوب إلى الفرس.

و بعض نزار فيما روي تقول هو الضحاك بن عدنان أخو معد بن عدنان، و اليمن تدّعي و تزعم أنه قحطاني من ولد الهبوب بن الأزد، قال أبو نؤاس في أفتخاره:

و كأن منا الضحاك تعبده ال جامل و الوحش في مساربها

و التقدير في درجات النسب لا يقتضي ما ذكرته نزار و اليمن في ذلك، و لا يدل على صحته الا أننا ذكرناه على ما روي. و وثب أفريدون بن أثفيان بن جم الشيذ على الضحاك فقتله بجدّة، فأستراح أهل عصره منه، قال أبو تمام يمدح الأفشين و يذكر أيقاعه ببابك الخرمي:

أبن كان كالضحاك في سطوته بالعالمين و أنت أفريدون

يوسف عليه السلام

و روي أن عزيز مصر الذي يوسف عليه السلام، لم يكن ملكاً برأسه. و أن ملك مصر و فرعون كان في ذلك الوقت الرّيان بن الوليد بن مروان بن راشية بن قاران بن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام. و كان عزيز على خزائنه بمصر، فأسم العزيز فيهما روي قطفير و قيل أطفير بن روجيب، و كان فيهما روي لا يأتي النساء.

و كان الذي باع يوسف عليه السلام بمصر مالك بن ذعر فروي في نسبه وجهان، فقيل هو مالك بن

ذعر بن تويب بن عقفان بن مديان عليه السلام.
نسب آخرون فقالوا: هو مالك بن ذعر حجر بن جزيلة بن لخم. و قيل إنه أشتراه ثم باعه في مصر، و قيل بل هو أحد السيّارة، و قيل هو: واردهم الذي أخرجهم من الجب، و إن يوسف عليه السلام دعا له فولد له فولد له أربعة و عشرون ذكراً فسبحان العليم الخبير فالحقائق ذلك و غيره.
فلما أشتراه أطفير أتى به منزله و قال لامرأته و أسمها راعيل أكرمي سنواه عسى أن ينفعنا" و يكفينا ذا فهم الأمور و نتخذه ولدا فجرى له منها ما قصه الله تعالى في كتابه. و سجن، ثم إن الملك الريان أتهم حبازة إنه يريد أن يسمه، و أتهم صاحب شرابه أنه مالأه على ذلك فحبسهما. فقال أحدهما لصاحبه همّ فلنجرب هذا العبد العبراني، نسألاه من غير أن يكون رأيا شيئاً، فأجابهما بما قصه الله سبحانه، و قال الذي ضنّ إنه نوح منهما و هو الساقي اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان".
فمكث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، إلى أن رأى الملك الرؤيا في البقر و السنابل، فجمع السحرة و الكهنة و الحزارة و القافة ليعبروا رؤياه فقالوا: أضغاث أحلام. فقال الناجي من الفتيين و هو الساقي، و قيل و الله أعلم أنه كان أسمه نبووا، أنا أنبئكم بتأويله فأرسلوني، و قيل إن السجن لم يكن بالمدينة، فانطلق إلى يوسف عليه السلام فاستفتاه فأخبره بالتأويل فرجع إلى الملك و أخبره فعلم أن الذي قاله يوسف عليه السلام حق فقال: ائتوني به" فلما أتاه الرسول يدعوه إلى الخروج، قال: ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن"، فلما رجع إليه، جمع الملك النسوة فقال لهن و قلن له، و قالت أمرأة العزيز ما قصه الله تعالى في كتابه، فتبين للملك عذر يوسف عليه السلام و أمانته، و ثبت في نفسه صدقه و علمه فقال: ائتوني به أستخلصه لنفسي". فلما جاءه و كلمه و قال له ما قال. قال له يوسف عليه السلام اجعلني على خزائن الأرض" و قيل كانت له خزائن كثيرة غير الطعام. فسلم سلطانه كله إليه و جعل القضاء اليه، و قيل إنه أطفير و ولاه عمله، فدل القرآن على إن يوسف عليه السلام خوطب بالعزيز أيضاً، فانه لما أعتاق أخاه بسبب الصواع، قال له أخوته: يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً. و قالوا له لما رجعوا اليه يا أيها العزيز مسنا و أهلنا الضُّر". و لعل كل من كان يلي ذلك العمل كان يخاطب بالعزيز و الله سبحانه أعلم.

و قيل إن أطفير هلك في يلك الليالي، فتزوج الملك يوسف عليه السلام بامرأته راعيل. فروي إنها لما دخلت عليه قال لها اليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ فيزعمون أنها قالت له: أيها الصديق! لا تلمني فإني كنت أمرأة حسناء جميلة ناعمة في ملك و دنيا، و كان صاحبي لا يأتي النساء، و كانت كما جعلك الله في حسنك و هيئتك فغلبتني نفسي على ما رأيت. فيزعمون إنه و جدها عذراء فولدت له رجلين أفرايم و

منشّا.

و جاء في رواية أخرى أن بعض الصالحين عليهم السلام سئل هل أعطى أحد من الصالحين مائة الف؟ فقال: نعم يوسف عليه السلام.

فسئل كيف كان ذاك؟ فقال: أن أمرأة العزيز كبرت و أفتقرت، فقيل لها لو تعرضت ليوسف، فقد كان غلامك مرة، فوقفت له على طريق فسلمت عليه، فقال من أنت؟ فقالت: أنا تيكم فعرفها، فقال: مالك؟ فقالت: أقول لك ما قال لك أخوتك. فبعث اليها بمائة الف و لم يذكر في الحديث دينار و لا درهم فسبحان العالم بما كان و ما يكون.

وروي أن الملك الريان أمن و أتبع يوسف عليه السلام. و مات في حياته و إن آسية المؤمنة من ولده. و قيل من آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الرّيان.

ثم ملك بعد الرّيان قابوس بن مصعب بن نُمير البيلوسي بن قاران بن عَمرو بن عِمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام. و كان كافرا، فدعاه يوسف عليه السلام الى الايمان فأبى، و تزوج آسية بنت مزاحم رضي الله عنها و طال عمره و مات يوسف عليه السلام في زمانه.

موسى عليه السلام

فلما هلك قابوس ملك بعده أخوه الوليد بن مصعب. و خلف على آسيا رضي الله عنها و طال عمره و طغى و عتا و تجبر و هو العريق. فرعون موسى عليه السلام.

روى إنه كان في مقدمته يوم تبع موسى صلى الله عليه، و بنى أسرائيل فأغرقه الله تعالى الف الف و ستمائة الف سوى كان في المجنبتين و الملقب، و أنه لما أشرف على البحر، فرآه طرقا يابسة، و بينها مياه كالأطواد قائمة هاب النزول فيه، فسأل عن طيق في عبر البحر يلحق بني أسرائيل منها، فَدُلَّ على طريق فانصرف يريدها، و كان تحته حصان فيما روى و الله سبحانه أعلم، فارسل الله سبحانه ملكناً على فرس أنثى فسارت أمام الحصان حتى أنتسى ريحها فطلبها في أبحر. فجمح الحصان بفرعون على أثر الفرس فنزل به فضن أصحابه إنه نزل طوعاً فنزل منهم من نزل و بعث الله سبحانه ثلاثين ملكاً على خيل يضربون وجوه الجنود، و يقولون الحقوا بالملك. فنزلوا حتى لم يبق منهم أحد الا في البحر، فأذاب الله سبحانه من البحر ما شاء حتى بلغ أرساغ خيلهم، فلم يزدهم ذلك الا جرأة فأذابه حتى بلغ وظف الخيل و ركبها، فازدادوا جرأة، فأذابهحتى بلغ الركب فلم يكفوا و تموا على أمرهم فأذابه حتى بلغ السروج، فتذامروا فأذابه عليهم فأغرقهم، فقيل إن فرعون غاص ثم طفا، فاستغاث بالله عز و جل ثم غاص ثم طفا، فاستغاث به سبحانه ثانية، ثم غاص ثم طفا فأخذ جبريل عليه السلام حماة فسدَّ بها فاه، فأوحى الله سبحانه اليه لم

فعلت؟ فقال: الهي و سيدي. إني ذكرت تجبره و طغيانه و قوله أنا ربكم الأعلى، و أنا أعلم رأفتك و رحمتك فخفت أن يدعوك ثالثة فتجيبه، فأوحى الله سبحانه لو دعاني لأجبته كذا روي فسبحان من لا يقنط من رحمته و لا يوئس من عفوه و مغفرته و من عنده علم حقائق ذلك و غيره.

التسمية بالملك

و روي أنه كان في عصر بني أسرائيل كل من ملك داراً و ضيعة و خادماً و فرساً سمي ملكاً.
و ذكر بعض أصحاب السيرة، أن الحارث بن عمرو الملك الكندي هرب من أنوشروان، فأتيعه بالمنذر بن ماء السماء في تغلب و أياد و بَهراء و خلق كثير فأرسلت تغلب من بني آكل المرار ثمانية و أربعين رجلاً، كلهم يسمى بالملك، فضرب المنذر أعناقهم جميعاً بالحيرة ففيهم يقول أمرؤ القيس بن حجر:

ألا يا عين جودي لي شنينا وبكي للملوك الذاهبينا
ملوكاً من بني حُجر بن عمرو يُساقون العشيّة يُقتلونا
و ما في يوم معركة أصيبوا و لكن في ديار بني مَرّينا

و بنو مَرّينا: أهل بيت من أهل الحيرة. و هذه أدلة واضحة على إن التسمية بالملك في سالف الزمان كانت مطلقة للناس يتسمون بها على تباين ما بينهم في الرتب، و تباعدهم في درجات الشرف، و كون بعضهم لبعضهم عمالا و خدماً و أتباعاً، كما تسمى في عصرنا هذا بالأمارة قوم بينهم في المنزلة تباين بعيد و فرق كبير.
و قد قيل إن التسمية بالأمارة لم تكن في الاسلام، و من المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم" كان أذا بعث جيشاً لقتال الكفار، بعث عليهم أميراً. و قد دلّ كتاب الله تعالى على أن الملأ من بني أسرائيل قالوا لنبي لهم أبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله". و ليس وراء هذا دليل.
و لم يكن يقال في الجاهلية الا ملك القوم و سيدهم و رئيسهم للعرب، فأما غيره من الأمم فكان يقال لمن هو في منزلة الأمير من الفرس المرزبان، و فوقه الملك، و لمن هو في منزلة الأمير من البطارقة البطريق، فان علت درجته قيل الدمستق، و فوقه الملك و كان يقال لعظيم ملوك الفرس كسرى، و لعظيم ملوك الروم قيصر، و لعظيم ملوك الترك خاقان و طرخان، و لملك الحبشة الذي تجتمع طاعاتهم له النجاشي، و لكل ملك من ملوك الهند و الصين و غيرهم أسم يعرف بلسان قومه كقلايون، و فارسب في الهند و جوعونة في الصين، و أرتبيل و نقفهور و المهراج في غيرهم من ملوك، و لا يعلم حقيقة معاني ذلك. و كذلك ملوك النبط و اليونانية و النوبة و أجناس السودان و أعاظم العرب العاربة كانوا يسمونهم أسماء.

و قد روي أن أول عربي سمي بالملك قحطان. و قيل إن كل جبار كان يملك مصر يسمى فرعون، و كل جبار كان بالشام و تهامة كان يسمى العمليق، و الفراعنة و العمالقة و أعرب العاربة كلها و هي عاد و ثمود و صحار و وبار و أميم و طسم و جديس و غيرهم من تلك الامم، يرجعون بأنسابهم إلى أرمو لاوذ أبني سام بن نوح عليه السلام.

و روي أن أول من تسمى بالعمليق: معاوية بن بكر عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح و كان جبار بمكة، و هو صاحب القينتين المعروفتين بالجرادتين يضرب بهما المثل يقال: تغنت به الجرادتان. و عليه قدم وفد عاد، يستسقون و فيهم لقمان و الله سبحانه أعلم. و قيل إن نمرود بن كنعان كان أسمه زرهي و نمرود كان يجري له في التسمية كما يجري لغيره من تلك الاسماء، و لعله و كل من كان يملك مملكته يسمون النماردة. كما تسمى من تقدم ذكره الأكاسرة و القياصرة و الطرخنة و الفراعنة و العمالقة، و كما تسمى عظماء ملوك اليمن تبع و التبابعة و إن كانت أسمائهم جميعاً الحقيقية غير هذه، و كانت هذه تقوم لهم مقام التسمية بالملك الا الأكاسرة ملوك الفرس فان التجبر حداهم على التسمية بملك الملوك.

و ذكر الطبري أن أول من تسمى منهم بذلك أردشير بن بابك، فانه لما قهر ملوك زمانه من ملوك الطوائف و غيرهم و جاءته كتب ملوك الامم من الترك و الروم و الهند و الصين و غيرهم بالطاعة، تسمى بشاهنشاه و تسمى به ولده من بعده و كتبوا به عن أنفسهم، و كتب به اليهم لطول مدة ملكهم و سعة ممالكهم، و أنبساط أيديهم، و أذعان ملوك الأمم بالطاعة لهم الى أن قتل آخرهم يَزدجرد بن شهريار أبعده الله تمَّ قتله في سنة أحدى و ثلاثين من الهجرة، مقيماً على كفره. و روي إن مدة ملكهم كانت من عهد جُيوموت بن يافث بن نوح علية السلام، الى أن قتل يزدجرد هذا أربعة آلاف سنة، لم يتخللها الا زمان ملوك الطوائف، و كانت مدة ملكهم على ما تقدم ذكره، خمس مائة و أحدى عشرة سنة. فان صحت هذه الرواية فقد ملكوا ثلاثة آلاف و خمسمائة سنة أو نحوها و الله سبحانه أعلم.

فما روي في سعة ملكهم، أن أنوشروان قدم عليه في يوم واحد نيف و عشرون ملكاً من الملوك الصغار طائعين له، و جاءه رسل الملوك الكبار، قيصر ملك الروم، و فارسب ملك الهند، و خاقان الكبير ملك الترك، و صاحب سرنديب، و صاحب قلايون الهند بالطاعة أيضاً، و معهم الحمول و الهدايا، و صالحه كبير ملك الهند على تسع ما يخرجه غواصوه من الدر، و عشرة و مائتي الف ساجة و إن ينقل اليه كتاب كلية و دمنه و الشطرنج و الخضاب الاسود. و دانت له بلاد دَقلة و قشمير، و كل من بينه و بين المشرق و المغرب و مهب الشمال و الجنوب و وضع بيوت النيران بالقسطنطينية، و غزا الهياطلة طالباً ثأر جده فيروز. فقتل ملكهم أشيوان و سائر أهل بيته، و صار له ما وراء النهر، و أنزل فرغانه جيوشه، و بنى

الباب و الابواب و عدة من المدن، و وضع على العراق الوضائع، فألزم كل جريب من الحنطة و الشعير درهماً، و كل جريب من الأرز نصف درهم و ثلث درهم، و كل جريب من الكرم ثمانية دراهم، و كل جريب من الرطب سبعة دراهم، و كل أربعة نخلات فارسيات درهماً، و كل ست دقلات درهماً، و كل ثمانية أصول من الزيتون درهماً، و يتنوع ما سوى ذلك.

و كان لكل ملك من كبار ملوك الأمم كقيصر و خاقان و ملك الهند و ملك الصين، و من مجراهم كرسي موضوع باسم ذلك الملك في موضع معروف من مجلسه على قدر رتبة ذلك الملك، و فرس مسرج واقف ببابه ما دام راضياً عنه، فان نقم عليه كانت علامة نقمته أن يأمر برفع الكرسي من المجلس، و منع الفرس أن يقف بالباب، فاذا بلغ ذلك الملك رفع كرسيه من المجلس، و منع فرسه من الوقوف بالباب، حمل الحمول و أذعن بما يراد منه حتى يرضى عنه. فاذا رضي عنه، كانت علامة الرضا. أن يأمر باعادة الكرسي و الفرس الى حيث كانا. فحداهم ما فتنوا به من الدنيا على التسمي بهذا الاسم. و قيل إن عمالهم من الملوك الصغار، كآل نصر و غيرهم كان أحدهم أذا ذكر عند أحدهم قيل له عبدك فلان، و أذا دخل عليه سجد، و أذا خرج من عنده مشى القهقري الى أن يغيب عن عينيه. و كان فيمن بعد عنهم و نأى عن أبوابهم من عمالهم و مرازبتهم من العجم، من يسمى ملكاً أيضاً، فممن سمي بذلك باذان عاملهم على اليمن، و يقال -بالنون و الميم- و إنما كان مرزباناً من مرازبتهم.

رسالة الرسول صلى الله عليه و سلم الى كسرى

روى أبن أسحاق أن رسول الله و آله، كتب الى الملوك. و أخرج رساله اليهم فكان رسوله الى كسرى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم و كان كتابه اليه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله النبي، الى كسرى عظيم فارس، سلام على من أتبع الهدى و آمن بالله و رسوله، و شهد أن لا اله لا الله و حده لا شريك له، و إن محمداً عبده و رسوله، فأدعوك بداعية الله، فإني أنا رسول الله الى الناس كافة، لأنذر من كان حياً، و يحق القول على الكافرين، فاسلم تسلم، فان أبيت فان أثم المجوس عليك". فلما قرأ كسرى كتاب رسول الله غضب و قال: يكتب الّي هذا الكتاب. و روي إنه شق الكتاب.

فروى أبن أسحق قال: بلغني إن رسول الله لما بلغه إنه شق كتابه قال: مزّق ملكه.

و في رواية إن كسرى شق الكتاب و إن قيصر كتب جواب ما كتب به اليه فقال رسول الله سيكون لهؤلاء بقية" يعني: قيصر و قومه، و لا يكون لهؤلاء بقية" يعني كسرى و قومه فالله سبحانه أعلم.

ثم كتب كسرى الى باذان. و هو على اليمن، أن أبعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز من عندك رجلين جلدين فليأتياني به. فبعث باذان قهرمانه و هو أبانويه و كان كاتباً حاسباً بكتاب فارس، و بعث معه رجلا من الفرس يقال له خرخسرو، و كتب معهما الى رسول الله يأمره إن ينصرف معهما الى كسرى، و قال لأبانويه: أنظر ما الرجل! و كلمه و أتني بخبره. فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالا من قريش بنخب من أرض الطائف، فسألاهم عنه، فقالوا: هو بالمدينة، و أستبشروا و فرحوا بهما و قال بعضهم: لبعض أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك، كفيتم الرجل. فخرجا حتى قدما المدينة على رسول الله ، فكلمه أبانوية و قال له: إن شاهنشاه ملك ملوك كسرى، كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتية بك و قد بعثني اليك لتنطلق معي، فان فعلت كتب معك الى ملك ملوك بكتاب ينفعك و يكف به عنك، و إن أبيت فهو من قد علمت! هو مهلكك و مهلك قومك، و مخرب بلادك، و دخلا على رسول الله و قد حلقا لحاهما و أعفيا شواربهما، فكره النظر اليهما و قال: ويلكما من أمركما بهذا. فقلا: أمرنا به، ربنا، يعنان كسرى فقال رسول الله : لكن ربي أمرني باعفاء لحيتي و قص شاربي" ثم قال لهما تأتياني غدا، و أتى رسول الله الخبر من السماء، إن الله سبحانه قد سلّط على كسرى شيرويه فقتله في شهر كذا، من ليلة كذا و لم يسلم أبن أسحق الليلة و لا الشهر.

و جاء برواية أخرى: أن قتل شيرويه لأبيه أبرويز كان لسبع ساعات مضت من ليلة الثلاثاء العاشر من جمادي الاخرة سنة سبع من الهجرة. و قال أبن أسحق: فلما أتيا الرسول من الغد قال لهما: إن ربي قد قتل ربكما ليلة كذا من شهر كذا و كذا لعدة ما مضى من ساعات اليل، سلّط عليه أبن شيرويه فقتله، فقلا: هل تدري ما تقول؟ أنا قد نقمنا منك ما هو أيسر من هذا! أفنكتب بهذا عنك، و نخبر الملك؟، قال نعم أخبراه بذلك عني، و قولا له إن ديني و سلطاني سيبلغ مللك كسرى و ينتهي الى منتهى الخف و الحافر، و قولا له: أنك أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، و ملكتك على قومك من الأبناء. ثم أعطي خرخسرو منطقة فيها ذهب و فضة، كان أهداها بعض الملوك اليه. فخرجا من عنده حتى قدما الى باذان فاخبراه الخبر فقال و الله ما هذا بكلام ملك، و أني لأرى الرجل نبيا كما يقول و لننظرن ما قد قال فلئن كان حقا فسنرى رأينا.

و روي إن أبانويه قال لباذان ما كلمت رجلا قط أهيب عندي منه فقال: هل معه شُرَط؟ قال لا، فلم يلبث باذان أن جاءه كتاب شيرويه أما بعد: فاني قد قتلت كسرى و لم الا غضبا لفارس أستحل من قتل أشرافهم، و تحقيرهم في بعوثهم، فاذا جاءك كتابي هذا، فخذ لي الطاعة ممن قبلك، و أنظر الى الرجل الذي كان كتب اليك كسرى فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري". فلما أنتهى كتاب شيرويه الى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم و أسلم معه من كان باليمن من الأبناء من فارس. و كانت حمير تقول

لخرخسرو ذو المعجز للمنطق التي أعطاه رسول الله ، و المنطقة بلسان حمير المعجرة، فبنوه باليمن يعرفون ببني ذي المعجرة. و قد تقدم ذكر العذر عن طول هذا الحديث و أمثاله، و الغرض الاستشهاد به على إن في عمالهم من العجم أيضاً من كان تسمى بالملك. و كسرى نفسه تسمى ملك الملوك و شاهنشاه، قال: و كسرى شهنهاه الذي سار ملكه له ما أشتهى راع عثق و ديسق".

فهذه الأحاديث و أمثالها دالة على أن التسمية بالملك في العصر الخالي كانت كالتسمية بالامير في عصرنا هذا، لا في صدر الاسلام فان التسمية بالأمير في صدر الاسلام أيضاً لم يكن يسمى بها الا من كان أميراً على الحقيقة، لا على التأدب و عادة التملق و التقرب، ثم صار ولد الخلفاء من بني أمية و أخوانهم و أقاربهم الأدنون يسمون بها، ثم شاعت في الناس و أطلقت فاستعملها الاشراف و الاماثل و أهل بي وتاهم.

سيف الدولة ملك الحلة

حدثني الرئيس أبو نصر محمد بن علي بن جيّاء رحمه الله عمن حدثه عن الأمير معتمد الدولة أبي المنيع قرواش بن شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب، أنه أحصى عدة من أجتمع في عسكر ملك العرب سيف الدولة نصره الله في مترله بدار السيب في سنة أربع و تسعين و أربعمائة لما ترك قوام الدولة لدونقا التركي بغداد، ممن يخاطب بالأمير الفاً و مائتين من أهل بيته آل مزيد، و عشيرته بني أسد و غيرهم فغدا الأمير المرويّ عنه هذا الحديث يومئذ في جملة، جنده و أحد من وقع عليه هذا الأسم، و دخل في هذه العدة هو و جماعة أهل بيته المسيبون و أمراء عشيرته العباديونو غيرهم من خفاجة و غيرهم من قبائل عقيل و كلاب و نمير و سائر قبائل معد و اليمن، و من الأكراد كآل ورام و آل موسك، و الترك و غيرهم من الأعاجم و من لعل ذكره أغفل يظلهم ذراه، و يغمرهم ندا، تضمهم أنديته و تخفق على رؤوسهم الويته، أذا رأوه غضوا الأبصار هيبة و إعضاما، إن نطق أرمّوأ، إجلالاً و أكراماً كما و صفت من هذه الحال في أبيات من قصيدة نظمتها في مدحه فقالت:

يّرُمُّ أحفل حين يقول عنه ... و قد خَفقتْ لهيبتهِ القلوبُ

كما زأر الهزبرُ فلاذَ منه ... ثعالبُ جُلَ صولتها الغضيبُ

فليسوا بادئي قولٍ و لولا ... تَهللّه لهابوا إن يُجيبوا

يترادفون حوله رجاء فواضله، و يزدحمون على أستلام أنامله و يسارعون الى أمره و يقفون عند نهيه و زجر، لهم فيهم و عليهم حقيقة الملِ، أ مجاز أو توسعاً و بسطة العز و الانعام و البذل طبعاً لا تطبعاً. و كذلك لبس التاج كان أيضاً عادة لهم مستعملة في عصره، طلقة غير محصور، هي متروكة في عصرنا هذ، ي النادر عند ولاية ملك عظيم الشأ، و حدث أمر جليل، و إن كان ذلك فلعلّه يكون مقدار ساعة أو نحو ذلك، بحسب مستمر العادة و متروكه، إن للعادة سلطان تقهر به ما كان بخلافها كنا قال بعض الحكماء كادت العادة إن تكون طبعاً. و قال بعضهم: العدة طبع ثان لها على كل شيء سلطان. فلذلك لا يتتوج في عصرنا هذ، ن قد تتوج في الزمان الخال، وم من أتباعه و أجناده من هو أكبر منهم و أمثل، و كانت الأكاسرة يتوجون ومرازبتهم و غيرهم من وفود الناس، ويلبسونهم التيجان مع الحلل التي كانوا يكسونهم.

هوذ الحنفي

فما روي في مثل ذلك أن هوذة بن علي بن ثمامة بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عبد العزى بن سحيم بن مرّة بن الدول، ال أبن دريد: هو الدول بالضم بن حنيفة أثال بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائ، كان ذا شرف و مكانة في قومه مر به رسل لكسرى بلطائم له فكتب لهم على سهم هوذة و جاء رسل الملك فاخذوا ذلك السهم فجاوزا به في العرب.

و سئل أبو عبيدة عن ذلك كيف كان؟ فقال: كانوا بين رجل قد أتخذ هوذة عنده يدا، و رجل آخر يرجوه أو رجل من عشيرت، ذكر الرسل ذلك لكسر، أستقدم هوذة و كان ذا جمال و عقل و فصاحة، فلما قدم عليه أعجبه شخصه و حادثه فاعجبه محاورته فقال له: كم لك من الولد؟ قال: عشرة، قال: أيهم أحب اليك؟ قال: أصغرهم حتى يكبر و غائبهم حتى يعود و مريضهم حتى يبرأ. فأحسن قوله، و قال له: ما قوتك في أرضك؟ قال: الخبز، قال: صدقت هذا عقل الخبز. و قيل إنه قال لجليائه بالفارسية هذا فضل الحنطة على غيره، م شرفه و كساه و وصله و وهب له قباء كان عليه مخوصاً بالذهب منظوماً باللؤلؤ و توج، في مدح هوذة يقول الأعشى:

من ير هوذة يسجد غير مُتئب اذا تعمم فوق التاج أو وضعاً

و فيه يقول أيضاً من كلمة له أخرى بل عدا هذا في قريض غيره:

و أذكر فتى سهل الخليقة أروعاً

ذا التاجِ هوذة أنه من يلقه يسجد و إنْ كان الأعزّ الأمنعا

و أنما كان هوذة رجلاً من أشراف قومه لم يبلغ من الأمور ما يستحق لأجله أن يلبس تاجاً و لا يجوز له ذلك ولا لمثله لولا العادة. ثم في مسألة كسى له عن قوته في أرضه ما هو دليل على أنه شك في أمره هل يقدر على أكل الخبز أم يجتزئ بغيره ما يجتزئه الأعراب عند عدم الخبز من الأقوات كاللبن و اللحم و التمر و النبات فلما أعلمه إن قوته الخبز صدقه و قال لجلسائه ما قا، من كان مشكوكاً في أمره هل يقدر على أكل الخبز أم لا؟ فليس للبس التاج باهلٍ و إنه عن ذلك لفي شغلٍ لولا عادة الوقت. فهذا مما روى إنه ممن" تتوج و مدح بذل، أذا سمع بذكر تاجه و أنشد مديحه من لا يعلم حقيقة حاله و صورتها، ظنّ إن كان ملكاً، على إن بعض الرواة دفع ذلك و قال: أنما كانت خرزات له تَعمّم علها فمدح بذلك على مذهب الشعراء في التوسع في القول، و تجاوزهم الحد في المدح و الصفات و الهجاء و التشبيه و غير ذلك من كل معنى.

قوس حاجب بن زرارة و يوم بئر معونه

و وفد حاجب بن زارة بن عُدس بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن زيد مَناة بن تميم على كسر، قد قحطت مضر بما كان من دعوة رسول الله عليهم حين تواترت أذيّتهم له و قتلوا المسلمين رضي الله عنهم ببئر معونة، و هي بين أرض بني عامر و حرة بني سليم كلا البلدين منها قري، هي الى حرة بني سليم أقرب، لأن ملاعب الأسنة أبابراء عامر بن مالك الجعفري قدم على رسول الله و روي إنه أهدى اليه فردّ عليه هديته و قال: اني لا أقبل هدية مشرك"، و دعاه الى الإسلام فلم يسلم و لم يبعد. و قال: لو بعثت رجالاً من أصحابك الى أهل نجد يدعونهم الى أمرك رجوت إن يستجيبوا. فقال: اني أخشى عليهم أهل نجد". قال: فانا جار له، بعث معهم جماعة من أصحابه فيهم المنذر بن عمرو -المُعنق للموت- و الحارث بن الصمّة و حزام بن ملحان أخو بني عدي بن النجّا، عروة بن أسماء بن الصّلت السلمي، و نافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي، و عامر بن فُهيرة مولى أبي بك، ي أربعين رجلاً من خيار المسلمين فاستنفر عليهم أبن أخيه عامر بن الطفيل قومه من بني عامر فابوا عليه و قالوا لا نخفر أبا فاستنفر عليهم سليماً، و ذكر لهم قتل بن أخيهم طُعيمة الأعرج بن عديّ بن نوفل بن عبد منا، هو أحد من قتل من مشركي قريش يوم بدر. فكانت أمه فاخته بنت عباس بن عامر السلمي ثم الرعلي أخت أنس بن عباس، فروى قوم إن علياً عليه السلام قتله و سموه فيمن سمو من قتلى المشركين الذين قتلهم علي عليه السلام يومئذ. و ذكر الزبير بن بكار في بعض رواياته: إن علياً عليه السلام سئل فقيل له يا أمير المؤمنين، هل فررت قط؟ قال: لا الا أنني رأيت طعيمة يوم بدر قد على كثيباً و قد سواه سعد بن خيثم، لم أته حتى قتل سعداً

رضي الله عن، أني لمبارز أصمد له فلما رآني أصعد الكثيب اليه أنحط ال، كان رجلاً جسيم فخشيت إن يعلو علَي، فانحططت الي السهل فظن أني فررت، نادى باعلى صوته فرّ علي بن أبي طالب، فقلت: قريباً مفر أبن الشتراء، و هو مثل تضربه العرب، فلما أستوت قدماي في الأرض وقفت له فانحدر علَي و أهويت له فسمعت قائلاً يقول من خلفي: طأطئ رأس، أطئ رأس، جعل، أسي في صدر طعيم، أذا برقة سيف فاخذت قحف رأسه فسقط ميتاً فالتفت فاذا عمي حمزة عله السلام.

فنفرت مع عامر بن الطفيل من قبائل سُليم: رعلٌ و ذكوان و عصيةً و معهم القارة فقتلوهم ببئر معون، لا كعب بن زيد أخو بني دينار بن النجا، ترك و به رم، قيل الا عشرة منهم. و أطلق عامر بن الطفيل عمرو بن أمية الضمر، جز ناصيت، أعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم، لما دفنوا لم يوجد جسد عامر بن فُهيرة رحمه الله فكانوا يرون إن الملائكة دفنته.

و روي إن رسول الله قال لعامر بن الطفيل لما قدم عليه: من الرجل الذي رأيته لنا قتل رفع بين السماء و الأرض حتى رأيت السماء دونه ثم وضع؟" قال: هو عامر بن فهيرة.

و روي إن قاتله هو سُلمى بن مالك الأحرم بن جعفر بن كلاب، ال لما طعنه قال: فزت و رب الكعبة.

و قال أنس بن عباس السُلمي خال طعيمة بن عدي و قتل يومئذ نافع بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعي، و كان طعيمة يكنى أبا الريان.

تركت أبن ورقاء الخزاعي ثاوياً بمعترك تسفي عليه الأعاصرُ

ذكرت أبا الريان لما رأيته و أيقنت أنيَّ يوم ذلك ثائرُ

و قال حسان بن ثابت الأنصاري، يغري ربيعة بن ملاعب الأسنة و أعمامه بعامر بن الطفيل:

بني أمّ البنين الم يَرُعكمْ و أنتم من ذوائبِ أهلِ نجدِ

تهكم عامرٍ بابي بُراءِ ليغفره و ما خطأ كَعْمدِ

الا أبلغ ربيعة ذا المساعي فما أحدثت في الحدثان بَعْدي

ابوك أبو الحروب أبو براء و خالك ماجدٌ حكم بن سَعْدِ

و أم البنين التي ذكرها: هي أبنة عمرو فارس الضحيا العامر، حدى المنجبات. ولدت أبا براء عامراً ملاعب الأسنة هذا المذكور و طفيلاً أبا عامر بن الطفيل، و معاوية معود الحكام بن مالك بن جعفر بن كلاب. فلما قتلوا المسلمين دعا رسول الله فقال فيما روي و الله أعلم الهم أشدد وطأتك على مضر و أبعث عليهم سنين كسني يوسف" و قنت عيهم أربعين يوم في كل صلاة يدعو عليهم فتوالى عليهم

الجدب سبع سنين حتى هلكوا و أكلوا الوبر بالدم فسموه العلهز. ثم جاءته وفودهم فقالوا: يا محمد هلك قومك فأدع الله لهم، و روي و الله سبحانه أعلم إن في ذلك الجدب نزلت: يوم تأتي السماء بدخانٍ مُبين" فجمع حاجب قومه في تلك المجاعة فقال لهم: أني قد أزمعت إن أتي الملك يعني كسرى فاطلب اليه إن ياذن لقومنا إن يكونوا تحت هذا البحر يعني الريف حتى يحيوا. فروي إنه رحل الى كسرى فلما كان ببابه أستأذن عليه فقال للآذن: قل له أمن سادت العرب أنت أم من أوساطها أم من أدونها؟، فقال للآذن: من أوساطها فقال أئذن له فهذا رجل عاقل. فلما دخل عليه أعاد كسرى عليه السؤال فقال من ساداها أيها الملك فقال له: الم تقل لآذننا أنك من أوساطها، قال: أسعدك الهك بلا قد قلت ذاك له و كنت حينئذ من أوساطها، فلما بلغت مجلس الملك ووطئت بساطه صرت من ساداها. فاستحسن قوله فامر فحشي فمه دراً و شرفه و كساه و أوصله و توّجه، و أجلسه على كرسي ثم سأله عن حاجته، فقال: أسعدك الله إن مضر قومي أجدبت أرضهم فسألوني إن أصير اليك، فأسألك إن تأذن لهم بدخول السواد فيعيشوا برفه شهورا و ينصرفون، قال أنهم قوم يفسدون و يؤذون الرعايا، قال أنا كفيل عنهم بأن لا يفعلوا، قال: إنهم يعصونك، قال: أني لي فيهم شرفاً أنال به السماء و هذا قوسي رهن عندك على ذلك، فضحك منه و قال: أننا لا ندخل مثل هذه العصا خزائننا. و قال بعض من حضر بين يديه هذا رهن لا تبلغ قيمته خمس دراهم، يريد هذا الاعرابي إن يرهنه على ما سقت الفرات هزئا به. قال كسرى: خذوها منه فهو علقل وفيّ. و آذن لهم بدخول السواد فدخلوه شهور ثم قال لهم الحلجب: أنصرفوا من بلاد الرجل، فانصرفوا عنها و أفتخرت بنو دارم بذلك من فعل الحاجب فكان غيرهم يدفع ذلك و يزعم إن حاجباً أنما أتا مرزبانا من مرزابة كسرى. فجرى له ذلك معه، و لم يأتي كسرى نفسه. و في الأفتخار بتاج حاجب يقول الفرزدق:

رأيت مهابةً و رأيت عزاً و تاج الملك يلتهب التهاباً

الحارث الكندي

و حاربت بكر بن وائل المنذر بن ماء السماء، فارسلوا الى الحارث بن عمرو بن حجر الكندي، فجاءوا به اليهم، و ساروا معه الى المنذر، فهرب المنذر عن الحيرة ثم أرسل الى الحارث فصالحه و تزوج أبنته هنداً، فانصرف الحارث عن الحيرة و فارق بكر بن وائل فعقدوا لحارث بن عمرو المزدلف بن أبي ربيعة ذهل بن شيبان على أنفسهم و سموه الملك و توجه و حيوه بتحية الملوك فكان حارث يعرف بذي التاج الى إن حاربهم المنذر فظفر بهم بأواره يوم الوصاف و أسر حارث فقتله و سيأتي حديث مقتله في موضوع

من هذا الكتاب مستوفى.
و دفع أكثر الرواة ذلك و قالوا: لم يتوج معدي قط أنما كانت التيجان في اليمن. و رووا إن الأكاسرة كانوا أذ ولوا ملكا من ال نصر بالحيرة توجوه بتاج قيمته عشرة الاف درهم.

عبد الله بن أبي الخزرجي

و روى أسحاق صاحب المغازي إن رسول الله كان من غزاة بني المصطلح من خزاعة، فازدحم الناس على الماء فاقتتل جهجاء بن سعد الغفاري، و كان أجيراً لعمر بن الخطاب و سنان بن زيد الأنصاري فنادى سنان: يا معشر الأنصار. و نادى جهجاة: يا معشر المهاجرين. قال و زيد بن الأرقم في نفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي الخزرجي فلما سمعها عبد الله قال: قد ثاورونا في بلادنا و الله أنا و قريش كما قال القائل سمن كلبك يأكلك و الله لأن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل. ثم أقبل إلى من عنده من قومه فقال: هذا ما صنعتم بانفسكم أحللتموه قاسمتموه أموالكم أما و الله لو خففتم عنهم لتحولوا عنكم. فسمعها زيد بن الأرقم و هو غليم فأتى بها رسول الله و عنده عمر بن الخطاب فقال: مرّ عباد بن بشر فليضرب عنقه. فقال رسول الله : كيف أذ تحدث الناس إن محمد يقتل أصحابه، و لكن ناد يا عمر بالرحيل"، و بلغ ذلك عبد الله بن أبيّ فاتى رسول الله يحلف إنه ما قال. و كان عند قومه بمكان فقالوا: يا رسول الله عسى إن يكون هذا الغلام أوهم و لم يتثبت ما قاله الرجل. و راح رسول الله مهجراً في ساعة كان لا يروح في مثلها فلقيه أسيد بن حضير فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال: أما و الله لقد رحلت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها. فقال : ما بلغك ما قاله صاحبك أبن أبي زعم إنه أذا قدم المدينة سيخرج الاعز منها الأذل" قال: فانت و الله يا رسول الله العزيز و هو الذليل. ثم قال يا رسول الله أرفق به فوالله أقد جاء بك الله و إنا لننظم له الخرز لنتوجه به فأنه يرى أن قد سلبته ملكاً.

عثمان بن الحويرث

و أخبرنا محمد بن هبة الله بن جعفر إجازة عن محمد بن الحسن الجعفري عن علي بن الحسين بن محمد بن عمران بن موسى المزرباني عن أحمد بن سليم الطوسي عن الزبير بن بكار عن علي بن صالح عن عامر أبن صالح عن هشام أبن عروة عن الزبير أبن العوام عن أبيه عروة أبن الزبير: أن عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي رأى حاجة قريش الى بلاد قيصر و متجرهم اليها فخرج الى قيصر فذكر له مكة و رغبه بها و قال يكون زيادة في ملكك كما ملك كسرى صنعاء فكتب له كتاب الى قريش بالملك. و

في بعض الروايات و ختم الكتاب بذهب و حمله على بغلة بسرج مذهب فأتى قريش فقال: يا قوم قد علمتم أمانكم ببلاد قيصر و ما تصيبون بها من التجارة في كنفه و قد ملكني عليكم و إن أبن عمكم و أنما أخذ من أحدكم الجراب من القرط و العكة من السمن و الاهاب فاجمع ذلك له و بعثه به اليه و أنا أخف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا فيه و ينقطع مرفقكم منه. فخافوا قيصر و أخذ بقلوبهم ما ذكره من متجرهم فاجمعوا إن يعقدوا على رأسه التاج عشية و فارقوه على ذلك فصاح أبن عمه أبو زمعة الاسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى أبن قصي و قريش على أحفل ما كانت عليه من الطواف: يا عبد الله أملك بتهامة الا إن قريشاً لقاح لا تملك. فنحاشوا أنحياش حمر الوحش و أتسقوا على قوله و قالوا و اللات و العزى لقد صدق ما كان ملك قط فانتقضت قريش عن ذلك و لحق عثمان بقيصر و كان بالشام قوم من قريش تجاراً فكلموا أبن جفنه ملك غسان و سألوه أفساد أمر عثمان عند قيصر فكتب الى ترجمان قيصر بان يغير كلام عثمان عند فلما دخل عليه جعل يكلمه فيقول للترجمان ما يقول فيقول هو مجنون يشتم الملك فاراد قتله ثم أمر فدفع الى رجل من أصحابه من نصارى العرب فانشد الرجل:

اتتنا قريش حافلين بجمعهم و كان لهم في أول الدهر ناصر

فقال له عثمان أني أرى لسانك فصيحاً فممن أنت؟ قال: أنا رجل من بني أسد بن خزيمة وانا أكره إن يعرفوا نسبي فقال له عثمان: يا أبن عم ما الذي دهاني عنده قال: الترجمان قال: فكيف أحيله في إن تدخلني عليه و خلاك ذم قال: أفعل فاحتال له حتى رده الى قيصر في مجلس له مشرف ينظر الى الناس فاوقفه بحيث يراه فجعل عثمان يتكلم رافعاً صوته و يشير الى قيصر فقال قيصر: إنه له شأناً فاحضره عنده فتعلق بالترجمان و تشبث به فدعا قيصر ترجمان غيره و كلمه و أفهمه قصته فعاقب الاول و كتب لعثمان الى أبن جفنه بان يحبس له من أراد حبسه من تجار قريش بالشام فوجد أبا أحيحة سعيد بن العاص الاموي و أبا ذئب هشام بن شعبة العامري أحمد بن عامر بن لؤي بن غالب فحبسهما فطال حبسهما و تلحت قريش عليهما فقال أبو أحيحة الابي ذئب:

قومي و قومك يا هشامُ قد أجمعوا تركي و تركك أخر الاعصار

و مات أبو ذئب في الحبس و سم أبن جفنة عثمان بن الحويرث فنات أيضاً بالشام فطلب بنو عامر بن لؤي بن أسد بن عبد العزى بدية أبي ذئب و قالوا: إن صاحبكم عثمان بن الحويرث كان السبب في حبس صاحبنا حتى هلك و كانت قريش تسمي عثمان بن الحويرث البطريق هذا السبب: و المقصود

بايراد هذا الحديث و الذي تقدمه ذكر ما هممت به قريش من تتويج عثمان بن الحويرث بمكة و الاوس و الخزرج من تتويج عبد الله بن أبي بالمدينة.

ابو أحيحة سعد بن العاص

و أبو أحيحة هذا الذي حبسه أبن جفنه و هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف و كان من أشراف قريش. و قد روي في حبسه وجه غير هذا. قيل إنه ورد الشام في جماعة من قريش في تجارة و فيهم يوم أذ عمر بن الخطاب و كان زنباع بن روح الجذامي و هو أبو روح بن زنباعه بن روح صاحب عبد الملك بن مروان عاشراً لابن جفنة بالشام و كان يأخذون شيئاً ممن يكون مع التجار من الذهب فأن أخفوه عنهم ثم علموا به أخذوه مستهلكاً فعهد القريشيون الى ما كان معهم من الذهب فجمعوه و القموه ناقة من أبلهم الا أبا أحيحه فانه دفن ما كان معه و قعد في الموضع. و طلب زمباع بن روح العاشر في متاعهم ذهباُ فلم يجده فقال: ركب من قريش يأتون الشام تجاراً ليس معهم ذهب! هذا ما لا يكون ثم نظر الى ناقة ملتوية من أبلهم فقال حقي في بطن هذه الناقة و أمر بنحرها فقالوا: أتنحر ناقتنا فقال: نعم فان لم أجد في بطنها شيئاً غرمتها لكم بناقة خير منها و نحرها و أخذ ما كان في بطنها و أحتفر الموضع الذي قعد فيه أبو أحيحه فأخذ ما وجد فيه و أخذ أبو أحيحة فحبسة فارسل الى قومه أن أفدوني فجمعوا مالاً ليفتدوه فقال أبو عمرو بن أمية أو أحد ولده أنكم زوجتم بهذا المال عدةً من فتيانكم بعدة من فتياتكم لاوشك أن تروا فيكم جماعة مثل أبي أحيحة فقبلوا رأيه و تركوه و إن نفراً من قريش قدموا الشام فارس اليهم أبو أحيحة ليقوموا في أمره ففعلوا و كلموا أبن جفنة في أمره و قالوا ما تريد الى هذا الشيخ و أفتدوه منه بقلائص كانت معهم و عرف أبو أحيحة ما كان من قول أبي عمر بن أمية فقال يعاتب قومه:

أ أطعتم لعبدَ أبن تز نا أذ يقول ذروا سعيداً
فلامدحن الوافدين مديحة تنمي صعودا
خبرتها فتخالها حسناً على قومي برودا

و هي لبيات وانما قال أبن تزن الان أمية أبن عبد شمس بن عبد مناف كان قد شرف في قومه الى أن سام عمه هاشماً أن ينافره فابا عليه و قال كيف أنافرك و أنت بعض ولدي فلزمه و أكله بلسانه فنافره على أن للنفار على صاحبه شروطا منها: إن ياخذ منه مائة من الابل وينفيه مدة عشرة سنين عن الحرم. فتنافروا

الى كاهن غساني كان بعسفان قرابة سطيح فنفره هاشم فأخذ المائة من الابل فنحرها و أطعمها الناس في مكة و قال الشاعر في ذلك:

و برَّزَ في فضله هاشم ففات الكرامَ أبو نضله

يكبّ العشار الاذقانها و يطعم في السنة المَحْله

فكان بالاردن فتزوج أمرأة بها يهودية أسمها تزان يقال أنها أم أبنه أبي عمرو.

هذا في رواية و في رواية أخرى إن أم أبي عمرو أمية أمام بنت حميرى بن الحارث بن جابر بن الاسود بن عمرو ذي الطوق الملك بن عدي بن النصر اللخميني و الله سبحانه أعلم. و روي إن حرب بن أمية أعجب بنفسه فسام عبد المطلب بن هاشم إن ينافره فابى عليه فوقع فيه فغاضة فنافره على خمسين من الابل تنحر للناس بمكة و عشر للحكم و تنافرا الى نفيل بن عبد العزى العدوي جد عمر بن الخطاب فنفره عبد المطلب فقال شاعر في حرب:

يا حرب قد جاريت غير مغمّرٍ سبوقاً الى الغايات طلاع أنجد

و من قبل ما أردى أمية هاشم فاورده عمرو على شر موردِ

و كان هاشم يسمى عمرو العلي و أوعد حرب نفيلاً و كاد إن يقع بين بني عبد شمس و بني عدي في ذلك شر.

رجعنا الى الحديث و روي إن أمير المؤمنين عمر لقي زمباع الجذامي في أيام أمارته لمكة فوضع يده على كتفه و قال: اليس أبوك فعل بنا في الشام ما فعل. أما و الله يا عدي نفسه لولا الاسلام فقال له و الله يا أمير المؤمنين لولى الاسلام ما وضعت يدك مني بحيث وضعتها. و كان أبو أحيحة هذا الذي ذكرناه حديثه يتعمم فسمته قريش ذا التاج. قال خالد بن زيد بن معاوية في أبنته أمامة بنت أبي أحيحة و كانت بارعة الجمال و كانت أمها من بنات عثمان:

حصان أبوها ذو العصابة و أبنه و عثمان ما أكفؤها بكثير

فأن حزتها ثم الخلافة بعدها تحز خير علقي منير و سرير

و كان خالد بن زيد قوي الطمع بالخلافة و لم يكن ينكح الا الى أشراف قريش ففيه يقول الشاعر مخاطباً عبد الملك بن مروان كالمغري له به:

عليك أمير المؤمنين بخالدٍ ففي خالدٍ عما تريد صدود

اذا ما نظرنا في مناكح خالدٍ عرفنا الذي ينوي و أين يريد

فهذا الرجل من أشراف قومه كان يتعمم فسموه ذا التاج و ذا العصابة و ذكروه في أشعارهم فاذا سمع ذاك من لا يعلم الحقيقة ضنه من ذوي التيجان.

مالك بن عوف النصري

و أدعوا لمالك بن عوف النصري أحد بني يربوع بن وائمة بن دهمان بن نصر بن معاويه بن بكر بن هوازن و كان قبل أسلامه قائد هوازن و من معهم من المشركين يوم حنين إنه صاحب تاج فقالوا فيه:

اذكر مسيرهم للناس أذ أجمعوا و مالكٌ فوقه الرايات تخفق

ومالك مالكٌ ما فوقه أحد من الانام عليه التاج يتالق

و أنما كان مالك رجلا من أشراف قومه قدموه يومئذ على أنفسهم تيمناً به و كان من عادة العرب إن يقدموا من يتيمنون به. و إن كان فيهم من هو أشرف منه.

الشريد عمرو بن رباح السمي

و روي إن سليماً توجت الشريد و هو عمرو بن رباح بن يقظ بن عصية بن خفاف بن أمرئ القيس بن بهثه بن سليم بن منصور. فكان يعرف فيهم بذي التاج. ثم أدعوا ذلك لاهل الاسلام و مدحوهم به و هم لا يرون لبس الخاتم من الذهب فكيف التاج؟

علي رضي الله عنه و الأشعث

روى نصر بن مزاحم التميمي ثم المنقري عن محمد بن عبيد الله الجرجاني قال: لما بويع لعلي عليه السلام و كتب الى العمال كتب الى الاشعث بن قيس مع زياد بن كعب بن مرحب الهمداني و الاشعث على أذربيجان عاملاً لعثمان و قد كان عمرو بن عثمان تزوج أبنة الاشعث قبل ذلك فكان كتابه اليه: أما بعد فلولا هناتٍ كن منك كنت المقدم في هذا الامر من قبل الناس و لعل أمرك يحمل بعضه بعضاً إن أتقيت الله ثم إنه قد كان من بيعة الناس أياي ما قد بلغك و كان طلحة و الزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي على غير حدث و أخرجا أم المؤمنين و سارا الى البصرة فسرت اليهما و التقينا فدعوتهم الى أن يرجعوا الى ما خرجوا منه فابلغت في الدعاء و أحببت البقية و لله المن. و أعلم إن عملك ليس لك بطعمة و لكنه أمانة في يديك مال من مال الله و أنت خزان الله عليه حتى تسلمه الي و لعلي أن لا أكون شر و لا تك

لك إن أستقمت و لا قوى الا بالله". فلما قرأ الكتاب قام زياد فحمد الله و أثنى عليه. و قال: أيها الناس إن من لم يكفه القليل لم يكفه الكثير إن أمر عثمان لا ينفع فيه العيان و الا يشفي من الخبر غير إن من سمع به ليس كمن عاينه إن الناس بايعوا علياً راضين به و إن طلحه و الزبير نقضا بيعته على غير حدث ثم أذنا بحرب و أخرجنا أم المؤمنين فسار اليهما و لم يقاتلهم و في نفسه منهم حاجة فاورثه الله الارض و جعل العاقبة للمتقين. ثم قام الاشعث بن قيس فحمد الله و أثنى عليه و قال: أيها الناس إن أمير المؤمنين عثمان ولاني أذربيجان فهلك و هي في يدي و قد بايع الناس علياً و طاعتنا له على ما كانت لعثمان و قد كان من أمره و أمر طلحة و الزبير ما بلغكم و على المأمون على ما غاب عنا و عنكم من ذلك. فلما أتى منزله دعا أصحابه و أهل ثقته فقال: إن كتاب علي قد أوحشني و هو آخذي بمال أذربيجان و أنا الاحق بمعاوية. فقال له القوم: الموت خير لك من ذلك أ تدع مصرك و جماعة قومك و تكون ذنباً لاهل الشام فاستحى فسار حتى قدم على علي عليه السلام و قال السكوني و قد خاف أن يلحق بمعاوية:

أ أعيذك الله الذي هو مالك — بمعاذة الاباء و الاجداد
مما يضن بك الرجال و أنما — ساموك خطة معشر أو غاد
إن أذربيجان التي فارقتها — ليست بحظك فاشرها ببلاد
كانت بلاد خليفة ولاكها — وقضاء ربك رائح أو غاد
فدع البلاد فليس فيها رغبة — لبلاد غيرك و أشرها ببلاد
و الحق بمصرك إنه لك واسع — ضربت عليك الارض بالاسداد
و أدفع بمالك دون نفسك أننا — بادوك بالاموال و الاولاد
انت الذي تثني الخناصر باسمه — وبكبش كندة يستهل النادي
و معصب بالتاج مفرق رأسه — ملك لعمرك راسخ الاوتاد
واطع زياد إنه لك ناصحٌ — و الرشد في قول النصيح زياد
و أنظر علياً إنه لك جنة — ترشد و يهدك للسعادة هاد

و كان مما كتبه الى الاشعث أيضاً:

ابلغ الاشعث المعصب بالتا — ج غلاماً حتى علاه القتير
يا أبن ال المرار من قبل الا — مي و قيس أبوك غيث مطير
قد يصيب الضعيف ما أمر الله — و يخطي المدرب النحرير

قد أتى قبلك الرسول جريراً فتلقاه بالسرور جرير

ويعني جرير بن عبد الله بن البجلي و كان على همذان عاملاً لعثمان فعزله علي منها:

وله الفضل في أجهد و في الهج رة و الدين كل ذاك كثير

إن يكن حظك الذي أنت فيه فقليلٌ من الحظوظ حقيرُ

يا أبن ذي التاج و المعصب من كندة ترضى بان يقال أميرُ

اذربيجان أكلت فذرنها و أبغين الذي اليه تصيرُ

و أقبل اليوم ما يقول علي ليس فيما يقوله تخييرُ

و أرض بالبيعةِ التي ليس للنا س سواها من أمرهم قطميرُ

عمرك اليوم قد كرهت علياً و هل لهذا الذي كرهت نظيرُ

و في الحديث زيادة على ما أوردناه و شعر قاله الاشعث في طاعته لعلي عليه السلام و يمدحه فيه و يذكر فضله تركنا ذكره أختصاراً و أقتصرنا على ما حصل به الاستشهاد. و في غير رواية نصر إن الاشعث لما قدم على علي عليه السلام و جد في نفله مائة الف فأخذها فقال الاشعث: أنها مالي قال و من أين؟ قال: طيبه لي المسلمون و سلمه لي عثمان فقال علي عليه السلام: خذ منها ثلاثين الفاً قال لا تكفيني فقال لست بزائدك و أيم الله ما أظنها تحل لك و لو تركتها لكان خير لك و لو أستيقنت ذلك ما أنقلبت به من عندي فخذ من جذع ما أعطاك. فمدح الشاعران الاشعث بلبس التاج و ذكر أحدهما إنه معصب به مذ كان غلاماً الى إن علاه القتير. و الأشعث من وفود سنة عشر فيها وفد على رسول الله ثم كان بعد ذلك فيمن أرتد من ملوك كندة فسير اليهم أبو بكر المهاجر أبن أبي أمية بن المغيرة المخزومي أخي أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها و معه زيد بن لبيد و معهما بنو قتيرة وهم قوم من كندة أقاموا على الاسلام فلم يرتدوا فاتوهم و قد تحصنوا بالنجير و هو حصن باليمن فحصرهم فيه فبات صارخ لهم يصرخ في رأس النجير:

صباح سوء لبني قتيرة و للامير من بني المغيرة

فواطأ الاشعث المسلمين و دلهم على عورة النجير على إن يحملوه أسيراً الى أبي بكر فاستنزلوهم فقتلوهم و بعثو به في الحديد مع سبي النجير الى أبي بكر و ذلك في سنة أثنتي عشرة فراجع الاسلام عفا عنه و زوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة و كانت أم فروة من قبل عند تميم بن أوس الداري من بني عبد الدار بن هانيء بن نمارة بن لخم ثم طلقها تميم فتزوجها أبو أميمة الازدي من بني الصقب فولدت له جارية

أسماها أميمة ثم تزوجها الاشعث بن قيس فولدت له محمداً و قيل إن الاشعث لما قدم به عليه قال له يا عدو الله ما الذي تامرني إن أصنع بك قال: تعف عني و تزوجني أم فروة فاني قد أسلمت و رجعت ففعل. و قيل إنه لما تزوجها خرج بسيفه فلم يجد شيئاً من الانعام الاعقره و قال للناس أنحروا و كلوا و أرضى أصحاب ذلك جميعاً بما أحبوا من الاثمان فقيل وليمة الاشعث. و كان الذين قتلوا بالنجير من ملوك كندة مشرحاً و محوشاً و جمداً و أبضعه و بني معد يكرب بن وليعة بن شرحبيل بن معاوية مقطع النجد بن الحارث بن عمرو بن معاوية بن الحارث الاكبر بن معاوية بن ثور بن مرتع و أسم مرتع عمرو بن معاوية بن كندة و قال رجل من المسلمين:

نحن قتلنا الملوك الاربعة مشرحاً و محوشاً و جمداً و أبضعه

و محوش بن معد يكرب بن وليعة أحد هؤلاء الاربعة القتلى و هو جد علي أبن عبد الله بن العباس عليهم السلام الامه و هي زرعة بنت مشرح و لهذا منعته كندة عام الحرة بالمدينة و أجاروه على مسلم بن عقبة المرى الذي يدعى مسرفاً لما سامه إن يبايع على إنه عبد قن ليزيد بن معاوية كما بايع أهل المدينة و قالوا: لا يبايع أبن أختنا الا على ما بايع عليه أبن عمه علي بن الحسين عليهما السلام على إنه أبن عم كريم و كان يزيد قد أمر مسلم بن عقبة بان يقنع من علي بن الحسين عليهما السلام بذلك و كانت كندة معظم الجيش فخاف مسلم فسادهم عليه فاجابهم الى ذلك و قال علي عليه السلام يذكر ذلك:

ابي العباس قرم بني قصي و أخوالي الملوك بني وليعه
هم حاطوا ذيماري يوم جاءت كتائب مسرفٍ و بنوا اللكيعة
أرادوا بي التي لا عز فيها و حالت دونهم أيدٍ منيعة

و أمتدت أيام الاشعث في الاسلام و شهد مع علي عليه السلام صفين و أبلى في تلك الحرب خصوص يوم وقعة الماء فانه أبلى يومئذ بلاء حسناً.

و روي إنه يومئذ كان يضع رمحه بين الصفين و يقول لاصحابه: بابي أنتم و أمي فقدموا قاب رمحي فاذا صاروا عند السنان رفعه فوضعه و قال لهم مثل ذلك فلم يزل يفعل ذاك حتى أنكشف أهل الشام و فيه يقول رجل من اليمن يمدحه لفعله:

كشف الاشعث عنا كربة الموت عيانا
بعد إن طارت حصاناً طيرة مست كلانا
اذ حمى القوم حماهم حين لم يحم حمانا
فدعا الاشعث رهطاً من معد و دعانا

فنهضنا نهضة الاسد فلم نبغ سوانا

يذرع الارض برمح قابه كان خطانا

فمنحنا القوم في الهي جا ضرابا و طعانا

ساعة ثم تولوا و حوى الاشعث مانا

فله المن علينا و به دارت رحانا

من رآه و رآنا حسب المرء أيانا

و كان بعد ذلك قد أتهم في أمر الحكمين فبعد الاسلام و الجهاد و وقوفه مثل هذا الموقف مدحوه بأنه معصب بالتاج الى إن علاه القتير.

اخبار الحجاج بن يوسف الثقفي

و روي إن الحجاج بن يوسف كان يحب إن يتزوج من بيوتات العرب فكان فيمن تزوج من بنات الاشراف أم سلمة بنت عبد الرحمن بن عمرو العامري عامر قريش فما يؤثر عنه و ستطرف و يتعجب منه إنه كتب الى الوليد بن عبد الملك: أني نكحت أم سلمة بنت عبد الرحمن فوجدتها كان النساء شققن شقاً و ثقبت ثقبا و خفضن خفضا و رفعت رفعا فنزلت عنها لامير المؤمنين فهو أحق بها و طلقها. فلما حلت تزوجها الوليد فلما الم بها طلب منها حيث يطلب من النساء فخفض فقالت: لا تخفض يا أمير المؤمنين و أرفع عودك الخفض الاماء الرضع فقال: أني لم أذهب هناك. ثم تزوجها بعده أخوه سليمان ثم أخوه هشام و كانوا يقدمونها. و كان الناس يقتربون الى الحجاج فدله محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة الدارمي على هند بنت أسماء بن خارجة بن حصين بن حذيفة بن بدر الفزاري و وصفها له و قال: تزوجها أيها الامير فانها في بيت قيس فدعا أباها و أجلسه في موضع من داره و بعث اليه يخطبها فاعتل عليه و قال: أيها الامير أنها طفلة قال قد رضيت قال: فهي خرقاء قال: قد رضيت و لم يزل به حتى زوجه فلما أهداها اليه عرف إنه أتي في ذلك من قبل محمد بن عمير فتركه مديدة ثم دخل على الحجاج فقال: أيها الامير الا تزوجت فلانه بنت محمد بن عمير و كانت أبنته هند حاضرة فقال له أتقول هذا و هند تسمع فقال: نعم أنت أكرم علي منها فقال: و هل له بنت؟ قال: نعم و وصفها له و رغبه فيها و قال: تزوجها فانها في بيت تميم. فدعا الحجاج محمد بن عمير و أرسله مع أسماء و غيره

يخطب اليه فاعتل فلم يقبل عذره و ضايقه حتى عقد له عقد النكاح فلما خرجا أستوقف أسماء محمد في الدهليز و دفع في صدره و قال له:

جزيتك ما أسديته يا أبن حاجب جزاءً كنقر الديك أو قدر الشبر
بقولك للحجاج إن كنت ناكحاً فلا تدع هنداً من بنات بني بدر
فان أبها لا يرى إن واحداً بكفو لها إلا المتوج من فهر
فزوجتها الحجاج لا متكارها و لا راغبا عنه و نعم أخو الصهر
اتيت سروري أذ أردت مساءتي و قد يحسن الانسان من حيث لا يدري
فان كان ذا عار فقد جئت مثله و إن كان ذا فخرا فلا تتركن شكري

مذهب العرب في أبس التاج

فاشار الى إن الخليفة متوج فادعوا في شعارهم لبس التاج لقوم لم يلبسوه ثم تجاوزوا الى وصف المعدوم الذي لم يكن له حقيقة بصفات الموجود المشاهد كدعوى الفرزدق إن تاج قومه يلتهب التهابا و دعوى الاخر إن تاج مالك بن عوف النصري يأتلق أئتلاقا. و كأنهم قالوا: إن غير شيء يلتهب لحسنه التهابا و يأتلق أئتلاقا ثم أدعوا ذلك للخلفاء الذين لا يستجيزون و لا يستحلونه بل يرونه في دينهم بدعة و على شرفهم منقصة و يرون أعاظم من كان يلبس التيجان على الحقيقة من ملوك العجم و غيرهم من سائر الامم غير مقارب لهم في شرفهم و لا لاحق بدرجتهم لما فضلهم الله تعالى به و شرفهم بمكانه من الاسلام الذي تضعضع شرف كل شريف خالفه و ذل كل عزيز جانبه فلهم إن يأنفوا بان ينسب اليهم مثل ذلك و لذلك أنتهر عبد الملك بن مروان بن عبد الله بن قيس الرقيات حين أنشده في مديحه له:

يتألق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

و قال له أتقول في مصعب.

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

و تمدحي بما تمدح الاعاجم و هذا مشهور من مذهب الشعراء حتى إن البحتري بالامس مدح المعتز رضي الله عنه بلبس التاج فقال:

كأنما التاج على رأسه قد حف بالياقوت و الدر

كواكب الفضة في أفقها جاءت فحفت غرة البدر

و مدح المهتدي رضي الله عنه ينفي ذلك عنه فقال:

لسجادة السجاد أحسن منظرا من التاج في أحجاره و أيقادها

و أمثال ذلك من أقوال الشعراء لا تحصى لانهم أنما يتبعون أهوائهم غير أنهم أعينوا على ذلك باللغة العربية التي خصت بخلال أفضل كلها من الفصاحة و البلاغة و الايضاح و الابانة و العذوبة في الاسماع و الحلاوة في القلوب و القبول في النفس التي ليس لغيرها من سائر اللغات مثله ولا ما يدانيه و نظموا فيه الشعر الفصيح بالوزن الصحيح و كلامهم رائق عذب يغتفر له كل ذنب.

و قال بعض العلماء للعرب توسع في لغاتهم و أشارة الى إرادتها و صنفوا في ذلك كتبا و أقاموا عليه أدله حسنة و أوردوا لهم فيه حججاً واضحة و أشارتهم فيما ذكروه من ذلك كله الى شرف الممدوحين و ذلك مسلم اليهم و مطلق لهم و مرخص لهم فيه مع العلم بان أكثر ما ذكروه باطل و معظمه ما حل و مذهب الشعراء معروف و الكذب منهم مألوف و تجاوزهم الحد فيه المديح و الهجاء و التشبيه و الرثاء و غير ذلك من الصفات معلوم و قيل: أكذب من مادح أو نائح.

فقد تركوا ذلك كله يقولون منه ما شاءوا أو يتصرفوا فيه على ما أحبوا و علينا أستحسان ذلك منهم و الاعتراف لهم بالفضل في فصاحتهم و بلاغتهم و الاقرار بأنا لا ندانيهم فيه و ليس علينا أن نجعله حجة قاطعة و لا بينة قاهرة على ما أدعوه و لا نلتزمه لهم على الحقيقة و لانقطع بصحة ما ذكروه فيه و لو التزمنا لكل ما أدعي له إنه كان ملكاً و ذكر الشعراء إنه كان متوجاً لعلو المنزله و عظم الشأن بمجرد الاسم و شواهد الشعر خاصة من غير كشف لاحوالهم و لا فحص عن أمورهم و لا أستيضاح لسيرهم و أقدارهم للزمنا أن نسوي في المنزلة بين كسرى و السمؤل و قيص و أكيدر دومة الجندل و بين أمرئ القيس الشاعر و تبع و فرعون و يحيى بن أخطب رأس اليهود بخيبر لاشتراكهم جميعاً في مجرد الاسم و هذا غاية الجهل فعدلنا عن ذلك الى النظر فيما دلت عليه الاخبار و نقله الرواة. و تضمنته السير من أحاديثهم و أخبارهم و أحوالهم الدالة على أقدارهم لنستدل بذلك على حقائق منازلهم و حد ملكهم و قدر أتساع ممالكهم و ما طالت اليه أيديهم من قهر أعدائهم لنطلع بالخبر المأثور على حقائق الامور.

ملوك آل نصر في حيره

و لم يكن من ملوك العرب بعد التبيعة، فانهم نالوا من العز مبلغاً أستحقوا به التسمية بالملك رفع قدراً و أبقى على الالسنة ذكر من آل نصر ملوك الرب بالعراق خصوصاً النعمان الاصغر بن المنذر الاصغر فانه

كان أخر أهل بيته زماناً و أقربهم عهداً و أنبههم ذكراً و أخفهم على الالسنة أسماً حتى إنه ربما نسب ليه من الافعال ما فعله غيره من أبائه و أهل بيته لخفة أسمه و قرب عهده و سرعة الألسنة الى ذكره فحظه في ذلك كحظ أنوشروان من بين الاكاسرة تسبق الالسنة على الاكثر الى ذكره إلا لمن يتأمل و يتفهم.
قال أبو عبيدة كل ملك عند العرب النعمان و قال بعض الرواة أدركت أهل الحيرة و هم يعلمون صبيانهم في الكتاتيب أسماء ملوك آل نصر و سيرهم و أخبارهم و أحاديثهم كما يعلمونهم غير ذلك من أنواع العلم. و الروايات مختلفة في عدة من ملك منهم بالعراق يدل بعضها على أن عدتهم عشرون ملكا، و يدل بعضها على أن عدتهم ثمانية عشر ملكا، و الاصح، و الأصح أن عدتهم عشرون. و قد أختلف أيضاً في أسمائهم، و ترتيب ملكهم أختلافاً كثير، و نسب الفعل الواحد إلى الواحد و الاثنين منهم لبعد العهد و كثرة الاختلاف في الروايات، و أشبه ما رأيت ترتيب ملكهم بالصحيح هذا الترتيب.
فأول من ملك منهم

تفرق الأزد

مالك بن فَهم بن غانم و قيل غنم بن دوس الأزدى، و هو أبو جذيمة الأبرش و في نسبه خلف سيأتي ذكره من بعد. و روي في سبب ملكه أن قومه كانوا ممن خرج من أرض اليمن، لما خرجت الازد، و تفرقت في البلاد حين أرسل عليهم سيل العرم، و العرم سد كان لهم ببلاد مأرب و هي أرض سبأ بين جبلين تحصر عليهم الماء في أوان السيل، فيسقون به جنتين كانتا لهم، و قيل هو السكر و قيل كان مسناة، و المعنى في الجميع واحد، فكفروا بنعمة الله عز و جل، فأرسل عليهم جرذا فاخربه، فروي أن الجرذ كان يقلب برجليه من أحجار السد، الحجر الذي لا يطيقه خمسون رجلا، و كان ملكهم عمرو بن عامر بن حارثة بن أمرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الازد. و كان أخوه عمران كاهنا فعاش فيما قيل أربع مائة و خمسين سنة، فلما حضرته الوفاة دعا أخاه عمراً هذا الملك. و قد أتت عليه مائتان و خمس و سبعون سنة. فقال له: إني ميت، وان بلادك ستخرب و يتمزق أهلها، و أني رأيت أمرأة من قومك من حجور- و هو بطن من حضرموت - تتعرض للكهانة، و سينفذ قولها من بعدي، فتزوجها و أحذر أن تفوتك. ففعل عمرو ذلك و تزوجها و كان أسمها طريفة بنت الخير، و قيل إنها التي حنكت سطحيا الكاهن الديني، فكانت أحيانا تخرج الى الحدائق متنزهة، فخرجت و معها وصائف لها، فرأت ثلاث مناجد، و المناجد دواب كاليرابيعلا عيون لهن، منتصبات و أيديهن على مواضع عيونهن، ثم ولّين و جعلن يشخبن بأبوالهن، ثم مرت بخليج يسقي حديقة، و قد وثبت منه سلحفاة، فوقعت على التراب على

ظهرها، و هي تريد الانقلاب و لا تقدر، و كلما أضطربت حثت التراب على رأسها و بطنها، ثم رأت شجر الحديقة يضطرب و يتكفأ في ساعة لا ريح فيها، فاتت بعلها عمرا الملك، فأخبرته بخراب السد و تفرق الأزد إشارة و لحناً. فقال: بيني ما تقولين، و كان عنده قينات له، فقالت: الزهر ذو الوان، و الصمت خير من البيان. فصرف القينات عنه، و قال: ما هذا يا بنت الخير؟ فقالت: أخبرتني الناجد بسنين الشدائد، يقطع فيها الولد حق الوالد، و بأمور جسيمة، و رزية عظيمة، الويل الويل من ذهاب السيل، و تفرق الاحباب و الخيل و الركاب، من أجل فيض منساب. قال: و متى يكون ذلك؟ قالت: فيما بينك و بين سبع سنين، و إن كنت لا أبيت ليلة إلا و أنا أظن أن السد هالك فيها. فارسل عمرو إلى أهل مأرب و من حولهم: إني متخذ وليمة يوم كذا، فاحضروني و سمى لهم يوماً، فحضروه لم يتخلف عنه أحد، و نحر مائة من الابل، و أتخذ طعاماً كثيرا، و قال لابنه ثعلبة وكان أكبر ولده" كن قريباً مني، و نازعني بعض القول، و مهما نالك اليوم مني من القول أو فعل فلينلني منك مثله، فلما أكل الناس و شربوا، نازعه قولا فزاد فيه، فشتمه، فرد عليه، فلطمه فوثب به و لطمه، فصاح واذلاه!! يوم فخري و مجدي يلطم وجهي! فوثب الناس الى ثعلبة فأخذوه و قالوا أقتله أيها الملك، قال: لا، و لكني سأحرمه كل خير مني، ثم حاف لا أقام بأرض لطم فيها، و ليبيعن ماله بمأرب أجمع.

فقال بعض الناس إنه إن تم على قوله ظفرتم بما لا يملك أحد مثله، و إلا رددتم عليه، فكانت يدا لكم عنده، فأشتروا منه ماله عن آخره، و قبض ثمنه و خرب السد، و أصابته سنون مجدبة، يقال" و الله أعلم" أنها السبع الشدائد التي كانت في عهد يوسف عليه السلام فقالت طريفة اليوم أخصكم البيان من كان ذا هم بعيد، و مراد جديد، و حمل شديد، فليلحق بقصر عُمان المشيد، فسار فيهم قوم الى عمان منهم أزد عمان. و من كان يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل، فسار إليها عمرو أبن عامر الملك، فولده بها الأوس الخزرج، و من كان ذا جمل معن و حبل فين و رأي لا يكن، فليلحق بأرض شن فلحق بها قوم منهم، فهم أزد شنوءة، و من كان ذا فاقة و ضر و صبر على أزمات الدهر، فليلحق بالأراك من بطن مر، فاحقت به خزاعة، و من كان يريد خمراً و خميراً، و ذهباً و توفيراً، فليترل بصرى و عويراً، فلحق بها قوم منهم آل جفنة، و من كان معهم بالشام من الأزد. و من كان يريد بلداً عالياً و عيشاً آنياً، و ملكاً دانياً، فليلحق بالشرق معالياً، فلحق قوم منهم بالعراق. ونهم مالك بن فهم و أهل بيته في جماعة من الأزد. فضرب بتفرقهم المثل فقيل تفرقوا أيدي سبأ و أيادي، فصارت مثلاً سائراً. و قص الله قصتهم في كتابه فقال سبحانه: لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةٌ جنتانِ عن يمينٍ وشِمال" الآيات، وذكر الأعشى قصتهم فقال:

و للموت خير لمن ناله إذا المرء أمته لم تدم

و في ذاك للمؤنسي أسوة بمأرب عفى عليها العرم

تفرقا في البلاد و أعترفوا الذل و ذاقوا البأساء و الندما

و بدلوا السدر و الأراك به الخمط و أضحى البنيان منهدما

و قال محمد بن مناذر اليربوعي:

و أذكر الجيش بعد و الحاضي مأرب من دمن سدها المسدود

عَصرَ صار أيدي سبأً سبأً و الدهر دهر له شتاتُ العديدِ

و قال معاوية لرجل منهم أفتخر عنده فأسرف: أنتم قوم ملكتكم أمرأة، وأخرجتكم من أرضكم فارة.

و وافق خروج سبأ عن أرضهم خروج قبائل من ولد أسماعيل عليه السلام من تهامة، فإنهم لما كثروا بها حدثت بينهم أحداث، و أصاب بعضهم في بعض دماً، و لقحت بينهم حروب، فتفرقوا في البلاد، فأتى بعضهم اليمن، و أتى آخرون مشارق الشام، و أقبل بنو الحمق بن عمرو بن قنص بن عدنان، و بنو غطفان بن عمرو بن الطَّميان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفصى بن دعمي بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان، و بنو صبح بن صبح بن الحارث بن أفصى بن دعمي بن إياد بن نزار و بنو زهر بن الحارث بن الشلل بن زهر بن إياد، فنزلوا البحرين، و بها جماعة من الأزد الخارجين من سبأ، و أنضم اليهم مالك و عمرو أبناء فهم، و أبن أخيهما مالك بن زهير بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة في قبائل من قضاعة، و أنضمت إليهم بطون من نمارة بن لخم، فاجتمعت هذه القبائل كلها بالبحرين، و وافق أجتماعها قتل الإسكندر دارا بن ملك فارس، و تفريقه كلمة فارس، و قسمته مملكتهم بين ملوك الطوائف. فأحست هذه القبائل عند أجتماعها بضعف فارس و أضطرب حبلهم، و أختلاف كلمتهم، فاغتنموا الفرصة فيهم، و قالوا نتعاقد و نتوازر على التنوخ في هذه الأرض، و المقام بها، فتحالفوا على ذلك و صاروا يداً واحدة فقيل لهم تنوخ و ضمهم هذا الاسم، فصاروا يعرفون كالقبيلة الواحدة، و إن كانت قبائلهم شتى، و دعوا مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي إلى التنوخ معهم و المقام فيهم، و ملكوه عليهم فقيل ملك تنوخ، فكان مالك بن فهم بن غانم أبن دوس الأزدي أول ملوك العرب بالعراق، و كان يتزل فيما الأنبار.

ثم ملك بعده

أخوه عمرو بن فهم بن غانم بن دوس، فكان ينزل منزل أخيه.

ثم ملك بعده

جذيمة الأبرش

ابن أخيه جذيمة بن مالك، بن فهم بن غانم بن دوس، و كان أعز من أبيه و عمه و أبعد صوتاً، و أذهب شرفاً، و أشهر عند العرب بالتسمية بملك العراق منهما و ربما قيل جذيمة التنوخي، و جذيمة الأزدي، و كان يتكهن و يتنبأ بزعمه، و كان أبرص فسمته العرب الأبرش، و سمته الوضاح كناية عن ذلك. و كان يفخر ببرصه لأن بعض العرب كان يتيمن بالبرص، و كانوا يزعمون أنه لا يكون إلا بالرجل الكريم، و أنشد لبعضهم:

اتشتمني زيدٌ بأن كُنت أبرصاً و كل كريمٍ لا أباً لك أبرصُ

و قال الرجز

يا كأس لا تستنكري حولي و وضحاً أوفى على خُصَيلي

فإنَّ نعت الفرس الرُّجَيل يكمل بالغُرة و التحجيلِ

و روى عن الأخفش أنه قال: رجع أبو العطاف العتري يوماً من عند عمرو بن هداب الملزني مازن تميم، و كان سيد تميم قاطبة في زمانه، و هو يضحك- و كان عمرو بن هداب أبرص- فسئل أبو العطاف عن سبب ضحكه، فقال أتاه اليوم طريف بن سوادة، فأنشده أرجوزة يمدحه بها منها: أبرص فياض اليدين أكلف

و البرص أندى باللهى و أعرف مجلوز في الزحفات مزحف

فصاحت الجماعة به و قالوا: قطع الله لسانك. فقال عمرو: مه! البرص من مفاخر العرب. ا لم تسمعوا قول أبن حبناء:

اني أمرؤ حنظلي حين تنسبني لا ملِعتيك و لا أخوالي الرقُ

لا تحسبنَّ بياضاً فَّي منقصةً إن اللهاميم في أقرابها بُلق

ثم أنشد الأخفش عن أبي نواس لرجل من بني نهشل:

نفرت سودةُ عنّي أن رأت صلع الرأس و بالجلد وضح

قلت يا سودة هذا و الذي يُفرج الكُربة عنا و الكَلح

هو زينٌ لي و في الوجه كما زيّن الضرف تحاسين القرح

و لآخر يا أخت سعدٍ لا تعرِّي بالبهق

ليس يغني الطرف و توليع البلق اذا جرى في حلبة الخيل سبق

و قيل لبلعاء بن قيس لما شاع في جلده البرص ما هذا؟ فقال: سيف الله جلاه.

و جذيمة هو صاحب الندمانين اللذين يضرب المثل بهما، فيقال كندماي جذيمة. و قد أختلف فيهما، فقيل إنه كان لا ينادمه أحد ذهاباً بنفسه و ضناً بها، و كبراً عن الناس، و يزعم أن الفرقدين نديماه. فكان إذا شرب قدحاص صب لهما قدحين، و قيل بل هما مالك و عقيل أبنا فارج بن مالك بن كعب بن القين بن خسر بن سبع الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وأن سبب منادمتهما إياه: أن الجن كانت قد أستطارت أبن أخته عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، وهو غلام، و كان جذيمة شديد الحب له فضرب له في الأفاق، فلم يظفر به، فيئس منه و حزن عليه و مكث ما شاء الله إن يمكث، ثم إن هذين الرجلين خرجا من أرض قضاعة إلى جذيمة بهدية يريدان أتحافه بها، و معهما قينة لهما يقال لها أم عمرو، فنزلا ببعض الطرق، و أدنت إليهما طعامهما و شرابهما، فدفع إليها غلام شاحب سيء الحال متلبد الشعر، فاستطعمهما فناولته القينة عظماً فالقاه، و أستطعمهما غيره، فقالت يعطى العبد الكراع فيطمع في الذراع، فذهبت

مثلا ثم شربا فاستسقاهما، فقالا: من أنت يا فتى؟ فقال: إن تنكراني أو تنكرا نسبي، فإني عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، و غدا تريان في نمارة غير معصي و عرفهما بنفسه، و قص عليهما قصته، فقالا لا نجد هدية نتحف الملك بها أحسن موقعاً عنده من أبن أخته، فأخذاه فحملاه اليه فسر به أعظم السرور، وأراد إكرامهما، فقال: أحتكما فلكما حكمكما، فاختار منادمته ما بقي و بقيا، فكانا نديميه، و هذا الوجه الصحيح لا ما ذكر أولا، قال أبو خراش الهذلي:

لعمرك ما مَلَّت كبيشة طلعتني وأن مقامى عندها لقليل

ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا خليلا صفاء مالك و عقيل

وقال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا

و كنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني و مالكاً لطول أجتماعٍ لم نبت ليلة معا

وكان جذيمة يتزل أطراف العراق بالعمير و القطقطانة و خفيفة و ما بين الحير إلى الانبار و هيت، و ربما

نزل أحياناً يبرين و غيرهما من منازل العرب، و روى أنه عمي في أخر عمره، و قتلته نائلة بنت عمرو بن ظرب الملكة المعروفة بالزباء و سيأتي حديث مقتله.

ثم الملك بعده

عمرو بن عدي

ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، و هو عمرو ذو الطوق، أمه رقاش بنت مالك و قيل لميس بنت مالك أخت جذيمة، و كان سبب تزويج أبيه عدي بن نصر بها فيما روي: أنها رأته فهويته، فارسلت اليه أن أخطبني اليه تعني أخاها جذيمة، فقال لا أجتريء عليه، وأخاف أن أغضبه. فقالت: لا، إن لك حسبا و موضعا، فإذا جلس على شرابه، فاسقه صرفا و أسق ندماء مزاجا، فاذا أخذت الخمرة منه، فأخطبني اليه فلن يدرك، ففعل ذلك، و خطبها اليه فظفر منه ببعض القول، و قام فدخل بها من تحت ليلته، وأصبح مضرجا بالخلوق، فقال له جذيمة: ما هذه الآثار يا عدي؟ فقال آثار عرس رقاش، قال و من زوجكها؟ قال: الملك، فسأل ندماه فاخبروه فصك وجه بيده و أكب على الأرض ندماً وقيل إنه قتل عديا و قيل بل خافه فهرب منه على فوره لما رأى من ندامته فلحق بإياد و كان فيهم الى إن هلك و أشتملت رقاش من عدي على حمل فقال لها جذيمة:

خبريني رقاشُ لا تكذبي أبحُرٍّ زنيت أم بهجين
أم بعبد فأنت أهل لعبدٍ أم بدونٍ فأنت أهل لدونِ

فقالت مجيبة له:

انت زوجتني على غير أذني و أتاني النساء للتزيين
ذاك من شربك المدامة صرفاً و تماديت في الصرف و الجنونِ

ثم قالت: أنت زوجتني أمرءٍ أعرابياً حسيباً و لم تستأذني في نفسي فامسك.

ثم وضعت أبناً فسمته عمراً و القي عليه محبة من جذيمة و قربه و رباه فكان له كالولد ثم أستطارته الجن و كان من حديثه و عوده اليه ما تقدم ذكره. فلما سار جذيمة الى الزباء الملكة ليتزوجها أستخلف أبن أخته عمر هذا على ملكه و ضم اليه عمرو بن عبد الجن الجرمي فلما قتلت الزباء جذيمة و عاد صاحبه قيصر بن سعد و هو الذي كان نماه عن أتيانها بالخبر تنازع العمران الملك فسفر بينهما قيصر الى إن أصلح بينهما و أنقاد عمرو بن عبد الجن لعمرو بن عدي و تركه و الملك فملك عمرو بن عدي ملك خاله جذيمة الابرش و قال في طاعة عمرو بن عبد الجن له:

دعوت أبن عبد الجن للسلم بعدما تتابع في غرب السفاه و كسما

فلما أرعوى عن صدنا باعترامه مرت هواه مري أم أو أبن ما

فقال عمرو بن عبد الجن مجيبا له:

اما و دماء مائراتٌ كأنها على قلة العزى أو النسر عندما

و ما قدس الرهبان في كل بيعةٍ أبيل الأبيلين المسيح بن مريما

لقد ذاق منا عامر يوم لعلعٍ حسام أذا ما هز بالكف صما

قال الطبري: هكذا وجد الشعر غير تام. و كان تقديره بعد القسم إن يكون لقد كان كذا أو لولا كذا الا إنه لم يظفر له بتمام على ما ذكر. فاستقام لعمرو بن عدي أمره و ملك ملك خله جذيمة الأبرش و قتل زباء الملكة قاتلة و سيأتي حديث مقتلها.

و هو أول من أتخذ الحيرة منزلاً و سكنها بعد إن كانت خراباً لم تسكن من عهد بخت نصر و كان في أول ملكه لا يدين لاحد من ملوك الكوائف للحال التي كانوا عليها من الضعف فلما أجتمعت كلمة فارس و طاعتها لأردشير بن بابك و أنقادوا له و ظهر على ملوك زمانه و تسمى بشاهنشاه خافته العرب فخرجت قبائل من تنوخ عن أرض العراق الى أرض قضاعة و غيرها و لم يجد عمرو بن عدي بدا من طاعته أو التروح عن أرض العراق فأطاعه و دان له فاستعمله على العرب و أمره إن يسكن الحيرة فسكنها و سكنها بعض العرب معه و أبتنوا بها المنازل و سكنوا الجدار وكره الباقون إن يسكنوه و كانوا على عادتهم يسكنون المظال وبيوت الشعر و ينتزلون أطراف العراق و ما بين الحيرة و الأنبار.

و أمد أردشير عمراً بالجنود و قواه فتجاوز حد خاله جذيمة و من تقدمه في الملك. و قيل إنه ملك مائة و عشرون سنة منها في أيام ملوك الطوائف و أرادون الأشغاني خمسا و تسعين سنة يحكم نفسه ثم عمل لاردشير مدة ملكه و كانت مدة ملك أردشير خمس عشر سنة ثم هلك أردشير.

سابور بن أردشير

و ملك بعده أبنه سابور بن أردشير الذي يقال له سابور الجنود فأقر عمراً على عمله عشر سنين أو نحوها و هلك عمر في أيام سابور فاستعمل سابور مكانه أمرأ القيس بن عمرو و لم يزل ولد عمرو مع ولد أردشير الأكاسره عمالا لهم الى إن قتل أبرويز بن هرمز بن أنوشروان النعمان الأصغر بن المنذر الأصغر و هو أخرهم.

على إنه تخلل ملكهم ملك غيرهم نادرا لمن كانت الأكاسرة تستعمله من غير بيتهم عند أمور كانت تعرض فتقتضي ذلك فعمرو بن عدي بن نصر و ولده ملوك آل نصر قال الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة:

و ما إن خلتكم من آل نصر ملوكاً و الملوك لهم علاءُ

و لا العنقاء ثعلبة بن عمرو دماء القوم للكلبي شفاء

و قال رجل من بني نهشل:

الا أيهذا المؤتلي إن نهشلا عصوا قبل ما آليت ملك بني نصر

و قال مضرس بن ربيعة الأسدي:

لقد كان من نصر و غسان أسوة و من قبل ذلك من ملوك و من أمم

ثم ملك بعده.

أمرؤ القيس بن عمرو

ابنه أمرؤ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر و هو أمرؤ لبقيس الأول. و روي إنه يقال له البدن و قيل إنه أنما سمي بذلك لعظم خلقه و قيل بل كان لادمانه لبس الدروع و البدن من أسماء الدروع.

امه ماوية بنت عمرو بنت مالك الغساني و هو أول من أقطعته ملوك الفرس منهم و شرفوه و توجه طالت مدة ملكه أيضاً فقيل إنه ملك مائة و أربعة عشر سنة لان سابور بن أردشير أستعمله بعد هلاك أبيه عمرو فعمل لسابور بقية أيام ملكه و لستة من ملوك الفرس بعده و هو الذي صنف أهل الحيرة و جعل لهم مراتب أحتذاء بفعل الأكاسرة في ترتيب جنودهم و تصنيفهم و أسمائهم أسماء ما زالوا يعرفون بها في عصره و عصر من بعده من الملوك الى إن أنقرض الملك بالحيرة.

اهل الرفادة

فسمى قوم منهم أهل الرفادة و هم فيما روي أهل بيته الأقربون اليه فبهذا الاسم كانوا يعرفون أهل بيت الملك و العرش و العرافي و هم الذين كانوا يكونون على المقدمة في الحروب المغازي و الارداف و هم عرفاء الجنود و زعمؤهم و قوادهم و أزمتهم.

الجمار

و الجمار و يقال الجمرات و قيل بل هم قوم من لخم خاصة دون غيرهم سمى منهم بني أريش بن أراش بن جزيلة بن لخم و قيل بل هم من قبائل شتى من لخم و غيرها و سمي منهم بنو سلسلة من جعفي و بنو ماوية من كلب و قوم من بني سلامان بن ثعل بن طي .

و الصنائع و هم قوم من شذاذ الأحياء و خلعاهم كانوا يصيبون الدماء و يجنون الجنايات على قومهم فيخلعونهم فيلجأون الى الحيرة فيصطنعهم الملك و يجيرهم و يامنون عنده و يشهدون معه حروبه و مغازيه قال زيد بن الصعق:

تركت أخا النعمان يوسف عاتيا و جدعّن أجناد الملوك الصنائعا

و قال جرير:

حمينا يوم ذي نجب حمانا و أحرزنا الصنائع و النهابا

و قد قيل الذين كانوا يعرفون بالصنائع بالحيرة من بكر بن وائل ثم من اللهازم من بني عبد القيس و تيم اللات أبني ثعلبة بن عكانة كانوا يصحبون الملوك و كان الأول أشبه بالصحيح.

الوضائع

الوضائع و هم أساورة من الفرس كان كسرى يضعهم عند الملك بالحيرة مددا له مزاحة عللهم فبهم كانت قوة ملوك الحيرة على العرب و بهم كانوا يقهرون أهل الحيرة حتى تستقيم لهم طاعتهم و كانت عدتهم الف أساور و كانت نوبتهم حولا كامل فكلما أنقضا الحول جهز كسرى غيرهم فوضعهم عند الملك بالحيرة و عاد الذين قضوا نوبتهم الى باب كسرى فلذلك سموا الوضائع.

الرهائن

و الرهائن و هم غلمان كان الملك بالحيرة ياخذهم رهان من أحياء العرب على الطاعة و على إن لا يفسدوا في بلاد كسرى و لا يغيروا على أطرافها و على ما كان يجري بينه و بينهم من صلح أو ميثاق على أمر من الامور فيكونون عنده و يصحبونه الى سراياه و مغازيه قال الأعشى في مدح النعمان:

له قبة مضروبة بفنائها عتاق الهاري و الجياد الصوافن

اذا صرفت أبوابها خضعت لها رقاب معد دنيها و الرهائن

و قيل إن عدة الرهائن كانت بما بلغت خمس مائة غلام و كانت نوبتهم ستة أشهر ثم يرهن غيرهم و ينصرف الذين قضوا نوبتهم الى أهليهم.

العباد

و العباد و هم معظم أهل الحيرة و جلّهم و أشرافهم و أهل البيوتات و العز منهم و هم أصحاب الحيرة و يقال لهم الحيرة الاولى و من كان بها من غيرهم فإنما كان ضميمة اليهم و أسمهم هذا غلب على أسم من سواهم من أهل الحيرة من أصحاب الاسماء المذكورة و غيرها فاهل الحيرة باسرهم يعرفون بالعباد غلبي هذا الاسم عليهم حتى صار كالنسب لهم و أقتنعوا به عن الانتساب الى عشائرهم و عرفت به أعقابهم من بعدهم في الاسلام.

و أختلف في معنى هذا الاسم و سببه فقيل أنما سموا به لانهم كانوا أهل الفصاحة من النصارى الذين للغتهم فضل على غيرها من السرياني كفضل لغة العرب البادي على لغة من يسكن المدر و بهم كان يقتدي من سواهم من أهل نحلتهم.

و قيل بل سموا بذلك لان شعارهم كان نحن عباد الله و أنشد لبعضهم:

نحن العباد و ربنا الرحمن و له علينا الطوع و الاذعان

و قيل بل نسبوا بذلك الى أب لهم و ليس هذا الوجه بشيء لانهم من قبائل شتى من عدنان و قحطان.

و قيل بل كانوا يعبدون صنما لهم يقال له سبد فقيل لهم عباد سبد و لزمهم هذا الاسم قال رجل من بني ربي منم نمارة من لخم جنى جناية في قومه فخلعوه فلجأ الى الحيرة:

أرى سيفي نفاني من دياري و الجأني الى سبل المخافه

و الحقني العباد عباد سبدٍ بلا نسب هناك و لا صرفه

و قيل أنهم أنما سموا بهذا الاسم لنهم أول من سكن الحيرة مع عمرو بن عدي و أختطوا بها المنازل و بنوا بها الجدر و دانوا لاردشير بن بابك فسموا بذلك الباد و صارت الدار لهم و كل من جاء بعدهم فأنه أنما لجأ اليهم.

و قد ذكر الطبري هذا الوجه و يقويه أيضاً إنه روي إن عمرو بن أمرؤ القيس الملك لما ملك أدخل في العباد أهل بيوتات من ربيعة و مضر و أياد لم يكونوا منهم من قليل و هذا مما يدل على إن أسم العباد أنما وقع على من كان بالحيرة أولاً.

الأحلف

و الأحلاف و هم قوم لحقوا بالعباد بعد نزولهم الحيرة فحالفوهم و أنضموا اليهم و دخلوا معهم في أمرهم و هم من أحياء كثيرة سمي منهم بني لحيان من بن الحارث بن كعب و قوم من غسان و بنوا مرينا و هم من أشرافهم و نسبهم في جعفى منهم عدي بن أوس بن مرينا الذي كان عدي بن زيد العبادي عند النعمان الأصغر حتى قتله و منهم قوم من عبد القيس بن أفصى و من الأوس بن عمرو بن عامر و بنو حيّة من طيء و هم رهط أياس بن قبيصة الذي أستعمله كسرى بالحيرة بعد النعمان الأصغر. و من حنيفة بن لخم و من نمير بن عامر و أه بيت من أسيد بن خزيمة يقال لهم بنو شجرة و قيل إنه دخل فيهم قوم من بني قريش من ولد عبد الله الأعرج بن عبد شمس بن عبد مناف يقال لهم بني العميني و قريش تنكر ذلك و يقولون إن عبد الله الأعرج لم يعقب.

و قيل إن أسم الأحلاف بالحيرة كان يجمع قوما من أربعة عشر حياً. ثم جعل أهل الحيرة كلهم ثلاث كتائب تجمع هذه الأسماء كلها و تسمى كل كتيب أسماً لم تزل تعرف به الى آخر أيام ملوك الحيرة.

أحدها دوسر و يقال لها دوسرة و هي كتيبة كانت تجمع فرسانها و شجعانها و ذوي النجدة النتخبين منهم.

و الشهباء و قيل هي التي كان يكون فيها أهل بيت الملك و أنما سميت بذلك لأنهم كانوا يسمون الأشاهب لجمالهم و صباحتهم و قيل بل هي كتيبة الفرس الذين كانوا يسمون الوضائع سميت بذلك لبياض الوانهم.

الملحاء

و الملحاء و قيل إنه سميت بذلك لكثرت لبوس الحديد فيها و الأملح ما أشبه لونه الرماد من بياض يشوبه سواد أو سواد يشوبه بياض قال جرير:

ابا مالك مالت برأسك نشوة و عردت أذ كبش الكتيبة أملح

و ذكر الطبري إنه لم يكن الا كتيبتان: الشهباء و دوسر و قال أنهما معا من الفرس كانت الأكاسرة تقوي ملوك العرب بهما. و كانت هذه الكتائب ربما أجتمعت مع جنود الملك في غزو الحي الواحد من أحياء العرب فقهروا الحي مر و قهرهم مراراً و ربما تكافؤا و أحاديثهم في ذلك مشهورة و أخبارهم مأثورة. و هلك أمرؤ القيس هذا في زمن سابور ذي الأكتاف.

ثم ملك بعده

عمرو بن أمرؤ القيس

ابنه عمرو بن أمرؤ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر و هو عمرو بن عدي بن نصر و هو عمرو الثاني أمه هند بنت كعب بن عمرو بن مالك الغساني و هي بنت خال أبيه و هو الذي أدخل في العباد بيوتات من ربيعة و مضر و أياد لم يكونوا منهم من قبل على ما تقدم ذكره و كان ملكه في زمن سابور ذي الأكتاف و أبنه سابور بن أرشدير المخلوع و قيل إنه ملك ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده

أوس بن قلام

اوي بن قلام بن بطينا و قيل بطينان بن جمهر و قيل بن جماهر بن لحيان من بني الحارث بن كعب بن مذحج وقيل إنه من بقايا العمالقة من ولد فاران بن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام. و كان ملكه في أيام أردشير المخلوع بن سابور ذي الأكتاف. و روي إن مدة ملكه كانت ثلاث سنين ثم قتله رجل من لخم يقال له جحجبا بن عتيك. و في الرواة من زعم إنه لم يكن ملكا وانما كان مستخلفا الى إن يرتأي كسرى فيمن يوليه.

ثم ملك بعده

امرؤ القيس الثاني

ثم ملك بعده أمرؤ القيس بن عمرو بن أمرؤ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر و هو أمرؤ القيس الثاني و قيل أسمه المنذر أمه ماوية البرحة بنت عمرو الغساني أخت ثعلبة بن عمرو. و في الرواة من زعم إنه هو الذي كان يقال له البدن و هو محرق الأول و قيل إنه سمي بذلك إنه أذا حارب ملكا و ضفر به وسم وجهه بالنار ففيه يقول الشاعر:

و سمت وجوه للملوك كريمةً و أورثتها ذلا من الخزي باقيا
فكيف أبيت اللعنة خزيا كسوتها و كانت وجوه لا تقرب المخازيا

و فيه يقول الأسود بن يعفر:

ماذا أؤمل بعد آل محرقٍ تركوا منازلهم و بعد أياد

و كان ملكه زمن أردشير المخلوع بن سابور و في أيام زجرد الأثيم هلك.

ثم ملك بعده أبنه

النعمان بن أمرؤ القيس

النعمان بن أمرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر أمه الهيجمانة بنت سلول من مراد وقيل من أياد و قيل بل أمه هند بنت زيد مناة بن غسان و قيل بل أمه الشقيقة بنت أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان فلذلك قيل له النعمان بن الشقيقة و كان ولده من بعده أيضا يقال لهم بنو الشقيقة و هو النعمان الاكبر و هو فارس يوم حليمة. كان أعور و هو الذي ساح و ترك ملكه. و كان ملكه في أيام يزد جرد الاثيم و بهرام جور بن يزد جرد. و هو الذي أمره يزد جرد لاثيم ببناء الخورنق منزلاً لابنه بهرام جور فبناه له ثم سلمه ليه فتولى حضانته و تربيته و قيل إن يزد جرد الاثيم أنما أخرج ولده بهرام جور الى النعمان و كفله تربيته لانه كان لا يعيش له ولد فوصف له طيب ظهر الحيرة و صحة هوائه و قلة الاسقام و الامراض فيه فامر النعمان إن يتولى حضانة بهنام جور و إن يبني له بظهر الحيرة منزلاً فبنى له الخورنق. و قيل إن بانيه كان يسمى سنمار فلما فرغ منه أعطاه عطاء جزيلاً فقال له لو علمت أيها الملك أن تعطيني هذا العطاء لبنيته لك بنياناً من صفته كذا و كذا فقال كأنك لم تناصح في بنائه و أمر به فالقي من أعلاه على أم رأسه فهلك فقيل في المثل جزاه جزاء سنمار فصارت مثلاً و قال بعضهم:

جزاني جزاه الله شر جزائه　　جزاء سنمار و ما كان ذا ذنب

سوى رصه البنيان عشرين حجة　　يعلي عليه بالقراميد و السكب

و قال آخر في رجل عق أباه:

جزا أباه أبا غيلان عن كبر　　ولين عيش كما يجزى سنمار

و قال الكميت بن زيد الاسدي لزيد بن خالد بن عبد الله القسري:

جزاء سنمار جزانا أبن خالد　　بالأتيا من أخريات و من أول

و لم يزل بهرام جور مقيماً بظهر الحيرة الى إن هلك أبو يزد جرد الاثيم فملكت أفرس بعده رجلاً من أهل بيت الملك يقال له كسرى و عدلوا عن بهرام جور بالملك لسوء سيرة كانت من أبيه يزد جرد الاثيم فيهم فانه كان باغياً عاتياً سفاكاًقيل إنه قتل الناس في الارض حتى بانت القلة فيهم جمع النعمان لبهرام جور جماعة كثيرة من العرب و سار بهم حتى نزل المدائن فخرج اليه أكابر الفرس و أعتذروا ليه من عدولهم الملك عنه الى غيره بما كان من جور أبيه عليهم و سوء سيرته فيهم فكلمهم بكلام أستدلوا به على عقله و فضله. و قال لهم: أني كنت أشد كراهية منكم لسوء صنيعه و قبح سيرته و لكم علي إن أستدرك جميع فساد كان منه في سنة واحدة فان لم أفعل فاعزلوني و ولوا من شئتم. فقالوا: فكيف نصنع

بكسرى و قد وليناه؟. فقال لهم فيما ذكره الطبري تجعلون التاج بين أسدين ضاريين فاينا دخل بينهما فاخذه كان الملك له فعرضوا ذلك على كسرى فاجاب اليه ظناً منه إن برهام جور يعجز عنه فلما وضعوا التاج بين الاسدين قال برهام جور لكسرى: دونك التاج فقال: بل أنت تبدأ باخذه لانك الذي أقترحت ذلك. فقام ليأخذه فثار ليه الاسدان فاخذ باذني أحدهما ثم وثب فركبه و ضغط جنبيه برجليه فعجز عن الحركة و تناول أذني الاخر بيده الاخرى و دق هامتها واحدة بواحدة حتى شدخهما جميعاً فماتا و أخذ التاج فلبسه و جلس على السرير فكان كسرى أول من قام فحياه بتحية الملك و أستقر ملك فارس عليه و قد أفتخر أبو نواس بما كان مت نصر النعمان لبهرام جور و ذكره في قصيدته فقال:

و نحن أذ فارس تدفع به رام قسطنا على مرازبها
بالخيل شعثاً على لواحق كالسب دان تعطوا الذي مذاهبها
بالصيد من حمير و من سلفي قح طان و الفخر في مناسبها
حتى دفعنا اليه مملكتاً ينحسر الطرف في مواكبها

و أنصرف النعمان الى الحيرة بعد إن أكرمه بهرام جور و أحسن صلته و زاده على ما كان له لوجوب حقه عليه و موضع تربيته أياه و خدمته و مناصحته له فاقام في ملكه و سكن الخورنق الى إن ساح.

و روي إن السبب كان في سياحته إنه أشرف على الخورنق في يوم من زمان الربيع في عام مخصب غيداق فنظر فاذا الارض كأنها قد كسيت بالثياب الخضر المنقوشه بالوان الزهر و نفحته نفحات من النسيم و قد تأرجت بمرورها على تلك الرياض و نضر الى القرى متسقة و الانهار مطردة و النخيل باسقة و الاشجار مورقة و الانعام رابعة و تأمل مجلسه و ملكه فرأى كل منظر حسن أنيق. و جعل لا ينظر الى شيء فيسأل عنه فيقول لمن هذا إلا قيل لك أبيت العنه فقال لاصحابه: هل رأيتم مثل هذا الملك أو أحسن من هذا المنظر؟ و كان فيهم رجل من بقيا الصالحين فقال له: أيها الملك أنك قد سألت أفتأذن في الجواب؟ فقال نعم. قال: أ رأيت ما أنت فيه من ملكك هذا الذي قد أعجبك هو شيء لم يزل لك أم أنتقل اليك من غيرك؟ قال: بل صار اليّ بعد إن كان لغيري قال: فإنه كما أنتقل إليك عمن كان قبلك ينتقل عنك الى من يكون بعدك و تبقى مرتهناً بعملك ففكر طويلاً ثم قال: صدقت فكيف المهرب و أين المطلب فقال له: إما أن تقيم في ملكك و تعمل فيه بطاعة ربك صابراً على ما أمضك و أرمضك و أما أن تضع تاجك و تترك ملكك و تلبس أمساحك و تعبد ربك حتى يأتيك أجلك. قال: فإذا كان السحر فاقرع عليّ بابي مختاراً أحد الامرين فان أخترت ما أنا فيه كنت وزيراً لا تعصى و إن أخترت خلوات الارض كنت رفيقاً لا تخالف. فاتى به في السحر فقرعه فخرج اليه و قد لبس أمساحه فلزما السياحة حتى أتاهما أجلهما

فضرب به المثل و بتزهده و تداول الناس ذكره. و قد ذكر ذلك من أمره كثير من الشعراء و أصحاب السير و تداواه الناس أحاديثهم و من جملة من ذكره في شعره عدي بن زيد العبادي في قصيدته الذي ذكر فيها الملوك حيث يقول:

ايها الشامت المعير بالمو ... ت أ أنت المبرأ الموفور
ام لديك العهد الوثيق من الا ... يام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون جاوزت أم من ... ذا عليه من إن يضام خفير
اين كسرى كسرى الملوك أنو ... شروان أم أين قبله سابور؟

و بنو الاصفر الملوك ملوك ال ... الروم لم يبقى منهم مذكور
و أخو الحضر أذ بناه و إذ دج ... لة تجبى إليه و الخابور
شاده مرمراً و جلله كل ... ساً فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد ال ... ملك عنه فبابه مهجور
و تفكر رب الخورنق إذ أش ... رف يوماً للهدى تفكير
فأرعوى قلبه فقال و ما غب ... طة حي الى ممات يصير
ثم أضحوا كأنهم ورق ج ... ف فالموت به الصّبا و الدبور
ثم بعد الفلاح و الملك و الا ... مة و أرتهم هناك القبور

و كانت مدة ملك النعمان الى إن ساح ثلاثين سنة.

و قيل إن الذي أشار عليه بالدخول في النصرانية أسقف كان بالحيرة أسمه شمعون بن حنظلة من بني لحيان من أهل الحيرة و الله سبحانه أعلم. و قيل إنه رؤي بعد ذلك و قد نحل جسمه و تخدد لحمه من العبادة حتى صار كالشنة البالية.

ثم ملك بعده

المنذر بن النعمان

أبنه المنذر بن النعمان بن أمرؤ القيس بن عمرو بن أمرؤ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر أمه الفارسية بنت مالك بن المنذر من آل نصر و كان ملكه أربعين سنه في زمن بهرام جور و أبنه يزدجر بن بهرام و

أبنه فيروز بن يزدجر جد أنوشروان و في الناس من زعم إنه هو الذي بنى الخورنق لبهرام و تولى حضانته و لعل الاول أصح و الله سبحانه أعلم.
ثم ملك بعده

الاسود بن المنذر

أبنه الاسود بن المنذر بن النعمان بن أمرؤ القيس بن عمر بن أمرؤ القيس بن عمر بن عدي بن نصر أمه الهيجمانه بنت عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان و قيل بل أمه هرة بنت النعمان من آل نصر و قيل إنه ملك عشرين سنة و كان ملكه في زمن فيروز بن يزد جرد و بلاش بن فيروز. ثم نقم عليه فسجنه فبقي في سجن الاكاسر عشرين سنة.
ثم ملك بعده

المنذر بن المنذر

اخوه المنذر بن المنذر بن النعمان بن أمرؤ القيس بن عمرو بن أمرؤ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر أمه أم أخيه الاسود و كان ملكه سبعة سنين في زمن قباذ بن فيروز أبي أنوشروان. ثم ملك بعده

النعمان بن الاسود

بن أخيه النعمان بن الاسود بن المنذر بن النعمان بن أمرؤ القيس بن عمرو بن أمرؤ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر أمه أم مالك بنت عمر بن عمر بن حجر الكندي أخي الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار فكان ملكه الربع سنين في زمن قباذ بن فيروز.
ثم ملك بعده

ابو يعفر بن علقمه

ابو يعفر بن علقمه بن مالك بن عدي بن الذميل بن الثواب بن أشرس من بني ربى بن نمارة بن لخم و أرهطه آل الذميل من أشراف العباد في الحيرة و منهم أبو مليل كان شريفاً في قومه و فيه يقول الشاعر:

اذا جئت العباد تريد خيراً — فلا تعدل بدار بي مليل
تجده خيرهم حسباً و فضلاً — و أمثلهم لمستسقٍ بليل

و كانت مدة ملكه ثلاث سنين في زمن قباذ بن فيروز و قد قيل فيه مثل ما قيل في أوس بن قلام إنه لم يكن ملكاً و إنما كان مستخلفاً الى أن يستقر أمر الملك.

ثم ملك بعده

المنذر بن أمرئ القيس

المنذر بن أمرئ القيس بن النعمان بن أمرئ القيس بن عمرو بن أمرئ القيس بن عدي بن نصر، و هو ذو القرنين و يكنى أبا قابوس و يعرف بالمنذر الاكبر دون من سمى منهم جميعا بالمنذر، أمه ماء السماء النمرية ثم الضحيانية و هي سبية سباها أبوه في بعض غزواته قومها، و كانت بارعة الجمال فقيل هلا ماء السماء و سيأتي ذكر حديثها في هذا الكتاب و قيل له بهذا السبب: المنذر بن ماء السماء. و لما صار الملك اليه خلعه بكر بن وائل لما كان بينهم و بين أبيه من العداوة و أبوا أن يدينوا له، و دعوا الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي فملكوه عليهم، و حاربوا المنذر، فاستمد المنذر ملك فارس الذي كان و ضعه بالحيرة كما جاء في الحديث و هو قُباذ بن فيروز فلم ينجده لاضطراب أمره في تلك الحال بظهور مزدك الخزمي. و قال قوم إن الذي أستمده فلم ينجده أنوشران وذلك خطأ لان أنوشروان كان من أعز ملوك فارس، و أمنعهم جانبا، و أطولهم يدا. و قتل مزدك و صحابه في أيام أبيه ثم في أيامه حتى أفناهم و أستأصلهم. و الاصح إن ذلك كان في أيام قباذ فإنه كان ضعيفاً، فلما تأخر المدد عن المنذر خرج عن الحيرة فاشار عليه سفيان بن مجاشع بن دارم بأن يخطب الى الحارث أبنته و يصاهره و يستكفه، فقال: ليس بفاعل و من لي بذاك؟ فقال سفيان: أنا فلحق بالحارث فخطب أبنته هند للمنذر فزوجه، و أنصرف عن بلاده و عاد المنذر الى الحيرة و أفتخر الفرزدق بذلك:

مّنا الذي جمع الملوك و بينهم حربٌ يشب سعيرها بضرام

فأبت الرواة أن تسمى الحارث في ملوك العراق و ملوك العرب لما كان من تغلبه على الحيرة و على مملكة المنذر. و قالوا: أنما كان سياراً في الارض غوارا على الاحياء لم يقطن بالحيرة، و لا دانت له العرب، و ولدت هند للمنذر بنيه الثلاثة: عمراً ملك بعد أبيه و لا يعرف الا بعمرو بن هند، و قابوس ملك بعد أخيه عمرو، و المنذر بن المنذر ملك بعد أخيه قابوس، و هو المنذر الاصغر أبن المنذر الاكبر، ثم إن المنذر أتى أمامه بنت فلان بن الحارث أخي هند فاعجبته فتزوجها على عمتها هند و قال في ذلك:

كبرت و أدركت بنات أخٍ لها فأزلن أمتها بركض معجل

و ولدت له أمامه أبناً فسماه عمراً أيضاً، فكان يعرف بعمرو بن أمامة كما يعرف أخوه بعمرو بن هند ثم أن بكر بن وائل بعد أنصراف الحارث ملكوا عليهم حارثة بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان و توجوه و حيوه بتحية الملوك، و لم تزل بينهم و بين المنذر الى أن ظهر عليهم بأوارة، فهزمهم و أسر منهم أسرى كثيرة فاقسم ليذبحهم برأس الجبل حتى يبلغ الدم الحضيض و كان ذلك في يوم شديد البرد، فذبح منهم رجالاً فجمدت دماؤهم، فقال مالك و كان بن عامر بن كعب بن سعد بن ضبيعة بن عجل، و كان رضيعه، أنك لو ذبحت الناس جميعاً في هذا اليوم لم يبلغ الدم الحضيض. قال: فما أصنع أصنع أفسد أهلي و مالي؟ قال: لا ولكن أهرق الماء على هذه الدماء ففعل فبلغ الدم الحضيض و سمي مالك بن عامر بهذا القول لوضاف، وسمي ذلك اليوم يوم الوضاف و أنهزم حارثة فدخل على هند بنت الحارث أمرأة المنذر، و كانت أمها من بكر بن وائل فكلمته فيه و قالت هو خالي فضرب عليه قبة فلما جنه الليل أمر بقتله، فسألها أن تستأحله ثلاثاً ليشتري أسرى قومه ففعل، فاشترى حارثة أسرى قومه، و أطلقهم و سباياهم فارسلهن. ثم إن المنذر دعا الكيس النمري فقال له أدخل على حارثة فاقتله، فقال: فلم سمتني أمي أنا الكيس أذاً إن حملت دماء بني شيبان، و لكن عليك بالانواك الشجاع قيس بن زهير بن عقبه بن هلال النمري، دعاه المنذر فأمره بقتل حارثة فقتله، و في رواية أخرى إن الذي أمر بقتل حارثة عمرو بن المنذر الذي هو عمرو بن هند، و أستشهدوا على ذلك بقول الكيس النمري:

دعا لخبائه عمرو بن هند لأضرب رأس حارث بن عمرو
فقاتُ له عليك بمرتقن ولوغ في دماء سراة بكر
فيكفينه قيس بني زهير و رحت و لم أبؤ منه بوترِ

و زعم آخرون إن الذي قتل حارثة، عمرو بن كلثوم بن عتاب بن سعد التغلبي و أستشهدوا على ذلك بقول رجل من تغلب:

واسأل بحارثة بن عمرو أذ ثوى بالقاع بين سنابك و حوامي

و ضرب أبن عتاب بن سعد رأسه بأفل ماضي الشفرتين حسام

ثم إن المنذر غزا الحارث الاعرج بن أبي شمر الغساني ملك الشام، و هو الذي يقال له الحارث الوهاب، وكان فيمن معه شمر بن عمرو الحنفي ثم السحيمي من رهط هوذه بن علي و كانت أم شمر غسانية فلما دنا المنذر من الشام خرج في عسكره فلحق بالحارث فانذر بالمنذر و قال له: قد أتاك في جمع كثير من طمعة الاعراب فضم اليهم مائة رجل ممن يثق به من أصحابه ذوي شجاعة و أقدام و أمر بنته حليمة

فالبسته الاكفان و قلانس الاضريح فسمى ذلك اليوم يوم حليمة قال الحارث لشبر بن عمرو الحنفي: أعلمه أنا معطوه كل ما يريد منا فلينصرف عنا ثم أطلب غرته فافتك به فخرج و معه القوم حتى أتى المنذر فقال له ما قاله الحارث فسكن الى قومه ثم إنه غفل بعض الغفلة فشد عليه فضربه على دماغه فمات مكانه و ثار أصحابه المائة بمن كان حول المنذر فقتلوا منهم رجلاً و نهبوا ما كان في قبته و أنهزم عسكره ففي ذلك يقوا أوس بن حجر:

نبئت إن بني صحيمٍ أدخلوا ابياتهم تامور نفسل المنذرُ

ذكر أبن قتيبة في بعض كتبه إن لبيد بن ربيعه الجعفري الشاعر كان من جملة المائة الذين بعثهم الحارث الاعرج يومئذ بل زعم إنه كان أميرهم و لعمري إن لبيداً عمر عمراً طويلا الا إن هذا القول بعيد من الصحيح لان لبيد بن ربيعة رجز بالربيع بن زياد العبسي عند النعمان بن المنذر الاصغر رجزه المشهور الذي يقول فيه: مهلاً أبيت اللعنَ لا تأكل معه" و هو غلام خماسي أو سداسي حين دخل عليه مع أعمامه فكيف يكون في أيام المنذر الاصغر غلاماً يافعاً و يكون في أيام المنذر الاكبر و هو جد النعمان بحيث يشهد مثل هذه الحرب و هذا الفتك و ذلك خطأ من قائله و لبيد الذي كان في المائة المذكورين هو لبيد أبن أخي الحارث الاعرج الملك الغساني و هو الذي قبل حليمة بنت الملك حين طيبته مع الفتيان يومئذ فشكته الى أبيها فقال: أسكتي فأني أراه سيبلى غداً بلاء حسناً و إنه سيقتل فإن سلم زوجتك به فهو كفؤك فسلم فزوجه بها و لعل لمواطأ الاسميم ظنه الظان لبيد بن ربيعة الجعفري و الذي كان من رجز لبيد بن ربيعه في حال صغر سنه عند النعمان بن الربيع فما لا خلف فيه و حكم أحاديث أبن قتيبة عند أهل العلم و طعنهم فيها معلوم. و قال أبو عبيدة ذلك اليوم هو الذي عناه النابغة بقوله:

تخيرن من أزمان يوم حليمة الى اليوم قد جربن كل التجارب

و كانت مدة ملك المنذر الى إن قتل تسعاً و أربعين سنة في أيام قباذ بن فيروز و أنوشرون بن قباذ. ثم ملك بعده

عمرو بن المنذر

ابنه عمرو بن المنذر بن أمرئ القيس بن عمرو بن أمرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر أمه هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الكندي أكل المرار و بها كان يعرف أبداً يقال عمر بن هند كما غلب على أبيه أسم أمه فقيل المنذر بن ماء السماء و قد عيره طرفة بن العبد البكري بذلك فقال:

انت أبن هند فخبر من أبوك أذا لا يصلح الملك الا كل بذاخ

و هي أبيات هجاه بها سيأتي ذكرها من بعد في هذا الكتاب و كان يكنى بابي المنذر و له يقول طرفة أيضاً:

ابا منذر جازيت بالود سخطةً فماذا جزاء المبغض المتبغض

و يكنا بابي هند أيضاً و له يقول عمرو بن كلثوم التغلبي:

ابا هند فلا تعجل علينا و أنضرنا نخبرك اليقينا

بانا نورد الرايات بيضاً و نصدرهن حمراً قد روينا

و أيام لنا و لكم طوال عصينا أملك فيها إن ندينا

باي مشيئة عمرو بن هند نكون لخلفكم فيها قطينا

و في رواية: تطيع بنا الوشاة وتزدرينا" و قال بعض الرواة: إن هذه الابيات و أمثالها مما فيه غميزة و طعن على عمرو بن هند الحقها عمرو أبن كلثوم في القصيدة بعد قتله أياه و إنه كان أنشده القصيدة في حال حياته و ملكه و هي مقتصرة على الافتخار لا غير حتى أنتهى الى قوله:

فكنا الأيمنين أذا التقينا و كان الايسرين بنو أبينا

فصالوا صولةً فيمن يليهم و صلنا صولةٌ في من يلينا

فآبوا بالنهاب و بالسبايا و أبانا بالملوك مصفدينا

فقال مازلت منصفا في شعرك حتى أستأثرت على بني أبيك باليمين دون الشمال و بأسار الملوك دون السبايا و النهاب و لعل الصحيح ما قالوا في هذا الوجه.

و كان عمرو بن هند شريرا حقودا و كانت العرب تسميه مضرط الحجارة لهيبته و تسميه محرقا أيضا و هو محرق الثاني و أنما سمي بذلك لأن أخاه أسعد بن المنذر كان مستعرضا في بني دارم عند زرارة بن عدس أستعرضه عنده أبوه و ولاه تربيته و حضانته و في ذلك يقول أبو نواس مفتخرا ببني قحطان على بني عدنان:

اذا ما تميمي أتاك مفاخرا فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

تفاخرنا جهلا بظئرِ بنينا ألا إنّما وجه التميميِّ من هضب

فلما أيقع أسعد قتله سويد بن ربيعة بن زيد بن عبد الله بن دارم، و سيأتي ذكر مقتله فأقسم عمرو بن هند -هذا الملك - لقيتلين به منهم مائة و لم يزل يطلبهم حتى ظفر بهم بأوارة فقتل منهم مائة ففي ذلك يقول جرير للفرزدق:

اين الذين بسيفِ عمرٍو قُتِلوا ام أَيْنَ أسعدَ فيكمْ المُسْترضعُ

و قيل بل حرقهم تحريقا، و سيأتي ذكر ما روي في تحريقهم مستوفِيً في موضعه من هذا الكتاب. و عنده كانت حكومة بكر و تغلب يوم قام الحارث بن حلزة اليشكري مغضبا فارتجل قصيدته التي أولها:

آذنتنا ببينها أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يَمَلُّ منه الثَّواءُ

و يقول فيها:

ايها النّاطق المُرقّشُ عنا عند عمرو و ما بذاكَ خَفاءُ

ارتجالا في المجلس، و قيل إنه كان يومئذ شيخاً كبير. فاعتمد على سيّة قوسه فنضمت كفه، و هو لا يحس بذلك لغضبه، و شدة حميته، و روي إنه كان أبرص، و كان عمرو بن هند يكره النظر الى الأبرص، فبسط دونه ملاءة الى إن فرغ من أنشاده.

و قيل إن هذه الحكومة كانت يومئذ بين الحيين في غلام أسمه مريء، أدعاه رجل من بكر يقال له النعمان بن شريك، و قال إن أمه أخذت مني و هي حامل به. و أدعاه رجل من تغلب يقال له معد، و قال هو أبني ولد على فراشي.

و قيل بل كنت الحكومة بين الحيين في الرهائن لأن الملك كان أصلح بين الحيين على أن لا يغزو بعضهم بعضاً، و أخذ من هؤلاء أربعين غلاماً، و من هؤلاء أربعين غلاماً رهائن على ذلك، فكانوا عنده يصحبونه في أسفاره و حروبه، فأصابهم في بعض الطرقات سموم، فمات التغلبيون جميعاً، فطالبت تغلب بكراً بَعَقلِهم، و قالوا: إنما رهنّاهم على صلحكم، و قيل بل نزل الملك بحيٍّ من بكر فضافهم، و الغلمان معه، فقروهم فمات التغلبيون، فاتهمت تغلب بكراً أنهم سموهم، فطالبوهم بعقلهم، ففي ذلك كانت الحكومة بين الحيين عنده، و يومئذ أنشده المرقش قوله:

فنحن أخوالك عمرك الله و الخال له معاظمٌو حُرَمُ

يعني أن ماء السماء أبنة عوف جدته لأبيه منهم.

و خالف بعض الروات في ذلك، و ذكر أن المرقشين معاً كانا قبل عصر عمرو بن هند بدهر طويل، و أنهما ممن شهد حرب الناب بين أبني وائل، و هو صاحب طرفه بن العبد البكري و المتلمس الضبعي، و أسمه جرير بن عبد المسيح، كتب أهما كتابين يأمر فيهما بقتلهما و أوهمهما إنه كتب لهما بصلة، و كان

كتاب طرفه الى الربيع بن حوثرة العبدي عامله بالبحرين، و كتاب المتلمس الى المعكبر مرزبان من الفرس كان يكتف جنات العرب، فيجعل أيديهم تحت أرجلهم، و يضم أرجلهم إلى صدورهم، و كانوا يسمون ذلك العكبرة فسموه المعكبر.

فروى عن المتلمس أنه قال: خرجت أنا و طرفه من الحيرة من عند الملك فلما هبطت أيدي ركابنا النَّجَف، إذا أنا بشيخ قاعد يتبرز و يقصع القمل، و بيده كسرة يأكل منها، فقلت له: ما رأيت قط شيخاً أحمق منك! أتفعل هذا؟ فقال: و ما الذي أنكرت من فعلي؟ أُدخل طيباً و أخرج خبيثاً، و أقتل عدواً، وإنما الآحمق حامل حتفه بيمينه و هو لا يدري ما فيه. فكأنني كنت نائماً فأيقظني، و إذا أنا بغلام من أهل الحيرة من العباد يسقي حرثاً له فقلت له: يا فتى أتقرأ؟ فقال نعم، فناولته الكتاب فقرأه، فإذا فيه: باسمك اللهم، من عمرو بن المنذر الملك الى المكعبر إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس، فاقطع يديه و رجليه و أفنه حياً، فألقى المتلمس الكتاب في النهر و قال:

قَذَفْتُ بها في الثنى من كفِّكافرٍ كذلك أقنو كلِّ قَطٍّ مُضَلِلِ

رضيت لها رأيت مدارها يجول به التيار في كل جدول

و هي أبيات و عاد إلى طرفة فأخبره و حذره و قال له: ويحك أنظر ما في صحيفتك. فقال ما كان يجترئ على قومي. و تم إلى الربيع بن حوثرة و كان له صديقا، فلما نظر في الصحيفة قال: إن فيها قتلك فلا تصبح عندي، فانك إن أصبحت عندي لم يمكني إلا قتلك، فاهمه و قال: إنما تريد أن تغلني صلة الملك، و أبى أن يذهب، فلما قدمه للقتل، قال له: إن كنت فاعلاً فاسقني الخمرة حتى تغلب علي، و أفصد أكحلي ففعل ذلك به فهلك و بلغ الملتمس أمره فقال:

من مبلغ الشعراء عن أخويهم خبراً فتصدقهم بذلك الانفس

أودي الذي علق الصحيفة منهما و نجا حذار حياته الملتمس

ألتقى صحيفته و نجت كورة عنس مداخله الفقارة عرمس

الق الصحيفة لا أبالك إنه يخشى عليك من الحباء النقرس

ثم إن الربيع بن جوثرة ساق عقل طرفه إلى رهطه، و كانوا يعرفون ببني قلابة مع صاحب له، يقال له: معضد، فسلمها الى معبد أخي طرفة فقال الملتمس في ذلك:

أبني قلابة لم تكن عاداتكم أخذ الدنية قبل خطة معضد

لن تغسل السوءات عن أحسابكم نعم الخواثر إذ تساق لمعبد

و بلغ الملك سلامة الملتمس فغاظه ذلك، و طلبه فهرب الى الشام، فحالف لا أكل الملتمس من حب العراق مدة حياته، فقال، الملتمس:

آليت حب العراق الدهر أطعمه و الحب يأكله بالقرية السوس
لم تدر بصرى بما آليت من قسم و لا دمشق أذا ديس الكداديس
حنت الى النخلة القصوى فقلت لها بسل عليك إلا تلك الدهاريس
إن تسلكي سبل البوباة منجدة ما عاش عمرو و ما عمرت قابوس

و قيل إن نذهب الملتمس كان إليه إنه بلغته عنه أنه هجاه فلما هرب منه إلى الشام جعل يهجوه بهجاء كثير موجود في شعره منه يقول:

ا طردتني حذر الهجاء و لا و اللات و الانصاب لا تئل
ورهنتني هنداً و عرضُكَ في صُحف تلوحُ كأنها خَلَلُ
شر الملوك و شرهم حسباً في الناس من علموا و ومن جهلوا
الغدر و الآفات شيمته فاقهم فعرقوبُ له مثل
بئس الفحولة حين حدثهم عرك الهجان و بئس ما بخلوا
أعني الخؤولة و العمومة فهم كالطين ليس لبيته حول

الطين ما جاء به السيل من حضب ضعيف أذا عمل سترة البيت لم يكن لها قوة و لا بقاء.

اما طرفة فاختلف في سبب موجدته عليه.

فقيل إنه كان فيمن خرج عليه مع أخيه عمرو المعروف بعمرو بن أمامه، و قيل بل كان هجاه بهجاءٍ منه قوله:

ابا الجرامق ترجو أن تدين لكم يا أبن الشديخ ضباعاً بين أجباخِ

الجبخ الموضع الذي يعمل فيه النحل العسل من الجبل.

انت أبن هند فاخبر من أبوك أذا لا يصلح الملك الا كل بذاخ
ان قلت نصر فنصر كان شرهم قدماص و أبيضهم سربال طباخ
ما في المعالي لكم ظل و لا ورق و في المخازي لكم أسناخ أسناخِ
إن ذكر المجد لم يذكر قديمكم او ذكر اللؤم فضلتم باشياخ

و منه قوله أيضاً

ابى القلب أن يهوى السدير و أهله و إن قيل عيش بالسدير غزيرُ
به البَقُ و الحُمى و أسدٌ خفيةٌ و عمرو بن هندٍ يعتدي ويجور

و زعم أبن قتيبة إن هذين البيتين لسويد بن حذاق العبدي و ليس ذلك بشيء، و الصحيح إنهما لطرفة لان عمرو بن هند كان قد ضمه الى أخيه قابوس فكان يركب لركوبه، و يترل لتروله، و كان قابوس يتصيد يوماً و يشرب يوماً، فكان يكد طرفة يوم صيده نهاره أجمع في الركض و طلب الصيد، فإذا كان يوم شربه أتى به، فلم يأذن له فيقف ببابه عامة نهاره لا يحضر له طعاماً، و لا شراباً، فهجاهما معاً فقال:

ليت لنا مكان الملك عمرو رغوثاً حول قبتنا تدور

من الزّمرات أسبل قادامها و ضرتها مركنةٌ درور
يشاركنا لنا رخلان فيها و تعلوها الكباش فلا تثور
لعمرك إن قابوس بن هندٍ يخالط ملكه نوك كثير
قسمت الدهر في زمن رخي كذاك الدهر يقصد أو يجور
لنا يوم و للكروان يوم تطير البائسات و لا نطير
فأما يومهن فيوم بؤسٍ تطاردهن بالجدب الصقور
و أما يومنا فنظل ركباً و فوقاً لا نحل و لا نسير

و هجاهما بغير ذلك من الشعر، فخرج عمرو بن هند يوما يتصيد في نفر من أصحابه فيهم عبد عمرو بن بشر بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة البكري، فأصابوا طريدة، فترلوا يجمعون ليشتووا منها، فنظر الملك الى كشح عبد عمرو بن بشر من خرق كان بقميصه، فقال ما كذب عليك طرفة حيث يقول:

و لا خير فيه غير أنّ له غنىً و إن له كشحاً إذا قام أهضما

فقال له عبد عمرو: فإن الذي قال فيك أقبح، قال و ما قال فأنشده الأبيات: ليت لنا مكان الملك عمرو" حتى أتى على آخرها، فقال هذا لعب الصبيان و لم يره أن ذلك أثر عنده و لا أنه أكترث به، و كانت خرنق بنت هفان أخت طرفة لأمه عند عبد عمرو، فكانت فاركاً له فهجته بأبيات في هذا المعنى منها قولها:

ألم تر موروكاً وشى بابن عمه لينضجه في حمي قدرٍ و ما يدري

و قال طرفة في عبد عمرو:

فيا عجبا من عبد عمرو و بغيهِ لقد رام ظلمي عبد عمرو فأنعما

و لم يبلغ طرفة عن عمرو بن هند ما يوحشه، فأتاه على عادته فلم ير عنده ما يكره إلى أن كتب له الصحيفة.

و روي في سبب موجدته عليه و آخر، قيل إنه كان ينادمه و كان جميلا ظريفا حدث السن فهويته أخته فلانة أبنة المنذر و هويها، فلما كان في بعض الأيام جلس معه على شرابه، فأشرفت على المجالس تنظر إلى طرفه، فلما كان الجام بيده لاح له وجهها و شنفاها في صفاء الخمرة فطمح ببصره فرآها فقال:

ألا أيها الريم الذي تلمع شنفاه فلولا الملك الجالس قد الثمني فاه

و يكرر ذلك و الملك لا يعلم معنى قوله و لا ما يريد به، و ظنه شعرا يشدو به على عادة الشرب، الى أن أخذ الجام بيده فلاح له ما لاح لطرفة فطمح بنظره فرآها، فأطرق و لم ير طرفة أنه علم بمراده، و لا فطن لمعنى قوله و أنساه ذلك ثم كتب له الصحيفة الى الربيع بن حوثره و قتله. و كان ملك عمرو بن هند في زمن أنوشروان و قيل إن مدة ملكه كانت ست عشرة سنة ثم قتله عمرو بن كلثوم بن عتاب التغلبي و سياتي ذك مقتله.

ثم ملك بعده

قابوس بن المنذر

اخوه قابوس بن المنذر بن أمرئ القيس بن النعمان بن أمرئ القيس عمرو بن أمرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر أمه هند بنت الحارث أم أخيه عمرو و كان يقال له قينة العرس للين كان فيه و لم يكن بمخنث و كان ملكه في زمن أنشروان أيضاً.

ثم ملك بعده

المنذر الاصغر

اخوه المنذر الاصغر بن المنذر الاكبر بن أمرئ القيس بن النعمان بن أمرئ القيس عمرو بن أمرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر أمه هند بنت الحارث أم أخوته عمرو و قابوس و صاحبه النابغتان الجعدي و

هو عبد الله بن قيس بن جعده بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يكنى أبا ليلى و هو القائل بذكر وصاحبته للمنذر:

تذكرت و الذكرى تهيج الى البكا و من حاجة المحزون إن يتذكرا

ندامي عند المنذر بن محرق ارى اليوم منهم ظاهر الارض مقفرا

نسبة الى جده محرق الاول و أدرك الجعدي الاسلام فاسلم فهو من المخصرمين. روى أبن منيع عن داود أبن رشيد عن يعلى بن الاشدق قال: سمعت النابغة الجعدي يقول أنشدت النبي شعري:

اتيت رسول الله أذ جاء بالهدى و يتلو كتاباً كالمجرة نيرا

فلما أنتهيت الى قولي:

بلغن السماء مجدا و جدودنا و أنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال الى أين المظهر يا أبا ليلى؟ قلت الى الجنة قال أجل إن شاء الله ثم قلت:

فلا خير في حلم أذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

و لا خير في جهل أذا لم يكن له حليمٌ أذا ما أورد القوم أصدرا

فقال رسول الله أجدت لا يضض الله فاك". قال: قال ذلك مرتين. فروي إنه أستكمل مائة و عشرين سنة لم يسقط له سن. و الذبياني و هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان، و هو القائل في مديحه للمنذر هذا

و لكن ما أتاك عن أبن هند من الخبر المبين للتمام

فداء ما تقل النعل مني الى أعلى الذؤابة للهمام

و كان نديمه و شاعره و من أخص العرب به، و لذلك كان مع أبنه النعمان الاصغر من بعده، و كان المنذر ضعيفاً في ملكه، و قيل إنه مات حتف أنفه، و قيل بل غزا الحارث بن أبي شمر الغساني الاعرج ملك الشام طالباً له بدم أبنه، فظفر به الحارث فقتله. و مما يقوي ذلك ما روي عن غسان بالشام، قد كان لك في قومك ممنع و حصن، فتركته و صرت الى قومٍ قتلوا أبي، و بيننا و بينهم ما قد علمت. و روي إن مدة ملك المنذر كانت أربع سنين في زمن أنوشروان أيضاً. ثم ملك بعده

النعمان الاصغر

ابنه النعمان الاصغر بن المنذر الاكبر بن أمرئ القيس بن النعمان بن أمرئ القيس بن عمرو بن أمرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر، و هو أخر ملوك آل نصر أمه سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ اليهودي، سبية من أهل فلك، و فد هجي بها فقيل فيه:

قبح الله ثم ثنى بلعنٍ وارث الصائغ الجبان الجهولا

و هي أبيات يدافعها الشعراء بينهم، و حملها بعضهم، على بعض، و سيأتي ذكرها في هذا الكتاب، و كان يكنى أبا قابوس و أبا قبيس أيضاً، قال النابغة الذبياني:

وعيد أبي قابوس في غير كنهه اتاني و دوني راكس فاضواجع

و قال أيضاً:

نبئت إن أبا قابوس أوعدني و لا قرار على زأرٍ من الاسدِ

و قال أيضاً لابن الصعق:

فان يقبض عليك أبو قبيس تلط بك المعيشة في هوانِ

و قال عبد المسيح بن بقيلة:

و صرنا بعد ملك أبي قبيس كشاءٍ ظل في يوم مطير

و هو الذي أستحسن الشقائق فحماها فنسبت اليه، فقيل شقائق النعمان. قال أبو تمام رحمه الله:

و كأنما أهدى شقائقه الى وجناتهن ضحى أبو قابوساً

و قال أبن دريد كان للنعمان أعلام حمر تسمى الشقائق، فسميت تلك الزهرة بها لحسن لونها، فقيل شقائق النعمان.

و قيل هو صاحب يومي النعيم و البؤس دن غيره من أهل بيته، و إن العرب لم تقل: أبيت اللعن الى له، و قيل بل كان ذلك يقال لهم جميعاً و هو الاصح. و كان أحمر أبرش قصيراً ذميماً قاسياً عاتياً سفاكاً باغياً، و كان له عشرة أخوة كلهم أجمل منه، و كانوا يسمون الاشاهب لجمالهم، و لبعض الشعراء فيهم:

و بنو المنذر الاشاهب باخي رة يمشون غدوة كالسيوف

و هو قاتل عبيد بن الابرص الأسدي في بؤسه، و قاتل أبن زيد العبادي بعد إن كان سفيره الى كسرى، و الساعي له" حتى ولاه الملك دون أخوته، و صاحب الغريين، و هما طربالان قيل إنه كان يغريهما بدم من كان يقتله يوم بؤسه، و صاحب الثويه-و هي حبسه-كان أذا حبس فيها أحد. قيل ثوى فسميت الثويه.

و عليه وفد حسان بن ثابت الانصاري قبل أسلامه و عنده رجز لبيد بن ربيعة الكلابي ثم الجعفري بالربيع بن زياد العبسي رجزه المشهور الذي يقول فيه:

مهلاً أبيت اللعنَ لا تأكل معه إن أستة من برص ملمعه

و هو صاحب زياد بن معاوية النابغة الذبياني الشاعر كان له بديماً، و به و بأبيه من قبله خصيصاً، و صاحب المتجردة و هي أمرأته، و كانت أجمل نساء عصرها، و أكرم نسائه عليه

المتجردة

و روي أنها سميت المتجردة لفرط جمالها، و قيل أنها أبنة خالد بن جعفر بن كلاب، و قيل بل كانت أمرأة من بقايا جرهم و هو الصحيح. و كانت تحت رجل جرهمي من قومها يقال له جلم بن الضهياء أو الضحياء نزل بها على النعمان جاراً، فرآها النعمان فهويها، و غلب عليه حبها، فلم يدر كيف يحتال على زوجها في أمرها. فقال له يوماً: إنها هنا عيرا يأتي في عانه، فيفسد مجالسنا بظهر الحيرة، فلو ركبت فرسي اليحموم فطردته رجوت إن تصرعه. و كان اليحموم قل ما أستحضره أحد الا صرعه، و أنما أراد بذلك قتله، فحمله عليه و أعطاه حربة، فخرج يطرد العير، فجمع به الفرس، فاحس بما أريد به، فالقى الحربة و أمسك عنان الفرس و ناصيته بيديه جميعاً، و عاد و هو يقول:

نحن بفرسي الودي أعلمنا منا بركض الجياد في السلف

أدركني بعد ما دنا فرسي للصيد أنا من معشر عنف

و أختلط السوط بالعنان و أمسك ت بكلتا يدي بالعرف

ثم قال للنعمان: أيها الملك أنا أصحاب زرع و نخل و لسنا باصحاب صيد فلم يجد النعمان عن المتجرد صبراً، فجعل يدعو جلما، و ينادمه و يسقيه حتى يسكر، و يضع عليه من يخدعه عن المتجردة ليطلقها، فلم يزل كذلك حتى ظفر منه ببعض القول، فتزوجها و أفتتن بها.

و كان المنخل بن مسعود اليشكري نديماً له، و كان جميلاً ظريفاً، و كانت المتجردة ترمى به و بغير واحد من الناس فيما ذكر و الله أعلم. و ولدت للنعمان غلامين، فكان يقال أنهما للمنخل و الله سبحانه أعلم.

و ذكر أبن قتيبة إن المنخل كان يرمى قبل المتجردة بامرأة عمرو بن هند الملك عم النعمان، و بامرأة أخرى من ال المنذر يقال لها هند، و فيها يقول أبياته التي منها:

يا هند من لمتيم يا هند للعاني الاسير

و كان النابغة أنيساً بالنعمان، فدخل عليه يوماً، فوافق المتجردة عنده متبذله قد سقط خمارها، فلما رأته سترت وجهها بيدها، فقال له النعمان: صفها في شعرك، فوصفها في قصيدته التي أولها: من آل أميه رائح أو مغتدي" فاسرف في الوصف و تجاوز الحد و لم يقتصر على ما ذكره من جمالها و خرج الى الفحش في شعره فقال:

و أذا المست لمست أخثم جاثماً متحيزاً بمكانه ملء اليد

و أذا نظرت نظرت أقمر مشرقاً و مركنا ذا زرنب كالجلمدي

و أذا طعنت طعنت في مستهدف رابي المجسة بالعبير مقرمد

و أذا نزعت نزعت من مستحصف نزع الحزور بالرشاء المحصد

و يكاد ينزع جلده من ملةٍ فيها لوافح كالحريق الموقد

لا زاد منه يحور أذا أستقى صدر و لا صدرا يحور لمورد

فغاظ ذلك النعمان، و أضطغنه عليه، و سمع المنخل هذا الشعر، فقال بحيث يعلم إن النعمان يسمعه: لا يستطع إن يصف هذا الا من جرب.

و كان بين النابغة و بين مرة بن ربيعة بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيدة مناة بن تميم و رهطه حقد و عداوة بسبب سيف كان لمرة يقال له ذو الريقة، وشى به النبغة الى النعمان، و وصفه له فأخذه منه. و كان مرة يتطلب العثرات على النابغة، فلما سمع هذا الشعر قام فيه و قعد، و رقى هو و رهطة الى النعمان عن النابغة إنه ذكر المتجرد في شعر قاله أيضاً غير هذا. فعزم على قتله، و عرف ذلك بواب كان للنعمان يقال له عصام بن شبير الجرمي. و كان صديقاً للنابغة. فلما قدم النابغة الحيرة أتى من فوره باب النعمان يطلب الاذن فانذره عصام و قال له: أنج فانه قاتلك، فخرج الى الشام فنزل على ملوك غسان، و مدحهم بقصائد منها:" كليني همّ يا أميمة ناصب" و غيرها.

و قيل إنه هجا النعمان عندهم، و بلغ النعمان كونه عندهم فشق عليه، و أرسل اليه أنك لم تعتذر من سخطه إن كانت بلغتك عنا، و إن كنا قد تغيرك عليك أو تنكرنا لك، فقد كان لك في قومك ممنع و حصن، فتركته و أنطلقت الى قوم قتلوا أبي، و بيننا و بينهم ما قد علمت، و عرف النابغة إن المنخل كاده عند النعمان فجعل يعرض به في أشعاره و أعتذاره اليه. فقال في قصيدته التي أولها: عفا راكس من فرتني فالضواجع

اتوعد عبداً لم يخنك أمانته و تترك عبدا ظالما و هو ظالع

حملت علي ذنبه و تركته كذي العرِّ يكوي غيره و هو راتع

و ذكر سعدية القريعيين به فقال فيها:

لعمري و ما عمري علي بهين لقد نطقت بطلاً علي الأقارع

اقارع عوف لا أقارع غيرها وجوه كلاب تبتغي من تخادع

و قال معتذراً في قصيدته التي أولها: يا دار مية بالعلياء فالسند

فلا لعمرو الذي مست كعبته و أما ريق على الأنصاب من جسد

و المؤمن العائذات الطير تمسه ركبان مكة بين الغيل فالسند

ما إن بديت بشيء أنت تكرهه اذاً فلا رفعت سوطي الى يدي

اذاً فعاقبني ربي معاقبةً قرت بها عين من يأتيك بالحسد

هذا لأبرأ من قول قرفت به طارت نوافذه حرا على كبد

و قال في التي أولها: أمن ظلامة الدمن البوالي

فان كنت أمرأ قد سؤت ظناً بعبدك و الأمور الى تبالِ

فارسل في بني ذبيان فاسأل و لا تعجل علي من السؤال

فلا عمرو الذي أثنا عليه و من دفع الحجيج الى إلال

ولو كفي اليمين بغتك خوفاً لافردت اليمين من الشمال

ثم إن النعمان عرف براءة النابغة.

و قيل إن النابغة كان رجلا عفيفا فبلغه عن النعمان ما زال معه خوفه، فقدم الحيرة مستخفيا مع زيان و منظور أبن سيار الفزاريين، و كان في رحلهما، و دخلا على النعمان و هو على شرابه في قبة له فجلسا معه، و كان بينهما و بينه خلة، فقربهما و أكرمهما، فذكرا له النابغة، و أنشداه شيئاً من شعره في مديحه له، و أعتذاره اليه، و لم يعلماه إنه معهما، فلما رأيا منه بعض اللين أرسلا الى النابغة، فجاء فوقف ظاهر القبة يرجز. فروي عن حسان بن ثابت الأنصاري إنه قال: كنت في مجلس النعمان بن المنذر يومئذ، و هو على شرابه في قبته أذ رجز رجل من ظاهر القبة فقال: أنمت أم تسمع رب القبة

يا أوهب الناس لعنسٍ صلبه ذات نجاء في يديها حدبة

طارده بالمشفر الأذبه فقال النعمان: اليس بأبي أمامه؟! و كان النابغة يكنى بها، قيل بلى، فقال: أئذنوا له، فدخل و هو يقول:

ا غيرك معقلاً أبغي و حصناً فخانتني المعاقل و الحصون

أتيتك عاريا خلقا ثيابي على خوف تظن بي الظنون

يخب بي الكميت قليل و فر افكر في الأمور و أستعين

ثم جلس فشرب معه و أنشده قصيدته التي أولها: أرسما جديدا من سعاد تجنب فأعتذر اليه بابيات و عرض بالمنخل فقال:

لئن كنت قد أبلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغش و أكذب

و كان يوم ورود الأبل السود، فوردت فوهب له مائة سوداً فيها فحلها و راعيها، فما حسدت أحدا حسدي له. و أستبانت للنعمان ريبة المنخل فقتله.

فروي أبوا رياش أحمد بن أبي هاشم في سبب قتله إن النعمان كان له يوم يركب فيه فيطيل و يعود في وقت لا يتعداه، فكان أذا ركب في ذلك اليوم أرسلت المتجرد الى المنخل فجاءت به، فكان عندها فاذا خاف مجيء النعمان أنصرف. فركب النعمان على عادته في ذلك اليوم، و أرسلت المتجرد الى المنخل، فجاءت به ثم لاعبته بقيد جعلته في رجليه، و رجع النعمان قبل وقته المعتاد، فوجدهما على تلك الحال، فدفع المنخل الى عكب بن عكب اللخمي و قيل التغلبي، و كان صاحب سجنه، أمره بان يعذبه حتى يهلك، فكان يجره بقيوده و يعذبه، ففي ذلك يقول المنخل:

الامن مبلغ الحرين عني بان القوم قد قتلوا أبياً

يدور بي أبن عكب في معد و يطعن بالصملة في قفيا

فان لم تثأروا بي من عكب فلا تشفون من ماء صديا

و يقول أيضاً:

طل بين العباد قتلي بلا جرم و قومي ينتجون السخالا

فاما أبن قتيبة فزعم إن الملك الذي قتل المنخل، عمرو بن هند، و لعل رواية أبي رياش أصح، فان المتجرد لم تكن عند عمرو بن هند، و أنما كانت عند أبن أخيه النعمان الأصغر، و لم تزل عنده الى آخر أيامه. و روي أنها من جملة من أشار عليه بالعود الى كسرى بعد إن كان هرب منه، فلما عاد اليه قتله و سيأتي ذكر مقتله، ثم كره إن يستعمل مكانه أحداً من أهل بيته فاستعمل بالحيرة بعده أياس بن قبيصة الطائي.

و كان النعمان آجر ملوك آل نصر لم يملك أحد منهم الا إن أبنه المنذر بن النعمان المعروف بالغرور ملكه من كان أرتد بالبحرين من ربيعة، و غيرهم فبعث اليهم خالد بن الوليد من اليمامة العلاء بن الحضرمي، و ذلك في سنة أثنتي عشرة في أمارة أبي بكر فظهر عليهم المسلمون بمحمد الله تعالى و هزموهم. فقيل إن المنذر قتل بجوانا وقيل بل نجا و أسلم و إنه كان بعد ذلك يقول لست بالغرور و لكني المغرور.

و كانت مدة ملك النعمان أثنتين و عشرين سنة، منها سبع سنين في زمن هرمز بن أنوشروان، و باقيها في زمن أبرويز بن هرمز ثلاث سنين و سبعة أشهر" الفجار الأكبر فجار البراض بن قيس الكناني، و هو فجار فقتل النعمان بالتقريب في عام الهجرة لأن قتله جر يوم ذي قار، بين جنود كسرى و بين بكر بن وائل، وكان يوم ذي قار بعد قتله بعام واحد.

و روي إن يوم ذي قار كان بعد يوم بدر بشهرين، و كان يوم بدر في شهر رمضان سنة أثنتين و الله سبحانه أعلم. و روي إن النعمان لما نعي الى النابغة قال: طلبه من الدهر طالب الملوك، ثم لقي بوابه عصاماَ الجرمي و كان صديقاً له فبكياه و قال النابغة:

الم أقسم عليك لتخبرني	أمحمول على النعش الهمام
فاني لا الومك في دخول	و لكن ما رواءك يا عصام
فان يهلك أبو قابوس يهلك	ربيع الناس و الشهر أحرام
و نأخذ بعده بذناب عيش	اجب الظهر ليس له سنام
تمخضت المنون له بيوم	اتى و لكل كاملة تمام

و في النعمان و أبنه وجده يقول عبد المسيح بن بقيلة، لما ظهر الإسلام و ضرب خالد بن الوليد الجزية يرثيهم و يبكيهم و يذكر أيامهم:

ابعد المنذرين أرى" سواما	تروح بالخورنق و السدير
تجافاه فوارس كل فج	مخافة ضيغم غلي الزئير
و بعد فوارس النعمان أرعى	مراعي نهر مرة و الجفير
و صرنا بعد ملك أبي قبس	كشاء ظل في يوم مطير
تقسمنا القبئل من معد	علانية كأيسار الجزور
نؤدي الخرج بعد خراج كسرى	كخرج بني قريظة و النضير

ثم ملك بعده

اياس بن قبيصة

اياس بن قبيصة الطائي العبادي و رهطه ممن كان يعرف بالأحلف من أهل الحيرة، و هو أياس بن قبصة بن أبي عفر بن النعمان بن حية بن سعنة بن الحارث بن الحويرث بن ربيعة بن ملك أبن منقذ بن هبي بن عمرو بن الغوث بن طي. ملكه أبرويز مكان النعمان و أستعمله على الحيرة و أستعمل معه مرزباناً من الفرس يقال له النخيرجان" .

مناقب سيف الدولة ملك الحلة

نصره الله، و لا كان فيهم من يشق في الشرف غباره، و لا يقاربه في رتبة و لا يدانيه في منزلة، لان الله تعالى فضله علهم بدينه و حسبه و نيبه و عز جانبه و سعة ملكه و ثروته، و شرف نفسه عن أفعال دنية أسفوا اليها و حلق عنها، و خلال ذميمة تباعد عن أمثالها و دنوا منها. و سيأتي من ذكر فضله عليهم في سائر أحواله، و جميع خلاله، بما يكون بينة واضحة على صحة ما ذكرناه، و شاهدا عدلاً على ما أوردناه، و تفصيلا لجملته و مفتاحاً لرتاجه و دليلاً على منهاجه، و روضة تتزه فيها عيون مواليه، و ترتع فيها قلوب محبيه، و ليعلم أنهم بالإضافة اليه كما قال التهامي:

أبواعهم في المجد مثل ذراعه و قيامهم في المجد مثل قعوده

على أننا لا ننكر شرفهم و لا نجحد ما نالوه من الملك و العز في أزمانهم، و لو لم يكونوا ذوي شرف و ملك و منعة و عز لما قلنا إنه أشرف منهم و لا أعلى قدرا، و لا أعز جانبا و أوسع ملكا، و لا قسنا بين أفعله و أفعالهم ليعلم أنها أحسن و أجمل، و لا نظرنا في سيرته و سيرتهم ليبين لنا أنها أبلغ عزا و أكمل، غير أننا نقول إن خلالهم في أنفسهم و إن شرفوا، و أقدارهم في ملكهم و عزهم و إن كانوا قد عزوا و ملكوا مقصرة من خلاله الشريفة في نفسه، و ما ناله من العز و البساطة في عصره كما قال زهير:

فضّله فوق أقوامٍ و شرفهُ ما لم ينالو و إن شادوا و إن أكرموا

و كما قال آخر:

فضلتهم مع قديم فضلهم ليس على من فضلته عارُ

و نعتذر عما نأتي به من كشف أحوالهم، و معاييهم و مناقصهم و مثالبهم و سوء سيرة كانت منهم، أو وهنن في ملكهم، أو غميزة عليهم نورد ذكرها، أو خلة ذميمة نكشف أمرها، بأنه لا طريق لنا الى

حصول الغرض الذي نحوناه من أيضاح لرد فضله عليهم إلاّ بذلك، لكون الأفعال دالة على قدر فاعلها، و الآثار دالة على قدر مؤثرها، كما قال التهامي:

و على مقادير الرجال فعالهم قطع المهند تابع بحديده

و كما قال أبو الطيب المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم و تأتي على قدر الكرام المكارم

و قال الرضي رضي الله عنه و تبين بالبنيان فضل الباني" فلا طريق لنا الى حصول الغرض الذي أردناه إلا بذاك، و ليعلم من تقرر في نفسه أستعظام أفعاله و أقدارهم، و جرى على لسانه تفخيم أمورهم، و ظن أنّ شأوهم لا يدرك، و أنّ غايتهم لا تبلغ أنّ الأمر بخلاف ما وقع له و ظنه فإننا لو قصدنا الى ذكر فضله و مناقبه، و تعديد مآثره فأقتنعنا بنشرها، و أقتصرنا على شطرها، و أضربنا عن ذكر أحاديثهم و أخبارهم و كشف أحوالهم التي سندل بها على أنهم لم يفترعوا من العز مثل درجته، و لم يوفوا من الشرف على مثل مرقبته، لضن المقلدون-وإن لم يمكنهم جحود فضله و لم يقدروا على الطعن في شرفه- إن الذي نالوه من أفضل أعظم، و من الشرف و المجد أعلى و أضخم، فاقاموا في ذلك على ظنونهم، و لم يزل من قلوبهم، فلذلك لم نجد معدلا عن الإلمام بإظهاره بعض مثالبهم و ذكر طرف من معاينهم ليصغر عندهم ما يستعظمونه من شأنهم، و يستهولونه من أقدارهم، إذا لم يكن من ذلك بد، فالضد لا يظهر حسنه إلا الضد، كما قال الشريف أبو الحسن محمد بن محمد العلوي النسابة، في معنى يشبه هذا المعنى في كتابه الذي سماه: تهذيب الاعقاب، فإنه قال: لما سطر من تقدمنا، ذكر فرسان العرب في الجاهلية و بيوتاتهم و منجباتهم، و أمثال هذا و عدوه شرفا باقيا و فخرا ناميا يسمر به عند الملوك و يستطرفه سامعوه، فيظن من لا بصيرة له و لا خبرة عنده، بما تقدم أن الذي ذكر لا نظير له و أنه معدوم المثل، وجب علينا إن نشرح ما في تضاعيف ذلك من الدخل و الفساد اللائح، و القدح و العيب الفاضح، المنقول عمن نقل لهم المناقب فيكون طريقاً الى ثبوت المثالب، ثم نورد من فضلنا ما لا يغطيه الليل، و لا يكشفه النهار من الشرف الشهير و الفخر الجهير.

فرسان العرب

ذكروا فرسان العرب الثلاثة: عامر بن الطُّفَيل فارس عامر بن صعصعه، و عُتيبه بن الحارث فارس تميم، و بُسطام بن قيس فارس بكر بن وائل، فأما عامر ففر عن أخيه الحكم بن الطفيل يوم الرقم، و هو يوم ناجح، و فر عتيبه عن أبنه حزرة يوم ثبره، فقتل حزره فقال عتيبة:

نجيت نفي و تركت حزره نعم الفتى غادرته بثبره

"و لا يترك الحر الكريمُ بكره"

و فر بسطام بن قيس يوم العظالي. و التقت بنو أسد بن خزيمة و بنو يربوع يوم خوّ، فطعن عتبة بن الحارث المحسن بن عمرو بن بدر الغاضري فقتله، فحمل ذؤاب بن ربيعة الاسدي على عتيبه فقتله. فإذا كانت شهادة العلم لهم و عليهم فاحسن أحوالهم أن يكونوا من فرسان العرب المتقدمين، لهم أعتداد، و عليهم أنتقاد، و لا يحكم لهم بأنه ليس في العرب مثلهم، كما روينا عن أبي عمر بن العلاء إنه قال: قد أفتخرت العرب بالبيوتات و الفروسية و السخاء، و فيهم من هو أشرف ممن ذكر، و أفرس و أكثر منجبة و أعظم منقبة، وإن لم يذكروا في هذا الشرط، فاخبارهم شائعة، و مآثرهم ذائعة، أفلا ترى الى المحصل المنصف كيف جاءت شهادته، و لاح أنصافه، و لو ذهبت أورد أمثال هؤلاء القوم لطال كتابي هذا.

فمن ذلك ما سطر في كتاب النوافل، و ذكره أهل العلم من المثالب على طوله لئلا يبقى الجاهل المقلد مقيم على ظنه و تقليده في فضلهم، فلذلك كشفان عن بعض أحوالهم. هذا أخر لفظ الشريف المذكور رحمه الله في الفصل الذي أورده في هذا المعنى.

و لعمري إن من تقدم قد ذكروا من أهل لك منقبة قوماً، و في العرب أمثالهم و أشرف منهم، و ليس ذلك مما يسقط به شرف غيرهم، و لا يضع من قدر من سواهم، و لا يلزمنا إن نتبع فيه أهواءهم. و لا نقبل آرائهم من وضوح الحجة عليهم فيه، فإنهم لم يتركوا من الشرف نوعاً إلا خضوا به قوماً، فلو أقتصرنا على القطع بذلك لمن ذكروه خاصة، و هم الاقل للزمنا أن نضع من الاكثر و الجم الغفير، و في هذا ما فيه من الغميزة و الطعن على جمهور العرب.

غير العرب

على إنهم في أزمانهم و أعصارهم قد أختلفوا في ذلك، و خولفوا فيه، الا ترى أنهم قالوا: إن غير العرب أربعة: غارا عدنان: ربيعة و مضر و غارا قحطان: كهلان و حمير، قال الفرزدق:

و منا الذي أعطى يديه رهينةً لغاري معد يوم عقد الذمائم

و قال يزيد بن أبي سفيان بن حرب:

فما برح الغاران حتى تنزلت ملائكة جاسوا الروم حتى تولت

الاركان

و سموا هؤلاء الاربع أيضاً الاركان، و الكهوف، و الدعائم، ثم غيروا اللفظ، و بعض الاسماء في قول آخر، و إن لم يكونوا عدلوا عن المعنا فقالوا: أجذام العرب أربعة: وضر و ربيعة و اليمن و قضاعه.

جمرات العرب

ثم قالوا: جمرات العرب أربع: ضبّة أبن أدّ في خندف، و نمير في عامر، و عبس بن بغيض في قيس، و بنوا الحارث بن كعب في مذحج. سموهم بذلك لانفرادهم بانفسهم، و أستقلالهم باموهم، فلما حالفت ضبة بن أدّ قبائل الرباب، و حالفت بنوا الحارث بن كعب قبائل مذحج، قالوا: طفي جمرتان، و بقي جمرتان و سموا بني الحارث بن كعب، نيران مذحج، و سموا نمير بن عامر جريحة الطعان، و قالوا في أمثالهم: طعان نمير فأما أبو عبيدة معمر بن المثنى فإنه قال: العرب عكاظيون لا يذكرون من أهل كل منقبة إلا ثلاثة، فإن وجدوا رابعاً تركوه، و أسقط من الجمرات عبساً، و حكا أبن دريد رحمه الله مثل ما حكاه أبو عبيدة في ذلك.

جماجم العرب

و قالوا: جماجم العرب ثلاث، ضبة بن آد في خندف، و عبس بن بغيض في قيس، و قيس بن ثعلبه في بكر بن وائل، فخالفهم أخرون فقالوا: الجماجم أربع، حنظلة بن مالك بن زيد مناة من تميم في خندف، و عامر بن صعصعه في قيس، و كلب بن وبرة في قضاعة و طي بن أدد في اليمن.

رضفات العرب

و قالوا: الرضفات ثلاث، تغلب بن وائل و شيبان بن ثعلبه، و هما معاً في ربيعة بن نزار و إياد بن نزار بن معد وقال آخرون: الرضفات أربع، و سموا هذه القبائل الثلاث، و زادوا عليها بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة.

اثافي العرب

و قالوا: الاثافي ثلاث، هوزان و سليم أبنا منصور معاً أثفيه، و غطفان بن سعد أثفيه، و محارب بن خصفه و أعصر بن سعد معاً أثفيه، و الجميع في قيس. فقال أخرون محارب بن حفصه و أعصر بن سعد و معهما المهالبة، فالجميع أثفية.

غلاصم العرب

و قالوا: الغلاصم ثلاث: قيس بن عاصم المنقري، غلصمة خندف، و حذيفة بن بدر الفزاري، غلصمة قيس، و القلمس بن عدي الغساني غلصمة اليمن.

اجواد العرب

و قالوا: الاجواد ثلاثة: حاتم بن عبد الله الطائي، و كعب بن مامة الايادي، و هرم بن سنان المري مرة غطفان.

اوفياء العرب

و قالوا: الاوفياء ثلاثة السموءل بن عاديا اليهودي، و الحارث بن ظالم المري مرة غطفان، و عمير بن سليم الحنفي.

الرجليون من العرب

و قالوا الرجليون ثلاثة المنتشر بن عمر الباهلي، و السليك بن عمير بن يثرب السعدي من بني سعد بن زيد مناة بن تميم أمه السلكة، عرف بها، و أوفى بن مطر المازني مازن تميم، و كان هؤلاء لا يجارون سعياً أذا جاع أحدهم، شد على الظبي فاخذه، فقال آخرون، و تأبط شرا الفهمي و حاجز بن عوف الازدي، و معدي بن براق الهمداني، و عمرو ذو الكلب الهذلي، و كان هؤلاء مثلهم في السرعة و غيورون على أرجلهم على الاحياء، و كم كان في العرب من أمثال هؤلاء، و إلا اليوم فإني أسمع أن في الاعراب من يجاري الخيل، و يلحق الظباء.

و ذكر بعض المحدثين، قال: كنت نازلا بحي من العرب، فرأيت ظباء ترود، فجعلت أديم النظر اليها، فرآني فتى من أهل الحي، و أنا كذلك، فقال لي: تعطيني درهمين، و آتيك بأيهن شئت؟ فقلت نعم، لك درهمان و أئتني بتلك، و أشرت له الى أحداهن فشد عليهن، و نفن بين يديه فألح على التي أشرت له اليها، فأخذها و جاءني بها، و هو يقول:

مرت تلوي في الفلات خدها تخاف شدي و أخاف شدها

"كيف ترى عدو الغلام ردها" فلا ينقضي تعجبي منه.

اغربة العرب

و قالوا الأغربة عنترة بن شداد العبسي و هو عنترة الفلحاء، و أمه زبيبة سوداء، و خفاف بن ندبة السلمي، و أمه ندبة سوداء. و أبو عمير بن الحارث بن الشريد، و السليك بن عمير بن يثربي التميمي ثم السعدي، أمه سلكة سوداء، قالوا: و أنما قالوا قيل لهؤلاء أغبة العرب لسوادهم و شجاعتهم. و كفى العرب مسبة أنهم لم يكن فيهم من يذكر بالجود، إلا ثلاثة، و بالوفاء إلا ثلاثة، و عارهم فيهم أيضاً، جواد و وفي و شجاع، يكون كل واحد منهم من هؤلاء الثلاثة رابعاً، و العرب في عدد الرمل، فما الذي أذكرهم هؤلاء، و أنساهم ذكر أجواد العرب و أوفيائها؟!. و ذكر حبيش بن دلف بن عسير بن ذكوان بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر الأسود فارس العرب و شجاعها، و قد ذكروا ممن المواقف ما لم يذكروا لأحد من هؤلاء الثلاثة، و من جملة مواقفهم إنه أسر عمرو بن الحارث بن أبي شمر الملك الجفني، فجز ناصيته و من عليه و أشترط عليه حملا يؤديه في كل سنة اليه، فأفتخر الفرزدق بذلك لأن أمه ظبية من بني السيد بن مالك رهط حبيش هذا، و قيل أسمها قرظة، فقال:

خلي الذي غصب الملوك نفوسهم و اليه كان حباء جفنة يحمل

ارحاء العرب

و قالوا: أرحاء العرب ثلاثة: منها رحوان في خندف، و هما أسد بن خزيمة و تميم بن مر، و الثالثة في بني عامر، خالد بن جعفر بن كلاب، و أخوه الأحوص من بعده، و عصر خالد و الأحوص متأخر عن عصر أسد بن خزيمة، و تميم بن مرة بما يعلمه الله سبحانه.

ازمنة العرب

قالوا أزمنة العرب ثلاث: عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم في تميم، و شتير بن خالد بن جعفر بن كلاب في بني عامر، و ضجعم بن سعد بن سليح بن حلوان بن الحاف بن قضاعة، و عصر ضجعم بن سعد قبل عصر عقال بن محمد، و عصر عقال بن محمد قبل عصر شتير بن خالد.

البدور من العرب

و قالوا البدور ثلاث: طريف بن زيد بن عمرو الضبي في حندف، و الحوفزان بن شريك في بكر بن وائل، و السموأل بن سحيم الغساني في اليمن.

حكام العرب

و قالوا حكام العرب ثلاث هرم بن قطبه الفزاري، و هرم بن سنان المري مرة غطفان، و معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب و هو معود الحكام سمى بذلك لقوله

أعود مثلها الحكام بعدي إذا ما الحق في الأشياع ثابا

و كان سبب ذلك أن النعمان الملك جهز لطيمة الى عكاظ، و جعل خفيرها قرة بن هبيرة القشري، يخفرها على من ليس في دينه من العرب، و وافق ذلك هرب النعمان من كسرى، فاحتوى قرة على اللطيمة فأكلها فقالت عقيل لقشير: إنا لا نأمن عقبي جنايتكم، فأعطونا بعض ما أخذتم فأبوا عليهم و كادوا أن يحتربوا، ثم تراضوا بحكم من بني أم البنين، فأتفقوا على الرضا بمعاوية فأصلح بين الحيين و قال:

رأبت الصدع من كعب و كانت من الشنار قد رعيت كلابا

سبقت بها قدامة أو سميرا و لو دعيا الى مثلي أجابا

سأحملها و يعقلها عني واورث مجدها أبدا كلابا

اعود مثلها الحكام بعدي إذا ما الحق في الاشياع ثابا

شعراء العرب

وقالوا الشعراء في الجاهلية ثلاثة: أمرؤ القيس بن حجر الكندي، و النابغة الذبيان، و زهير بن أبي سلمى المزني. فقالت ربيعة و طرفة بن العبد البكري جعلوه لهم رابعاً، و فضلوا أمرأ القيس على الكل، و قالوا لم يكن الشعر شيئاً حتى شرحه، فحيا الطلل و عفى الديار، و محاها بالرياح و الامطار، و وصف المطر و السيل، و شبب النساء و شبههن بالتماثيل و الدمى و البيض و الظباء، و شبه ريقهن بالخمر، و شعورهن بالكرم، و أعجازهن بالرمل، و وجوههن بالمصابيح و عيونهن بعيون البقر، و أغتدى للصيد و اللعب و شبه قلوب الطير و رطبها بالعناب، و يابسها بالخشف، و عيون البقر بالجزع و شبه الفرس بالهراوة، و الظبي و الخذروف و الاجدل و الجلمود و الناقة بالنعامة، ووصف الكلب و الثور و العانة و وردها، و القوس و الوتر و النبل، و شبه الليل بالجبال، و وقف في الديار، و أستوف و بكى المنازل و الدمن، و

ذكر الرماد و الاثافي، و الوان الوحش و عزى صحبه و عزوه و مدح و هجا، و كان أذا قال شيئاً لا يخطيء، ففتح للشعراء أبواب الشعر، فهم عيال عليه، فجعلوا أولئك الشعراء الذين سموهم معه في طبقته ثم خصوه دونهم بفضائل الشعر كلها، فلم يتركوا لهم معه فيها نصيباً فادخلوهم معه بغير حجة، و أخرجوهم بحجج عدة، و قد كان الاولى الا يجعلوهم في طبقته لما علموا بأنه برز عليهم هذا التبريز.

فدية العرب

و قالوا أكثر العرب فدية ثلاث: حاجب بن زرارة الدارمي و بسطام بن قيس الشيباني الفارس، و جيش بن دلف الضبي.

مفاخر العرب

و قالوا مفاخر العرب ثلاث: قصيدة الحارث بن حلزة اليشكري التي أولها: اذنتنا ببينها أسماء" و قصيدة عمرو بن كلثوم التغلبي و التي أولها: الا هبي بصحنك فاصبحينا" و قصيدة طرفة بن العبد و التي أولها: لخولة أطلال ببرقة ثمهد"

عقماء العرب

و قالوا عقماء العرب ثلاثة: عبد الله بن جدعان التميمي، و كلده الثقفي الذي يزعم الناس إن الحارث أبنه و ببسطام بن قيس الشيبني الفارس، و قالوا أخرون: و عامر بن الطفيل العامري الفارس. و يكنا أبا علي أيضاً، كان أعور عقيماً، و قال أخرون و جذيمة الأبرش الملك كان عقيما، و عصر جذيمة قبل هؤلاء بما يعلمه الله تعلى فبدأوا في ذكر العقماء بعبد الله بن جذعان التميمي، و قد ذكر في بعض الروايات إنه أعقب أبا ملكة بن عبد الله و ذكر لجذيمة الأبرش أيضاً.

اقارع العرب

و قالوا أقارع العرب ثلاثة: قريع بن عوف بن كعب بن زيد بن منآة أبن تميم، و قريع بن معاوية بن حنظلة بن جذيمة بن عوف، و قريع هو ثعلبة بن معاوية بن ثعلبة بن جذيمة بن عوف، فقال أخرون، و قريع بن الحارث بن نمير بن عامر بن صعصعه.

الرادون على المستغيث

و قالوا إن الرادون على من أستغاث بهم في الجاهلية ثلاثة: مخارق بن شهاب المازني، أخذت بكر بن وائل أبن المكعبر الضبي، فاستغاث بمخارق و أستنجده، و أنزل له منازل الجيش، و قدر له مسيرهم، فالحقهم بقومه، فاستنقذ الأبل منهم، فردها عليه، فقال أبن المكعبر:

لولا الإله و لولا سعي طالبها و أبنا شهاب عفا آثارها المورا
أوصى شهاب بنيه حين فارقهم الاّ يكونوا كمن تطوى له العير

و قال أيضاً:

فهلا سعيتم سعى عصبة مازن و هل كفؤان في الفعال سواء
لهم أذرع بادٍ نواشر لحمها و بعض الرجال في الحروب غثاء
كأن دنانيراً على قسماتهم و إن كان قد شف الوجوه لقاء

و زيد الفوارس بن حصين بن ضرار الضبي، أغارت بنو ضبة على إبل سبيع بن أخطيم التميمي، فاستنجد سبيع زيداً، فركب في قومه فردها فقال سبيع:

إن أبن آل ضرار يوم ندبه زيدا سعى لي سعياً غير مكفور
ساءلت عليه شعاب حين دعا انصاره بوجوهٍ كالدنانير

إيه فدى لكم أمي و ما و لدت فالحمد يبقى وزاد القوم في حور

و الحارث بن ظالم المرى مرة غطفان، كان عياض بن ديهث أحد بني عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم، مجاورا في غطفان، فأغارت بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان على ماله، فأتى أعلاق الحارث بن ظالم-و هي الآلات التي يستقى بها الماء- فأعلق دلوه بها، و نادى يا جارتاه، يا جارتاه فقال له الحارث: ويلك! و متى كنت جاري؟ فقال هذا دلوي قد علقت معلقها وصر الجندب"، فقال: ويلك أنهم قومي، فقل قولا أجد به طريقاً للرد عليك فقال:

اصبح جارات بني يربوع جوثما كالحدأ الوقوع
يعدلن بين حرب و جوع

وبنو يربوع رهط الحارث بن ظالم، فقام الحارث فقال:

أنا أبو ليلى و سيفي المعلوب كم قد أغثت من حريب مكروب

الملعوب: الذي قد كسر و ضبب. فلم يزل حتى رد عليه، و في ذلك يقول الفرزدق:

لعمري لقد أوفى و زاد و فاؤه على كل جارٍ آل المهلب
على الحارث المنحى عياض بن ديهث و هجمته كالمغنم المتنهب
فقام أبو ليلى إليه بسيفه و كان متى ما يسلل السيف يضرب
و ما كان جارا غير دلوٍ تعلقت بأعلاق حبل محكم العقد مكرب

الوافيات من العرب

و قالوا الوافيات من العرب ثلاث: جماعة بنت عوف بن محلم الشيباني، و فكيهة أمرأة من بكر بن وائل أيضاً، و ثم من قيس بن ثعلبه، و أم جميل الدوسية من رهط أبي هريرة صاحب النبي .

اما جماعة فأن مروان بن زمباع العبسي أغار على أبل عمر بن هند الملك مصرت الحجارة فتبعه الملك فدخل قبة جماعة فاستجارها فنادت قومها فاجتمعوا و جاء الملك و طلبه فقالوا إن جماعة قد أستجارته فقال أني قد آليت أن لا أقلع حتى يضع يده في يدي فقال أبوها عوف بن محلم تضع يده في يدك و تضع يدك في يدي فتكون أيها الملك قد أبررت قسمك بذلك و تكون قد و فينا بجوارنا ففعل. فروي إنه لهذا السبب قيل في المثل السائر" لا حر بوادي عوف". و زعمت بكر بن وائل أن الملك هو قالها يومئذ فذهبت مثلا.

و ما فكيهه فان سليك بن سلكة السعدي غزا بكر بن وائل فلم يجد غفلة و رأوا أثره فرصدوه حتى قام قائم الظهيرة و ورد الماء فشرب حتى أرتوى فصب على وجهه فشدوا عليه و هاجوا به و هد أثقله بطنه فغدا حتى ولج قبة فكيهه فستجارها فادخلته تحت درعها و جاءوا و أسترعوا خمارها فنادت في أخوتها و ولدها فجاءوا فمنعوه فقال فيهم:

لعمرو أبيك و الانباء تنمي لنعم الجار أخت بني عوارا
من الخفرات لم تفضح أخاها و لم ترفع لوالدها ستارا

و أما أم جميل الدوسية فان هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي قتل أبا أزيهر الزهراني من أزد شنؤه فبلغ ذلك قومه بالسراة و عندهم ضرار بن الخطاب بن مرداس القرشي ثم الفهري فوثبوا به يقتلوه فدخل بيت أم جميل و ضربه رجل منهم بالسيف فاصاب ذبابه باب البيت و قامت دونه و نادت في قومها فجاءوا فمنعوه فلما قام عمر بن الخطاب أتته بالمدينة فذكرت له أنها أجارت أخاه لمكان الاسم فغلطها الحاضرون

فقال دعوها دعوها أبي لاضنها التي جارت ضرار بن الخطاب ثم أستشرح منها الامر فاخبرته فقال: أبي لست أخاه الا في الاسلام فهو غاز و قد عرفنا منتك و أعطاها على أنها بنت سبيل.

ذكر السبب في قتل أبي أزيهر

و هو أبو أزيهر بن أنيس بن الجيسق بن كعب بن الحارث بن الغطريف الازدي ثم الزهراني ثم أحد بني دوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران و كان أبو سفيان بن حرب تزوج أبنته عاتكه بنت البي أزيهر فولدت له عنبساً و محمداً و عنبسه هو الذي عاتب أخاه معاوية لما ولاه الطائف ثم عزله باخيه عتبة فصار اليه عنبسه فعاتبه فقال له: يا عنبسه إن عتبه ولدته هند فقال عنبسه:

كنا كصخر لا يفرق بيننا فصارت أراها فرقت بيننا هند

فعاتبه معاوية وارضاه و تزوج الوليد بن المغيرة المخزومي بنتا لابي أزيهر أيضاً و طلب اليه مراراً إن يهديها اليه فلواه بذلك و ما طله و كان الوليد بن المغيرة أحد المستهزئين من قريش الذين روي إن جبريل عليه السلام أشار الى عضو من أعضاء كل واحد منهم فهلك به.

و روي إن الاسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة كان أحدهم فحنى جبريل ظهره و النبي يراه. و قال يا جبريل خالي فقال: دعه عنك. و أبو عبد يغوث بن وهب روي و الله سبحانه أعلم إنه الظالم الذي يعض على يده هكذا وجدت في رواية فسبحان من لا يعلم تأويله الا هو. و أشار جبريل عليه السلام فيما أشار الى غير الوليد بن المغيرة فمر الوليد برجل من خزاعة ثم من بني هنية بن عدي بن سلول بن كعب بن عمرو بن لحي يكنى أبا قصاف و هو يبري القداح فطارت براية من قدح كان بيده فاصابت عين الوليد فلما كان الليل أنفجر دمه منها فبرق فقالت أبنته: لقد أنحل وكاء القربه فقال: بل هو دم أبيك و دعا ولده فاوصاه اليهم فقال: أقتلوا أبي خزاعه و إن لم يكونوا أرادوا قتلي و لكن لئلا تعيركم العرب و أقتلوا أبا أزيهر فانه زوجني أبنته ثم لم يهدها الي و لو كان فعل لكانت ولدت لي غلماناً مثلكم و بلغ ذلك أبا أزيهر فخاف إن يدخل الحرم فاجاره ختنه أبو سفيان بن حرب فدخل الحرم في جيرته فقتله هشام بن الوليد فعقد يزيد بن أبي سفيان لواء و سار ببني عبد مناف يريد بني مخزوم، فرده أبوه و قال له: أتريد أن تختلف قريش فيقوى أمر محمد ! إن دوساً لن يعجزوا عن ثأرهم، و كانت العرب أذا غدر الرجل منهم أضرموا نارا بالموسم، و نادوا هذه غدرة فلان، فاضرموا ناراً على الاخشب و نادوا هذه غدرة أبي سفيان و قال حسان بن ثابت في ذلك:

غدا أهل حضني ذي المجاز بسحره و جار أبن حرب بالمغمس لا يعدو
كساك هشام بن الوليد ثيابه فابل و أخلق أنها جدد بعد
قضا وطرا منه فاصبح ثاوياً و أصبحت رخواً لا تخب و لا تعدو
فما منع العير الضروت ذماره و لا منعت مخزاة والدها هند
فلو إن أشياخاً ببدر تشاهدوا لبل نعال القوم معتبط ورد

و ري إن معاوية قال يوما لعبد الله بن الزهير و أم عبد الله أسماء بنت أبي بكر الصديق أتروي قول حدتك صفة بنت عبد المطلب يعاتب أباك:

عالجت أياد الدهور عليكم و أسماء لم تعلم بذلك أيم
فلو كان بر كافراً لعذرته و لكنه قد يزعم الناس مسلم

فقال أبن الزهير: نعم واروي قولها:

الا أبلغ لديك بني أبينا ففيما الكيد فيكم و الامار
و سائل في جموع بني علي اذا كثر التناشد و الفخار
بانا لا نقر الضيم فينا و نحن لمن توسمنا نصار
متى نقرع بمروتك نسؤكم و تظعن من أمثالكم ديار
و تظعن أهل مكة و هي سكن هم الاخيار إن ذكر الخيار
مجازيل العطاء أذا وهبنا و أيسر أذا خب القتار
و نحن الغافرون أذا قدرنا و فينا عند عدوتنا أنتصار
و لم نبدأ بذي رحم عقوقاً و لم توقد لنا بالغدر نار
و أنا السوابح يوم جمع بايدينا و قد سطع الغبار
لنصطبرن لامر الله حتى يبين ربنا أين القرار

فقال له معاوية: مهلاً يا أبن أخي هذه بتلك. رجعنا الى حديثهم.

منجبات العرب

و قالوا منجبات العرب ثلاث: ماوية بنت عبد مناة بن مالك بن زيد بن عبد الله بن دارم ولدت حاجب و لقيط و علقمة بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم.

و فاطمة بنت خرشب الانمارية من أنمار بن بغيض بن ريث بن غطفان ولدت الكملة من بني عبص الربيع الكامل و عمارة الوهاب و أنس الحفاظ بن زياد.
و أم البنين بنت عمرو فارس الصحيا بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ولدت عامر ملاعب لاسنة و طفيل أبا عامر بن الطفيل الفارس. و معاوية معود الحكام بن مالك بن جعفر بن كلاب.

قال أبو عبيدة: و ذكروا إن دغفل يعني دغفل يعني بن حنظلة البكري النسابة أحد بني عمرو إن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة قال لماوية: لو كانت تعد رابعة لكانت خبية بنت رياح الغنوي. قال: و حدثني مالك بن عامر بن عبد الله بن بشر بن عامر بن ملاعب إن خبية أتاها أت في النام فقال لها: أ عشرة هذرة أحب اليك أم ثلاثة كعشرة؟ ثم أتاها في الليلة الثانية فقال لها مثل ذلك. فقصت ذلك على بعلها فقال له: إن عاد فقولي له ثلاثة كعشرة.
فعاد في الثالثة فقال لها ذلك و نهرها فقالت: ثلاثة كعشرة وقيل إنه قال لها ثلاثة كعشرة أم نكثر لك من الهذرة؟ فولدتهم بكل منهم علامة: أبتكرت بخالد الاصبغ كان في مقدم رأسه شامة بيضاء و كان يصبغها و ثنت بمالك الاحزم يقال له الطيان كان طاوي البطن فسمي بذلك و كان ربيعة الاحوص عجزها كان صغير العينين كلهما مخيطتان فهؤلاء بنو جعفر بن كلاب وكانوا أشراف قومهم واراحهم و ساداتهم.

مدركوا الاوتار

و قالوا مدركوا الاوتار ثلاث: سيف بن ذي يزن و بيهس الفزاري المسمى نعامة و قصير بن سعد صاحب جذيمة الابرش الملك. فاما سيف فاستنجد بكسرى فانجده بوهرز و من ضم اليه من الفرس على الحبشة فقتلهم باليمن و حديثه معروف.
و أما بيهس فان قوماً غزو أرض فزارة فاتوا على أخوته و أهل بيته قتلاً و أسروه فاظهر لهم الجنون و أدخل رجليه في كمي قميصه ليلبسه ليريهم بذلك أختلال عقله فتركوه و كان على الحقيقة مصعوقاً فعد الى قومه فقال: يا حبذا الترات لولا الذبة فذهبت مثلاً فقالت له أمه: لو كان فيك خير لقتلت كما قتل غيرك. فقال: لو خيرت لاخترت فذهب مثلاً ثم حنت عليه و رحمته فقيل إن أم بيهس لتحبه فقال: ثكل أرامها ولداً فذهبت مثلاً. ثم جمع للقوم فغزاهم و معه خاله فوجدهم في حفيرة من الارض فرمى به خاله عليهم و كان طويلاً جسيماً لذلك سمي نعامة فقاتلهم و هو يقول: مكروه أخوك لا بطل حتى قتلهم جميعاً فأدرك ثأره و ذهب قوله هذا مثلاً.

و أما قصير فان حديثه في توصله الى قتل الزباء بجذيمه وجدعه أنفه معروف مشهور و سيأتي ذكره في هذا الكتاب و في قصير و بهيس يقول المتلمس:

و في طلب الاوتار ما حز أنفه قصير وخاض الموت بالسيف بيهس

نعامة لم قتل القوم رهطة تبين في أثوابه كيف يلبس

بيوتات العرب

و قالوا بيوتات العرب ثلاث: بيت تميم بنو عبد الله بن دارم و مركزه بنو زرارة بن عدس و بيت قيس فزارة و مركزه بنو بدر و بيت اليمن: بنو الحارث بن كعب و مركزه بنو عبد المدان. فقال أخرون بل البيت الثالث في معد أيضا و هم بنوا شيبان بن ثعلبة بيت بكر بن وائل و مركزه بنوا قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجديم فقال في اليمن: بل فينا و هو بيت بني الحارث بن كعب و مركزه بنو عبد المدان كما ذكرنا و بيت الاشعث بن قيس في كندة أيضاً. فقال أخرون منهم و بيت الحارث بن حصن بن ضمضم بن عدي بن ضباب الكلبي في قضاعة.

و قال أبو عبيدة: قال أبو عمرو: قدمت العراق فوجتهم يزيدون بيتاً في العرب و هو بيت آل ذي الجدين في ربيعة و لا أعرف في ربيعة بيتاً كبيت آل الجارود بن عبد القيس و لا رجلاً أكرم نن الحكم بن المنذر و لا داراً أنع من البحرين فاسقط بيوتات اليمن و أشار بهذا القول الى تفضيل عبد القيس بن أفصى على بني شيبان بن ثعلبة و تفضيل آل الجارود على آل ذي الجدين فزادوا و نقصوا و أختلفوا و بدلوا قوماً بقوم فتناقضت أقوالهم.

رأي المنصف فيما قيل في مفاخر العرب

و قالوا فرسان العرب ثلاث: عامر بن الطفيل الجعفري فارس عامر بن صعصعة و عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي فارس تميم و سموه صياد الفوارس و سم الفرسان و بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجدين الشيباني فارس بكر بن وائل يكنا أبا الصهباء و سموه المقتمر و قالوا في أمثالهم: سقط العشاء به على بسطام" و رثاهم جميعاً ذو الغلصمة العجلي فقال:

الم ترى بساط بن قيس وعامراً ثوى وابن آل الحكم لحارث بن شهاب

عتيبة ضياد الفوارس عريت ظهور جياد منهم و ركاب

فزادوا أخرون و قالوا: بل فرسان العرب أربعة فذكروا هؤلاء الثلاثة و جعلوا رابعهم عنترة بن شداد العبسي المعروف بالفلحا. فخالف أخرون و قالوا بل الفرسان ثلاثة: عامر بن الطفيل و عتيبة بن الحارث و عنترة بن شداد فجعلوه مكان بساطم و أسقطوا بساطم حذر من أن يكون رابعاً الاهم أتخذوا خصر العدد على ثلاثة فقط عادة و جعلوا ذلك مذهباً لهم و الزموه أنفسهم كما حكى عنهم أبو عبيدة و أبن دريد رحمه الله. و على ذلك فقد ذكرنا خلاف من خالفهم و رد أقوالهم بزيادة أو تبديل و في ذلك طعن عليهم في أعصارهم و أزمانهم فكيف الان! و من هذا المطاع الذي لا يمكن خلافه و لا يحسن الرد عليه منهم هل قال هذا الا قوم من العرب في الجاهلية الغالب عليهم الخطأ و الخطل و الميل مع الهوى و الزلل و لم يقاربوا الانصاف و ما سلموا الفضل لاهله الا ترى أنهم ذكروا بيوتات العرب على ما أوضحناه مما أتفقوا عليه و أختلفوا فيه و لم يذكروا قريشاً في ذلك و لا في غيره و الغوا ذكرهم كأنهم لا يعلمون مكانهم و هم الحي الذي قصر كل فضل على فضله و أستظل الناس جميعاً بظله و لسنا نحتاج الى ذكر فضلهم في الاسلام برسول الله و لا نناظرهم في ذلك لان فضلهم فيه أظهر و أشهر و شرفهم أبهر من إن يذكره ذاكر أو ينشره ناشر و كي لا يقول قائل أنما قالوا هذا في الجاهلية فاما في الاسلام فلو أدركوا زمانه سلموا الفضل لهم و لكننا نناظرهم بفضلهم في الجاهلية الم يكونوا يعظمونهم و يقرون بفضلهم و يسمونهم أسما تركنا ذكره تحرجاً و الغيناه تعمداً لتجاوزهم الحد فيه و أقدامهم على التلفظ بما لا يحل لاحد إن يتلفظ و لعل من نظر في هذا الكتاب لا يخفى عنه ما أشرنا اليه فأنه لا شك قد طرق سمعه إنه كانوا يسمونهم آل الله و نستغفر الله لكل ذنب الم يكونوا يضربون بهم الامثال في المآثر و خلال المجد و المفاخر حتى إن بني عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم كانوا ذوي فصاحة و صباحة و شجاعة و سماحة و شرف ظاهر في قومه فسموهم بذلك قريش تميم و كانوا: بنو كنانة بن تميم بن أسامة بم مالك الارقم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بهذه الصفة في قومهم فكانوا يسمونهم قريش تغلب". الم يكونوا يسمون المهالبة في الاسلام لشرفهم: هاشم الازد الم يقل الحارث بن ظالم المري مرة غطفان و كان قومه بنوا مرة بن عوف يجلحون الى قريش:

رفعت الرمح أذا قالوا قريش و عاينت العمائم و القباب
فما قومي بثعلبة بن سعد و لا بفزارة الشعرا الرقابا
و قومي إن سألت بني لؤي بمكة علموا الناس الضرابا

و قالوا أيضاً:

اذا فارقت ثعلبة بن سعد و أخوتهم رجعت الى لؤي

الى نسب كريم غير راغب و حي هم أكارم كل حي

فان تعلق بهم نسبي فمنهم قرابين الاله بنو قصي

الم يكونوا أذا قدم أرض الحي من أحيائهم رجل من قريش عكفوا حوله كما كانوا يعكفون على أصنامهم أعظاما و لاذوا به أكراماً فما بالهم لم يبدأوا بذكرهم في البيوتات كما بدأوا بذكرهم في القرعة فأنهم لما أرادوا تجديد القرعة التي كانت بينهم في صدر زمن الجاهلية أجتمعوا بعكاظ في وسط من جاهليتهم فقالوا:

هلموا نجدد القرعة فاتفقوا على تقديم معد بن عدنان فقدموهم

و قدمت معد مضر و قدمت خندب على غيرها من مضر و تقدمت مدركة على غيرها من قبائل خندف فاخرجت قبائل مدركه قداحها ثم أقرعوا ففازوا جميعا الا لهون بم خزيمه فأنهم خابوا فقالت العرب إن بني مدركة بن خندف:

قد سبقوا الناس غداة الموقف و خلفوا الهون بشر تخلف

و أقرعت طابخة ثم قيس بن ربيعة ثم قبائل اليمن ففاز من كل قبيلة قوم و خاب قوم و حديث القرعة موجود معروف فكيف عرفوا فضلهم هناك فبدأوا بهم و قدموهم و أنكروه هاهنا فاغفلوهم و تركوهم و ما بالهم لم يقولوا بيت مدركة قريش و مركزة بنو هاشم الذي أقر بفضلهم الشريف و الدني و سام له العدو الولي ثم يقولون بعد ذلك و بيت تميم دارم و مركزه بنوا زرارة و بيت قيس فزارة و مركزه بنو بدر ثم يرمون في حديثهم فان كل مفتخر بأمر غير منكر لفضل قريش عليه فلم يذكروهم في البيوتات و لا الاثافي و لا الجمرات و لا الجماجم و لا الرضفات و لا ذكروا أحداً منهم في الارحاء و لا الغلاصم و لا الازمه و لا البدور و لا في الفرسان و لا في الاوفياء و لا الاجواد و لا في الشعراء و لا في مدركي الاوتار و لا ذكروا من نسائهم منجبه و لا نسبوا اليهم منقبة و رووا ذلك كله منهم الى غيرهم فلم يذكروا الاحد منهم فيه أسماً و لا جعلوا لهم في شيء منهم نصيباً و لا سهماً و هذا من أقوى الادلة على أنهم مروا في الهوى و خبضوا العشواء.

أيام العرب

و قالوا أيام العرب ثلاثة: يوم جبله و هو الاول و هو بين بني تميم و بين عامر و روي إنه كان قبل الاسلام بثلاثين عاماً أو أربعين. و يوم الكلاب الثاني يوم عبد يغوث بين النمر و تميم و كان قبل الهجرة

و رسول الله .بمكة. و يوم ذي قار بين بكر بن وائل و الفرس و روي إنه كان بعد يوم بدر بشهرين.
و قالوا حروب العرب ثلاثة: حرب الناب و هو حرب البسوس بين بكر و تغلب أبني وائل جره قتل كليب بن ربيعه فاحتربوا فيه أربعين سنة. و حرب الرهان في مجرى داحس بين عبس و ذبيان أبني بغيض أحتربوا فيه أربعين سنة. و حرب بعاث بين أبني قيلة و هما الاوس و الخزرج لم يزل بينهم الى إن أسلموا فاصطلحوا فما بالهم لم يذكوا لقريش حرب الفجار الكبرى خاصة دون غيره من حروب الفجار فانه لم يكن بدون ما ذكروه من الحروب في طول المدة و لا في تردد الوقائع و لا كانت القتلى فيه أقل عدد و قد تفاقمت الامور فيه حتى أستنجدت قريش و كنانة بقبائل خندف كلها و أستنجدت هوازن بقبائل قيس كلها و أصيب فيها من الاشراف من الفريقين من هو مسمى معروف و لم يطفه الى قيام الاسلام.

الاجربان

و قالوا: الاجربان عوف و ذبيان و كان من دنا اليهم بشر عروه حتى كأنه لم يكن في العرب حيان يذكران بالنجدة سواهما.

الحليفان

و قالوا الحليفان أسد و غطفان على كافة العرب من الفرسان هذا عتيبة بن الحارث فارس تميم فر عن أبنه حزره يوم ثبوره حتى قتل و قال:

نجيت نفسي و تركت حزره نعم الفتى غادرته بثبره

لا يترك الحر الكريم بكره و قد تقدم ذكر ذلك ثم قتل عتيبة ذؤاب بن ربيعة بن عمرو بن جذيمة بن نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن ذودان بن أسد بن خزيمة يوم خو فينبغي إن يكون قاتله أشجع منه. و هذا بسطام بن قيس فارس بكر بن وائل فر عن قومه يوم العظالى. و فر من عتيبة بن الحارث يوم غبيط المدرة و القى درعه ليخف به فرسه فلم يزل عتيبة يلح عليه حتى أسره.
و روي إنه كان تحت بسطام فرس له شقراء و كان تحت عتيبة مهر لتلك الفرس فجعل عتيبة يصيح أستأسر يا أبا الصهباء خير أسير فيقول بل شر أسير فيصيح به أستأسر فأنا خير لك من الفلاة و العطش فيقول: ما شاءت الشقراء. فلم يزل يطرده حتى أسره ثم نادى أخاه السليل أو ناداه بعض بني يربوع لا تكر على أخيك يريد إن يحرجه بذلك فيكر طمعاً في إن يأسروه أيضاً فهم بان يكر فناداه بسطام و هو في أيديهم: أنا حنف إن كررت فرجع كذا روي و لعله كان نصرانياً فان النصرانية كانت فاشية في ربيعة و عيرهم العوام بن شوذب الشيباني بذلك فقال:

ان يك في يوم العظالى ملامة فيوم الغبيط كان أخزى و الاما
و فر بنوا الصهباء إذ حمس الوغى و القى بابدان السلاح وسلما
فلو إنها عصفورة خلت أنها مسومة تدعو عبيدا و أزنما

الابدان: الدروع و أزنم بن عبيد بن ثعلبه بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن أمين ثم قتل بسطام بعد ذلك عاصم بن خليفة الضبي و كان فتى مصعوقاً فيما روي و كانت له حديدة لا يزال يحميها في النار و يغمسها في البول و يقال له: ما تصنع بهذه الحديدة يا عاصم؟ فيقول: أقتل بها رئيس بكر بن وائل. فلما أغار بسطام على بني ضبة يوم النقا و طرد الانعام لحقه التبع فقام خليفة الضبي فاسرج فرسه و دخل بيته ليلبس درعه فسبقه أبنه عاصم الى الفرس فركبها فصاح به فلم يعرج عليه فلما رأى إنه لايعود اليه ناداه فاوصاه كيف يصنع و قيل إنه كان أوان مركان يعرض له من الجنون فتم حتى لحق القوم و بسطام يطارد أوائل الرعيل في أغقاب الابل و تحته فرس أدهم فتعلق عاصم ببعض قومه فقال له: بابي أنت أرني سيدهم. فقال: تراه بحيث هو صاحب الفرس الادهم. فشد عليه من أعلى الرمح و رماه بنفسه فطعنه بتلك الحديدة و كان قد جعلها على عارضة من عمد البيت فاصابت سماخه فسقط ميتاً و في ذلك يقول الفرزدق :

خالي الذي نزل النجيع بسيفه يوم النقا شرقاً على بسطام

لان أمه ضبية و قد تقدم ذكرها فينبغي إن يكون قاتله أشجع منه. و هذا عامر بن الطفيل فر عن أخيه الحكم بن الطفيل يوم الرقم و هو يوم ناجح و فر من عقبه بن مرثد الأسدي و أمكنه من ظهره فطعنه في عجاته فاعقمه فينبغي أن يكون الذي هزمه و طعنه أشجع منه. و هذا عنترة بن شداد فر و أعتذر عن فراره بقوله:

و ليس الفرار اليوم عار على الفتى و قد جربت منه الشجاعة بالامس

ثم أنهم ذكروا الاسباب التي فضلوا بها هؤلاء الفرسان و قدموهم على غيرهم فقالوا: قالت ربيعة و من فضل بسطام لبني عامر و لبني تميم عدوا لعامر بن الطفيل و عتيبة بن الحارث مثل قتلى بسطام قتل بجيراً و عفاقاً و أبني مليل و أسر أباهما و قتل مالك بن حطان و جرح الاحيمر و هؤلاء جميعاً من بني يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن تميم ثم من بني ثعلبة بن يربوع فقال التميميون: هؤلاء كانوا يسرعون إليه فرادى فقتلهم وقد صار فخره بهم لعتيبة بن الحارث باسره أباه و قتل عتيبة يوم غول أبني هجيمة الكنديين و هما أفضل من هؤلاء الاحداث. ثم قالت تميم و ربيعة لقيس فمن قتل عامر بن الطفيل و من

أسره؟ فقالوا: أذا أجمع على شرف الرجل و شجاعته و جوده لم يسأل عنه. أن عامراً كان بمنزلة الخليفة لا يسأل عمن قتل و لا أسر فادعوا دعوى مطلقة بغير بينه و لم يسموا أحداً من القتلى و هذا اللفظ يدل إنهم تناظروا هذه المناظرة و تفاخروا هذه المفاخرة في الاسلام.

قال أبو عبيدة: و كان بسطام و عتيبة عفيفين و كان عامر عاهراً فهذا كان غاية ما نسبوه إليهم من الفتك و أعتدوالهم به من الشجاعة و أحصوه لهم من القتلى و فضلوهم به على سائر العرب و هو أيضاً قول عشائرهم الذين أفتخروا بهم و المفاخرة كالمبارزة لا يترك المرء لنفسه فيها حجة إلى يوردها و لا غاية الى ينتهي إليها و ربما أدعى أيضاً ما لم يكن إن أمكنه ذلك و إذا سلمنا إليهم كل ما أدعوه و قطعنا على صحته فليس هو مما يقتضي بعض ما يدعونه لهم فكيف كله و لولى تجنب التطويل لذكرنا لغير واحد من فرسان الجاهلية أضعاف مما أدعوه لهم من الفتك و كثرة القتلى فاما عنترة فإنهم لم يسموا له من القتلى غير قتيل واحد قالوا: قتل ضمضم بن جابر بن يربوع المري مرة غطفان و ذكر قتله في شعره و أوعد أبنيه حصيناً و هرماً فقال:

و لقد خشيت بان أموت و لم تدر — للحرب دائرة على أبني ضمضم
الشاتمي عرضي و لم أشتمهما — و الناذرين إذا لم القهما دمي
أن يفعلاه فقد تركت أباهما — جزر السباع و كل نسر قشعيم

ثم قالوا بعد ذلك و كانوا من فرسان عبس في حرب الرهان و ليس، قتل ضمضماً مما يوجب و لا يقضي معشار ما يدعونه له من الفروسية و التفضيل، ثم تخرقوا له بأن قالوا: كان يسمى عنترة الفوارس، فأن كانوا فضلوه بشدة البأس و كثرة الفتك، و قد وجب إن يسموا قتلاه و يدلوا عليهم و يستشهدوا على قتلهم كما سموا ضمضما و أستشهدوا على قتله و إن كانوا فضلوه بتسمية عنترة الفوارس، فقد وجب إن يفضلوا كعب الفوارس بن معاوية بن عبادة بن البكاء العامري، و زيد الفوارس بن حصين الضبي و زيد الخيل الطائي، فلا فرق بين هذه الأسماء، و كم كان في العرب من أمثال هؤلاء الفرسان و فوقهم و دونهم، و كيف و لم يذكروا من تقدم في زمانه و زمان هؤلاء الذين فضلوهم من فرسان بكر و تغلب مثل كليب وائل و هو كليب بن وائل التغلبي و قد فتك بملوك اليمن و قتلهم، و أخيه مهلهل الطالب بثأره، و جساس بن مرة قاتل كليب وجحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، و أبن أخيه الحارث بن عباد، و عوف البرك و سهل الزماني المعروف بالفند، و قد طعن، و هو شيخ كبير قد ضعف، رجل خلفه رديف فنظمهما معاً بالرمح فقتلهما، و جحدر بن ضبيعة هذا الذي تقدم ذكره، هو الذي قتل عمر و

عامر التغلبيين يوم قضة و قد ذكرهما المهلهل في شعره. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: سمعت عامرا أظنه عنا عامراً بن عبد الملك المسمعي يقول: حدثني قتادة بن دعامة إن بعض جلفاء بني أمية كتب اليه مع راكب، من قتل عمرا و عامرا يوم قضة؟ قال: قتادة: فكتب اليه مع رسوله إن جحدرا قتلهما فكتب الي قد فهمت ما ذكرت من قتل جحدر عمرا و عامرا، فكيف كان قتله أباهما فسره لي، فكتب اليه أنهما كانا أعتوراه، فقتل أحدهما بعالية الرمح و الآخر بسافلته في نقاب أي و الى بينهما. فما لهم لم يذكروا هذين الفارسين المشهورين المتقدمين المبرزين في الشجاعة و الزمان أيضاً، و ما لهم لم يذكروا من عامر هؤلاء الذين فضلوهم أو قارب زمانه زمانهم مثل قيس بن زهير العبسي، و حمل بن بدر الفزاري و عمرو بن الكلثوم التغلبي قاتل عمرو بن هند الملك في سرادقه وسط عسكره، و الحوفزان بن شريك الشيباني قاتل الملوك و مبيرها أنفسها، و الحاث بن حصن الكلبي المعروف بالحرشا، و عمرو القنا السعدي، و ضرار بن الرديم الضبي، و الحارث بن ظالم الفاتك، و أبي ضمرة يزيد الأشعر بن سنان بن أبي حارثة المريين معاً مرة غطفان، و عمر بن عبد بن أبي قيس بن عبد ود العامري، عامر قريش فارس العرب غير مدافع قتله أمير المؤمنين علي عليه السلام بين يدي رسول الله مبارزة يوم الأحزاب و جذل الطعام علقمة بن فراس الكناني، و أبن أبن أبنه ربيعة بن أعين بن مالك بن علقمة المسمى جذل الطعان أيضاً، و أنما سموهما بذلك لصبرهما على الطعان، و أستهدافهما له قياساً بالجذل، و هو خشبة تنصب للأبل في أعطانها لتحك بها، و ربيعة بن مكدم الكناني أيضاً، و قد رووا أنهم لا يعلمون فارسا حمى الظعائن حيا و ميتاً غيره، فانه قاتل وحده دونهن بثنية غزال حتى أطالعهن الثنية و فيه يقول رجل من قومه :

و منا بالثنية من غزال فتى منع الظعان إن تراما

يكر و يعتزي ذمار قوم كما ثب القطامي الحماما

فلما أثخن جراحا و علم إنه هالك قال لأمه:

شدي علي العصب أم سوار فقد رزئت فارساً كالدينار

و أمر النساء فاوثقنه بالحبال الى سرج فرسه و أوثقن الفرس رباطا برأس الثنية و أخذن أنفسهن فنجين و ظنه القوم حيا فهابوه فلم يقدموا عليه عامة يومه ثم طال ذلك عليهم فهجموا عليه فوجدوه ميتا و قد يئسوا من اللحاق بالظعائن فلذلك قالوا إنه حمى الظعائن حيا و ميتا.

و مثل عامر بن مالك الجعفري و قد سموه ملاعب الأسنة لشجاعته و صخر بن عمرو بن الشريد السلمي و كيف لم يذكروا أحدا من المخضرمين كخالد بن الوليد المخزومي و عمرو بن معدي كرب الزبيدي

صاحب المواقف المشهورة في الجاهلية و الإسلام و طليحة بن خويلد الأسدي و المثنى بن حارثة الشيباني قاتل مهران و أبي عبيد بن مسعود الثقفي قاتل الفيل و أبي محجن الثقفي فارس الناس بالقادسية و كيف لم يذكروا فرسان الصحابة و التابعين غير أنهم خصوا هؤلاء النفر بالتفضيل على من تقدمهم و عاصرهم و تأخر عنهم و أي مسبة تكون على العرب أعظم من إن لا يكون فيهم من لا يعد بالفروسية الا ثلاثة أو أربعة فان أحتج لهم محتج و أعتذر عنهم معتذر بانهم لا يعتدون بالفروسية الا لمن كان جاهليا فقد وجدوا في الجاهلية من هو مثلهم و أشجع ثم بهذه أدحض حجة و أقبح عذرا و لا يعلم من قال ذلك إنه قد جعل الإسلام لأهله ذنبا و جعلهم عليه غضاضة و نقصان فنعوذ بالله من ذلك.

فرسان الإسلام بحمد الله أولى بالتقديم في كل شرف و فضل لما جمع الله لهم من البصيرة في الدين الى النخوة العربية و أنضلف لهم من صدق اليقين الى شدة الحمية و لما عدوا به عن الصبر من الثواب و أوعدوا به و أوعدوا به على تولية الأدبار من العقاب، فصار ذلك أصح و أشد لعزائمهم و أنفذ و أثقب لبصائرهم و هان عليهم الأرخاص بالنفوس في الجهاد طلبا للفوز في المعاد فهم بالفضل أولى، و بالشرف في كل حال أجدر و أحرى، و هل ذكر لؤلئك الغوارين الفرارين مثل مواقف المسلمين الصابرين الذين كلف الواحد منهم قتال عشرة؟ ثم لما خفف عنهم كلف قتال أثنين و جعلت له الجنة على أصطباره و النار على فراره، و من نظر في أيام العرب في الجاهلية و أطلع على سيرهم وجدها كلها أو أكثرها غارات لا غير، كان بعضهم يغير على بعض فان و أفق منهم غرة و ضعفا نهب و سبى، و إن أنس منهم منعة و عزا أغار على الأنعام فطردها، فاما إن يفوت بها أو ببعضها أو يلحقه الطلب، فان وجد الذين أغروا في أنفسهم ضعفا عمن تبعهم طاروا هربا، و أم كانوا عدتهم ثبتوا لهم فاقتتلوا عندها فيقتل بينهم الواحد و النفر، أو يؤسر الواحد و النفر أو لا يقتل بينهم أحد، فهذا كان مقدار حروبهم في أيمهم كلها أو في أكثرها حتى إن الايام الثلاثة المذكورة و هي يوم جبلة و يوم الكلاب الثاني و يوم ذي قار لم تزد مباشرتهم فيها للحرب على بعض نهار، كام في أوله أبتداؤها و في بعضه أنقضاؤها، و ذلك ما روي من حرب الناب بين أبني وائل، و حرب الرهان بين أبني بغيض، و حرب البعاث بين أبني قبيلة الأوس و الخزرج، و حرب الفجار الأكبر، و هو فجار اللطيمة دون غيره من حروب الفجار، و إن كانت أزمان هذه الحروب أمتدت و الوقائع فيها تكررت فانهم كانوا أذا أحتشد بعضهم لبعض فغزوهم، أو تدانت بهم الديار على المياه و الحباء فتقاربوا و تغارو أو تواعدوا موضعا يلتقون فيه، فاقتتلوا ثم تكافقوا أو تحاجزوا أو كان ذلك اليوم بعضهم على بعض، ثم نكفوا من غالب أو مغلوب. و لم تزد مباشرة لحروب بينهم على يوم واحد أو بعضه ثم يفترقون تنتأى بهم الديار و تبعد بينهم المسافة الى مدة أخرى و زمان أخر، فاما أقامة و منازلة و محاسبة و مطاولة كما يروي من جهاد أهل الإسلام للروم و غيرهم، و كحروبهم

فيما بينهم بصفين و غيرها، فلم يذكر لهم كمثل ذلك و لا دونه.
ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام إن مروان و الضحاك بن قيس الفهري تنازلا بعسكريهما بمرج راهض، و الضحاك يدعو الى أبن الزبير، فاقتتلوا عشرين يوم أشد قتال، ثم قتل الضحاك و قتل معه ثمانون رجلا من أشراف أهل الشام كلهم يأخذ القطيفة، و القطيفة: الفان من العطاء.

و ذكر أيضا إن الحجاج و أبن الأشعث تنازلا بعسكريهما بدير الجماجم مائة يوم من أول يوم من شهر ربيع الأول الى عشر مضين من جماد الآخرة، و ذلك في سنة ثلاث و ثمانين يتغادون القتال و يتراوحونه ثم يهزم أبن الأشعث أحدى و مائتي و قعة و لم يكن في حروب الجاهلية ما يقارب معشار ذلك، و روي لأحد من العرب في أيامهم كلها مثل موقف المسلمين بمؤته لما لا يحصى عدده من الروم كثرة حتى أستشهد أمراؤهم و كثير معهم رضي الله عنهم، أو مثل موقف أصحاب الحسين عليه السلام في أثنين و سبعين صبروا لعشرة الاف أو نحوها ينصرون الله سبحانه و رسوله ، و أمام الهدى عليه السلام لم يلتفت أحد منهم وراءه حتى لقوا الله صابرين محتسبين قد فازوا بالشهادة، و هي النعمة العظما و المنحة الكبرى بعد إن أصابوا من الأشقياء الظالمين أضعاف عدتهم و أمثالهم، فسلام الله و بركاتهو رضوانه و تحياته على أرواحهم و أجسادهم و نسأله إن يحشرنا معهم و يرزقنا شفاعتهم و لولا أننا نقصد نشر فضل أهل الحق لا أهل الباطل لذكرنا صبر الخوارج في حروبهم فانهم ممن يدعو بدعوة الإسلام و إن كانوا قد مرقوا. و هل ذكر لاولئك الغوارين الفرارين في حروبهم في الجاهلية أنهم أبتلوا بمثل ما أبتلى به فرسان الإسلام في الحروب العظيمة الهائلة في جهاد أهل الكفر من سائر الأمم كيوم أجنادين و هو موضع بين الرملة و بيت جبرين التقى فيه المسلمون و فيهم أبو عبيدة بن الجراح و خالد بن الوليد و يزيد بن أبي سفيان بن حرب و شرحبيل بن حسنة و عمرو بن العاص، و قيل كان على الناس يومئذ أبو عبيدة و قيل خالد، و الروم عليهم تذراق أخو هرقل، و روي إنه أخزاه الله و هو الذي كان على الروم يوم مؤتة فانهزم الروم يومئذ و قتل تذراق و ذلك في جمادي الآخرة سنة ثلاث عشر في أيام الصديق أبي بكر ثم بمرج الصفر و قد جمع لهم الروم و عادوا اليهم بعد أيام في الشهر بعينه فالتقوا بمرج الصفر و يومئذ قال خالد بن سعيد بن العاص :

من فارس كره الطعان يعيرني رمحا أذا نزلوا بمرج الصفر

و أستشهد خالد بن سعيد يومئذ و هزمت الروم أيضا و بلغ ذلك هرقل و هو بحمص فرحل منها الى أنطاكية ثم باليرموكو كان برجب سنة خمس عشر في أيام عمر و أبو عبيدة على المسلمين فاستشهد

الفضل بن العباس عليهما السلام و هزمت الروم أيضا حتى أنتهت هزيمتهم الى هرقل و هو بانطاكية فاشرف على الشام فقال: السلام عليك يا أرض سورية سلام مودع لا يرى إنه يرجع اليك أبدا. و خرج الى القسطنطينية و قطع مسيرة بين مسروق الدرب في آثار الروم فكان أول من قطع الدرب و دخل بلاد الروم و كم من يوم مثل هذا و أنما ذكرنا المشهور منها. و روي ليزيد بن أبي سفيان بن حرب في ذلك و أمثاله من حروبهم.

لو أبصت أم الحويرث خيلنا عشية فحل و المنايا خوافق
عشية القينا الرماح و لم يكن لنا ولهم الا السيوف مخارق
أذا ما أثرنا النقع تنفرج لنا عماياه الا و النفوس زواهق
تعادى بنا الموتى مرخ رواقه مسومة من جانبيه موارق

وروي له أيضاً:

ابلغ أبا سفيان أنا و قومنا على خير حال كان جيش يكونها
قضينا أمورا باليراميك فانقضت و نحن على بابي دمشق ندينها
نصبنا عليها كل خطارة الضحى شغور الأعلي لم تحنها لينها

و روي له أيضاً يعاتب عمر في أمر لا يعلم ما هو:

اتنسى باللائي يوم رحبة جاسم و قد نهلت أرماحنا ثم علت
نجالد و الهابي يمور عجاجة كتائب زافت نحونا فاحتالت
اذا ما حملنا قاتلونا بفيلق اذا أمتريت بالمرهفات أستهلت
فما برح الغاران حتى تنزلت ملائك جاسوا الروم حتى تولت

و كايام القادسية و المدائن و جلولاء و نهاوند في جهاد الفرس، و لم يكن المسلمون يهابون أمة من الأمم مثل فارس فروي إن عمر كان يأخذ بخطام بعير الرجل فيصرفه نحو العراق فيصرفه نحو الشام و يقول: يا أمير المؤمنين لا أكراه في الدين، فيقول بلى أكراه في الدين عليكم بالعراق فان بها جهاد و مغانم. و بعث أبا عبيد بن مسعود الثقفي الى العراق على جماعة من المسلمين أكثرهم من الأنصار، و أنضاف المثنى بن حارثة الشيباني الى أبي عبيد، فحاربا ذا الحاجب قائد الفرس و هو أربعة الاف دارع بباروسما و ذلك في سنة ثلاث عشرة، و كان مع ذي الحاجب فيل كسرى الأبيض، فقال أبو عبيد أما لهذه الدبة المشؤومة

من مقتل؟ فقيل: بلا خرطومه هذا إن قطع هلك، فشد عليه فضربه فقطع خرطومه، ووقع الفيل عليه فماتا جميعا و تفرق الناس، و قام بامر من بقي من المسلمين المثنى بن حارثة و نزل بهم الليس. ثم التقى جرير بن عبد الله البجلي و المسلمون بمهران و الفرس عند النخيلة، و الفرس يومئذ في أثني عشر الف و معهم ثلاث فيلة فهزمهم المسلمين، و قتل مهران يومئذ ثم بعث عمر بن سعد بن أبي وقاص في سنة أربع عشرة و كانت الوقعة بالقادسية في سنة خمس عشرة، فروي إن العسكري لما تقربا قال رجل من المسلمين :

الا أبلغ أمير المؤمنين باننا و رهط أبن كسرى بيننا عشر أذرع

قذفتم بنا في نحره و قعدتهم بمرأى لعمري في الحياة و مسمع

سلام عليكم في سرور و غبطة سلام أياب أو سلام مودع

فروى إن هذا الشعر لما بلغ أهل المدينة بكى عمر و المسلمون و قال: بشر بن ربيعة الختمي لسعد بن أبي وقاص بعد ذلك في أمر عرض:

تذكر هداك الله وقع سيوفنا بباب قديس و المكر عسير

غداة يود القوم لو إن بعضهم يعار جناحي طائرٍ فيطير

قوله قديس يعني القادسية، و قيل إن الذي بناها مرزبان بن مرازبة الفرس يقال له قادس فعرفت به.

وقعة الجمل

و ذكر بعض أصحاب التأريخ إن المسلمين لما حاربوا الفرس بنهاوند في سنة أحدى و عشرين و عليهم النعمان بن مقرن، و أستشهد يومئذ رحمه الله. و كانت الفرس مائة الف، و قد جعلوا أنفسهم في سلاسل فجعلوا كل عشرة منهم في سلسلة. فهل يذكر إن فرسان الجاهلية أبتلوا بحرب مثل هذه الحرب و بمنازلة قوم هذه صفتهم؟ و هل يذكر لهم مثل حروب الإسلام في ذات بينهم كيوم الجمل بالبصرة و أيام صفين فانها طالت و تكررت فيها الحروب و الوقائع؟. و كيوم الخوارج بالنهروان و مواقف فرسان الصحابة البدريين و غيرهم من المهاجرين و الأنصار و من التابعين بأحسان رضي الله عنهم و صبرهم في الجهاد في هذه الحروب؟ فروي إن علي عليه السلام لما واقف أصحاب الجمل في البصرة و نادى طلحة و الزبير فخرجا اليه فناضرهما و الحديث في ذلك مشهور، نادى الناس يا أمير المؤمنين منا ننتظر بالقوم. فقال: يا أيها الناس إنه ستكون خصومة يوم القيامة فدعونا نزداد أخذا بالحجة عليهم، ثم قال: من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم الى ما فيه م هو مقتول و له الجنة فاحذه فتى يقال له مسلم و دنا منهم فرفعه، و

نادى: أيها الناس إن أمير المؤمنين يدعمكم الى ما في هذا المصحف فشدوا عليه فقتلوه فجاءت أمه فاحتملته و أقبلت به و رجلاه تخطان في الأرض فالقته بين يديه و هي تقول:

يا رب إن مسلما دعاهم الى كتاب الله لا يخشلهم
فخضبوا من دمه قناهم

في رجز لها، ثم رموا أصحابه بالنبل من كل جانب فنادوا يا أمير المؤمنين نضحنا القوم بالنبل فقال: مهلا فقد كنت أرى رسول الله يحب الحملة أذا قاب الأحياء. و لم يزل واقفا حتى حملت اليه القتلى من الميمنة و الميسرة فالقيت بين يديه، فحينئذ أذن لأصحابه في الحرب، فكانت ساعة هائلة. و روى بعضهم إن الرماح أشرعت بين الفريقين حتى لو إن الرجال مشوا علها لحملتهم. و روي عن أخر شهد الحرب يومئذ إنه قال: ما دخلت قط ديار الوليد بالبصرة الا ذكرت وقع السيوف على البيض في تلك الساعة و كانت دار الوليد للقصارين، و كان فيها عشرة الاف قصار. و كان أصحاب علي عليه السلام عشرة الاف أو نحوها أصحاب الجمل أربعة و عشرون الفاً، فاصيب من الفريقين بعد زوال الشمس الى وقت العصر زاد على عشرة الاف منهم من أصحاب علي عليه السلام دون الالف الباقون من أصحاب الجمل ثم طفيت الحرب. و روي إنه كان لعلي عليه السلام راية يقال لها الجذل ترفع عند الشدائد و فيها يقول الأشتر :

اذا ما حسسنا ضرام الوغى ادرنا الرحى تحت ضل الجذل
بضرب يفلق هاماتهم و طعن لهم بعوالي الأسل
ابا حسنٍ ضرب خيشومها فحولك كل محام بطل

فالتفت المسلمون فرأوا الجذل تهفوا فقالوا: إن أمير المؤمنين لم يرضى فعالكم، فاقبل بنفسه، فتقدم مالك بن الحارث الأشتر النخعي، و كان لا يصاحب الا الصعاليك، و لا يصر على درهم، و لا يأكل طعام وحده، فدنا فيمن معه و هو يقول:

حرب عوان من جناها هالك طلحة فيها و الزبير ماحك
لو قدها بالسمهري مالك و مالك فها الغداة دارك
اخوانه في حربة الصعاليك حيث يثير نقعها السنابك
و الموت بين الفيلقين بارك يا طلح يا طلح لما تماحك

ان علياً للهدى لمالك ان علياً من عصاه هالك

في دفعه عن حقه المهالك لا يجبه الحجة الا ماحك

و تقدم عدي بن حاتم في طي و هو يقول:

حرب عوان من جناها نادم طلحة فيها و الزبير آثم

اني عدي ثم شيخي حاتم سيان منكم قاعد و قائم

و ساهر لحربنا و قائم يا طلح يا طلح بما تخاصم

ان علياً بالكتاب عالم ان علياً من عصاه آثم

لا يجيبه الحجة الا ظالم و تقدم زهير بن قيس في بني الحرث بن كعب، و كانوا نيران مذحج الذين يفعلون الأفاعيل و هو يقول:

ايه بني الحارث أيه لا شلل لا عيش الأضرب أصحاب الجمل

بالمشرفيات و الطعن بالأسل حطوا علياً تبلغوا كل الأمل

ليس لكم بعد علي من بدل و القول لا ينفع الا بالعمل

ثم شدوا عليهم من كل جانب فانتقضت صفوفهم، و إن فضوا و أصيب منهم من أصيب و فر منهم من فر فنادت عائشة: يا بني أمكم، أمكم، فثابوا فاحدقوا بالجمل و معضمهم الأزد و ضبة و أشواب من الناس فلم يطف به ساعتئذ شيء الا مات، و هناك كان الكثر القتلى في سنة ست و ثلاثين نقطة و روى إن كان يوم الخميس عاشر جمادي الاخره.

وقعة صفين

و أخبرنا جماعة عن محمد بن الحسن عن جماعة عن أبي المفضل عن حميد بن يونس بن علي العطار عن نصر بن مزاحم عن عمر بن سعد في حديث ذكره في يوم وقعة الماء بصفين قال: لما أشتد بالناس العطش و تزاحفوا عند الشريعة دعا الاشتر بالحارث بن همام النخعي ثم الصهباني فاعطاه لواءه و قال له: يا حارث لولا أني أعلم أنك تصبر عند الموت لم أحبك بكرامتي. فقال: و الله يا مالك لاسرنك اليوم في لوائك أو لاموتن فتقدم و هو يقول:

يا أشتر الخيرات يا خير النخع و فارس المصر أذا عم الفزع

و كاشف الامر أذا الامر وقع ما أنت في الحرب العوان بالجذع

قد جزع القوم و عموا بالجزع و جرعوا الغيظ و غصوا بالجرع

ان تسقنا الماء فغير مبتدع ان نعطش اليوم فجند منقطع

ما شئت خذ مني و ما شئت فدع

فقال له الاشتر:

ادن مني يا حارث فدنا منه فقبل رأسه و قال ما يتبع هذا الا خير يا حارث. ثم قام الاشتر فحرض أصحابه و هو يقول فدائكم نفسي شدوا شدة المجرح الراجي للفرج فإذا نالتكم الرماح فالتووا فيها و أذا عضتكم السيوف فاليعض الرجل على ناجذه فانه أشد لشؤون الرأس ثم أستقبلوا القوم بهامكم .

و بالاسناد عن نصر بن مزاحم عن عمرو بن شمر عن جابر بن عامر بن الحارث بن أدهم و عن صعصعة بن صوحان العبدي، قال: قتل الاشتر في تلك المعركة سبعة و قتل الاشعث خمسة و لكن أهل الشام لم يثبتوا فكان الذين قتلهم الاشتر صالح بن فيروز العكي و مالك بن أدهم السلاماني و رياح بن عبيدة الغساني و أبراهيم بن الوضاح الجمحي و زامل بن عتيك الجذامي و الاجلح بن منصور الكندي و محمد بن روضه الجمحي. قال: خرج الاشتر على فرس محذوف كأنه حلك الغراب و خرج اليه رجل من أهل الشام يقال له صالح بن فيروز و كان مشهور بشدة البأس فقال:

يا صاحب الطرف الجواد الادهم اقدم أذا شئت علينا أقدم

انا أبن ذي العز و ذي التكرم سيد عك و كل عكٍ فاعلمِ

فبرز اليه الاشتر و هو يقول:

اليت لا أرجع حتى أضربا بسيفي المسلول ضرباً معجبا

انا أبن خير مذحج مزكيا و خيرهم نفسا و أما و أبا

ثم شد عليه بالرمح فقتله ثم رجع الى مكانه فخرج اليه فارس يقال له مالك بن أدهم السلاماني و كان من فرسان أهل الشام و هو يقول:

اني منحت صالحا سنانيا اجبته في الروع أذ دعانيا

لفارس أمنحه طعانيا

ثم شد على الاشتر فلما رهقه التوى الاشتر على فرسه فاذا هو في بطن الفرس و مار السنان فأخطأه و أستوى الاشتر على فرسه و شد عليه و هو يقول:

جاءك رمح لم يكن خوانا

و كان قدما يقتل الاقرانا بوأته لخير ذي قحطانا

لفارس يخترم الفرسانا اشتر لا وغلا و لا جبانا

و ضربه فقتله فخرج اليه فارس أخر يقال له رياح بن عبيدة و هو يقول:

اني زعيم مالك بضرب بذي غرار من جماع القلب

عبل الذراعين شديد الصلب

فخرج اليه الاشتر و هو يقول:

رويد لا تجزع من الجلاد جلاد قرم جامع الفؤاد

يجيب في الروع دعا المندي يشد بالسيف على الاعادي

ثم شد عليه فقتله فخرج اليه فارس أخر يقال أبراهيم بن الوضاح و هو يقول:

هل لك يا أشتر في برازي براز ذي غشم و ذي أعتزاز

مقام لقرنه لزاز

فخرج اليه الاشتر و هو يقول:

نعم نعم أطلبه شديداً معي حسام يفصم الحديدا

يترك هامات العدا حصيدة

فقتله فخرج اليه فارس أخر يقال له زامل بن عتيك الجذامي: و كان من أصحاب الالويه فشد عليه و هو يقول:

يا صاحب السيف الخضيب المضرب و صاحب الجوشن هذا المذهب

هل لك في طعن غلام محرب يحمل رمح مستقيم الثعلب

ليس بحياد و لا مغلب

فطعن الاشتر في موضع من الجوشن فصرعه و لم يصب مقتلاً و شد عليه الاشتر وقد كسف عن قوائم الفرس بالسيف و هو يقول:

بليت بالاشتر هذا المذحج بفارس من حلق مدجج

كاليث ليث الغابه المهيج اذا دعاه القرن لم يعرج

فقتله فخرج اليه فالرس يقال له الاجلح بن منصور و كان من أعلام العرب و فرسانها على فرس يقال لها لاحق فلما أستقبل الاشتر كره لقائه و أستحى إن يرجع فخرج اليه و هو يقول:

اقدم يا لاحق بالتسلل كانما تقضم مر الحنضل

تحت صمل طاهر التهلل ان سمته خسفاً أبى لم يقبل

و إن دعاه القرن لم يعول يمشي اليه بحسام مفصل

مشيا رويدا غيرما مستعجل يغترم الاخر بعد الاول

فشد الاشتر عليه و هو يقول:

لابد من قتلي أو من قتلكا قتلت منكم خمسة من قبلكا

كلهم كانوا حماة مثلكا

ثم ضربه فقتله، فخرج اليه محمد بن روضه و هو يضرب في أهل العراق ضرباً منكراً و يقول:

يا ساكني الكوفه يا أهل الفتن يا قاتلي عثمان ذاك المؤتمن

ورث قلبي قتله طول الحزن اضربكم و لا أرى أبا الحسن

فشد عليه الاشتر و هو يرتجز برجز له تركنا ذكره و قتله. فعرفونا أي يوم كان للعرب في الجاهلية و أي أثر لهم يجري مجرى هذه الآثار و متى ذكر لهم مثل هذه المواقف و أعتد لهم بمثل هذه المشاهد و من كان من فرسانهم يقاس بهؤلاء الفرسان و أي شجاع من شجعانهم يوزن بهؤلاء الشجعان و قد عدوا و سموا لبسطام و عتيبة جميعاً سبعة من القتلى فهذا فارس من فرسان المسلمين قتل في موقف واحد مبارزة بعدة من قتل في سائر أيام حروبها جميعاً و مدة حياتهما مبارزة و المبارزة أعظم هولاً من المطاردة أضعاف مضاعفة قال أبن نباتة:

انما الناس في حذار التنازل طلبوا الطعن بالقنا في القتال

و أستلانوا الطرد أذ كان بين الك ر و الفر راح في المجال

و أخبرنا جماعة بالاسناد المذكور عن نصر بن مزاحم عن عمر بن سعد إن أمير المؤمنين علياً عليه السلام صلى الغداة في بعض أيام صفين ثم زحف الى أهل الشام فلما أبصروه و قد خرج أستقبلوه بزحوفهم فقاتلوا قتالاً شديداً ثم إن خيل أهل الشام حملت على خيل أهل العراق فاقتطعوا على أصحاب علي عليه السلام الف رجل أو أكثر فاحطوا بهم و أحالوا بينهم و بين أصحابهم فلم يروهم فنادا أمير المؤمنين عليه السلام الا رجل يشري نفسه لله و يبيع دنياه بأخرته؟. فأتاه رجل من جعفى يقال له عبد العزيز بن الحارث على فرس أدهم كأنه غراب مقنعاً في الحديد لا ترى منه الا عيناه فقال: يا أمير المؤمنين مرني بامرك فوالله لا تأمرني بشيء الا صنعته. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام:

شريت بامر لا يطاق حفيظة حياءً و أخوان الحفاظ قليل

جزاك اله الناس خيراً و قد وقعت يداك و فضل ما هناك جزيل

ثم قال أحمل أبا الحارث شد الله ركنك أحمل على الشام حتى تأتي أصحابك فتقول: إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام و يقول لكم هللوا و كبروا و نهلل من ها هنا و أحمل على أهل الشام و نحمل من ها هنا. فضرب الجعفي فرسه حتى أذا قام على السنابك حمله على أهل السام المحيطين باصحابه فطاعنهم ساعة و قاتلهم فانفجروا له حتى أتى أصحابه فلما رأوه أستبشروا به و فرحوا و قالوا ما فعل أمير المؤمنين فقال: صالح يقرأ عليكم السلام و يقول لكم هللوا و كبروا و أحملوا حملة رجل واحد من ذلك الجانب و نكبر نحن و نهلل من ها هنا ونحمل فهللوا وكبروا و هلل و كبر هو و أصحابه و حملوا على أهل الشام من ثم و حمل بأصحابه من ها هنا فأنفرج أهل الشام عنهم فخرجوا و لم يصب منهم رجل واحد و أصيب من فرسان أهل الشام يومئذ زهاء سبع مائة رجلز فقال أمير المؤمنين عليه السلام: من أعظم الناس غناء اليوم؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين فقال: كلا و لكنه الجعفي. فمن أنكر فضل أهل الاسلام في الشجاعة على من تقدم فليذكر لنا موقفاً لاحد منهم مثل موقف هذا الفارس و فعلاً كفعله.

و بالاسناد المذكور عن نصر بن مزاحم قال: حدثنا عمر بن الحارث بن حصيرة و غيره قال: لما تتام أهل الشام و أهل العراق و توقفوا و أخد الناس مصافهم للقتال قال معاوية: من هؤلاء في المسيرة أهل العراق فقيل ربيعة فلم يجد بالشام ربيعة فجاء بحمير فجعله بازاء ربيعة على قرعة أقرعها بين حمير و عك فقال ذو الكلاع باستك من سهم لم تبغ الضراب فبلغ ذلك الخندف الحنفي فحلف بالله لانه عاينه ليقتلنه أو ليموتن دونه فجاءت حمير حتى و قفت بازاء ربيعة و جعل السكون و السكاسك بازاء كندة و الاشعريين و جعل بازاء همدان الازد و بجيله و بازاء مذحج العراق عكا و بازاء تميم العراق هوزان و غطفان و سليماً فقيدت عك أرجلها بالعمائم و طروحوا بين أيديهم حجراً وقالوا النفر حتى يفر هذا الحجر و قال راجزهم :

ويل الام مذحج من عك و أمهم قائمه تبكي

نضربهم بالسيف ثم الصك فلا رجال كرجال عك

و صف القلب خمس صفوف و فعل أهل العراق أيضاً مثل ذلك.

و بالسناد عن نصر بن مزاحم عن عمرو بن شمر بن جابر قال: سمعت الشعبي يذكر عن صعصعة في ذكره

قال: عبأ معاويه لمذحج و لبكر بن وائل ذا الكلاع و عبد الله بن عمر فاقتتلوا قتالاً شديداً و شدة عك و لخم و الاشعريون من أهل الشام على مذحج و بكر بن وائل و قال أعكي:

ويل الام مذحج من عك لنتركن أمهم تبكي
نقتلهم بالطعن ثم الصك فلا رجال كرجال عك
لكل قرن أسد مصك

قال فحيمت مذحج و نادى مناديهم خدموا فأترضت مذحج سوق القوم و خاضت الخيل في الدماء نادى مناد: يا آل مذحج: الله في عك و جذام الا تذكرون الاحلامافنيتم لخم الكرام و الاشعريين و آل ذي حمام أين النهى و الاحلام؟ و هذه النساء تبكي الحلام فقال العكي: يا آل عك أين المفر اليوم تعلم ما الخبر إنكم قوم صبر كونوا كمفترق المدر حتى يحول الى الحجر ليرى عدوكم العبر لا تشمتن بكم مضر.

و في حديث أخر بالاسناد المذكور عن نصر بن مزاحم بن عمرو بن أبي أسحق عن أب السفير قال: لما التقينا القوم و جدناهم خمسة صفوف قد قيدوا أنفسهم بالعمائم فقتلنا صفاً ثم صفاً حتى قتلنا ثلاثة صفوف و خلصنا الى الصف الرابع ما على الارض شامي و لا عراقي يولي دبره بالاسناد المذكور عن نصر بن مزاحم عن رجاله إن معاويه أرسل الى عمر بن العاص في بعض أيام صفين إن قدم عكا و الاشعرين الى من بازائهم فبعث اليهم عمرو إن همذان بازائك فبعث اليه معاويه إن قدم عكا لهمدان فأتاهم عمرو فقال: يا معشر عك إن علياً قد عرف أنكم حي أهل الشام فعبأ لكم حي أهل العراق فاصبروا و هبوا لنا جماجمكم ساعة من النهار فقد بلغ الحق مقطعه. فقال أبن مسروق العكي أمهلوني حتى أتي معاويه فأتاه فقال: يا معاويه أجعل لي فريضة في الفين الفين و من هلك فأبن عمه مكانه قال ذلك لك فرجع أبن مسرور الى مكانه فأخبرهم بذلك فقالت عك: نحن لهمدان فتقدموا نحوهم فنادى سعيد بن قيس يا آل همدان خدموا فأخذت السيوف أرجلها فنادى عكي يا آل عك بركا كبرك الكمل يعني الجمل و هي لغة عك فبركوا تحت الجحف و شجروهم بالرماح فتقدم شيخ من همذان و هو يقول:

يا لبكيل يهمها و حاشد نفسي فداكم طاعنوا و جالدوا
صابروا في حربكم و جاهدوا تحت تخر منكم القماحد
و أرجل تتبعها سواعد بذاك أوصى جدكم و الوالد
اني لقاضي عصبتي و رائد

و تقدم رجل من عك و هو يقول

تدعون همدان و ندعو عكا نفسي فداكم يا لعك عكا

ان خدم القوم فبركا بركاً لا تدخلوا نفسي عليكم شكا

قد محك القوم فزيدوا محكا

فالقى القوم الرماح و صاروا الى السيف و أدركهم الليل فقالت همدان: يا معشر عك أنا و الله لا ننصرف حتى تنصرفوا. و قالت عك مثل ذلك فارسل معاوية الى عك إن أبرو قسم القوم فأنصرفت عك ثم أنصرفت همدان و قال عمرو: يات معاويه لقيت أسد أسداً لم أر كاليوم قط لو إن معك حياً كعك أو مع علي حياً كهمدان لكان الفناء. و قال عمرو في ذلك :

ان عكا حاشدا و بكيلا كاسود الشرى تلاقي أسودا

اذا رما القوم بالقنا تساقطوا بظبات السيوف موتاً عتيداً

ليس يدرون ما أفرار و أن كان فرار و كان ذاك شديدا

فازورار المناكب الغلب بالسمر و ضرب المسومين الخدودا

ثم و الله ما رأيت من القوم ازورارا و لا رأيت صدودا

غير ضرب المسومين على الهام و قرع الحديد يعلوا الحديدا

و لقد فضل المطيع على العا صي و لم يبلغوا به المجهودا

و لقد قال قائل خدموا عكا فخرت عكٌ هناك قعودا

كبراك الجمال أثقلها الحمل فما تستقل الا وئيدا

قال: و لما أشترطت عكا و الاشعريون على معاويه ما أشترطوا من الفريضة و العطاء و فعطاهم لم يبقي من أهل العراق أحد في قلب مرض الا طمع في معاويه و شخص بصره اليه حتى فشى ذلك في الناس و بلغ ذلك علياً عليه السلام فجاء المنذر بن أبي الجهضة الوادعي و كان فارس همدان و شاعرهم فقال: يا أمير المؤمنين إن عكا و الاشعريون طلبوا الى معاويه الفرائض و العقار فاعطاهم فباعوا دين بالدنيا و الضلالة بالهدى و أنا قد رضينا بالاخرة من الدنيا و بالعراق من الشام و بك من معاويه و الله لاخرتنا خير من دنيانا و عراقنا خير من شامهم و لامامنا أهدى من أمامهم فامتحنا بالصبر و أحملنا على الموت ثم قال:

ان عكا سألوا الفرائض و الاش عر سألوا قطاع البثينه

تركوا الدين للعقار و للفر ض فصاروا بذاك شر البرية

و سألنا حسن الثواب من الل ه و صبرا على الجهاد و نيه

فلكل ما سأله و نواه كلنا نحسب الخلاف خطيه

و لأهل العراق أحسن في الحر ب أذا خلت الأمور بقية

و لأهل العراق أحمل للثق ل أذا عمت البلاد بليه

ليس منا من لم يكن لك في الل ه ولياً يا ذا الولا و الوصية

فقال له علي: حسبك، رحمك الله و أثنا عليه و على قومه خيراً و بلغ ذلك معاوية فقال: و الله لأستميلن بالأموال أهل ثقة علي حتى تغلب دنياي أخرته.

فاما المارقون بالنهروان، فان الروايات أتفقت على أنهم ترجلوا و عقلوا أنفسهم بالعمائم، و كسروا جفون سيوفهم و نادوا: الرواح الرواح الى الجنة، فانقطع منهم خمسمائة، فقالوا: أنا نخاف إن تكون روحتكم الى النار، و أنهزموا عنهم و صبر الباقون فقتلوا جميعا الا نفر منهم قيل أنهم دون العشرة. و كم كان بصفين من الوقائع الهائلة التي هي أعظم مما ذكرناه كليلة الهرير و غيرها، مما لو أستقصينا ذكره و أردنا شرحه تجاوز ذلك حد مقصودنا في هذا الكتاب، و ضاع فيه المعنى و تبدد الغرض، و أنما قصدنا أيراد ما يستشهد به على حسن صبر أهل الإسلام، و فضلهم على غيرهم، و توطنهم أنفسهم على الموت الذي لا يشكون في حلوله بهم في تلك الساعة، لا يطمعون بفرار منهم و لا بعد عنهم.

و روي إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يحرضهم فيقول: عضوا على أضراسكم فانه أنبى للسيوف على هامكم، و التووا في أطراف الرماح فانه أمور للاسنة في ضلوعكم، و أقلوا الكلام فانه أطرد للفشل عنكم، و لا يهولن أحدكم مصرع أخيه الى جنبه، و عليكم بالأكثار من قول لا اله الا الله و الله أكبر، فان حبيبي رسول الله أخبرني أنها آية التصبر. فكم بين قومٍ يعقلون أنفسهم بعمائم و يلقون الحجارة بين صفوفهم لا تف حتى تفر هذه الحجارة، و يتحالفون أنهم لا يلتفت أحد منهم و راءه و بين أخرين يصنعون خيلهم و يكرمونها و يؤثرونها بالاقوات على أنفسهم و عيالهم لينجوا عند هزيمتهم و فرارهم اليس عنترة يقول :

و ليس الفرار اليوم عاراً على الفتى و قد جربت منه الشجاعة بالامس

و يقول لامرأته لما عاتبته على أيثاره فرسه باللبن دون عياله:

ان العدو لهم اليك و سيله ان ياخذوك تكحلي و تخضبي

و أنا أمروءً إن ياخذوني عنوة اقرن الى شر الجمال و أجنب

و يقول أيضاً في شأن فرسه:

اذا لحقت قب البطون عوابس هنالك تجزيني الذي كنت أصنع

و في مثل ذلك يقول قيس بن زهير:

تخاف عليه إن تخون أبن عمها اذا لحقت قب اللبطون عوابس

اليس بسطام لما ناداه عتيبة أستأسر يا أبا الصهباء، قال له: ما شاءت الشقراء اليس هو الذي وضع السيف في أبل الصباحي يعقرها لما رهقه التبع يأساً منها ليطير بنفسه حتى ناداه صاحبها لا تفعل لا أبا لك فاما لنا و أما لك. فكم بين قوم يأخذون أهبة الفرار و آخرين يأخذون أهبة الاصطبار!. و أشدها فتكاً ثلاثة أيام: يوم جبلة، و يوم الكلاب الثاني، و يوم ذي قار، و قيل إن يوم جبلة كان قبل الاسلام بثلاثين عاماً، و قيل باربعين، سارت فيه بنوا تميم كلها مع لقيط بن زرارة الى بني عامر الى بني سعد بن زيد مناة بن تميم فانهم لم يتخذوا لقيطاً على بني عامر لانه يقال إن صعصعة أبا عامر بن صعصعة يجلح الى سعد بن زيد مناة فقالوا هم أخوتنا لا نعين عليهم. و أستنجد لقيط بالنعمان بن المنذر الملك فانجده بعسكره مع أبن أخيه لامه حسان بن وبرة بن رومانس الكلبي، و أستمد ببني ذبيان فساروا معه الا بني بدر، و أستمد ببني أسد بن خزيمة فأمدوه و أتى الملكين الكنديين حسان و معاوية أبني الجون فاستنجدهما فسارا معه بجيوشهما، فحصروا بني عامر في شعب جبلة ثم كانت الكرة لبني عامر فضربت بهذا اليوم الامثال و قيلت فيه الاشعار و فيه قال السندري بن علياء الجعفري مفتخراً يوم تنافر عامر بن الطفيل و علقمة بن علاثة:

هل لكم يوم كيوم جبلة يوم أتتنا أسد و حنظله

و الملكان و الجموع أزفله كأنهم مهنوة مجدله

نقريهم هندية مصقلة لم تعد أن أفرش عنها الصقله

اخبرنا الرئيسي أبو القاسم يحيى بن محمد بن عيسى إجازة عن أبي غالب محمد بن سهل المعروف بابن بشران الواسطي عن أبي الحسين علي أبن عبد الرحيم بن دينار الكاتب الواسطي عن أبي بكر بن مقسم البصري المقري و أبي علي محمد بن عيسى الطوماري جميعا عن أبي العباس محمد بن يزيد الازدي ثم الثمالي المبرد عن حماد الرواية عن أبن أبي بكر الهذلي عن أبيه و كان قد حضر يوم جبلة و طال عمره إلى أيام الحجاج: إنه حدث إن الخيل يومئذ كانت في الفريقين مع ما كان مع بني الجون الملكين ثلاثين فرساً.

يوم فيف الرياح

و من أيامهم يوم فيف الرياح و يقال فيفاً الرياح سار فيه ذو الغصة الحارثي و أنس بن مدرك الخثعمي في بني الحارث بن كعب و جعفى و زبيد و غيرها من قبائل سعد العشيرة و مراد و صداء و نهد و شهران و ناهس و قبائل الجثعم كلها و أكلب و هي قبيلة تنسب إلى ربيعة بن نزار فاجتمعت هذه القبائل كلها على بني عامر فكان مما أستعد به عامر بن الطفيل للقائهم أربعون رمحاً أبتاعها من هلال بأربعين بكره و فرق الرماح في قومه فقهرت بنو عامر هذه القبائل كلها و في ذلك يقول أبو دؤاد الرؤاسي:

ساقوا شعوبا و عنساً من ديارهم و رجل خثعم من سهل و من علم
ولت رجال بني شهران تتبعهم خضراء ترميهم بالنبل على شهم
و الزغابية تكفيهم و قد جعلت فيهم نوافذ لا يرقعن بالدسم
ظلت يحابر تدعى بين أرجلنا و المستميتون من حاءٍ و من حكم
حتى تولوا و قد كانت غنيمتهم طعناً و ضرباً عريضاً غير مقتسم

و في ذلك يقول عامر بن الطفيل:

أتونا بشهران العريضة كلها و أكلبها شذاذ بكر بن وائل
و خثعم حي يعدلون بمذحج و ما نحن إلا مثل إحدى القبائل
فبتنا و من ينزل به مثل ضيفنا يبت عن قرى أضيافه غير غافل

و هي أبيات فهذه كانت عدة خيلهم يوم جبلة و عدة رماحهم يوم فيفا الريح، فليقس سامع سائر ما يسمع به عنهم بذلك. فأما عدة قتلاهم و من أتصيب بينهم في أيام حروبهم فهذا حرب بكر و تغلب إحدى الحروب الثلاثة، و هو من الحروب العظيمة فأيامه من الأيام القديمة، يسمونه حرب البسوس، و حرب الناب، و حرب أبني وائل ترددت فيه الحروب بينهم أربعين عاماً، و أسماء المواضع التي كانت فيها الوقائع بينهم معروفه موجود ذكرها في أيام العرب، و كانوا يتحالفون فيه و يقسمون أيديهم في دماء الجزر، و سموا يوماً من أيامه يوم التحالق لأن بني بكر حلقوا فيه لممهم و أوردوا فيه أحاديث عجيبة و عملوا فيه وحده سيرة و في يوم من أيامه و هو يوم عنيزة و يقول المهلهل بن ربيعة:

كانا غدوة و بني أبينا بجنب عنيزة رحياً مدير
فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

و ضرب الشعراء و غيرهم الأمثال، و قالوا تفانا فيه الحيان و قتل بعضهم بعضا حتى صبغ في دمائهم ثياباً حمراً و لبسها، و رووا فيه من كثرة القتلى ما هو متداول على السنة الناس إلى اليوم. و روي إن أحيحة بن الجلاح الاوسي أراد أن يسفر بين بغيض في الصلح، فرحل في جماعة من أشراف قومه حتى أتى بني عبس، فنزل بهم و دعاهم إلى الصلح قومهم و خوفهم من أستئصال الحرب و كان ذلك عند قتل بني بدر مالك بن زهير فقال له قيس يا أبا عمرو: إن حذيفة لا يرجع عن بغيه و لا يميل إلى البقية، و قد قتل مالكاً بغير قتيل، و إني لأرجو النصر عليه، فلما كان في الليل تسمع، قال يسمع أحيحة:

يا أوحيح الجلاح إن بني بد ... ر يرون القريب منهم بعيدا
لابسي العار في فزارة يهدو ... ن إلينا من السفاه الوعيدا
قتلوا مالكاً بغير قتيل ... ليتني كنت قبله المفقودا
فلئن باءت المنون عليه ... إن فيهم منه لثأراً عتيدا
حملا أو حذيفة أبن أبيه ... و شقيقه مالكاً أو يزيدا
إن تكونوا بني فزارة أثرى ... من بني عبس الغداة عديدا
فلقد تعلم القبائل أنّا نستبي ... ح المتوج الصنديدا
و إذا هابت القبائل ورداً ... من حياض المنون رمنا الورودا

ثم لم يتعد عما دعاه أحيحة من الصلح. و رحل أحيحة إلى بني بدر فنزل بهم و دعاهم إلى الصلح، و خوفهم عواقب البغي، فأشار حمل بن بدر على أخيه حذيفة بقبول رأي أحيحة فأبا فقال حمل في ذلك:

أما و الذي أرسى ثبيراً مكانه ... لئن أنت لم تقبل سلام بني عبس
لتصطحبن كأسا من الموت مرة ... بأيدي رجالٍ غير ميلٍ و لا نكسِ
أمرتك أمرا حازماً فعصيتني ... فبت أمنا حتى يغيبني رمسي

و هي أبيات ثم لم يمكنه الخروج عن رأي أخيه حذيفة فتابعه على ما أراد فقال حذيفة شعراً يوعد فيه بني عبس، و رفع به عقيرته في الليل يسمع أحيحة منه قوله:

إن قيساً عن سلمنا و أخاه ... و ربيعاً كالحية الصماء
و لا يريدون ما نريد و ودوا ... لو رمينا بالصيلم الصلعاء
و لرد الحلاب في صرة الضر ... ع و خرط القتاد في الظلماء
أهون اليوم أن أسالم عبساً ... بعد سفك الدماء و الشحناء

و الحديث في ذلك و الأشعار فيه موجودة معروفة فرحل أحيحة عن بن بدر و هو يقول :

أتيت بني بدر أبن عمرو نصيحةً فاخلف ظني في حيفة و الحمل

و قالا مقال الباغيين و لا أرى عواقب أهل البغي إلا إلى الفشل

فقلت الا لله در أبيكما الا تقبلان النصح و للامر مقتبل

ألم تسمعا ما كان في حرب وائل من الشر في نابٍ و ما نلتما أجل

فضرب لهم المثل في حرب وائل و ما كان فيه لعظمه في نفسه و نفوسهم و لم يزل الناس يضربون به الأمثال حتى أنَ الرضي رضي الله عنه يقول في الامس في مرثيته لابي الهيجاء حرب بن سعيد بن حمدان التغلبي:

خلجتم لحسام بن مرة طعنةً رأى المجد فيها هجرس و هو عابث

و قد كان دينٌ في كليب وفى به غريم مطول بالديون مماغث

و غادرتم أشلاء بكرٍ مقيمة على العار لا تحثى عليها النبائث

وقائع أيامٍ كان أكامها بباقي دم الطعن الاماء الطوامث

تدعون عنها في قناكم مباشم و عند قنى بكرٍ إليكم مغارث

و في العامة من يزعم أن عظام قتلى بكر و تغلب موجودة بعنيزة و ما حولها إلى اليوم. فبع هذا كله و ما لا يحصى من أمثاله روى العلماء أن القتلى من الحيين جميعاً لم تبلغ عدتهم في مدة الحرب كلها عشرين قتيلاً.

و قال أبو عبيدة معمر بن المثنى سمعت عامر بن عبد الملك المسمعي يقول: لم يكن من القتلى ما يعدون و جميع من قتل من تغلب الذين ذكرهم مهلل في شعره هم ثمانية و جميع من قتل من بكر أربعة. و قد ذكره مهلهل أيضاً في شعره حيث يقول:

فلو نبش المقابر عن كليب لخبر بالذنائب أي زير

بيوم الشعثمين أقر عيناً و كيف لقاء من تحت القبور

و همام بن مرة قد تركنا عليه القشعمان من النسور

ينوء بصدره و الرمح فيه و يأطره خدب كالبير

و أني قد تركت بواردات بجيراً في الدم مثل العبير

هتكت به بيوت بني عباد و بعض القتلى أشفى للصدور

و سمى قتل بني تغلب أيضاً في شعره فقال:

ما أرجي بالعيش بعد ندامي قد أراهم سقوا من كأس حلاق

بعد عمرو و عامر و حيي و ربيعي صدوق و أبن عناق

و أمرئ القيس ميت ما كرم اودى و خلى علي ذات العراق

و كليب خير الفوارس ذا عز رماة الكماة بالأتفاق

قال عامر بن عبد الملك المسمعي، فهؤلاء جماعة القتلى من الفرقين قد كرهم لا غير فأبى ذلك عله أخوه مسمع بن عبد الملك، و قال: إن أخي مجنون كيف يحتج بالشعر و قد قتل جحدر أبى مكنف يوم قضة و لم يذكره شاعر، و قتل ناشرة و لم يذكر شاعر، و قتل أبن الفتيحة و قد ذكره سعد في شعره، فذكرت ذلك لعامر فقال: إن كنت قد غفلت الذكر ثلاثة نفر فما عسى إن يكونوا يعدون من القتلى. فهذا قدر قتلاهم في حرب بكر و تغلب مع ما يفخمون من قدره و يعظمون من أمره.

و ذكر بعض أصحاب السيرة و التأريخ إن المسلمين لما حاربوا الروم باليرموك و عليهم أبوا عبيدة و ذلك في رجب من سنة خمس عشرة، و كان هرقل بانطاكية و قد أحتشد بكل من تابعه على دينه من الرومية و إلى القسطنطينية و أستمد بكل ما أمكنه، و قدم على الروم باهان فهزمهم المسلمون في يوم ضباب، فمروا بهروة فتساقط منهمثمانون الفاً و أحصوا بعد ذلك بيوم واحد و أصاب المسلمون منهم في المعركة أربعين الفاً. و أتصيب بالقادسية و جلولاء و نهاوند ضعف ذلك و أتصيب بيوم الجمل في البصرة من الفريقين زائد على عشرة الاف و أنما كانت ساعة نهار، و أتصيب بصفين في إحدى الروايتين مائة الف منهم من أهل العراق خمسة و عشرون الفاً و الباقون من الشام. و في رواية أخرى إن الذي أتصيب من الفريقين خمسة و سبعون الفاً، و في رواية أخرى تسعون الفا. فأما الخوارج بالنهروان فقد تقدم ذكر من أتصيب منهم في بعض نهار و إنه لم ينج منهم الا دون العشرة. فليتأمل متأمل فضل أهل الإسلام على من تقدمهم في الأحوال كلها، فلو قال قائل إنه لم يصب في حروب الجاهلية من يوم السلان إلى إن قام الإسلام بعد إن أتصيب في يوم واحد من أيام المسلمين في أحد هذه الحروب لصدق. و لم نقصد بذكر ما ذكرناه عنهم من قطعهم بالفضل لبيوتات من العرب و غيرها أشرف منها، و بالفروسية لفرسان غيرهم أفرس منهم، و من التعظيم لأيام الحروب غيرها أعظم منهما و أشد كناية و أكثر قتلى أضعافاً مضاعفة إلى ما لا يكاد يحصى، و أستشهدنا عليه بما أستشهدنا، و أقمنا عليه من الدلائل ما أقمنا الا توطين

للمسامع، و ليتقرر في نفسه إن كل ما ذكروا له في الجاهلية شرفاً ففي أهل الإسلام من أشرف منه، و كل من سمو له في الجاهلية موقف مشهورة و أيام مذكورة و مساعي عظيمة، ففي أهل الإسلام بحمد الله من مواقفه أشهر و مساعيه و أيامه أعظم، و أنما جعلنا ذلك مثالا لما أردناه و قياس مطرد لما نحوناه من ملك العرب سيف الدولة أيده الله بنصره على كل من تقدم ممن سمي بهذا الأسم في الجاهلية، و مقدمة له و سياقه اليه و شاهدا عادلا عليه و أنما ذهب الرواة في تفضيلهم الملوك المتقدمين هذا المذهب الذي ذهبوا اليه في تفضيل غيرهم ممن لا يجري مجراهم فأعطوهم فوق حقهم من التعظيم و أعدوا لهم أضعاف ما أستحقوه من التبجيل و أعينوا بالفصاحة التي أيدوا بها و البلاغة التي فاتوا الأمم بفضلها، فنطقوا بكل طريفة عجيبة و فاه بكل مستحسة غريبة، و كثروا بها القليل و عظموا بها الصغير، و فاتوا بها من جاء بعدهم، و قدروا من جواهر الكلام و غرائبه و نظمه و نثره على ما لا يقدر عليه سواهم فجاءت أشعارهم و خطبهم و أحاديثهم و محاورتهم و سيرهم و أمثالهم و كل ما نقل عنهم بالفاظ عليها رونق طلاوة و لها في الأسماع و القلوب عذوبة و حلاوة فانسط اليها المسامع أستغراباً، و تطلعت اليها نفسه أستطرافا و أستحسانا فقالوا من شاءوا و تبعهم الناس عليه الا ترى أنهم كانوا يسجعون السجع الغريب في أمر باطل مستحيل فيستحسن منهم و ينقل عنهم و يضربون المثل السائر عن غير شيء، فيتداول ذكره السامعون و يتحدث به المتحدثون مع علمهم بانه مسند إلى باطل موضوع عن غير شيء و أنما ينقله الناقلون عن حلاوة اللفظ، و ما يجعل له من حسن الحفظ كقولهم قيل للقمر ما أنت لليلة؟ فقال رضاع سخيلة حل أهلها برميلة. قيل فما أنت لليلتين؟ قال حديث أمتين بكذب و مين. و وضعوا هذه الموضوعة لثلاثين ليلة فتلقاها الناس منهم و نقلوها عنهم حتى إن الأصمعي روى إن أمير المؤمنين الرشيد سأله عن هذا الحديث فحدثه به و قال: إن العرب تقول من حفظ فقد كمل عقله، فاستعاده منه مرارا ثم قال له خذه علي. الا ترى أنهم قالوا قال الثعلب للضب شعرا :

قد خربوا بيتك لا أبالكا و أنا أمشي الدءالي حيالكا

فتبعهم الناس على نقل ذلك و تحدثوا به الا ترى أنهم قالوا: جاء الثعلب و الأرنب إلى الضب يتخاصمان فناداياه: يا أبا الحسيل، فقال: سميعا دعوتما، فقالا: حييت فقال كلمة مقولة، فقالا: جئناك لنحتكم، فاخرج الينا، فقال في بيته يؤتى الحكم، فقالت الأرنب: أني فتشت عيبتي فقال: فعل الحره قالت: فلقيت تمرة، قال: حلوة فكليها، قالت: فأخذها الثعلب مني، فقال: لنفسه بغى الخير، قالت: فلطمته، قال: بجرمه، قالت: فلطمني، قال: حر أنتصر، و الحكاية معروفة. و قالوا: تمثل الشيطان لإبنت الخس، فقال

لها: قولي كاد ثلاثا، فقالت: كاد، فقال: كاد النعام إن تطير فقالت: كاد، فقال: كاد العريس إن يكون ملكا فقلت: كاد، فقال: كاد المنتعل إن يكون راكبا. ثم قال لها قولي عجبت ثلاثا. فقالت: عجبت، فقال: عجبة للحجارة لا يهرم كبيرها و لا يكبر صغرها، فقالت: عجبت، فقال: عجبت للسبخة لا يجف ثراها و لا ينبت مرعاها، فقالت: عجبت، فقال: عجبت لحرك لا يترف و لا يدرك قعره. فهذه الموضوعات و أمثالها أنما نقلها الناس عنهم، و تحدثوا بها مع علمهم أنها أباطيل موضوعة أستحسان للفظها لا غير فكيف لا ينقل عنهم ما سواها مع حسن حظهم في هذه الحال. الا ترى أنهم قالوا: الغطريف الأكبر، و الغطريف الأصغر، و تتبع الأكبر، و تتبع الأصغر، و المنذر الأكبر و المنذر الأصغر و النعمان الأكبر و النعمان الأصغر، و الحارث الأكبر و الحارث الأصغر، و معنى ذلك كله الأول و الثاني أو الجد و الأبن و الأب و الأبن .

و قالوا: الأذواء ذو الجناح، و تبع الأقرن، ذو يزن و ذو جدن و ذو أصبح و ذو كلاع و ذو رعين و ذو نواس و ذو أهنات و ذو منارة بذلك فيما زعموا لانهم بنى على طريق ببلاد اليمن منارا أعلاما للسيارة يهتدون بها، و أمثال هذه الأسماء من الأذواء في اليمن كثير و أفتخروا بها، فقال أبو نواس في أفتخاره:

ودان أذوان البرية من معتراها و رغبة و رهابها

و لعل تحتها من المعني ما لا يجوز إن يفتخر به الا إن لعذوبتها و فصاحتها و أستغرابها متداولة منقول الا ترى أنهم قالوا، المنذر ذو القرنين لذؤابتين كانتا له، و سموا الملك الهمام، و عبروا عن ذكره بذى التاج و قالوا له: أبيت اللعن و لهذه الألفاظ و الأسماء روعة في القلوب و قبول في الأسماع، الا ترى أنهم سموا جذيمة الملك الأبرش لبرصه بالوضاح و هذا أسم حلو في المسمع مقبول في القلب ما لم يعلم السامع معناه، فاذا علم أنهم يريدون به الأبرص نفر منه و كره سماعه فصاغوا لهذا المعنى المكروه أسما محبوبا لقدرتهم على التصرف في البلاغة كيف شاءوا. و من جملت ذلك أنهم سموا عامر بن سعد المري بالضحيان فعرف بذلك مدة عمره، و عرف و لده بعده ببني ضحيان و قالوا:

انما سمي بذلك لانه كان يجلس بفناء بيته بالضحى. فأي أي فخر في هذا الفعل و من ذا الذي يتعذر عليه أن يفعل مثله. و من جملة أعاجيبهم و فرط حظهم في ذلك أنهم سموا معاوية و فلانا أبني الحارث بن عمرو بن معاوية بن الحارث الاكبر الكندي الملك، و أمهما ليس الغسانية، فهما يعرفان بابني ليس فسموا معاوية، مقطع النجد فيما زعموا لشجاعته، و سموا الاخر حجر القرد لجوده زعموا و سخائه و سرعة عطائه. و قالوا: من عادة القرد إنه متى ما رأى أنساناً بادر فرماه بحجر و كذا هذا الملك سريع العطاء لكل من قصد اليه و وفد عليه فترك أسمه الحقيقي و نسى فلا يذكر. و لزمه هذا الاسم المعروف

به، و ما أستحق مع ما وصفوه به من الجود و السخاء، و سرعة البذل و العطاء أن يسموه بهذا الاسم القبيح الذي أستحال به مدحهم له على مر الأيام ذماً، و ثناؤهم عليه سبا، الا ترى أنهم سموا الكتائب الشهباء و دوسر و الملحاء. الا ترى أنهم يدعون المرء من المناقب عند الرضا و المدح ما ليس هو له و لا لدونه بأهل قصدا منهم للتحدث بطرائف الامور و إن يوثر عنهم و يتبع أثارهم فيها، كقولهم إن الحجاج بن يوسف كان يغدي كل يوم على الف مائدة، على كل مائدة جبن و سمكة و ثريدة يأكل على كل مائدة عشرة من الناس، و يعشي على مثل ذلك و كان يطاف به في محفة على الناس و يقول يا أهل الشام: كسروا الخبز لئلا يعاد عليكم. و لسنا ننكر ما بلغه الحجاج في عصره من القدرة الثروة و لا نستنكر له إن يكون فعل مثل ذلك يوما أو أياماً أو في حال جامعة عرضت أو مقامه ببعض الامصار فتحفل لذلك و تكلفه و أستعد له لما هو أوفى منهم و لا ندفع ذاك و لا نقول إنه لم يكن قادراً على أمثاله، و أنما يضعن على من روى ذلك في أطلاقه القول بانه كان يفعل هذا في كل يوم على سبيل الاستمرار و الدوام و لم يستثن في ذلك بحال و لا قيده بشرط، و لا خصه بمكان من الاماكن و لا وقت من الاوقات و معلوم إنه كان باليمن ثم بالعراق، و كان أكثر زمانه بالكوفة و مر بالحجاز و يسير مرة إلى حرب و يتجهز لقتال أفترى إنه كان مقامه بالحجاز" و حصاره لابن الزبير بمكة يحضر على موائده في كل يوم غدوة و عشية الف سمكة لا يذكر غير ذلك، و إن كان قد روي مثل ذلك لا إنه حصر بايام و لم يطلق القول فيه لدهره و مدة عمره. روي إنه صنع طعاماً لعشرة الاف غداء و عشاء أيام كما قيل، فاعجبته نفسه فقال لزاد فروخ الفارسي: ويحك هل أطعم أحد من ملوك فارس مثل هذا؟ فقال: لا و لا سمعنا بمثله فقال: و الله لتخبرني و أنت أمن فقال: زمزمت أبنة لكسرى فجمع الناس لطعامها، ففتق في أشنان غسل أيديهم سبعين الف فارة مسك فما مسألتك عن الطعام و هو لا يحصى كثرة، فقال: أف لك، أما إنه ما تركت فارس لمن بعدها شيئاً. فقد ذكرنى له و هو الذي أدعوه الا إنه أعتده أياما، و هذا مما يجوز مثله، فأما أطلاق القول بدوامه فهو مستحيل بدليل العقل. و روي بعضهم عن الحسن بن الرجاء بن الضحاك إنه ذكر إن المأمون رضي الله عنه لما نزل فم الصلح لتهدي اليه بوران بنت الحسن بن سهل، كانت جرايات الملاحين تطلق في كل يوم لسبعين الف ملاح فكم كان لغيرهم؟ الا نهم كانوا يمخرقون للمتقدميين بالقليل و ينسون لغيرهم أضعافه و مما يقاس به ذلك من مذهبهم أنهم رووا إن الخصيان كانوا في عهد أبرويز لخاصته خمسة الاف .

و ذكر القاضي التنوخي في بعض رواياته إن الخصيان كانوا في دار المقتدر رضي الله عنه أحد عشر الفاً. و مما يتناقض به ما أدعوه للحجاج ما رواه أبو عبيد الله المرزباني عن أبي حاتم عن أبي عبيدة، قال: كان المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل الثقفي بخيلاً، و كان والياً على الكوفة من قبل الحجاج و كان يؤتى على

طعامه بجدي لا يمسه غيره، و كان على شرط الكوفة للحجاج عبد الرحمن بن عبيد بن طارق العبشمي، فقال لرجل من الشرط من تيم الرباب إن أكلت من جدي المغيرة لم أكلفك النوبه سنة فأكل منه التميمي و عرف المغيرة ذلك فشكاه إلى الحجاج فعزله.

و روي المرزباني أيضاً باسناد ذكره إن الحكم بن أيوب الثقفي عامل الحجاج بالبصرة كان بخيلا، و كان عامله على العراق جرير بن بيهس، و كان جرير يلقب العطرق فأكل معه يوما فجيئ بدراجة فتناول جرير فخذها فعزله الحكم عن عمله. فقال شقيق بن ثور المازني في ذلك شعراً منه:

قد كان بالعراق صيد لو قنعت به فيه غنى لك عن دراجة الحكم

و هي أبيات، و في الحكم بن أيوب هذا مع ما حكوه عنه من البخل يقول جرير

خرجن من ثهلان أو وادي خيم على قلاص مثل خيطان السلم

اذ قطعن علماً بدا علم حتى أنخناها على باب الحكم

خليفة الحجاج غير المتهم في ضيضء المجد و بحبوح الكرم

فهذا كان مذهب القوم في مقالهم و تفخيمهم لصغائر الامور.

و من جمله ذلك أنهم سموا نفرا من قريش أزواد الركب و هم: مسافر بن أبي عمر بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، و زمعه بن الاسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزي بن قصي، و أبو أمية بن المغيرة المخزومي.

و قالوا: كان هؤلاء أذا خرجوا في أسفارهم يمنون من مسافر معهم.

و روي إن ذا الخليطين عتاب بن ورقاء الرياحي غزا سجستان فمنع الناس إن يضرموا نارا واردين و صادرين فلم يسم بهذا الأسم، و لا قدر أحد على مثله لحلاوته و فصاحته، و روي إنه سمي ذا الخليطين لانه كان يخلط الدنانير و الدراهم و يعطيها الناس. و من ذلك إنه سموا ما في بيوتهم من زربية و وسادة صوف و مسح شعر و قطعه من هدم بالكفاء و النضيد و في بيوت أوساط أهل عصرنا هذا السندس و الطميم و السوسنجرد و أمثالها ليس لها مثل حسن ذلك الأسم. و روي إن محمد بن عبد الله بن منمير الثقفي كان قد شبب بزينب بنت يوسف أخت الحجاج، فطلبه الحجاج، فهرب منه، فلما ظفر به سأله عن قوله :

و لما رأت ركب النميري أعرضت و كن من إن يلقينه حذرات

فقال له: ما كان ركبك؟ فقال: كنت على حمار لي هزيل، و معي رفيق لي على أتان مثله. و الشعر معروف و حكايته معه في ذلك معروفة. و قيل إن عبد الملك سأله أيضا عن ذلك فقال له: ما كان ركبك يا نميري؟ فقال: أربعة أحمرة لي أحمل عليها القطران، و ثلاثة أحمل عليها البعر.

و روي عن ليلى بن عروة بن زيد الخيل أنها سألت أباها عن قول أبيه:

بني عامر لو تعلمون أذا غدا أبو مكنف قد شد عقد الدوائر
بجيش تضل البلق في حجراته ترى الأكم منه سجدا للحوافر
و جمع كمثل الليل مرتجس الوغى كثير تواليه سريع البوادر

فقالت له: كم كان خيلكم يا أبه؟ فقال: ثلاثة أفراس. و مما يشابه مذهبهم في ذلك ما أخبرنا به أبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون النرسي المعدل بالكوفة - كان يعرف بأبيّ لحسن قيامه بقراءة القران و أتقانه- عن القاضي أبي عبد الله الحسين بن محمد النصيبي عن أسماعيل بن محمد عن محمد بن القاسم عن أبيه عن أحمد بن عبيد عن المدائني، قال: سمع أسماء بن خارجة نادبة تندب في الليل و هي تقول:

من للمنابر و الخافقاتو للج ود بعد زمام العرب
و من للعفاة و فك العناة و من يفرج الكرب عند الكرب
و من للطعان غداة الهياج و من يمنع البيض عند الهرب

فقال: أنها تندب رجلا شريفا فأنظروا من هو. فقيل جارنا فلان البقال أبن أزدان الحايك. فقال أسماء: هذه أعظم المصيبتن. و من المعلوم إن من حمله الجوع و أضطره الجهد و الضر حتى يقطع زمانه و يستفرغ و سعه و يعمل حيلته في صيد ضب أو ثعلب أو ذئب أو أمثالها ليأكله فيعيش به لا يقدر على قوت غيره و لا يجد معاشا سواه فانه في عيشة قذرة صعبة شاقة يرثى لصاحبها منها و يعير بها، و يستقذر لملابستها و مباشرتها، و قد أفتخروا بذلك و تبجحوا به و نظموا فيه أشعار رواها عنهم الرواة و تداولها الناس جعلوا بها دينّ الأفعال و ذميمها شريفا و قبيحها مستحسنا و مستقذرها مما يتطلع اليه الناس و النفوس و ترتاح إلى سماعه القلوب.

روى أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل الأخفش عن ثعلب عن صخر بن بكر المازني لرجل من بني عقيل يصف صيده الضب قال وجدتها بخط أسحق بن أبراهيم الموصلي قال أملأها علي أعرابي فوهبت له أربعين درهما:

أراد رفيقي إن أصيده ضبة مكونة و من خير الضباب مكونها

المكون: التي فيها بيض.

فلما تونيت العدو و أزمعت لتقبض نفس قد أجد قرينها

العدو: ها هنا الصيد و قرينها عزمها.

اذا مسلحب فوق ظهر نبيثة يجد بدعثار حديث دفينها

النبثة تراب حجر الضب و الدعثار المنبوش. و دفينها ما تغطى من تراها.

اطافت به البعران حتى لو أنه بألوانها يدعى لكاد يبينها

يقول أنس بالابل فلو سئل عن الوانها لكاد يقول هذا أحمر وهذا أورق.

تمر عليه لا تروع سربه يعلله أرزامها و حنينها

فراصدته حتى أذا أمتدت الضحى و قال مضت حمر الشخوص و جونها

تهيج يستاق الفوالي برجفة على بطنه و النفس جم ظنونها

الفوالي: دواب كأخنافس، يستاقها يزدردها، جم ظنونها: يخاف مرة و يطمئن مرة

كعكة أم السكن في الحي تبتغي فآبية عنها و أخرى تعينها

ام السكن السائلة تأبى واحدة إن تعطيها و تعينها أخرى فتعطيها

فلما مضت فوت اليدين و خنقت إلى الملء أمتدت برفض غضونها

فوت اليدين ملء، و خنقت دون الأمتلاء، أمتدت برفض غضونها يدا العكة و رجلاها و ما كان منطويا منكسرا منها لما أمتلأ. أرفض أي أفترق و أنبسط.

امالت بها إحدى يديها و أسندت بمشرفة و الشمس صفر قرونها

يعني جلست بها في حدة الشمس ليذوب ما فيها.

قعدت له في سد نقض معود لذلك في صحراء جم درينها

سد الشيء ظله، و النقض: الجمل الذي قد أنحله السير، الدرين: أصل الشجر اليابس.

و أقبلت حتى كنت عند فقية من الجال و الأنفاس مني أصونها

الجال: جانب الحجر.

فلما بدا لي المنخزان و عينه مغيبة عني بحال جفونها

تواركت في شقي له فانتهزته بفتحاء في سنا من الخلق لينها

و أعلقت في ذات الجنائب قبضة بعوج كضبات أجادت قيونها

"يعني أصابعه، يعني يده"

و صاعد عالباوين في مكليزة مركبة في كاهل لا يخونها

"يعني بذلك الضب"

فلما تجاذبنا تقعقع ظهره كما تنفض الوزغان زرقا عيونها

"وزغان: جمع وزغ"

و صك برأسي بجانب الحجر صكة و صخر صلخداة شديد شؤونها

"شؤونها: جوانبها"

فقلت صبر يا أبا الحسل أنها موافيت أيام تقضي شؤونها

"شؤونها: أحولها" فهذه صفة رجل منهم للضب و صيده قد نظم فيه شعرا ضمنه من العربية ما ترى مما تتوق النفوس إلى معرفته حتى إن إسحاق بن أبراهيم قال: وهبت للاعرابي الذي أملأها عليّ أربعين درهما لأستحسانه اللفظ لا غير، و لو إن أبراهيم مر بالضب الذي قيل فيه هذا الشعر لتفل عليه أستقذارا له و للذي صاده أيضا.

و أخبرنا القاضي أبو المعلي أحمد بن قدامة أجازة عن علي بن الحسن العلوي عن أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، عن أبي بكر محمد بن يحيى بن العباس الصولي عن أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي عن عبد الرحمن بن أخي الأصمعي عن عمه إنه أنشد لأعرابي صاد ثعلبا:

لله در أبي الحصين لقد بدت منه مخايل حولي قُلَّبُ

ورد الحبائل و هي صور نحوه طمعا لتعلقه و لما ينشب

حتى أذا شملت معاطف طرفه ارجاؤها بتأمل و تأرب

ويداه قاسطتان لما تقدما أو تنكصا لورود عزم المنكب

صرخت به نفس النجيّ مخافة عجل نجاءك فلا تغر فتشعب

فأستدبرت إحدى يديه القهقري و أقامت الأخرى مقام تهيُّب

و نجا و هل ناج من أخطأه الردى في البدأ و من عود الردى المتأوب

لم يعد بعد نجائه من ساعة ان قام قومه مشرف مترقب

و ظللت منه بمرتأى من شخصه في كل حال أمها أو مذهب

متضائلا طورا لدى أستشرافه فاذا توهد في مجال أرتبي

حتى أطمئن و قام مني حجرة بمقام دانٍ للرماية مكتب
فنحوته سهمي فأنشب صلبه شكا و أي رمية لم أنسب
ثم أنثنيت إلى أهيلي ماليا كفى معترفا بعيش مخضب
ابني أي خطة مزوودة صعبت على الطلاب أو لم تصعب
الفيتني أثونيت دون طلابها فأطلب كذاك تعش كريم المطلب
ام أي لجات المهاول لم أجب وقرا يخاف ركوبه لم أركب
لا أشرئب أذا منيت بنكبة فاذا منيت بسبة أشرأب
كم ليلة ليلاء ملبسة الدُّجى افق السما سريت غير مهيب
بسط السحاب بها مديد ظلاله فمتى يقل برق له أسكب تسكب
فله أبتسام من لوامع برقه و له بكاء من ودقة المتصبب
متبادر عجل التلاحق صارخ بالأرض إن لا علة فأعشوشبي
عم الثرى حتى لأبعد ما نأى مما دنا من سيله الأقرب
فصبرت حتى أنشق وجه عموده عن ضوء صبح مثل لون الأشهب

فهذا شعر فصيح اللفظ مستقيم النظم لو قيل مثله في مديح بعض الملوك لكان مستحسنا قاله رجل منهم في صيد ثعلب و أفتخر به و عده منقبة لنفسه و زعم منه لما صاد الثعلب راح إلى أهله مالئا يديه من عيش مخضب و أوصى و لده بان يطلب مثل ذلك مثل ذلك الطلب ليعيش كريم المطلب و ليس المعنى المقصود بمستحق لتكلف أضافة كلمة من هذا اللفظ إلى أخر أنما رواه الناس و نقلوه و حفظوه و تداولوه لفصاحته لا لأجل الثعلب و صيده.

و أخبرنا القاضي أبو الالمعالي أيضا بالاسناد المذكور عن أبن دريد عن أبى الحسن أحمد بن محمد العبدي البلاذري قال: كنت عند أبى المغيث بشر بن علي العجلي في قرية يقال لهاعم بعمق أنطاكية و كان رئيسا موسرا مثريا ذا مال قد حلب الدهر أشطره و لاقى منه صفاءه و كدره لا يرد عن مطلب و لا عن أرب يتهلل عن السؤال، و يستقل كثير النوال، قد حفه بنوه كالسيوف مضاء، و الشموس ضياء و الليوث صيالا، و الغيوث سجالا، قد رضعوا الحلم و فروا عن العلم صمتهم عن غير عي و نطقهم يستنزل الأعصم الأبي كان أم ذفر مسالمة لمن سالموا مكالمة لمن كالموا، قد أحتوو على البيان، و أنصرفت اليهم الفصاحة يحبون قومهم و يذكرون مأثرهم و يتنادمون بحرب بكر و تغلب، و وقعة ذي قار، فاقبل علينا

يوما رجل بدوي كانه ذو زول حبس لم يبق منه الا جلد و عظم و عليه أطمار قد سملت فبقي منها السدا، دون اللحمة و تحت أبطه مزود من مسك ضب، فقال: السلام عليكم و مد بها صوته فقال له العجلي، و عليكم السلام، كن ربعيا، فقال: ربعي و الله فقال: و كن عجليا، قال: أو من أخواها قال: من أي أخواها، قال: من حنبفة فقال: سيان عليك عجل و حنيفة. من أين أقبلت؟ قال: من تهامة قال: فعلى أي طريق جئت؟ قال: البر البر، قال: فما كان طعامك؟ قال: البسيس، قال: ما البسيس فاخرج المزود فنكته بحضرت القوم فاذا فيه دقيق شعير قد لُتّ بالسمن؟ قال: كم أكلك من هذا؟ قال: السفّه غدوة و مثلها عند الأصيل، قال: فما خفت السبع؟ قال: أما الليث فمع عدم الرجع لا يكون، قال: فالذئب، قال: قد لقيني واحد و هّم بي، و هممت به، و قتلته و أشتويته و أكلته قال: فهل قلت في ذلك شيء، قال: نعم و أنشد:

و ليل كان الصبح في أخرياته ... حشاشة نصل ضم أفرنده غمدُ
تسربلته و الذئب يقظان هاجع ... بعين أبن ليل ما لها بالكرى عهدُ
اثير القطا الكدري عن جثماته ... وتالفني فيه الثعالب و الربد
و أطلس ملء العين يحمل زوره ... و أضلاعه من تحتهن شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجره ... و متن كمتن القوس أعوج منأد
طواه الطوى حتى أستمر مريره ... فلم يبقَ الا الروح و العظم و الجلد
يقضقض عصلا في أسرتها الردى ... كقضقضة المقرور أرعده البرد

سما لي و بي من شدة الجوع ما به ... ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا به ذئب يحدث نفسه ... بصاحبه و الجد يتعسه الجد
عوى ثم أقعى فارتحزت فهجته ... فاقبل منه البرق يتبعه الرعد
فاوجرته خرقاء تحسب ريشها ... على كوكب ينقض و الليل مسود
فما أزداد الا جرأة و صرمة ... و أيقنت إن الأمر منه هو الجد
فاتبعتها أخرى فاثبت نصله ... بحيث يكون اللب و الرعب و الحقد
فخر و قد أوردته منهل الردى ... على ضمأ لو إنه عذب الورد
و قمت فجمعت الحصا فاشتويته ... عليه و للرمضاء من تحته وقد

و نلت قليلا منه ثم تركته و أقلعت عنه و هو منعفر فد
فمات و أحياني و قد كنت قبله يذل لي ضرغامه الأسد الورد
لقد حكمت فينا الليالي بحكمها و حكم بنات الدهر ليس لها رد
من الحق إن يصلى الكريم بحرها و يأخذ منها صفوها القعدد الوغد
ذريني من ضرب القداح على السرى فعزمي لا يثنيه نحس و لا سعد
ليعلم من هاب السرى خشية الردى بان قضاء الله ليس له رد
و إن عشت محمودا فمثلي حوى الغنى ليكسب مالا أو يثوب له مجد
و إن مت لم أضفر فليس على المرىء غدا طالبا الا الترحل و الجهد

قال ثم رمانا الدهر بسرعة النوى و تشعبنا أيدي سبأ و تفرقنا صدوعاً كانا لم نجتمع جميعاً، فلم أزل في حل و ترحال حليف هموم و أوجال، فلما مضى حول لقيت البحتري فنافثته حديثي، و باثثته أمري، و أخبرته الخبر، و أنشدته الشعر فقال: هذه قصيدتي و هي طويلة و عجبت من ذلك ثم دعا أبنه أبا الغوث، فقال جئني بالدفتر الفلاني، فجاءه به فلم يكن فيه شيء فجاءه بأخر فلم يكن فيه شيء، فجاءه بأخر و كانت هذه صفته، فقال: مجنون أذا كان في غدٍ أخرجتها اليك فلما كان من الغد أخرج اليّ دفتراً مكتوبا بخط رطب قد و شر بنشارة خشب مما صنعته أيديهم و أذا به قد حفظها من وقته و سرقها و أدعاها لنفسه و صنع لها أولاً فقال:

سلام عليكم لا وفاء و لا عهد اما لكم من هجر أحبابكم بُدَّ
أ أحبابنا قد أنجز البين وعده وشيكاً و لم ينجز لنا منكم وعد

و مر في القصيدة إلى حيث شاء ثم جاء بالابيات فيها و أثبتها في ديوانه.

و روي إنه وجد بالحيرة في دير الاساقف على حائط من حيطانه هذا الشعر:

نادمت في الدير بني علقما نازعتهم مشموله عندما
كانهم المسكة في ظبيها اذا مزجناها بماء السما
علقم ما بالك لا تأتنا اما أشتهيت اليوم إن تنعما
من سره العيش و لذاته فليجعل الراح له سُلَّما

فهل تحت هذا الشعر من المعنى الا إن جماعة أحتجوا على لذتهم و شرابهم و تأخر عنهم نديم لهم أو صديق أو جليس فكتب بعضهم هذا الشعر فنقل إلى اليوم و دون في الكتب. و كم جرى و يجري لاهل

عصرنا مثل ذلك فلم يذكر و لم يرد و لم يرو و لم يسطر و لم يكتب على بنية و لا غيرها.

و روي أيضاً إن الحيرة أصابها مطر شديد فكشف السيل عن أزج ظن الناس إن فيه مالاً، فبعث إلى فروة بن أياس بن قبيسة الطائي، و كان على الحيرة وطساسيجها و ذلك في أيام عمر فجاء فروة و معه كاتب له من أهل الانبار من أحذق أهل زمانه ليحصى المال فلما فتح الازج وجد به من ساج، فرفعت فأذا رجل ملقى على ظهره أسود شعر الرأس و اللحية عليه ثياب بيض" و على صدره لوح من ساج قد كتب فيه حفراً هذا نذر" ملك العراق، و ما العراق ذات البر؟ و الو متسق" و الجنان و الماء الغدق عاش مسروراً محبوراً طعامه" و شرابه الخمر، و لباسه في الحر سبائب الكتان، و قي القر الديباج المخوص بالذهب العقيان، ملك و هو أبن أربعين سنة ثم صار صيورة الموت. فهذا الحديث ليس فيه فائدة غير الموعظة و حسن اللفظ، و كم في عصرنا هذا من تاجر أو كاتب أو قائد أو حاجب يلبس الطميم المنسوج بالذهب و الثياب الدبيقي و رفيع الرومي و العمائم التميسي المعلمة بالذهب العراقي و يأكل اللحم و يشرب إن شاء الخمر ثم يموت فلا يكتب على قبره مثل ذلك و لا يمخرق له به.
و روي إن أبرويز لما نقر صورة فرسه شبداز في الجبل، نقر عنده كتاباً تفسيره، لا يعجب من جاء بعدنا من تصويرنا هذه الصورة فما الا إن ندل على أننا أذا كنا نحكم الهزل هذا فنحن للجد أشد أحكاما، فما ظنك بقوم يقولون الاشعار و يقصون مثل هذه القصص و يوردون مثل هذه السيرة في صيد الضباب و الثعالب و الذئاب حتى صار بها المعنى المأنوف منه مأثوراً ومطلوباً، و ما هو أهل للاضاعة و النسيان محفوظاً وذكورا و ما هو أهل للاستقباح مستحسناً. و كيف ترى أشعارهم و قصصهم وأخبارهم و ما يأثرونه عن الملوك و يذكرونه من سيرهم و يضمنون مدائحهم إياها من تكبيرهم الامر اليسير، و تعظيمهم الصغير، و تفخيمهم المسعى الحقير يكون. و ما ظنك بقوم كانت مذاهبهم و عاداتهم الاهتمام بمثل هذه الاشعار و العناية بها حتى للموتى و قصدهم إن يذكروا بها و يؤثر عنها فيرفعون لذلك ذكرها و يقصدون نشرها و يعتمدون تخليدها و تتطاول عليها الدهور ثم تسمع بها قوم لا يقدرون ما في الفاظها من الفصاحة و لا لهم عاد و لا بالاهتمام بنظائرها عناية فيستطرف نها" و يظننوها مما لم يكن له في الزمان نظير و لا في الد شبيه فلا يروعنك ما يمر بك من أمثال هذه الاشياء في سيرهم و لا يهولنك ما تسمعه من أشعارهم و أعلم أنهم سلكوا في أحاديثهم كلها هذه المحجة و جروا فيها على هذه القضية و مخرقوا لاولئك الملوك بما لم يبلغوا ودعوا لهم ما لم ينالوا و بعد العهد و عدم العين و عظم لفظة التسمية بالملك يحتل كل دعوى و أعمل على أنك تنعم النظر في حقائق أفعالهم و مساعيهم فانك تستدل بها عل قدر الشرف و الفضل فيها كما قال بعضهم :

و أعرف بسعي المرء مقداره و السعي ينبيك عن الساعي

و سندل على فضل ملك العرب سيف الدولة نصره الله تعالى على من تقدم من ملوك العرب بش ساعي" و الافعال التي لا يمكن دفعها كما دللنا على فضل فرسان الاسلام على من ذكروه و فضلوه من أولئك الفرسان و على عظم أيام المسلمين و حروبهم على ما ذكروه من تلك الحروب و الأيام و الله الموفق بعونه إن شاء الله. و أول ما نبتدئ به من ذلك ذكر فضلهم عليه في الدين الذي هو أشرف و أكرم الانساب و أقوى الاسباب.

فضله عليهم في الدين

أو حرموها و لو أغفلنا ذكرها لعنيينا بوضوح كرها" لمقاربه بينهم أو مماثله أو مجانسه ذكر فضل أو تفضيل و حاشا لله إن نقيس للايمان و علمه القرآن و أخرجه في خير أمة عليه و اله و صحبه و سلم بقوم كانوا في جاهلية و ضلاله و أنما قصدنا بذكرها أطراف السامع بما كانوا أما النعمان المترهب السائح فانه فعل ع نفسه بترك مكانه و لا ندري على أي وجه" كا ترهب بأصابة وجه الحق الذي أمر الله نع له" عيسى صلى الله عليه فنا لا نقول فيه الا خي النصارى على الله و رسوله فأن عبادته ضايع أذا كنا لم نعلم حقيقة أمره فنحن نقف عند ذكره.

روى أبو جعفر الطبري إن جذيم الابرش الملك كان له صنمان يقال لهما الضيزنين أستسقى بزعمه بهما و يحملهما معه في مغازيه و يستنصر بهما على عدوه و كان نزل ما بين الحيرة إلى هيت من أطراف البر إلى الغمير و القطقطانة و عين التمر و ربما نزل أحياناً في بيرين و في ذلك يقول الشاعر:

اضحى جذيمة في يبرين منزله قد جاء ما ملكت في دهرها عاد

و كانت أياد تنزل بعين أباغ و أباغ رجل من العمالقة كان ينزل بتلك العين فكان يغازيهم و كانت طسم و جديس تنزل اليمامة و اليمامة أذ ذاك أسماها جو و كان جذيمة يغزو هذه القبائل و يغزونه فغزى أياد مره و معه صنماه فلما دنى من أرضها بعثوا رجلا منهم فسقى سدنه الصنمين الخمر و سرقوهما فاضحوا بهما في أياد ثم بعثه أياد اليه: إن صنميك أصبحا فينا و زهدا فيك و رغبة فينا فأن أوثقت لنا لا تغزونا أردداهما اليك. و قد ذكر لجذيمة غلام من لخم ذو و ظرف يقال له: عدي بن نصر قال: و عدي بن نصر تدفعونه الي أيضا معهما فقالوا: نعم فانصرف عنهم و ضم عدي إلى نفسه. من أي أحوال هذا

الملك أعجب من عباد أصنمين و أعتقاده أنهما تنصراه على عدوه و إنه يشفى بهما أمره فتحولت عنه إلى أعدائه .

و روى أبو الفرج الاصبهاني إنه كان سبب نزول آل عدي بن زيد بن محروف بن عامر بن عصية بن أمرؤ القيس بن زيد مناة و كان عند عدي بن زيد العبادي أوثاقة للحمالات و فسد أمر الحيرة و أبنه عدي بالشام في رسل كسرى فاراد أهل الحيرة أخذها و الملك يومئذ المنذر الاخر فقال: لا و اللات و العزى لا يوخذ ما كانت يد زيد عليه و أنا أسمع الصوت-و قد ذكر ذلك عدي بن زيد للنعمان بن المنذر في جمله أشعار حين حبسه فقال:

و أبوك المرء لم يشنا به يوم سيم الخسف فينا للخسار هذا من أحوال الجاهليه مما لا يحتاج إلى أقامة دليل عليه

تنصر النعمان و سياحته

و قد روي إن النعمان الاصغر كان قد تنصر و نحن نذكر ما جاء في ذلك و الذي روي فيه وجهان أحدهما رواه جماعة عن محمد بن الحسن عن أحمد بن عبدون عن أبي طالب الانباري باسناد إلى أبن الكلبي قال: خرج النعمان الاصغر الى الصيد في أصحابه و معه عدي بن زيد العباءي و كانوت قد مروا بشجر فقال عدي للنعمان: أيها الملك أتدري ما تقول هذه الشجرة قال لا قال: تقول و هي رواية أنهم نزلوا تحت أثلة فقال النعمان ما تقول هذه الشجرة ياعدي؟. تقول:

رب ركبٍ قد أناخو عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال

بباريق عليها قدم و جياد الخيل تعدو في الجلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا و كذلك الدهر حالاً بعد حالِ

قال: ثم مروا بمقبرة فقال له عدي: أيها الملك أتدري ما تقول هذه المقبرة؟ قال: لا قال: تقول:

ايها الركب المغذون؟ على الارض يجدون

كما أنتم كنا و كما نحن تكونون

فقال النعمان لعدي: إن الشجرة و المقبرة لم تتكلما و قد علمت أنك إنما أردت عظتي فما السبيل الذي ندرك به النجاة؟ فقال: تدع عبادة الاوثان و تدين بدين المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام فتنصر النعمان.

و الوجه الاخر إن النعمان فيما روي كان قد مرض مرضاً شديداً نحل معه جسمه و أضطرب عقله فمكث كذلك زماناً ثم جاء شمعون بن جابر و قيل سماعه بن جابر أسقف النصارى بالحيرة و كان نسطوريا و كان يصلي عنده و يطلب له الشفاء بزعمه و كان بالحيرة قوم من الهرانيق يعقوبية فأتوه فقالوا له: أيها الملك إن الله سيعافيك بدعاء اليعقوبية فلا تقبل ما يأمرك به شمعون أسقف نسطور فمكث طويلاً على حاله تلك و أستماله شمعون النسطوري و قال له إنك لا تبرأ حتى تتنصر فمال ليه دون اليعقوبية و قبل قوله و عزم على التنصر ثم خاف كسرى فقال لشمعون إني لا أجسر على ذلك إلا بعد إذن كسرى قال: فاكتب إليه فأستأذنه فعساه أن يأذن لك. فكتب النعمان إلى كسرى يخبره بمرضه و يعلمه بما قيل له من إنه لا يبرأ حتى يتنصر و قال: فاحببت أسصلاع ما عند الملك في ذلك و رأيه فإن أذن لي في ذلك و أختار و أرتضى ما كتب به دخلت فيه و إن أباه كنت أشد إباءً له. و أرسل بالكتاب مع عمرو بن عمرو بن قيس بن الحارث من بني بقيله و كان عاقلاً أديباً و أمره أن يحسن التلطف له عند كسرى في عرضه. فعرض عمرو بن عمرو كتاب النعمان على كسرى و أحين التلطف له حتى كتب له الجواب بالاذن .

و كتب جوابه له و صل كتابك و فهمت ما ذكرت في حال مرضك و أمراض مختلفة عرضت عليه فإنك لم تجد لمرضك دواء غير الدخول في المعمودي فاستطلعت رأيي و أحببت موافقة هواي لانك لم تحب إن تعمل شيئاً من أمرك إلا عن إذني و حسن موقع ذلك مني إذ كنت قدمت رأيي في دينك فاني أرجو أن تقدمه لذلك في دنياك و قد أذنت لك في الدخول في النصرانية و إن تختار لنفسك ما رضيت من الدين فإن دخولك في النصرانية و غيرها من الاديان المتقرب بها إلى الاله العظيم ليس مما ينقص عندي من مترلتك و لا يغيرك عن حالتك بل ذلك زائد لك عني في الكرامة إذ التمست من الدين ما لم يكن عليه أحد من العرب قبلك و قد أصبت و وفقت فأمض لما تريد فإن لك عندي المزيد.

فلما وصل الجواب إلى النعمان بعث من ساعته إلى شمعون فأتاه مثاما دخل عليه و عرفه أن كسرى قد أذن له ففرح بذلك شمعون و نصارى الحيرة و تباشروا و ضرب الناقوس و إجتمع الناس ليشهدوا معموديته فاعمده شمعون و إمرأته و ولده و أهل بيته و جماعة من العرب دخلوا في ذلك معه في بيعة كان شمعون بناها في الحيرة تعرف ببيعة الكرسي. و كتب شمعون إلى أيشوع بت الجاثليق يبشره بدخول النعمان في النصرانية.

و كتب النعمان مع كتابه كتاباً يخبره بنتصره و يسأل أن يصلي عليه و يدعو له و يكتبه ليتبرك بكتبه فسر الجاثليق بذلك و كتب إليه جواباص نسخته: إلى أخينا حبيب المسيح الحديث النعمان بن المنذر الملك المذكور بالخبر و الامانة الصحيحة بدين المسيح من أيشوع بت الجاثليق سلام المسيح يكون معك دهر

الداهرين آمين و صل كتابك تذكر فيه علتك و سبب دخولك في دين المسيح على يدي شمعون أسقف الحيرة الطهر المبارك و قد وفقت و أحسنت في دخولك في حظيرة المسيح مخلصاً أنت و ولدك و أهل بيتك و غيرهم من العرب و إنك تقربت من فخر المسيح و دينه ففرحت بذلك فرحاً ما فرحت مثله منذ جلست على كرسي البيعة و سألت لك المسيح طول البقاء و العافية و أن لا يريك مكروهاً ما بقيت و أنا واثق من المسيح أنه سيفعل ذلك بك فأما ما سألت من الصلاة عليك فأعلم أني أفعل ذلك ليلاً و نهاراً.

فأشتد مرض النعمان فذكر له أسقف بالموصل أسمه سبريشوع و قال له النصارى: إن دعا لك شفيت فكتب إلى كسرى يسأله أن يكتب إلى سبريشوع بالقدوم عليه فكتب كسرى إلى سبريشوع يأمره بذلك فقدم سبريشوع إلى النعمان فلما دخل عليه قال له: أرحمني و أطلب لي الشفاء من المسيح فقد بلغني إنك لا تطلب منه شيئاً إلا أعطاكه.

قالت النصارى بزعمهم فدخل سبر يشوع البيعة فسجد قدام المذبح و تخشع و سأل و خرج رجل آخر كان معه فحل زناره و نزع خفيه و قام على فرد رجل مستقبلاً للشمس في يوم من آب شديد الحر و حلف للمسيح إني لا أزال على حالتي هذه حتى تشفي النعمان بن المنذر ملك العرب من الشيطان الذي يعذبه. قالوا: فخرج الشيطان من النعمان بصيحة شديدة تشقق منها قصره و برأ النعمان و كسر الاصنام. فتنكرت له العرب عند ذلك.

و كان فيمن تنصر معه من أهل بيته أختاه هند و ماوية إبتنا المنذر فاشتد رأيهما في النصرانيه حتى سألتا شمعون بن جابر الاسقف أن يكتب إلى الجاثليق أيشوع بنت بأن يهب لهما جسده إذا هلك فكتب إليه أيشوع بت في ذلك فشفعهما و أوصى بان جسده إذا أستباح لهما لا يحل لاحد منعهما منه و حرمه على غيرهما و كتب لهما كتاباً بذلك و لما أستباح بعث شمعون فحمله من بيعة الجاثليق إلى الحيرة فدفعه اليهما فدفناه عندهما في دير هند و هذا الدير معروف بالحيرة إلى اليوم تبركاً به و ليدخلا بشفاعته.

فلما ترك النعمان عبادة الاوثان دخل في مثل هذا فليعجب السامع من ذلك و أمثاله من هذه التخايل.

فأما من كان من ملوك كندة بنجد إلى هجر و غيرها من أرض العرب فكانوا جاهلية يعبدون الاصنام أيضاً.

و روي أن قيس بن معدي كرب أبا الاشعث بن قيس كان يهودي فأما آل جفنه فإنهم لما عملوا لقياصرة الشام دخلوا في دينهم و علقوا الصلبان و عظموها و رفعوها على راياتهم قال النابغة الذبياني في مدح أحدهم :

ظلت أقاطيع أبالي مؤبلة لذي صليب على الزوراء منصوب

و كانوا جميعاً كذلك إلى أن ظهر الاسلام على الكل بحمد الله تعالى. فكيف يقاس قوم كانت هذه أديانهم بملك العرب سيف الدولة و الله سبحانه يقول أم حسب الذين أجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم ساء ما يحكمون" و يقول عز و جل: ام نجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار".

فضله عليهم في النسب

و فضله عليهم في النسب ظاهر أيضاً لأن الله سبحانه أخرجه من ذرية أبراهيم و سلالة أسماعيل صلى الله عليهما و سيأتي ذكر فضل هذا النسب مستوي الشرح و ليس لهم مثل ذلك.

ملوك الازد

اما الملوك الثلاثة الازديون و هم جذيمة بن مالك الابرش و أبوه مالك و عمه عمرو أبنا فهم فإنهم نسبوا في الأزد، فقيل جذيمة بن مالك الأبرش و أبوه مالك و عمه عمرو أبنا فهم فإنهم نسبوا في الازد، فقيل جذيمة بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس بن عدثان بن عبد الله بن نصر بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ بن يخشب بن يعرب بن قحطان. و نسبوا في قضاعة أيضاً، فقيل جذيمة بن مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عامر بن الحاف بن قضاعة.

و ذكر البطري عن أبن الكلبي أنه دفع ذلك فلم ينسبهم في هؤلاء و لا هؤلاء، و قال جذيمة الأبرش من العرب العاربة من ولد وبار بن أميم بن لاوذ بن حسام بن نوح صلى الله عليه. و أما أوس بن قلام فأن نسبه إلى بني لحيان من بني الحارث بن كعب و قيل إن بني لحيان الذين كانوا بالحيرة و هم رهطه ليسوا من بني الحارث بن كعب و أنما كانوا قوما من بقايا جرهم. و قال أخرون: أوس بن قلام من الاوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر أخوه الخزرج و قيل بل هو من بقايا العمالقة من ولد فاران بن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام. و جاء في نسب آل نصر من الخلف ما يجري هذا المجرى. فما روي في ذلك إن جذيمة الملك الابرش لما دفعت اليه أياد الغلام الذي كان و صف له عندهم فطلبه منهم و هو عدي بن نصر مع صنميه لما سرقوهما منه و أوهموه أنهما سخطا عليه فتحولا عنه و قد تقدم ذكر ذلك أحب و قربه و ولاه شرابه و زوجه أخته رقاش على الوجه الذي تقد ذكره و حملت منه بعمرو بن عدي و هو عمرو ذو الطوق الذي روى إن الجن أختطفته صبياً ثم ظفر به نديمها القضاعيان

فحملاه اليه و صار الملك له بعد هلاك خاله جذيمه و والده من بعده إلى النعمان الاصغر فروي في نسبه إنه عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن مسعود بن مالك بن عمم بن نماره بن لجم بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان و قيل أسو لخم مالك و قيل عمرو و قيل في عمم إنه أسمه عدي و أنما سمي عمم لانه أول من أعتم بالعمائم.

و هو أحد الوجوه المرويه عن نسب آل نصر و في سبب أنتقال الملك اليهم وجه أخر و هو أقوى الوجوه و روي في نسبهم و سبب أنتقال الملك اليهم قيل إن جدهم نصر بن ربيعة أو ربيعة بن نصر إنه كان ملكاً باليمن و كان قد ملك بعد تبع أسعد أبى كرب بن كلكي كرب بن زيد و هو تبع الاول بن عمرو ذي الاذعار فرأى رؤيا هالته فجمع حزاته فسألهم فقالوا له: أيها الملك أقصص غلينا رؤياك نخبرك بتأويلها فقال: إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى أخباركم عنها لانه لايصيب بتأويلها الا الذي يخبرني بها. فقال رجل منهم إن كان الملك يريد ذلك فليبعث إلى سطيح و شق الكاهنين فأنهما يخبرانه و كان سطيح يطوى من بدء رجليه إلى رأسه ليس فيه عظم سوى رأسه فلذلك سمي سطيحاً كذا روي و الله أعلم فحمل اليه على وضمة فوضع بين يديه فتعجب من خلقه ثم سأله عن الرؤيا فقال نعم أيها الملك رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة بين روضة و أكمه فأكل كل ذي نسمة. فقال: صدقت فما تأويل ذلك؟ فقال: أحلف بما بين أبين إلى مترل فرش ليهبطن أرضكم الحبش فليملكن ما بين أبين إلى جرش. فقال الملك: و أبيك أنها لغائظة مموجعة فمتى ذلك؟ أكائن في زماني أم بعده؟ قال: بل بعده بستين سنة أو سبعين تمضين من السنين ثم يقتلون فيها أجمعين أو يخرجون منها هاربين قال: فمن يلي قتلهم و أخراجهم قال: غلام من آل ذي يزن يخرج من أرض عدن فلا يدع أحد منهم باليمن قال: فيدوم ملك هذا اليماني أم ينقطع؟ قال بل ينقطع قال من يقطعه؟ قال: نبي زكي يأتي بالوحي و النور الجلي من عند العلي قال: و ممن يكون هذا النبي؟ قال: من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه إلى أخر الدهر فقال ويحك يا سطيح و هل للدهر من أخر؟ قال نعم ذاك يوم يجمع فيه الاولون و الاخرون فيسعد المحسنون و يشقى المسيئون قال: أحقاً ما تقول يا سطيح؟ فقال: أي و الشفق و الغسق و الفلق إن الذي نبأتك به لحق .

ثم حمل سطيح فأخرج من عند الملك و أدخل اليه شق بن صعب و روي و الله أعلم إنه كان بفرد عين و فرد أذن و فرد يد و فرد رجل يحجل حجلاً فلذلك سمي شقاً لانه شق أنسان فسأله عن الرؤيا فقال نعم أيها الملك أحلف بما بين أبين إلى نجران ليهبطن أرضكم السودان فليملكن ما بين أبين إلى الحزان قال: يا

شق أفي زماني يكون ذلك أم بعده؟ فقال: بل بعده بزمان ثم يقتلهم عظيم ذو شأن يذيقهم الذل و الهوان قال: و من هو؟ قال: غلام من عرانين باليمن من آل ذي أصبح أو ذي يزن يخرج من أرض عدن يطلب الترات و الاحن قال: فيدوم ملكه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع قال: من يقطعه يا شق؟ قال: يقطعه نبي مرسل عربي مفضل مضري مبجل يأتي بالحق و العدل إلى أهل الدين و الفضل يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل. قال: و أم يوم الفصل؟ قال: يوم يدعى فيه من السماء، بدعوات فيسمع الاحياء و الاموات، و يجمع الناس لميقات يكون فيه لمن أتقى الفوز و الخيرات، قال: أحقا ما تقول؟ قال و رب السماء و الارض و ما بينهما من طول و عرض و رفع و خفض إنه لحق مقضي و أمر ممضي. فأجازهما و حملهما إلى بلادهما و وقع في قلبه إن الذي قالا سيكون فجهز ولده و لهل بيته إلى العراق و كتب لهم إلى سابور بن بهمن ملك الفرس كتاباً يسأله حفظهم فأسكنهم سابور بالحيره و كانوا بها و أستعملهم سابور و من كان بعده من ملوك الفرس على العرب و كان أخرهم النعمان بن المنذر الاصغر فهذا ما جاء في روايه أخرى و الله سبحانه أعلم.

و روي في نسبهم وجه أخر قيل أنهم من ولد قنص بن معد بن عدنان أخي نزار بن معد أخبرنا محمد بن هبة الله عن جعفر عن أبي يعلى محمد بن الحسن الجعفري عن علي بن الحسن العلوي عن محمد بن عمران بن موسى المرزباني عن أحمد بن سليمان الطوسي عن الزبير بن بكر عن عمر بن أبي بكر المؤملي عن عثمان بن أبي سليمان عن عمر بن الخطاب: إنه لما أتي بسيف النعمان بن المنذر قال لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل لن عبد مناف و كان من علماء قريش بالنسب إلى من كنتم تنسبون النعمان بن المنذر؟ فقال: إلى قنص بن معد فسلمه عمر السيف و قال أخرون: جدهم نصر بن الساطرون بن أسطيرون جرمقاني من أهل الموصل من رستاق يدعى باجرمي و ممن ذكر ذلك أبو عبيدة و لهذا السبب قال طرفة بن العبد البكري لعمر بم هند في الابيات التي هجاه بها و قد تقدم ذكرها:

ابا الجرامق ترجو إن تدين لكم يا أبن الشديخ ضياعاً بين أجباخ

و قال أبو عبيدة: الرواة لا يقيمون لنسب الملوك فجاء في أنسابهم مثل هذا الاختلاف الظاهر المتباين و الطعن الفاحش المتباعد و لو سلمت أنسابهم من هذه المطاعن حتى تبلغ قحطان لاعترضها هناك من الخلف ما فيه مقنع لان قحطان نسب نسبين فقيل: قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام و هذا الوجه الذي يقوله أكثر اليمن و عليه يعملون و قال العلماء بالنسب القوم حيث نسبوا أنفسهم. و النسب الاخر قيل: هو قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن أسماعيل بن أبراهيم عليهما السلام و بعض أهل اليمن يقول ذلك. و قال بعض العلماء هذا هو الثبت .

و روى أحمد بن جمهور عن أبيه عن أبراهيم بن المنذر عن رجل عن أبن أخي أبن شهاب الزهري عن عمه قال: مر رسول الله بفتية من الانصار فقال: أرموا يا بني أسماعيل فأن أباكم كان رامياً و إن مع بني الادرع" فالقت الفئة الاخرى قسيهم و قالوا كيف نراميهم و أنت معهم يا رسول الله؟ فقال :"ارموا و أنا معكم جميعا" فأحسنوا الرمي يومئذ و ما فضل أحد منهم صاحبه. و روي أيضا عن أبيه أبراهيم بن المنذر عن عبد الله بن وهب المضري عن أبي لهيعة عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم إن رسول الله" لما قدم عليه الأشعريون من اليمن في السفينة إلى مكة و قد أوحي اليهم لا تهاجر حتى يقدموا قال لهم: انتم مهاجرة اليمن من بني أسماعيل" و ذكر تمام الحديث و هو خارج عن المقصود ها هنا فان سلمت أسانيد هذه الأحاديث عن النبي فلا حكم لغيرها و لا تأثير لسواها و قد ثبت نسب القوم إلى أسماعيل عليه السلام و الله تعالى و رسوله أعلم.

و أخبرنا محمد بن هبة الله بن جعفر عن أبي يعلى محمد بن الحسن عن علي بن الحسن العلوي عن المزرباني عن أحمد بن سليمان الطوسي عن الزبير بن بكار المؤملي عن عبد الرحمن بن أبي زياد عن أبيه قال: أستب أبن صياد و أبن حزم فقال أبن حزم لإبن صياد: لستم منا فقال أبن صياد لإبن حزم: و أنتم لستم من العرب فكتب عمر بن عبد العزيز بذلك إلى الوليد بن عبد الملك و هو الخليفة يومئذ فكتب اليه الوليد إن سل أبن حزم فان زعم إنه من ولد أسماعيل فحد له أبن صياد و إن أنكر ذلك فلا تعرض لإبن صياد فإنا لا نعلم عربيا ال من ولد أسماعيل عليه السلام و روي لسويد بن الصامت:

انا أبن مزيقا الملك عمرو و جدي عامر ماء السماء

إلى نبت أبن أسماعيل أنمى و ينميني إلى جد الملاء

و قال حسان بن ثابت:

اما سألت فانا معشر نجب الأزد نسبتنا و الجد غسان

و بيت نبت أبن أسماعيل محتدنا مجد رفيع و أساس و أركان

و أكثر أهل اليمن يقولون أبونا قحطان بن عابر و منا جرهم بن عابر تزوج اليهم أسماعيل فأبونا أقدم من أسماعيل بن أبراهيم عليهما السلام. و يقولون عابر هو هود النبي عليه السلام و هود معروف النسب في عاد و قيل هو هود بن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام. و قال الله عز و جل و إلى عاد أخاهم هودا" و ليس وراء هذا الدليل و كان أبو تمام رحمه الله عالما بالنسب و قد قال في مديحه لأحمد بن داود:

هيهات منها روضة محمودة حتى تناخ بأحمد المحمود

بمعرس العرب الذي وجدت به امن المروع و نجدة المنجود

حلت عرى أثقالها و همومها ابناء أسماعيل فيه و هود

فجاء في نسب قحطان من الخلف ما نرى و بعد العهود و تقادم الدهور يقتضي ذلك و مثله و على المجهين جميعا فالفضل لولد عدنان على ولد قحطان لأن ولد قحطان إن لم يكونوا من ولد أسماعيل عليه السلام فقد فاتهم ولد عدنان بفضل أبراهيم و أسماعيل صلى الله عليهما و إن كانوا من ولد أسماعيل فلولد عدنان عليه فضل المستيقن أمره على المشكوك فيه فجاء في أنسابهم من الأختلاف أولا و أخرا ما ذكرناه من التجاذب أصلا و فرعا ما أوضحناه.

على إنه صح قول من قال إن جدهم نصر بن الساطرون أسطرون جرمقاني من أهل الموصل من رستاق باجرما على ما ذكره بعض العلماء و شهد به شعر طرفة و كانوا قد أستحدثوا في أيام ملكهم هذا النسب اللخمي و هم في أستحداثهم ذلك كما قال عمرو بن الهذيل :

و لا تستوي أحساب قوم تووزثت قدما و أحساب نبتن مع البقل

على لنه قد علق بهم من قبل الأمهات أيضاً ما لم يعدموا منه دنسا و ذكر سيئا فمن ذلك ما تقدم ذكره من حديث رقاش بنت مالك أخت جذيمة الأبرش خوفا إن يقتله و حملها منه بعمرو بن عدي و قد تقدم ذكر ذلك.

حديث ماء السماء

و من ذلك حديث ماء السماء أم المنذر بن أمرئ القيس و هو المنذر الأكبر ذو القرنين و بها يعرف على الأكثر فلا يقال عند ذكره المنذر بن ماء السماء و ربما قيل ذلك لولده أيضا و هي من أعظم مفاخرهم و الأسماء الرائعة المستغربة التي يستعظمها من يسمع بها عنهم و يعدها من مناقبهم و يضرب بهم المثل فيها يقال: كأنه أبن ماء السماء و كأنك أبن ماء السماء قال الحارث بن حزة اليشكري:

فعبرنا دهرا كذلك حتى ملك المنذر بن ماء السماء

و قال قيس بن زهير العبسي لحذيفة بن بدر الفزاري:

كأن أباك أبن ماء السماء أو الملك المتقى تبع

و هي ماوية بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن نمر بن قاسط، و أنما سميت ماء السماء لفرط جمالها. وكان من حديثها إن أمرئ القيس بن

النعمان بن أمرئ القيس بن عمرو بن أمرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر كان كثير الاغارة على بكر بن وائل، و كانت الحروب بينه و بينهم متواترة متصلة، و كانت النمر بن قاسط بن هنب بن أفصى و اللبوء بن عبد القيس بن أفصى كانوا جميعا أخوة لأم واحدة، و هي هند بنت تميم بن مر، و أنتشرت منهم قبائل يجمع بينهم الجد و هو أفصى بن دعمى بن جديله بن أسد بن ربيعة بن نزار، و الاخوة من قبل الأم، و كانوا لا يزالون متجاورين الا تغلب فأن الذي حدث بينهم و بين أخوتهم بكر بن وائل في حرب الناب باعدهم عنهم، فاغار أمرؤ القيس بن النعمان مرة على بكر بن وائل، و هم و النمر بن قاسط متجاورون في الدار فاصاب غنائم و أسر أسرى، و سبى عدة من السبايا فيهن ماء السماء، و هي ماوية بنت عوف بنت جشم النمري و كانت تحت أبن عمها أبي حوط بن وهب بن زيد مناة بن عامر الضحيان، و أسم أبي حوط الحارث، فاعجب بها أمرؤ القيس فاخذها لنفسه و هويها و هويته، و وفد بعلها عليه ليسأله ردها، و قد جمع الاسرى في حظائر و جمع لهم حطباً ليحرقهم فكلمه فيها، فقال له: أمض اليها فان أختارتك فهي لك ثقةً منه بحبها أياه، وانها لا تختار بعلها عليه، فجاءها أبو حوط فاخبرها، فقالت له: إنه ليس برادي عليك، فلا تطلب منه ما لا يعطيك فاني أعرف وجده بي، و شدة حبه لي، فعد اليه فقل أنها قد أختارت أطيبنا مرقاً، و أعطرنا عرقا، و أطلب منه ما شئت، فانه معطكيه فعاد اليه، فقال له: ما قالت، فاعجبه، و قال لن تطلب اليوم مني شيئاً الا أعطيتك. قال: أسرى قومي، قال: هم لك، فجاءهم أبو حوط فاخرجهم من الحظائر و أنصرف بهم فسمي أبو حوط بذلك الحظائر، و مدح بذلك هو و رهطه، ففيهم يقول رجل من بكر بن وائل:

من لا مني من بعد دهر و حقبة اجاورها في آل سعد فلم يصب
هم رفدونا يوم نعف قرى قروهم انقذوا قومي من النار و الحطب

فهذا حديث ماء السماء التي يضرب بها المثل و لا يعلم ما هي. و أي فرق بين تسمية المرأة بماء السماء و قطر الندى، فكم قد سمعنا بأمرأة أسمها قطر الندى لم يذكر و لا يستحسن أسمها و لا يستغرب و لا له تلك النباهة و لا مثل ذلك الحظ في الاسماع من العذوبه و الحلاوة. منهم قطر الندى بنت خمارويه بن طولون أبوها ملك مصر و زوجها أمير المؤمنين المعتضد كان في قهرماناتها و جواريها من لعلها تفوق ماء السماء حسناً و جمالاً و نعمة و حالاً لم ينشد بأسمها شاعر، و لا ذكرها ذاكر ثم أنهم لقدرتهم على التفنن في الفصاحة و التصرف في البلاغة، لم يقنعوا لهم بالتسمية ببني ماء السماء و لا أقتصروا بهم على ذلك حتى أشتقوا لهم أسماء أخر من جنسة و أستعاروا معناه فيما مدحوهم به، فقالوا: أبن ماء المزن أيضاً .

اخبرنا محمد بن هبة الله بن جعفر أجازة عن محمد بن الحسن بن علي عن علي بن الحسين العلوي عن المرزباني عن الصولي عن أبن دريد عن عمه عن أبيه عن هشام بن محمد السائب الكلبي عن أبيه قال: كان عبد الجن بن أعيا بن الحارث بن معاوية الكندي جد أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل سيداً حليماً جواداً، رحالاً إلى الملوك، فكاكاً للاسرى، و كان خطيباً مصلقاً. و شاعراً مفلقاً، فاغار ميسر للمنذر بن أمرئ القيس جد النعمان بن المنذر، و هو المنذر بن ماء السماء على بني يربوع، فاستخف نعما و سبياً، و أسر رجالاً منهم رجلان من بني قادح النار من كندة كانا في بني يربوع، فطال عناء الكنديين، و لم يكن لهما إلى الملك وسيلة و لا بالحيرة فضيلة، فلما طال عليهما البلاء قال رجل منهم شعراً حمله بعض المختلفين إلى الحيرة من أهل دومة الجندل و هو:

إلى الله أشكوا لا إلى الناس نكبة ... رمانا بها صرف الزمان فاوجعا

عناة يعنينا الحديد و دوننا ... اشم الذرئ صعب على من تطلعا

و أخضر صراف على جنباته ... صفائح أيدي القين فيهن أصبعا

يقول لنا السجان أذ طال حبسنا ... و نحن من الحداد مرأى و مسمعا

اما لكما فيمن يرى الله وافد ... يسوق فداء أو يقول فينفعنا

فقالنا أبن أعيا لا نؤمَّل غيره ... فقال فاياه فنادوا ليسمعا

فذاك أمرؤ جم العوارف ماجد ... و أحر به إن لا يخيب من دعا

فادى الرجل الشعر إلى عبد الجن بن أعيا فلما وقف عليه وفد على الملك، فاستأذن فأذن له و قربه، و أدناه و سأله عن حاجته، فقال: أبيت اللعن. أمالنا لديك محطوطة و أرحامنا بك منوطة، و لا نتوسل اليك الا بك، و لا نميل عنك الا اليك، و في أكبالك رجلان من قومي نأت دراهما، و طال أسارهما و لهما من الملك أرحام يحب بلالها، و أسباب يحق عليه وصالها، و القوم براء من الفرقة، و غيرهم أهل للفرحة، فلينظر الملك لهم بعين رأفة يحل بها أرباقهم و يفك بها أعناقهم و يمن على قومهم بهم، فقال الملك: قد أسعفناك مطلوبك و أنلناك محبوبك فاقم باكرم مثوى، و أرحل بأجزل حباء، ثم قال له: يا أبن أعيا أخبرني عن قومك، فأني لا أسائل أعلم بهم منك، فقال: سل أيها الملك، قال: ما تقول في بني معاوية؟ قال: ملوك أقيال، جحاجحة أزوال، و أنجاد أبطال، على إن فيهم بأوا على العشيرة و أعتداداً بالحقيرة، و نقضاً لمحكم المريرة، فقال: لله أبوك هدمت ما بنيت، فالسكاسك ما تقول فيهم؟ قال: دراكون للاوغام، نقاضون للابرام، ضرابون للهام، فراجون رتاج القيام، أذا كشر الحمام على إن فيهم، أنقباضاً عن أداء الحقوق و خذلاً لابن العم المرهوق. فقال الملك: لعقة أرى مقطوبة بشري، فاخبرني عن

السكون؟ فقال: خواضو قحم المنون أذا أقمطرة الحرب الزبون، معانقو عقل الانوف أذا أثخنت السيوف، و تضعضعت الصفوف لولا شراسة فيهم مقشعرة، و أخلاق مسمهرة لحلوا بين القطب و المجرة. فقال الملك: أنضجت ثم رمدت و أطلق له الاسرى و أحسن حباه فانصرف و هو يقول:

الا هل أتى قومي على النأي أنني تداركت مسعوداً و عمرو أبن مالك
و خضت اليهم مصلتا عزم همتي و ما زلت خواضاً غمار المهالك
و سانيت ذا التاج الهمام و قد طغت به حفظة مثل الهرير المبارك

و رافيته حتى أرفأن و أنه ليغلف عن كالبارق المتدارك

سانيته: ساهلته، و رافيته: خضعت له، و أرفأن: سكن.

فاطلق لي الاسرى التي في صفاده و بوأني دعما عراض المبارك
مهاريس مثل القور غلبا كانما تجاب اليها صافنات الدرانك
فدى لإبن ماء المزن ولدي و أمرتي و نفسي و مالي من غريب و رامكٍ

و ذكر أبو عبيدة في بعض الروايات: إن المنذر بن ماء السماء هذا بعينه أبرز سريره أمام سرادقه بالحيرة، و عنده و فود العرب، و أمر بحلتين من حلل كسرى كان كساه أياهما، فوضعتا عليه ثم قال: يقم أعز العرب قبيلة، و أكثرهم عددا، و أطوعهم لا في أهل بيته، و أقواهم في نفسه فليأخذ هاتين الحلتين. فقام عامر بن أحيمر بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم فاخذهما، فتأزر بواحدة، و أرتدى الأخرى، ثم قال: إن العز و العدد من العرب في معد ثم في نزار ثم في مضر ثم في خندف، ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب ثم في عوف ثم في بهدله، فمن أنكر ذلك فلينافرني. فسكت الناس، فقال له الملك: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في أهل بيتك و بدنك؟ فقال: أنا أبو عشرة و عم عشر و خال عشر، و في رواية أبو عشر واخو عشر و عم عشرة و خال عشرة، تعينني الأكابر إلى الأصاغر، و الأصاغر إلى الأكابر، و ما قولك كيف أنت في بدنك، فشاهد العز شاهدي، و وضع قدمه على الأرض، و قال من أزالها عن موضعها فله مائة من الأبل، و هو أحق مني بهاذين البردين، فلم يقم اليه أحد. فذهب بهما في ذلك يقو الزبرقان بن بدر السعدي:

و بردا أبن ماء المزني عمي أكتساهما بعز معد حين عدت محاصله
و إن كرام الناس أولاهم به و لم يجدوا في عزهم من يعادله

فاذا نظر ناظر في حديث ما السماء وجده من المثالب، و أذا ما سمع هذه الأشعار و أمثالها رآها من المناقب، و ليس السبب في ذلك الا فصاحتهم و حسن الفاظهم التي يخرجون الشي بها عن كيفيته، و ينقلونه إلى ضد صفته فمن لنا باللحاق بهم في ذلك و أمثاله.

و كانت أم النعمان الأصغر سبية من أهل فدك، و هي سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ اليهودي، سباها الحارث بن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب الكلبي المعوف بالحرشا، كانت له جعالة على أهل فدك فدفعوه عنها، فاغار عليهم فاصاب وائل بن عطية اليهودي الصائغ و معه أمرأته الشقيقة، و كانت يهمدية و أربة بنات له: ماوية و نجوه و عقاب و سلمى فكن عنده، و مر به المنذر الأصغر قافلا من بعض غزواته الشام، فنزل به فنحر له جزورا و ضرب عليه قبة من أدم، و أرسل اليه سلمى، فقال: أذهبي فادهني رأسه، فلما دخلت عليه واقعها فخرجت تبكي، فقال لها الحارث: مالك قالت: فضحني ضيفك، فدخل الحارث على المنذر مصلتا، فالتمع لون المنذر، و قال له: ما شأنك قال: فضحتني في كلب، قال: فضحتك إن تزوجت قينتك! فتزوجها و أرتحل بها من عنده، فولدت له النعمان، فلما هلك المنذر رجعت إلى كلب فكانت فيهم، فتزوجها رومانس بن معقل بن مجاشن بن عمرو بن عبد ود بن عوف الكلبي من رهط أسامة بن زيد الحب رضي الله عنهما، فولدت لرومانس وبره بن رومانس فوبرة أخو النعمان بن المنذر لأمه و قد هجي النعمان و أهل بيته فذكر ذلك في هجائهم فقيل:

خبروني بني الشقيقة ما يم ... نع فقعا بقرقرة إن يزولا

جمع من نوافل الناس سبيا ... و حميرا موسومة و خيولا

لا أرى زاجرا عن الفحش فيكم ... بل حماراً عن أهله مشغولا

قبح الله من ثنى بلعن ... وارث الصانع الجبان الجهولا

من يضر الأدنى و يعجز عن ض ... ر الأعادي و من يخون الخيلا

يجمع الجيش ذا الألوف و يغزو ... ثم لا يرزأ العدو قتيلا

قد رأينا مكان أمك أذ تم ... نع من درة اللقوح الفصيلا

و هذه الأبيات يقال أنها للنابغة الذبياني من قصيدة هجا بها النعمان لما خافه فهرب منه إلى ملوك غسان بالشام فكان عندهم زمانا، و قد نسبة إلى عبد قيس بن خفاف البرجمي، و الى مرة بن ربيعة بن قريح السعدي، و حملها بعضهم على بعض.

خبر الذبيحين

فكيف تقام أنساب هؤلاء على ما ترى فيها من العجائب بنسب يرجع إلى أبراهيم، و هو خيرة الله من خلقه، و إلى أسماعيل و هو أكبر ولده به كانت البشارة الأولى، و هو الذبيح بالدليل القاهر الذي لا يمكن دفعه، و إن كان قد قيل إن الذبيح إسحاق عليهم السلام جميعا. و جاء في ذلك روايات، فما روي في ذلك إن أبراهيم عليه السلام لما أذن للناس بالحج أجابه من يحج إلى يوم القيامة و كان أول من أجابه أهل اليمن ثم إنه حج هو و أهله و ولده فمن زعم إن إسحاق هو الذبيح، فمن هاهنا كان ذبحه. فلما كان يوم التروية، قال له جبريل عليه السلام: تروه من الماء فسمية التروية ثم أتى به منى فأبانه بها، ثم غدا به إلى عرفات، فضرب خباءه بنمره دون عرفه، فبنا بها مسجد أبراهيم عليه السلام حتى أدخل في هذا المسجد الذي بنمرة حتى يصلي الأمام يوم عرفة، فصلى بها الظهر و العصر ثم غدا إلى عرفات، فقال: هذه عرفات فاعرفها فسميت عرفة، ثم أفاض إلى المزدلفة لانه أزدلف به، ثم قام إلى المشعر الحرام، فامره الله إن يذبح أبنه و قد رأى فيه شمائله و أخلاقه، و أسر ما كان اليه. فلما أصبح أفاظ من المشعر إلى منى، فقال لأمه: زوري البيت و أحتبسي الغلام. فقال: يا بني هات الحمار و السكين حتى نقرب القربان. قال صاحب الحديث: قالت للرامي ما عني بالحمار و السكين، قال: أراد إن يذبحه ثم يحمله فيجهزه و يدفنه. قال: و جاء الغلام بالحمار و السكين و قال: يا أبة أين القربان؟ قال: ربك يعلم أين هو يا بني أنت و الله هو، إن الله قد أمرني بذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين" قال: فلما عزم على الذبح قال له: يا أبت خمر وجهي و شد وثاقي. فقال: يا بني الوثاق مع الذبح لا و الله لا أجمعهما عليك اليوم. قال: فطرح له قرطان الحمار ثم أضجعه اليه و أخذ المدية فوضعها على حلقه، فاقبل شيخ فقال: ما تريد من هذا الغلام؟ قال: أريد إن أذبحه، قال: سبحانه الله غلام لم يعص الله طرفة عين تذبحه!. قال: نعم إن الله قد أمرني بذبحه، فقال بالربك ينهاك عن ذبحه، و أنما أمرك بهذا الشيطان في منامك، قال: ويلك! إن الكلام الذي سمعت هو الكلام الذي بلغ مني، لا و الله لا أكلمك ثم عزم على الذبح. قال فقال الشيخ، يا أبراهيم أنك أمام إن ذبحت ذبح الناس، فمهلا، فأبى إن يكلمه، فقال: فاضجعه عند الجمرة الوسطى ثم أخذ المدية، فوضعها على حلقه، فنظر أبراهيم فإذا هي مقلوبة فقلبها أبراهيم على حدها، و قلبها جبريل على قفاها، ففعل ذلك ثلاث مرات، ثم نودي من ميسرة مسجد الخيف، أن يا أبراهيم قد صدقت الرؤيا". و أجتر الغلام من تحته، و تناول جبريل عليهم السلام الكبش من قبل ثبير فوضعه تحته فذبحه من تحته. قال صاحب الرواية: و خرج الشيخ حتى لحق العجوز حين نظرة إلى البيت و البيت في وسط الوادي، فقال: ما شيخ رأيته بمنى؟ قالت ذاك بعلي، قال: فما وصيف ما رأيته معه و نعت لها نعتة، قالت: ذاك أبني قال: فاني قد رأيته قد أضجعه و أخذ المدية ليذبحه، قالت: كلا إن

أبراهيم يرحم الناس، فكيف يذبح أبنه؟! قال: فورب السماء و الأرض و رب هذه البنية قد رأيته و أخذ المدية ليذبحه. قالت: و لم؟ قال: زعم إن ربه أمره بذبحه قالت: فحق له إن يطيع ربه، قال: فلما قضت نسكها و فرقت إن يكن نزل في أبنها شيء، قال: فكاني أنظر اليهما مسرعة في الوادي، واضعة يداها على رأسها و هي تقول: يا رب لا تأخذني بما عملت بأم أسماعيل، قال: فلما جاءت سارة و أخبرة الخبر، قامت إلى أبنها تنظر فاذا أثر السكين خدش في حلقه، ففزعة و أشتكت، و كان بدأ مرضها الذي هلكت به .

فأما من روى إن أسماعيل عليه السلام هو الذبيح فانه قال: إن أبراهيم عليه السلام لما خرج باسماعيل و أمه مهاجرا إلى مكة، كان معه جبريل عليه السلام، فكان لا يمر بقرية الا قال: أهذه يا جبريل فيقول له جبريل: أمضه حتى قدم مكة و هي أذا ذاك سلم و سمر و حولها أناس من العماليق، و البيت يومئذ ربة حمراء مدورة فقال أبراهيم لجبريل عليهما السلام: أها هنا أمرت إن أضعهما؟ قال: نعم، فعمد اليهما إلى موضع الحجر فانزلهما فيه، و أمر هاجر إن تتخذ فيه عريشا و أنصرف يريد الشام، فقالت له: إلى من تكلنا لا طعام و لا شراب؟ فلم يجبها بشيء فقالت أربك أمرك بهذا؟ قال نعم، قالت أنطلق فانه لا يضيعنا فلما أستوى على ثنية كدي، أقبل على الوادي، فقال: ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم" الذي قصه الله سبحانه في كتابه، ثم مضى و كان مع هاجر شنة فيها ماء فنفذ فعطشت فانقطع فعطش" أسماعيل فصعدت إلى الصفا فلم تر شيئاً، فانحدرت فسعت و ما تريد السعي بل هي كالأنسان المجهود حتى أتت المروة و هي تقول: يا أسماعيل مت حيث لا أراك. ثم تسمعة فسمعت صوتا فقالت كالأنسان الذي يكذب سمعه صه حتى أستيقنت الصوت فقالت: قد أسمعتني صوتك فاغثني، فقد هلكت وهلك من معي. فروي إن جبريل عليه السلام بادأها فقال: من أنت؟ فقالت: إن هاجر أم ولد أبراهيم، فقال إلى من وكلكما؟ قالت: و كلنا إلى الله عز و جل فقال: وكاكما إلى كاف، و جاء بها حتى أنتها إلى موضع زمزم، و أسماعيل يفحص برجليه من شدة العطش فضرب بقدمه ففارت زمزم عيناً، فجعلت تفرغ من شنتها و قيل أنها خاطتها .

فروي إن رسول الله قال: رحم الله أم أسماعيل لولا أنها عجلت لكانت زمزم عينا معينا". فمن أسماء زمزم ركضت أسماعيل و همزة جبريل، و قال جبريل عليه السلام لهاجر لا تخافي الظمأ عن أهل هذا البلد فانها عين يشرب بها ضيفان الله تعالى، و إن أبا هذا الغلام سيجيء، فيبنيان لله بيتا هذا موضعه، و مرة رفقة من جرهم فراوا الطير على الجبل فقالوا: إن هذا الطير لعاكف على ماء، فهل علمتم بهذا الوادي من

ماء؟! فقالوا: لا، ثم أشرفوا فأذا هم بالأنسانه، فأتوها فطلبوا النزول معها و قالوا: إن شئت كنا معك و أنسناك، و الماء ماؤك، فأذنت لهم و كانوا معها، فلما شب أسماعيل عليه السلام تزوج فيهم، و كان أبراهيم صلى الله عليه و آله ليشتاقه فيستأذن سارة في زيارتهم و يأتيه. فروي إنه كان أذا شاء خرج على حمار له من أرض الشام فيأتي مكة، فيشاهد أسماعيل عليه السلام، ثم يعود فيبيت عند أهله بالشام. و روي إن سارة شرطت عليه إن لا ينزل عند هاجر، فكان يؤتى بالمقام فيضع إحدى رجليه عليه حتى يغسل شق رأسه، ثم يحول إلى الجنب الآخر فيضع رجله الآخرى عليه فيغسل الشق الآخر، فلما أمر بذبح أسماعيل قال له: يا بني خذ الحبل و المدي و أنطلق بنا إلى هذا الشعب لنحطب أهلك منه، فلما توجه إلى الشعب أعترضه أبليس فقال له إلى أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، فقال: أني لأرى الشيطان جاءك في منامك فامرك بذبح بنيك هذا، فانت تريد ذبحه، فعرفه أبراهيم عليه السلام، فقال له: اليك عني يا عدو الله، و الله لأمضين لأمر ربي فيه فتركه و أعترض أسماعيل عليه السلام، و هو وراء أبيه يحمل الحبل فقال: يا غلام، هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحطب أهلنا من هذا الشعب قال: و الله ما يريد الا إن يذبحك، قال: و لم؟! قال: زعم إن ربه أمره بذلك فقال: فليفعل ما أمره به ربه فسمعا و طاعة. فذهب إلى هاجر فقال: يا أم أسماعيل أين ذهب أبراهيم باسماعيل، قالت: ذهب به يحطبنا، قال: ما ذهب به الا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم له و أشد حبا من ذاك، قال إنه يزعم إن ربه أمره بذلك، قالت: فان كان ربه أمره بذلك فليسلما لأمر الله، فرجع بغيظه لم يصب من آل أبراهيم عليه السلام شيئا مما أراد. و الشعب فيما روي شعب ثبير و روي إن أسماعيل قال لأبراهيم عليهما السلام: يا أبه: إن أردت ذبحي فاشدد رباطي لا يصيبك مني شيء فينقص أجري، فان الموت شديد، و أني لا أمن إن أضطرب عنده أذا وجدت مسه، و أشحذ شفرتك حتى تجهز علي فتريحني، و أذا أضجعتني لتذبحني فكبني لوجهي على جبيني، و لا تضجعني لشقي، فاني أخشى إن أنت نظرت في وجهي إن تدركك رقة تحول بينك و بين أمر الله، و إن رأيت إن ترد قميصي على أمي عسى إن يكون ذلك أسلا لها عني فافعل. فقال له أبراهيم عليه السلام: لنعم العون أنت يا بني على أمر الله عز و جل، و ربطه كما أمره و أوثقه و شحذ شفرته ثم تله للجبين، و أتقى النظر في وجهه، ثم أدخل شفرته و أحتبذها اليه كما روي في الحديث ليفرغ منه فقلبها الله لقفاها في يده و نودي ان يا أبراهيم قد صدقت الرؤيا"، هذه ذبيحتك فداء لأبنك، فالتفت فرأى الكبش فذبحه، و في بعض الروايات إن أبراهيم عليه السلام لما جذب المذية خلق الله سبحانه على حلقه صفيحة من نحاس قال أمية بن أبي الصلة الثقفي :

قال أبراهيم الموفي بالنذ ر أحتسابا و حمل الأثقال

و هو لا يملك التصبر عنه و لم رأه في معشر أقبال
بني أنني نذرتك لل ه فصبرا فداك عمي و خالي
فاجب الغلام إن قال صبرا في أرضاء الأله لست أبالي
ابتا أوف ما نذرت و أخر عن دمي إن يمسه سربالي
جمل الله جيده من نحاس ان رأه ذا مدية و حبال
بينما ينزع السرابيل عنه صابراً أذا أتى بكبش حلال
قيل خذه و أرسل أبنك أحسا ناً اليه و لم يكن بالآلي
ربما تجزع النفوس من الأم ر لها فرحةً كحل العقال

و روي عن الشعبي إنه قال رأيت قرني الكبش في الكعبة

و ذكر بعض العلماء بالسيرة إن مسلم بن عقبة المري مرة غطفان، المسمى مسرفاً لما سار بجيش يزيد بن معاوية من المدينة بعد وقعة الحرة يريد مكة، فحضره الموت بقديد فأستخلف على الجيش الحصين بن نمير السكوني، سار الحصين بالجيش فقدم مكة لاربع بقين من المحرم سنة أربع و ستين، فأحضر أبن الزبير نصب المناجيق و رمى الكعبة بالنار، فاحترقة الأستار و ما في الكعبة. قال المنصور بن عبد الرحمن الحجني: فاحترق قرنا الكبش في ذلك اليوم، و كان يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول من سنة أربع و ستين، و أرسلة صاعقة فحترقت من أصحاب المنجني أحد عشر رجلاً، و هلك يزيد بعد ذلك بأحد عشر يوماً. و كان أسماعيل عليه السلام أكبر ولد أبراهيم صلى الله عليه و آله، لان الروايات أتفقت على إن سارة رضي الله عنها كانت قد منعت الولد حتى كبرت فأذنت لأبراهيم عليه السلام في هاجر رضي الله عنها فأولدها أسماعيل عليهما السلام، فهو أكبر ولده.

اخبرنا جماعة عن محمد بن الحسن بن أحمد بن عبدون عن أبي طالب الأنباري عن أبي بشر أحمد بن أبراهيم العميّ عن أحمد بن عمرو عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال: كان أسماعيل أكبر ولد أبراهيم عليهما السلام و به كانت البشارة الأولى حين دعا أبراهيم ربه عز و جل إن يهب له من الصالحين.

و بالأسناد عن أبي بشر أحمد بن أبراهيم عن محمد بن أحمد النحاس عن أحمد بن زهير عن سعد بن عبد الحميد عن أبي معشر عن محمد بن كعب في قوله عز و جل: فبشرناه بغلام حليم" قال أسماعيل عليه السلام و هو الذبيح بدليل القرآن لان الله سبحانه قص قصته فقال عز من قائل: قالوا أبنوا له بنياناً فالقوه

في الجحيم، فارادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين، و قال أني ذاهب إلى ربي سيهدين، رب هب لي من الصالحين، فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال يا بني أني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبتي أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما و تله للجبين، و ناديناه إن يا أبراهيم قد صدقت الرؤيا أنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، و فديناه بذبح عظيم، و تركنا عليه في الآخرين سلام على أبراهيم كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين و بشرناه باسحاق نبيا من الصالحين . فأخبر عز و جل إنه بشره بالغلام الأول، و ذكر بلوغه معه السعي و ما أراه في المنام من ذبيحه و تله أياه للجبين و مناداته سبحانه أياه: إن صدقت الرؤيا و فديته أياه بالذبح، فلما أتى على القصة أخبر سبحانه إنه بشره بأسحاق. و قال سبحانه في البشارة الأولى: فبشرناه بغلام حليم" بالفاء و قال في البشارة الثانية: و بشرناه بأسحاق" بالواو، و الفاء أخص من غيرها من الحروف، و أقرب و الصق و أدل على سرعة أجابة الدعاء من الواو، و ذكر إسحاق باسمه في البشارة الثانية و ليس وراء هذا الأيضاح أيضاح، و لا وراء هذا الدليل دليل، ثم إنه سبحانه لما ذكر البشارة بأسحاق خاصة، قرنها بذكر تعجب أمه رضي الله عنها لكبرها و عقمها و شيخوخة بعلها فقال تعالى: و امرأته قائمة فضحكت فبشرناها بأسحاق من وراء إسحاق يعقوب، قالت يا ويلتا أ ألد و أنا عجوز و هذا بعلي شيخ إن هذا لشيء عجيب" و قال تعالى في موضع آخر من كتابه: فأوجس منه خيفة، و قالوا لا تخف و بشروه بغلام عليم، فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها و قالت عجوز عقيم". قال أبو بشر العمي في حديثه فبلغنا إن الكنعانيين كانوا يقولون الا ترون إلى هذا الشيخ و العجوز أخذا لقيطا فأدعياه أبناً يعنون إسحاق عليه السلام، فصوره الله تعالى في صورة أبراهيم فكان لا يفرق بينهما، فوسم الله سبحانه أبراهيم بالشيب فكان يعرف من إسحاق عليهما السلام بشيبه، فهو أول من شاب و كل ذلك دالا على إن إسحاق عليه السلام هو الذي ولد بعد كبر أبويه و إن البشارة الأخير أنما كانت به. و مما يقوي ذلك قول أبراهيم عليه السلام: الحمد لله الذي وهب لي على الكبر أسماعيل و إسحاق". فبدأ بالأكبر و ما من أية يأتي فيها ذكرهما الا و أسماعيل المتقدم ذكره فيها و كل هذا دليل على إنه الأكبر. و روي إن قول أبراهيم عليه السلام الحمد لله الذي وهب لي على الكبر أسماعيل و إسحاق" كان بعد قوله: ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك الحرام" بكذا كذا عام. و بالأسناد المتقدم ذكره عن أبي بشر العمي عن أحمد بن أبان عن أحمد بن يحيى الصوفي عن أسماعيل بن أبان قال: حدثني عيينه بياع القصب و كان مرضيا عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: القي أبراهيم صلى الله عليه و آله في النار و هو أبن ست عشر سنة، و ولدت له هاجر أسماعيل و هي أبنت عشرين سنة، و أبراهيم أبن تسعين سنة، و ولدت له سارة إسحاق و هي أبنت تسعين سنة، و أبراهيم أبن مائة و عشرين سنة، و سار بأسماعيل إلى مكة و له

ستة أشهر، و فجر الله بعقبه زمزم فلولا إن هاجر خاطتها كانت سبحا. و أوحى الله سبحانه إلى أبراهيم عليه السلام إنه يقضي على يده و يدي أسماعيل عليهما السلام، عمارة بيته و شرح ما يكون منه و إنه حجة الله العظمى، و إن الحجة البالغة من ظهره و أراها في منامه إن يذبحه و هو أبن ستة عشر سنة، ثم فداه في الذبح و أنطقه بالعربة .

و روي إن عمر بن عبد العزيز سؤل عن الذبيح أي أبني أبراهيم هو؟، فارسل إلى رجل كان قد أسلم من علماء اليهود بالشام، فسأله فقال: أسماعيل و الله يا أمر المؤمنين و إن اليهود لتعلم ذلك لاكنهم يحسدونكم لأنه أبوكم فيزعمون إنه إسحاق لانه أبوهم.

و روي عن رسول الله إنه قال: أنا أبن الذبيحين و بالأسناد عن أبى بشر العمي عن محمد بن أحمد عن أحمد بن زهير عن أسماعيل بن عبيد بن أبى كريمة عن عمر بن عبد الرحمن الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبى سفيان عن أبه قال: حدثنا عبد الله بن سعيد قال حدثنا الصالحي قال: حضرنا مجلس معاوية بن أبى سفيان، فتذاكر القوم أسماعيل و إسحاق أبني أبراهيم عليهم السلام و أيهما الذبيح؟ فقال بعض القوم هو أسماعيل و قال بعضهم هو إسحاق، فقال معاوية: على الخبير سقطتم كنا عند رسول الله ، فاتاه أعرابي، فقال: يا رسول الله حلفت البلاد بالبنين و المال و هلك العيال، فعد علي ما أفاء الله عليك يا أبن الذبيحين. فتبسم رسول الله لم ينكر عليه قوله، فقال القوم يا أمير المؤمنين و ما الذبيحان، فقال: إن عبد المطلب لما أمره بحفر زمزم نذر إن سهل له حفرها إن يذبح بعض ولده، فلما فرغ من حفره أسهم بينهم فخرج السهم على عبد الله، فاراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم و قال أرض ربك و أفد أبنك، ففداه بمائة من الأبل، فهو الذبيح الثاني و سيأتي حديث ذبحه و فديته في هذا الكتاب تاليا لأخبار أسماعيل عليه السلام.

و أسماعيل عليه السلام شريك أبيه في بناء الكعبة. روي إن أبراهيم عليه السلام قدم عليه مرة فوجده يصلح نبلة له وراء زمزم ، فقال له يا أسماعيل إن ربك قد أمرني إن أبني بيته، قال فاطع ربك، قال: فقد أمرك إن تعينني عليه، قال: أذا أفعل، فقام معه فجعل أبراهيم يبني و أسماعيل يناوله الحجارة و هما يدعوان الله سبحانه إن يتقبل منهما و يريهما مناسكها. قال الله عز و جل أخبارا عنهما عليهما السلام و أذ يرفع أبراهيم القواعد من البيت و أسماعيل ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم، ربنا و أجعلنا مسلمين لك و من ذريتنا أمة مسلمة لك و أرنا مناسكنا و تب علينا أنك أنت التواب الرحيم". فلحقت دعوتهما بذريتهما، و جعل الله سبحانه سدانة البيت لإسماعيل عليه السلام فهو أول من سدنه و كساه .

روى أبو عثمان المازني عن زيد بن الخليل و عثمان بن خالد عن مشيخة قومهما عن أمير المؤمنين عليه السلام إنه قال: كان أول من رفع البيت و كساه البياض، و أول من سقى السويق و سن السقايا، و أول من سدن البيت أسماعيل بن أبراهيم عليهما السلام و هو أول من رفد الحاج، و كانت الضيافة عليه مفترضة، و كان صيام شهر رمضان عليه مفترضاً، و هو أول من ضحى و أعتم على القلانس، و تصرف في اللبوس بالحالات كلها، فتوشح و أئتزر، و أرتدى و ظاهر، و أحتبى و كره التنعم فلذلك لزمت العرب هذه الأشياء. و كان لا يقدم عليه نبي حاجاً الا أستقبله، و لا يرجع بعد حجه الا شيعه، فسن التلقي و التشيع و حمل المقلين، و أكرمهم و سن الطي و الأجر و السيق و الربعي، و كان يقف في المواسم على الخيل و يحمل عليها.

و روي إن الخيل كانت وحوشا فسخرها الله تعالى فهو أول من ركبها. روى أبن جمهور عن أبيه عن أبراهيم بن المنذر عن عبد العزيز بن عمران عن أبراهيم بن أسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن أبي حصين عن عكرمة عن أبن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله كانت الخيل وحوشا لا تركب، فأول من ركبها أسماعيل بن أبراهيم عليهما السلام".

و روى مجاهد عن أبن عباس رضي الله عنه في حديث ذكره عنه إنه قال: كانت الخيل غراب وحوشا بأرض العرب" فلما رفع أبراهيم و أسماعيل القواعد من البيت قال أني أعطيتك كترا لم أعطه كان قبلك قال: فخرج أبراهيم و أسماعيل عليهما السلام حتى صعدا جيادا فقالا: الا هلا، الا هلم فلم يبق في أرض العرب فرس الا أتاه و ذلل له فأعطته بنواصيها و أنما سمي الموضع جيادا. و روي لكليب بن ربيعة التغلبي على تبع و قبائل اليمن:

لنا الفخر تبعا على تبع و من يجعل التبع مثل العرب
اتجعل فحطان كالمصطفى خليل المهيمن و المنتخب
ابونا الخليل أبونا السليل ابونا الصدوق الذي ما كذب
دعا فأجابت له الصافنات و لو رام ذا غيره لم يجب

و ذكر نصر بن مزروع الكلبي النسابة: إن رجل من خثعم عير أنمر بن مدرك الخثعمي و هو رهطه يجلحون عن خثعم إلى أكلب بن ربيعة بن نزار فقال فيهم شعرا منه:

و ما أكلب منا و لا نحن منهم و ما جثعم يوم الفخار و أكلب
قبيلة سوء من ربيعة أصلهم و ما لهم أم لدينا و لا أب

فأجابه أنمر فقال:

و أني من قوم الذين نسبتني اليهم كريم الخال و العم و الأب
اردت لتهجوني بهم فنسبتن اليهم ترى أني بذلك أثلب
فألا يكون عمي سهر و ناهس فإني أمرؤ عماي بكر و تغلب
ابونا الذي لم تركب الخيل قبله و لم يدر مرء قبله كيف يركب

و إلى هذا المعنى أشار الكميت بن زيد الأسدي حيث يقول:

ترى الجرد العتاق مسومات مقاد تنالنا الأولى و فينا
غرائب حين تخرج من معد بكل إن وهبنا أو شيرنا
نعلمها هيا و هلا و أرحب و في أبياتنا و لنا أفتلينا

و هو أول من نطق بالعربية المبينة و هي أفصح من لغة قحطان.

روى معن بن عيسى عن عبد الله بن عبد الله عن أسماعيل بن أويس عن أبيه عن الربيع بن قرين عن عقبة بن بشير عن المغيرة الاشعري إنه قال: سألت بعض العلماء عن أول من تكلم العربية فقال أسماعيل بن أبراهيم عليهما السلام و هو أبن ثلاث عشر سنة. و روي إنه تزوج امرأة من جرهم، فقدم أبوه مرة و قد خرج إلى الصيد فسألها عنه فقالت بغلظة و تجهم: لا أدري أم قالت: قد خرج إلى الصيد فطلب منها القرى فلم تقره، فقال لها: أذا جاء فقولي له حول عتبة أبيك، و أنصرف و جاء أسماعيل فوجد الوادي عطراً بريح أبيه عليهما السلام فقال لها: هل قدم اليك اليوم أحد؟ فقالت: شيخ من صفته كذا و كذا و أخبرته بما قال لها، فقال: الحقي بأهلك ثم تزوج رعلت. بنت مضاض بن عمرو الجرهمي و خرج إلى الصيد، فقدم أبراهيم عليه السلام فقال لها: أين صاحبك و أين زوجك، فقالت خرج عفاك الله يتصيد، قال: فكيف هو، قالت: صالح، قال: فكيف حالكم قالت: خالنا حسنة و نحن بخير فانزل رحمك الله حتى يأتي، فابى فلم تزل تريده على النزول يأبى فقالت له أعطني رأسك أغسله فأبي أراه شعثا، فجعلت له غسولاً ثم أدنت منه الحجر فوضع قدمه عليه فغسلت جانب رأسه، ثم حول قدمه الاخرى فغسلت الشق الاخر فسلم عليها و أنصرف فقال لها: قولي لزوجك أذا جاء: جاء هاهنا و هو يأمرك إن تستوصي بعتبه بابك خيراً. ثم أقبل أسماعيل فلما أنتهى الى الثنية وجد ريح أبيه عليهما السلام فسألها هل قدم عليكها هنا أحد؟ فقالت نعم، جاءني شيخ صالح فسألني عنك و عن حالنا و عن خبرنا و سألته النزول فأبى فغسلت رأسه و هذا أثر قدمه، فاكب على أثر قدمه يقبل و يبكي و هو المقام. و في رواية إنه طلب منها القرى فجاءته بلحم و لبن فأكل و شرب و قال: بارك الله لكم في لحمكم و لبنكم، و دعى لهما فلما جاء أسماعيل عليه السلام وجد ريحه فسألها فقال: هل قدم اليوم عليك أحد؟ فقالت نعم شيخ ما رأيت قط

أحسن وجهاً، و لا أطيب ريحاً، و لا أكرم أخلاقاً، و لا أحسن سمتاً و لا أهيب منه و أخبرته بما قال لها، فلزمها فولدت له أثني عشر عظيماً منهم نابت و قيذر و منهما نشر الله العرب .

و قد روي إن أسمها الشيده بنت مضاض و في ذلك يقول مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي في قصيدته:

و صاهرنا من أكرم الناس والداً فابنائه فينا و نحن الاصهار

و روي إن أسماعيل عليه السلام عاش مائة و سبعا و ثلاثين سنة، و قيل مائة و ثلاثا و ثلاثين سنة، و إنه كان آخر بني أبراهيم عليهم السلام وفاة، و إنه لم يمت حتى كاتبه يوسف بن يعقوب عليهما السلام ليكتب فيه الى فرعون مصر يعلمه مكانه منه فكتب اليه: بلغني مكان أبن أخي منك فبوركت من بين الفراعنة. و كتب الى يعقوب و وصول البشير اليه من عند يوسف فصلى الله عليهم جميعاً و سلم، و سبحان من لا يعلم حقائق ذلك و غيره سواه. و لما مات أسماعيل دفن في الحجر فقبره و قبر أمه أيضاً فيه.

روى أبن جمهور عن محمد بن سنان عن الفضل بن عمر عن بعض العلماء إنه قال: الحجر بيت أسماعيل عليه السلام و فيه قبره و قبر أمه رصي الله عنها. و روي إن أبن الزبير وجد ي الحجر قبرا قد أطبق بحجارة خضر كأنها أسفاط: فقيل له هذا قبر نبي الله أسماعيل عليه السلام فكف عنه.

ولاية جرهم البيت

و روي إن نابت بن أسماعيل ولي سدانة البيت بعد أبيه عليه السلام، فلما هلك نابت كان ولده أطفالاً فتولى السدانة أخواله من جرهم، و كان أول من ولي ذلك منهم مضاض بن عمرو بن غالب الجرهمي، ثم بنوه بعده كابراً عن كابر فمن ثم صارت جرهم ولاة الحرم و الله سبحانه أعلم و في ذلك يقول مضاض بن عمرو في قصيدته:

و كنا و لاة البيت من بعد نابت نطيف بذاك البيت و الخير ظاهر

فوليت جرهم الحرم ما يعلمه الله تعالى، ثم بغوا و ظلموا و أستحلوا حرمته و أكلوا مال الكعبة و لم يتناهوا. و قيل إن أساقاً أراد نائلة بنت عمرو بن ذئب في جوف الكعبة فمسخا حجرين فوضع أساف على الصفى و نائلة على المروة ليعتبر الناس بهما .

و روي إن مضاض بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض و كان سيد جرهم لما رأى ما هم عليه من البغي، قام فيهم فنهاهم و وعظهم و قال: يا قوم أحذروا البغي فأنه لا بقاء لاهله، و قد رأيتم من كان قبلكم من العماليق أستخفوا بالحرم و تنازعوا بينهم، و أختلوا حتى سلطكم الله عليهم فاخرجتموهم فتفرقوا في البلاد، فلا تستخفوا بالحرم، و حرمة بيت الله و من حله أو جاءه معظماً لحرماته و أخر جاء بائعاً، و أخر رغب في جواركم فأنك إن فعلتم تخوفت إن تخرجوا منه خروج ذل و صغار حتى لا يقدر أحد منكم إن يصل الى الحرم، و لا زيارة البيت الذي هو لكم حرز و أمن، و الطير تأمن فيه. فقال رجل منهم يقال له مجدَّع و من الذي يخرجنا منه؟ السنا أعز العرب و أكثرهم مالاً و سلاحاً؟ فقال مضاض أذا جاء الامر بكل ما تذكرون، فقد رأيتم ما صنع الله بالعماليق. فلم يثيبوا الى قوله و أقاموا على البغي و الظلم فارسل الله عليهم الرعاف و النمل فافنى أكثرهم. و وافق ذلك خروج قبائل سبأ من أرض مأرب عند خراب السد و ملكهم عمرو بن عامر بن ثعلبة بن أمرؤ القيس بن مازن بن الازد و عمرو هذا هو مزيقياً ليفرقوا في البلاد فاحسوا بضعف جرهم فنزلوا اليهم و حاربوهم فكانت الغلبة لقبائل سبأ، فلما أحس أبن مضاض الهزيمة أتى الكعبة يلتمس التوبة فقال:

لا هم إن جرهم عبادكا الناس طرف و هم تلادكا

و هم قديما عمروا بلادكا

فلم تقبل توبته فعمد الى أموال الكعبة، و هي غزلان من ذهب فيما روي، و أسياف فحفر لها ليلاً في زمزم و دفنها، و خرج بمن بقي من جرهم الى أضم من أرض جهينة فجاءهم سيل فذهب بهم فبذلك يقول أمية بن أبي الصلت:

و جرهم أذا رموا تهامة في الده ر فسألت جمعهم أضم

ولاية خزاعة البيت

و تفرقت قبائل سبأ في البلاد، فكانت خراعة التي أقامت بمكة فاستوطنتها، و وليت الحرم فقال شاعرهم:

و نحن و لينا البيت من بعد جرهم لنعمره من كل باغ و حاسد

و قال راجزهم أيضاً:

وادٍ حرام طيره و وحشه نحن ولیناه فلا نعشه

و أبن مضاض قائم يمشه يأكل ما يهدي له نقشه

و أشتدت صبابة أبن مضاض الى مكة، فاتى خزاعه فسألهم إن يأذنوا له في النزول معهم، فابوا عليه فقال قصيدته المعروفة و قد أستشهدنا منها بالبيتين المتقدمين و فيها يقول:

كان لم يكن بين الانيس الى الصفا انيس و لم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فابادنا صروف الليالي و الجود العواثر

و أقامت خزاعة بالحرم ما يعلمه الله تعالى، هذا ما جاء في هذه الرواية و هو الاقوى و الاصح.

و قد جاء في رواية أخرى إن السبب كان في ولاية خزاعة الحرم و سدانة البيت عن أيادا كانت تلي ذلك، فلما هلك وكيع الايادي أجتمعت قبائل مضر و فيهم خزاعة، و خزاعة حينئذ لا تنتمي الى اليمن، و أنما ينتسبون الى قامة بن الياس بن مضر، فأجتمعوا على حرب أياد ليخرجوهم عن الحرم، فأحست أياد بالضعف فأستأجلوهم ثلاثا فاجلوهم، و شرطوا عليهم إن لا يخرجوا معهم متزوجة من مضر، و كانت امرأة من خزاغة أسمها قدامة متزوجة في أياد، فعالجت أياد الحجر ثلاث ليالي ليقدرا على نقله فلم يقدروا على ذلك فدفنوه، و عرفت قدامة الخزاعية مكانه، و خرجت أياد و دخلت مضر الحرم ففقدوا الحجر فعظم ذلك عليهم، فقالت قدامة الخزاعية لقومها خزاعة: أشترطوا على مضر إن يجعلوا ولاية البيت لكم حتى أدلكم على الحجر، فذكروا لهم ذلك فاجابوهم اليه و دلتهم قدامة على الحجر فصارت ولاية خراعة على الحرم بهذا السبب.

و الذي تقدم من الحديث يدل على إن خزاعة وليت بعد جرهم هذا الحديث يدل على أنها وليته بعد أياد و ما رأيت لاياد ذكر ولاية على الحرم الا في هذا الحديث، و لا رأيت لخزاعة ذكر نسب في مضر الا فيه، و لعل الحديث الاول أصح و الله سبحانه أعلم .

فاقامت خزاعة ولاة على الحرم و أجتمعوا على عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء بن حارثة بن الغطريف بن أمرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن بن الأزد، و عمرو هذا هو عمرو بن لحي لان أباه ربيعة بن حارثة كان يعرف بلحي، فعبد عمرو بن لحي أسافا و نائلة و أمر بعبادتهما و قد بالصنم المعروف بهبل من الشام من عند العماليق، فجعله على الكعبة و أمر بعبادته، و نصب الأصنام حول الكعبة و جعل السائبة و البحيرة و الوصيلة و الحام، و أحل نكاح البغايا فنصبن الرايات.

و روي إن رسول الله قال: رايت عمرو بن لحي أبي هذا الحي من خزاعة شيخا قصيرا دحداحا ضخم البطن يجر قصبة في النار أشبه الناس به أكثم بن الجون . فقال أكثم: أيضرني شبهي به يا رسول الله؟،

قال: لا، أنت مسلم و هو كافر. و روي إنه عور عشرين فحلا و كان الرجل من الجاهلية أذا بلغت أبله الفا عور فحلا.

ولاية قصي بن كلاب البيت

و لم تزل خزاعة مستولية على الحرم الى إن عاد قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب من أرض قضاعة من عند أمه فاطمة بنت سعد بن سيل بفتح السين غير المعجمة و الياء، و أسم سيل جبر بن حمالة بن عوف بن غنم بن الجادر، و أسم الجادر عامر بن عمرو بن جعثمة بن بكر بن يشكر بن مبشر بن صعب بن دهمان بن نصر بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد. قيل و أنما سمي جبر بن حمالة سيلا لانه ولد على جبل أسمه سيل، فسمي به و في أبن سعد بن سيل يقول الشاعر:

ما أرى في الناس طرا رجلا شهد الهيجا كسعد بن سيل
فارس أضبط فيه عسرة فاذا ما عاين القر نزل
و تراه يطرد الخيل كما يطرد الحر القطامي الحجل

و قيل أنما سمي عامر بن عمرو بن جعثمة الجادر، لانه بني جدار الكعبة من سيل كان أصابه في أيام جره، فوهى منه و قيل بل كان الحاج يتمسحون بالكعبة و يأخذون من طينها و حجارها تبركا به فكان هو موكلا بأصلاح ما يتشعث من ذلك فسمي الجادر. و كانت فاطمة بنت سعد قد ولدت لكلاب بن مرة زهرة و قصيا ثم هلك عنها فقدم ربيعة بن حرام القضاعي حاجا فتزوجها، و كان زهرة الأكبر و قصي طفلا و أسمه فس ما روي زيد، فحملته معها و قيل أنها سمته قصيا لأنها أقصته عن قومه، فنشأ في حجر ربيعة بن حرام فصارع يوما غلاما من قضاعة فصرعه فقال له أبو الغلام: الحق بقومك يا غلام فلست منا، قال: فممن أن؟ قال: سل أمك، فسألها فقالت: أنت خير منه حسبا و أكرم نسبا أنت أبن كلاب بن مرة و قومك في حرم الله، و عند بيته فاراد الخروج، فقالت: أني أخاف عليك، فأقم حتى يخرج حاج قضاعة. ففعل و أقام حتى خرج معهم فأتى مكة و خزاعة مستولية عليها، و ولاية البيت يومئذ و حجابته خليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن لحي و المفتاح بيده، فخطب اليه أبنته حبى بنت خليل، و لم يكن له ولد غيرها فعرف نسبه و شرفه فزوجه، فولدت له بنيه الأربعة، عبد مناف، و عبد الدار و عبد العزي و عبدا بن قصي. فلما حضرته الوفاة أوصى لقصي بالحجابة و الولاية و المفتاح و قال له: إن

ولدك ولدي و لست أخص بذلك غيرهم فأقسم بينهم مآثر مكة. فلما مات خليل أبت بنو أسلم بن قصي بن حارثة رهط خليل و قومهم من خزاعة إن يجيزوا لقصي ذلك، فهم بحبهم فنهته حبى بنت خليل زوجته، و حذرته النقمة ممن أرد الأخاد في الحرم، و ذكرته بأحاديث جرهم و قولهم كيف يحل لنا إن نذبح أموالنا في الحرم و نأكلها و لا يحل لنا ذبح الصيد فالكل سواء. فقالت في ذلك أشعارا منها:

ما أستبت جرهم يوما ببلدتها اذ مثلوا بين شاة الحل و الحرم
و أقسموا و هم بسيل بلدتهم لنجعلن شهور الحل كالحرم
هل من حموم لأقوام لتزجرهم من قبل إن يصبحوا لحمًّا على وضم

و قالت أيضا تحذره و تذكر أمرهم من شعر لها:

فلما غلوا و علاهمهم و قال أسامة لأبن الضرب
ضعوا الخرج فاستخرجوا عنوة من أهل العمود و أهل القتب
و عصب الملوك من أهل الشام و صفوا اللجين و صفوا الذهب
اصابهم القرح فاستسلموا لريب الخطوب و دهر كلب
فانكم إن تكونوا كهم تكن مثلا و تكون عجب

و قالت تذكر رجلا من مراد يقال له زيد بن الجولان أقبل معتمرا حتى أذا كان بالوادي من حرى أدركه السيبل فاناخ راحلته ينتظر أنقطاع السيل فبصر به رجل من جرهم، و هو بأعلى الجبل فأرسل عليه صخرة فقتله و أخذ سلبه:

صار أرث أبن مضاض حارث فغدا الدهر له حتى بسل
فأتاه من مراد راكب عرض السيل له حتى نزل
بشماريخ حراء فهوت صخرة تنحط من رأس الجبل
رضخته رضخة حتى غدا كهشيم العود ما فيه بلل

فقال قصي يذكر أرثه و أرث قومه لولاية الحرم، و إن خزاعة و غيرهم تولوا من ذلك ما ليس لهم بحق:

ما من تراث أب كانت لهم وطنا بيت الخليل و لا من حر أسياف
هل غير إن بلادا خف عامرها لما أمر عليه المشرب الصافي
لاقوا من الموت ما لاقت بنوا أرم لم يبق منتعل منهم و لا حافي
اعرتموها كما قد كان أولكم يعيرها خلفيه من بعد أخلاف

فلما رأت أجماعهم على حربهم قالت:

اني نذير قصي من مجللة نكبا لا تبقى من حدها رأسا
متى يحل قصي أو يلم به يقرع لها ندما سنا و أضراسا
لا تلحدن كالحاد الفتى حجر جنب الحجون غدا يستوجر الكأسا
اراد بيت بني كعب بداهية و لم يحاضر لها كرها و لا أسا
فباهلته و قدت جيبها جزع اني بليت بها أخرت مقايا
فضرمة ثوبه نار محرقة صبة عليه صبيب الشر أنفاسا

فدعا قصي أناسا من قومه قريش و كنانة الى نصره على أخراج خزاعة عن الحرم فأبوا إن يجيبوه، و هابوا ذلك لما كانوا يرون من النقم بمن الحد بمكة فدعا أخاه زهرة و ولده فابوا عليه أيضا فقال:

دعوت زهرة لا شدوا رحالهم على المطي و لا زالوا بجعجاعة
الى محرمة ما إن يطل بها قرح الحمام و لا يسعى بها الساعي
و قد بذلت لهم نفسي و قد عرفوا يوم المعرف كري بعد أدفاعي
ابوا علي و قالوا مشرب بلغ معقولة و صديق غير نفاع

فلما رأت خزاعة قصي و ما يدعوا اليه أجمعوا على إن يخرجوه من مكة فعرف ذلك فخرج هاربا من تحت ليلته فسار في مضر فقال: يا بني أسماعيل نحن أحق بهذا البيت من غيرنا، فأنصروني، فنصروه، فسار في جمع من بني النضر بن كنانة و غيرهم فنزل بالبطحاء، فلما رأتهم خزاعة أستعدوا للقتال حتى أذا كان بينهم الترامي و التناضل و الأخذ بالشعور تداعوا الى الصلح و إن يحكموا بينهم رجلا، فارادت خزاعة إن يحكموا الديان بن عبد المدان و رجل من آل محرق الغسانيين، فأبى ذلك قصي، فقالوا: فمن تريد؟ قال: بحكم يعمر بن عوف الكناني، فأبت خزاعة و قالوا لا نحكم رجلا من كنانة، فابى و أبوا، ثم تراضوا بيعمر بن عوف إن يحكم بينهم بفناء الكعبة، هذا في رواية.

و في رواية أخرى إن حليلا لما أوصى بالمفتاح لأبنته حبى فقالت له: قد علمت أني لا أقدر إن أفتح البيت و أسدنه، فأذن لها في إن تولي ذلك بعلها قصيا، فصارت السدانة و المفتاح له بهذا السبب.

و في رواية أخرى إنه قال لها سأجعل لك من ينوب عنمك في فتح البيت، فأوصى بذلك الى أبي غبشان الخزاعي، و قيل إنه كان يحمق، و كان ينوب عنها أذا أصابها من يصيب النساء، فخرج قصي و أبو غبشان الى الطائف فشرب أبو غبشان فسكر فقال له قصي أتبيعني وكالتك في المفتاح؟ قال: نعم، فاشتراه

منه بجمل كما قيل و زق خمر، فجاء به الى حيى فأخبرها فسرت بذلك، فصارت المفتاح لها و الوكالة فيه لبعلها، و جعلت له ما كان لها أيضا فصارت الحجابة اليه. و قدم أبو غبشان فلامه قومهم فجحد البيع، و قال أنما رهنته، و أنكرت خزاعة إن يكون صاحبهم باع، فسار قصي في ولد أسماعيل فقال: هذا مفتاح أبيكم قد رده الله اليكم بغير ظلم و لا غدر، فانصروني، فنصروه، و أستنجد أخاه لأمه رزاح بن ربيعة بن حرام القضاعي ثما العذري من بني عذره بن سعد هذيم، فأنجده بنفسه و قومه، و معه أخوته لأبيه جز و محموده و جلهمة بنوا ربيعة بن حرام و قال في ذلك :

لما أتى من قصي رسول — فقال الرسول أجيبوا الخليلا
نهضنا اليه نقود الجياد — و نطرح عنا الملول الثقيلا
نسير بها الليل حتى الصباح — و نطوي النهار الى إن يزولا
فلما مررنا على عنجر — و أسهلن من مستناخ سبيلا
مررنا على النخل ما ذقنه — و عالجن في مر ليلاً طويلا
فلما أنتهينا الى مكة — أنخنا الركاب قبيلا قبيلا

و قال أيضا:

ابيّ في الحياة أخو قصي — اذا ما ضامه ضيم أبيت
اذا يجني علي بذلت، نفسي — و يفعل مثل ذلك إن جنيت
اخي لقد نزلت بدار قوم — اجرّ بها الإزار أذا أنتشيت
نفينا عن منازلهم عليا — فما لهم لذي الإحرام بيت

قوله عليا يعني بني عبد مناة بن كنانة كانوا يعرفون ببني علي لان علي بن مسعود الأزدي كان أخا أبيهم لامه، و هلك أبوهم و هم أطفال فتولى حضانتهم، فعرفوا ببني علي، فكانوا حلفاء خزاعة. و قال قصي يذكر نصر أخيه رزاح بن ربيعة له:

انا أبن العاصمين بني لؤي — بمكة منبتي و بها ربيت
لنا البطحاء قد علمت معدٌ — و مروتها رضيت بها رضيت
رزاح ناصري و به أسامي — فلست أخاف ضيما ما حييت
فلست لغالب إن لم تأثل — بها أبناء قيدر و النبيت

قال فلما أجتمع الناس بمكة لحجهم الذي كانوا يحجونه، حارب قصي خزاعة بمن أنجده من بني أسماعيل عليه السلام، و من أتاه مع أخيه رزاح من قضاعة فكثرت بينهم القتلى، ثم حكموا يعمربن عوف الكناني، و كان شريفا و كان هو و قومه بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة قد أعتزلوا الحرب، فاحصى القتلى و وضع قتيلا بقتيل، ففضل لخزاعة عشرة فقال: أني قد شدخت دماءهم، و الحرم لقصي و قومه، و خزاعة جيران، فسمي بذلك الشداخ، و قيل بل حكم بينهم بان كل دم أصيب من خزاعة مطلول، و كل دم أصابته خزاعة فعليها عقله، و الحرم لقصي و قومه، و خزاعة جيران فيه و لا يخرجون عنه، فقالت خزاعة: لا نرضى، قال: فأن رضيتم و الا فأعدو على الحرب. فرضوا بذلك لضعفهم عن قصي و من أجتمع له، و قيل أنهم كتبوا بينهم كتابا بان خزاعة جيران باسفل الوادي، فان دهم قريشا أمر كانت خزاعة عبيدا معه، و إن دهم خزاعة أمر كانت قريش بالخيار إن شاءوا نصروا و إن شاءوا خذلوا.

قال نوفل بن معاوية الكناني أحد بني الديل بن بكر بن عبد مناة: فقريش لا تشكر لنا هذا الحكم، و يقولون إن صاحبكم أنما حكم لنا بأرث آبائنا، و رد علينا حقنا و خزاعة تتهمنا. و قالت العرب في بيع أبي غبشان المفتاح: أخسر من صفقة أبي غبشان، فذهبت مثلا.

و في رواية أخرى إن الذي كان خليل بن حبشية نصبه للنيابة عن أبنته حبى في المفتاح هو أبو وهب سليمان بن عمرو أحد بني ملكان بن أفصى بن حارثة الخزاعي، فاشتراه منه قصي بزق خمر و قعود و لعله كان يكنى بأبي غبشان و أبي وهب أيضا، فأن العرب كانت تكني الرجل بالواحد و الجماعة من ولد و هجيت خزاعة بذلك فقال الشاعر :

باعت خزاعة بيت الله أذ سكر بزق خمر و أثواب و أذواد
باعت سدانتها للبيت و أنصرفت عن المقام بظل البيت و الوادي

و قال أخر:

اذا أفتخرت خزاعة في قديم وجدنا فخرها شرب الخمور
و باعت قبلة الرحمن جهلا بزق بئس مفتخر الفخور

و قالت حبى بنت خليل زوجة قصي حينئذ في ذلك:

ابو غبشان أظلم من قصي و أظلم من كنانتنا خزاعه
فلا تلحوا قصيا أذ شراه و لوموا شيخكم أذ كان باعه

النسيء

و في رواية أخرى إن قصيا لما أجتمع له من أجتمع لنصره بمكة، و خرجوا الى حجهم الذي كانوا يحجونه، فلو يبق الا النفر و قد غلبت قبائل من العرب على أمور تفردت بها، و أبتدعت كنانة النسيء، و كانوا ينسئون الشهور يلي ذلك منهم بني ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة، و كانوا يسمون الذي يلي ذلك القلمّس، و القلمس السيد، و قيل إن أول من نسأ الشهور منهم سرير بن ثعلبة، ثم ولي ذلك بعده أبن أخيه عدي القلمس بن عامر بن ثعلبة، ثم ولي ذلك ولده من بعده، فكان فيهم الى إن ظهر الإسلام قال الشاعر:

قلامة قد ساسوا الأمور فأحسنوا سياستها حتى أقرت لمردف

و قيل إن أخر من نسأ منهم أبو ثمامة، جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي، و قيل إنه كان أطول النسأة عمرا فأنه نسأ أربعين سنة ثم ظهر الإسلام. و كان يقوم فيقول أنا الذي لا أعاب و لا أخاب، الا أنني قد أحللت دماء المحلين طي و خثعم الذين لا يعظمون الشهور، و أنسئت هذا الشهر فجعلته صفر يعني المحرم، فإذا كان من قابل تركه.

و قد ذكر الله سبحانه و تعالى و هو أعلم و أحكم النسيء فيل كتابه فقال عز من قائل: إنما النسيء زيادةً في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلونه عاما و يحرمونه عاما" الأية. و كانوا يفخرون بذلك قال عمير بن قيس بن علقمة و علقمة هو جذل الطعان بن فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة :

و أي الناس لم يسبق بوتر و أي الناس لم يعلك لجاما

السنا الناسئين على معد شهزر الحل نجعلها حرما

و قال أخر فيهم:

لهم النسيء يمشون تحته لوائه يحلّ الشهور تارةً و يحرّم

الأجازة

و كانت صفوة تلي الإجازة و صوفة بنو الغوث بن أخي تميم بن مرة بن أد طابخة بن الياس بن مضر و كان صوفة يعرف بالربيط لان أمه - و كانت جرهمية - كانت مثناثا فنذرت إن ولدت غلاما إن تعبده الكعبة فلما ولدت الغوث ربطته بفنائها فسمي الربيط ثم جاءته و قد نال منه الحر فقالت: ما صار الا

كانه صوفة فسمي صوفة. و لزمه الأسمان فكانت صوفة أول من تدفع من عرفة و أول من ترمي قال أوس بن مغراء السعدي:

لا يريمون بالتعريف موقفهم حتى يقال أجيزي آل صوفانا

و من أمثالهم أجيزي صوفة. و كانت ربيعة بن نزار تقف عند المضيق عند العقبة فتجيز كندة لأنهم كانوا حلفاءهم فيقول الناس أقيموا حتى تجوز الأملاك من كنده و في ذلك يقول أبو طالب بن عبد المطلب:

و كندة أذ ترمي الجمار عشية تجيزهم و حجاج بكر بن وائل

حليفان شد عقد ما أحتلفا له و ردا عليه عاطفات الوسائل

و كانت أفاضة المزدلفة لبني زيد بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر و أسم عدوان الحارث و كان أخر من ولي ذلك منهم أبو سيارة عميلة بن الأعزل العدواني و كان يفيض على حمار أدلالا منه بعزة و ثقة إنه لا يخاف أمرا يحتاج الى الفرار منه و قيل إن حماره عاش أربعين سنة لم يصبه فيها عرض فمن أمثالهم اصح من حمار أبي سيارة" . قال راجزهم :

نحن دفعنا عن أبي سيارة و عن مواليه بني فزاره

حين أفاض راكبا حماره مستقبل القبلة يدعو جاره

فدفعتهم قريش عن ذلك أيضاً . قال جزء بن ربيعة العدواني عدي قريش:

أخذت الحج من عدوان قسرا و لو أدركت صوفة لاشتفيت

و قيل إن صوفة لم تزل لها الأجازة الى إن أنقرضة فورث ذلك عنهم بنو تميم فوقع في بني سعد بن زيد مناة بن تميم فكانوا يجيزون و كان أخرهم الحارث بن صوفان أحمد بني شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد و عليه ظهر الأسلام . فاما المشهور من الأحاديث فهو إن قصيا وقف لصوفة بمن معه عند العقبة فمنعه الأجازة، و قال : نحن أولى بهذا منكم . فأقتتلوا قتالا شديدا ثم أنهزم صوفة، و غلبهم قصي على ما كان في أيديهم ، فعلمت خزاعة حينئذ إنه سيحول بينهم و بين أمر مكة و الحرم ، و يغلبهم على السدانة كما غلب صوفة على الأجازة.

و روى أبو بشر العمي عن محمد بن الحسن قال حدثنا علي بن الزبير عن أبراهيم بن المنذر عن محمد بن عمر الراسبي عن عمارة بن عبد الله بن عبيس الديلي عن جوبه بن عبيد بن شيبان بن أبي شيبان عن نوفل بن معاوية الديلي أحد بني الدئيل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، قال : كنا و خزاعة مع قصي لنصره و نحن نظن إنه أنما يريد منع صوفة الأجازة فلما ظهر عليهم ندمت خزاعة و بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، و علموا إنه سيفعل بهم كما فعل بصوفة، و إنه سيحول بين خزاعة و أمر مكة و الحرم، و يدفعهم عن

السدانة و الحجابة كما دفع صوفة عن الأجازة فأنحازوا عنه فنابذهم ، و أجمع لحربهم و ثبت معه أخوه لامه رزاح بن ربيعة القضاعي، و معه ثلاثة أخوة له من أبيه من غير أمه و أم قصي ، فاقتتلوا حتى كثرت القتلا ثم تداعوا الى الصلح، و إن يحكم بينهم رجل من العرب ، فحكموا يعمر بن عوف فحكم بينهم بما حكم ، و قال : لقد قرّش قوما شريفة أحسابهم غالية دماؤهم فكل دم أصابته منهم خزاعة فهو معقول ، و كل دم أصابوه من خزاعة مطلول، فصار الحرم و ولايته و سدانة البيت و حمايته لقصي و قومه ، و صارت خزاعة جيرانا بأسفل الوادي، فقيل تقرشت قريش و أنخزعت خزاعة.

فلما أستولى قصي على الحرم جمع قومه فقال لهم: هل لكم إن تصبحوا بأهلكم في الحرم فلا تستحل العرب قتالكم فيه، و لا يستطيعون أخراجكم منه و تسكنوه فتسودوا العرب ، فاجابوه فاصبح بهم حول البيت و كانوا من قبل لا يبيتون من حوله، و لا يحدثون في الحرم حدثا و لا يواقعون فيه النساء ، أنما يكونون حوله نهارا ، و يخرجون عنه الى منازلهم بأطراف الحرم، و شعاب الوادي ليلا فلما نزل بقومه الحرم مشى اليه أشراف كنانة فقالوا له: إن هذا عند العرب عظيم و لو تركناك ما تركوك فأخرج عنه، فابى عليهم . و حضرت أيام الحج، فجمع قومه فقال لهم : قد حضر الحج و قد سمع الناس بما صنعتم و لا مكرمة عند العرب كأطعام الطعام، فليخرج كل أنسان منكم من ماله خرجا ، و عليّ مثلكم جميعا ، ففعلوا الا بني عامر بن لؤي خاصة فانهم أبووا إن يخوجوا في الرفادة شيء دون غيرهم من قبائل قريش، فجعل قصي على كل طريق من طرق مكة حظيرة ينحر فيها الجزر ، و يطعم فيها الثريد و يسقى فيها اللبن و السويق فكل من جاء من طريق من الطرق دخل حظيرة من تلك الحظائر فأكل و شرب و صدر فقال بعضهم في ذلك:

آب الحجيج طاعمين دسما بجر الحشا مستحقبين شحما
و أوسعهم زيد قصي لحما و لبنا محضا و خبزا هشما

فحوى قصي مآثر مكة و بنى لنفسه دار الندوة يجتمع فيها قومه فيقضون فيها أمورهم دقيقها و جليها و حفر بئرين ساقيتين للحاج إحداهما: بالردم الأعلى بحيث كانت دار أبان بن عثمان من بعد و الأخرى بالجزورة بحيث صارت دار أم هانئ بنت أبي طالب من بعد و كانت تلك البئر تسمى العجول قال الراجز:

نسقي على العجول ثم ننطلق إن قصي قد وفى وقد صدق
بالري للحجاج و ظام مغتبق

و قسم منازل مكة بين قومه أرباعا فسمت العرب قريشا قطين البيت و ولي ولده بعده ما كان يليه كابرا من أكابر و زمزم مدفونة الى أيام عبد المطلب بن هاشم.

حفر زمزم

فروي إنه رأى في مناه قائلا يقول له: أحفر زمزم فقال: و ما زمزم؟ قال: بره قال و ما بره؟ قال ما ضن به على العالمين و أعطيته أحفر زمزم لا تترف و لا تذم تروي الحجيج الأعظم بركة من الله القاها بين فرث و دم. قال بين لي قال: عند الحجرين الأسودين المتقابلين. قال: إن حجارة مكة كثرة سودها قال: عند نقرة الغراب الأعصم ، و قيل الأسحم خليل رأيت الماء فقل هلم الى الوراء ، أعطيته على رغم الأعداء. و في رواية أخرى أحفر زمزم تراث أبيك الأقدم و جدك أبراهيم عند الركن و الحرم بحيث الغراب الأعصم عند الفرث و الدم عند قرية النمل ، فخرج الى المسجد و جلس ينظر فانفلتت بقرة من جازرها بالجزورة فلحقها فصرعها في الموضع و جزرها فجاء غراب أعصم فوقع على فرثها و دمها و قيل كان بين أساف و نائلة فشرع في حفرها فصعد عليه فنذر إن أنبطها الله على يدهو و أعانه عليها إن يذبح أحد ولده . و حفر فوجد سيوف و غزالا من ذهب مقرطا و حلية فلما رأت قريش ذلك قالوا له : أخذنا من هذا المال . فقال: إنه لبيت الله عز و جل . فأخذ المال فحلى به الكعبة و جعل السيوف صفائح على بابها . و قال فيه خويلد بن أسد بن عبد العزى يمدحه :

اقول و ما قولي عليهم بسبة اليك أبن سلمى أنت حافر زمزم
سقلية أبراهيم يوم أبن هاجر و ركضة جبريل على عهد آدم

و مما روي في أسماء زمزم و الله سبحانه أعلم : زمزم و همزة جبريل عليه السلام وركضة أسماعيل عليه السلام و حفيرة عبد المطلب و يره و شراب الأبرار و السقيا و شراب من سغب و شفاء من سقم و المنسوبة.

و مما روي في أسماء مكة حرسها الله و الله سبحانه أعلم: مكة و بكة و طيبة الكبرى و أم القرى و أياسة و أم حرم كانوا أذا نزلوا بها رحموا و البيت العتيق و صلاح و بنية أبراهيم عليه السلام و كوثى و الكعبة و حرم الله و بيت الله . فلما فرغ عبد المطلب من حفر زمزم أخذ في الوفاء بنذره فجمع ولده و كانوا عشرة و كتب أسم كل رجل منهم على قدح ثم ضرب فصارت القرعة على عبد الله فأراد ذبحه أذا أصبح . فخرجت أمه و هي فاطمة بنت عمرو بن عايذ بن عمران بن مخزوم ليلا فأتت أباها فأستأذنت

عليه فقيل له : أبنتك بالباب فقال :ما كانت أبنتي بسروب و ما جاء بها الا الشر فدخلت عليه فقال: مالك يا بنية؟ فقالت الشر يا أبتاه إن أبني يذبح غدا . قال و لم؟ قالت: زعم زوجي إنه يريد إن يقي بنذره و قد أقرع بينهم فأصابت القرعة أبني الأصغر . فقال : كلا يا بنية زوجك رجل شريف حليم نطلب اليه ، فلا يخرج من رأينا إن شاء الله فأرجعي الى بيتك ، فقالت : يا أبتاه إن أبني يذبح ، فقال : يا بنية فزوجك أحق بولده. فخرجت من عنده و قد كادت إن ينقطع ظهرها فأصابت المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، فقالتك يا عم أبني يذبح، و قد أقرع بينهم فأصابت القرعة أبني الأصغر و هو ذابحه بالغداة. فقال: هل أتيت أحدا غيري؟ قالت نعم أتيت أبي ، قال: فما قال لك؟ قالت: زعم إن زوجي أحق بولدي، فقال صدق أبوك، و لكن زوجك رجل حليم شريف نطلب اليه و نرجوا الا يخرج من رأينا . فخرجت من عنده و قد كادت إن ينقطع ظهرها فدخلت على عايذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم و كان رجل خبيثا شريرا فقالت يا عم إن أبني يذبح غدا قال: و لم ؟ قالت زعم زوجي إنه يريد إن يفي بنذره لله تعالى . قال و هل أتيت أحدا غيري؟ قالت : نعم، أتيت أبي و عمي فزعما إنه أحق بولده، قال : فأرجعي قريرة العين ، فلن يصل اليه و الله أبدا حتى أضع السيف في مفرقه فأقده بأثنين و آخذ نصيبي و أعطيه نصيبه، أفترين عبد المطلب يرضى بذلك؟ فقالت هذا ما لا يكون أبدا ، قال : فوالله ليكونن أو ليخلين سبيله. فرجعت و قد طابت نفسها و أصبح الناس غادين الى المسجد ينظرون كيف يذبح ، و أصبح عايذ غاديا في عنقه سيف حتى جلس مع الناس . و دخل الحارث بن عبد المطلب آخذا بيد عبد الله و بيده الشفرة، و دنا أبوه حتى جاء الى موضع زمزم ، و حسر عن ذراعيه و أخذ الشفرة و أضجع الغلام . فقامت بنو مخزوم فأخذوا بيده و ناشدوه، و قالوا: ننشدك الله يا أبا الحارث فأنك إن فعلت لم يزل الرجل منا ينذر النذر ثم يجيء بولده حتى يذبحه في هذا المكان، و قد كان في أبيك أبراهيم صلى الله عليه و آله سنّة فأقتد به ، وافد أبنك بمالك حتى يرضى ربك ، فان عجز مالك فأحلّ في أموالنا حتى ترضي ربك. قال أفترون هذا مجزيا قالوا: نعم فأخرج عشرا من الأبل فأقرع عليها و على الغلام فخرجت القرعة على الغلام فنادوا إن فاخرج خمسين و أقرع عليها فخرجت القرعة على الغلام، فأخرج مائة ثم أقرع عليها و على الغلام فخرجت القرعة على الابل، فصاح الناس قد رضي ربك . فقال : كلا حتى أقرع ثلاثا . فأقرع ثلاثا فخرجت على الأبل ، فصاح الناس رضي ربك ، و وثب الحارث فأجتره من تحت أبيه حتى خرج جبينه، و نحر عبد المطلب الأبل بجزوره ، و تقسمتها قريش، و في رواية أخرى إنه جعل يقرع على عشر عشر حتى بلغت ثمانين فأفاض و هو يقول :

عهد لربي أنا موف عهده اخاف ربي إن تركت وعده

فخرجت على الغلام . فقال إن ربي لم يقبل الفدا ، فلما رأى الناس ذلك تفرقوا كراهة إن يشهدوا ذبحه فلم يبق غير خاله وهب بن عمرو بن عايذ بن عمران بن مخزوم فانه ثبت معه و هو يقول له : يا أبا الحارث زد ربك فانه سيرضى و لا تعجل فزاد عشرا، و أفاض فخرجت عليه فزاد عشرا فصارت مائة و أفاض و هو يقول:

لا هُمّ ربّ البلد المحرّم اجعل فداه مائة تقسم

و لا تر مكة الغداة بالدم

فخرجت على الأبل فقال: قد رضي ربك . فقال: ما أنصفت ربي إن القداح تخطئ و تصيب و لكني مفيض ثلاثا . فافاض ثلاثا فخرجت على الأبل فنحرها و قال الأبه:

الحمد لله العلي الأولي اجاب دعواتي و كان المبتلي

حتى تدوركت و لم ترمل

فهذا ما روي من حديث الذبيح الثاني عبد الله بن عبد المطلب، و هو مما يقوي إن أسماعيل عليه السلام هو الذبيح الأول لقولهم: إن رسول الله قال : أنا أبن الذبيحين. و إن كان الغناء وقع بدليل القرآن عن الأستدلال بغيره.

و كانت العرب في الجاهلية تعرف لولد أسماعيل عليه السلام شرف نسبهم و لا ينكرون فضلهم ، و كان ولد أسماعيل عليه السلام يفخرون بفضلهم في النسب على غيرهم من العرب. فمن ذلك ما أخبرنا به محمد بن هبة الله بن جعفر أجازة عن أبن البّراج عن علي بن الحسين العلوي عن أبي عبد الله المرزباني عن أبي بكر بن دريد عن أبن أبي رياش عن أبيه أبي رياش أحمد بن أبي هاشم قال : لما قتل قيس بن زهير مالك بن بدر بأخيه مالك بن زهير في حرب الرهان بين أبني بغيض قال : الأن قرت عيني حين باء مالك بمالك، اليوم أنتصفنا من قومنا فان كفوا كففنا ، و قال أبياتا يعرض فيها يذكر البقية و الصلح منها قوله :

عسى إن نعود بأحلامنا و نترك ما ها هنا أجمع

فان البلاء يجر الفناء و إن البقاء لنا أوسع

و ما جئت الا الذي جئتم و كل الذي كان يستفظع

قتيل لنا و لكم مثله و وهي لنا و لكم يرقع

فبلغت الأبيات حذيفة بن بدر و كان ذا تيه و كبر لا يرى في نفسه إن أحدا من العرب مثله، فقال:

كذب قيس لا يبؤ مالك بمالك و لا يكون ذاك أبدا فبلغ قوله بني زهير فقال ورقاء بن زهير:

تاني حذيفة ما مثله يحط الرئيس و لا يرفع

ايرفع عن مالك مالكا فقبح من ذينك الأوضع

كان أباك أبن ماء السماء او الملك المتقى تبع

او الأبرش في ملكه أو ابن الخير أو الأرع

و قيصر الملك أو عامر و عمرو و أبرهة الأروع

فبلغت الأبيات حذيفة فقال ما أحد ممن سمى الا و أنا خير منه ثم قال:

اتجعل قوما أذا ما أنتموا فقحطان أصل و منجمعُ

و إن كان ملكهم ظاهرا و قد منحوا الملك و أستودعوا

كقوم أبوهم خليل الإله و أبن الخليل الرضا الأروع

و أسحق عمهم المصطفى و نوح سما بهم الأيفع

فان يملم القوم بعض البلاد فقد يملك الأرفع الأوضع

و عند الخواتم حمد الأمور و نحن الخواتم و المرجع

و نحن الصميم الصريح النضا ر و الجوهر الخالص الأرفع

و كان رسول الله أذا ذكر هاجر ترحم عليها.

و روي إنه عليه السلام قال: اذا أقتحمتم مصر فاستوصوا باهلها خيرا فان لهم ذمة و رحما". فروي إن الرحم التي ذكرها لهم أنما عني بها هاجر رضي الله عنها و من فضلها إنه روي أنها خرجت في أول أمرها غضبى على سارة رضي الله عنها، فلقيها جبريل عليه السلام فامره بالعود، و بشرها بأسماعيل عليه السلام. و ري إن رسول الله كان أذ أنشد قول الأفوه الأودي:

يا بني هاجر ساءت خطة ان تنالوا النصف منا أو تجاروا

"لعن الأفوه" و هذا البيت من قصيدة الأفوه المشهورة التي يفتخر بها على نزار و قد أجيب عنها قديما و حديثا فممن أجابه عنها في عصره الفند اليشكري ، و أسمه شهل بقصيدة يفتخر بها عليه و يرد قوله منها في ذكر هاجر رضي الله عنها:

نحن أبناء معد ذي العلى و كنا من هاجر فخر كبار

ولدت أكرم من شد له عقد الحلم أذ شد الأزار
ان أسماعيل فخر و سنا حل في دار بها حل الفخار
عطف الناس على أعقابنا مثل ما حنت على البو الظؤار
فأرفعوا بيتا يساوي بيتنا هل لكم مثل حجار البيت جار
ليس بيت يرغب الناس معا ان يزوروه كبيت لا يزار

و روي إن رسول الله سمع قائلا يقول:

اني أمروء حميري حين تنسبني لا من ربيعة آبائي و لا مضر

فقال:"ذلك أتعس لجدك ، و أصغر لخدك و أنبأ لحدك و أبعد لك من الله و من رسوله" . و العلم المشهور من ولد أسماعيل عليه السلام الذي يجتمع اليه أنسابهم و تلتقي شعوبهم معد بن عدنان.

فضل معد بن عدنان

و كان فضل بن عدنان فيما روي ، سديد الرأي، كامل العقل، كثير الشكر لله عز و جل. و هو الغني بأسمه عن التعريف بآبائه، المقتنع بشهرته و نباهته عمن تقدمه ممن بينه و بين أسماعيل عليه السلام. و روي إنه كان بينه و بين أسماعيل عليه السلام ثلاثون أبا ، و قيل دون ذلك و أكثر منه و النسب الموجود في أيدي الناس يدل على دون هذا العدد بكثير.

و وروي أن رسول الله كان أذا أنتسب فأنتهى الى معد بن عدنان أمسك .

اخبرنا الحسن بن محمد عن أبيه عن محمد بن عبدون عن أبي طالب الانباري عن أبي بشر العمي عن محمد بن الحسين التسميني عن هشام بن محمد عن أبيه عن أبي صالح عن عباس رضي الله عنه قال: كان النبي إذا أنتسب الى معد بن عدنان أمسك، و قال: كذب الناسبون. قال الله سبحانه و تعالى: و قرونا بين ذلك كثيرا".

و روي إن رسول الله قال: لا تنسبوا معدا فانه كان على حنفية أبراهيم صلى الله عليه و آله". و روي أن بخت نصر لما فرغ من أخراب المسجد الاقصى و مدن بني أسرائيل و أنتسفهم قتلا و سبيا أري في منامه أو-امر بعض الانبياء إن يأمره- إن يدخل بلاد العرب فلا يستحيي بها أنيساً و ذلك حين كفروا، و أتخذوا الالهة من دون الله غز و جل. و قتل أهل حضور نبيهم و أهل الرس نبيهم فنظم بخت نصر ما بين أيله و الأبلة خيلاً و رجالاً، ثم دخلوا على العرب فأوحى الله سبحانه إلى أرميا و أرخيا عليهما السلام:

إن الله قد أنذر قومكما، فلم ينتهوا فعادوا بعد الملك عبيداً، و بعد نعيم العيش عالة يسألون الناس و قد تقدمت الى أهل عربة بمثل ذلك فابوا الا لحاجة و قد سلطت بخت نصر عليهم لانتقم به منهم فعليكما معد بن عدنان الذي من و لده محمد الذي أخرجه أخر الزمان أختم به النبوة و أرفع به من الضعة فخرجا تطوى لهما الارض حتى سبقا بخت نصر فلقيهما عدنان فطوياه الى معد، و له يومئذ أثنتا عشر سنه فحمله رخيا على البراق و ردف خلفه فانتهيا الى حران من ساعتهما، و طويت الارض لارروميا فاصبح بحران و الحديث طويل هذا موضع الحاجة منه. فلما قضى بخت نصر غزوته رجع، و مات عدنان و بقيت بلاد العرب خراباً مدة حياة بخت نصر. فلما هلك خرج معد بن عدنان معه أنبياء بني أسرائيل حتى أتى مكة فاقام أعلامها و حج، الانبياء معه، ثم سأل معد عمن بقي من ولد الحارث بن مضاض الجرهمي، فقيل له جوشن بن جلهمة فتزوج أبنته معانة، و ولدت له نزار بن معد. و في رواية أخرى إن الله سبحانه أوحى الى برخيا بن أخبيا بن زوبابيل بن شلشيل من ولد يهودا بن يعقوب عليه السلام إن أئت بخت نصر فمره إن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم و لا أبواب، و يطأ بلادهم فيقتل مقاتلتهم و يستبيح أموالهم، و أعلمه كفرهم بي، و أتخاذهم الآله دوني، و تكذيبهم أنبيائي و رسلي. فقد برخيا على بخت نصر فأخبره بما أوحى اليه و ذلك في زمن معد بن عدنان، فوثب بخت نصر على من كان في بلاده من تجار العرب و سفارهم، وكانوا يقدمون بالتجارات و يمتارون الحب و التمر و الثياب و غيرها، فجمع من ظفر به منهم و بنى لهم حيراً على النجف، و حصنه و ضمهم فيه و وكل بهم حرساً ثم نادى الغزو و ذكر مثل الحديث. فلما عاد بخت نصر و قد أخرب أرض العرب خلى عمن كان حبسة في الحائر فلم ينصرفوا منه، و اتخذوه منزلا مدة حياة بخت نصر فهي الحيرة. و كان هذا سببها بنائها فلما هلك بخت نصر أنتقلوا الى الانبار، و خلت الحيرة فلم تزل خراباً الى أيام أردشير بن بابك، فأنه أستعمل عمرو بن عدي على العرب، و أمره إن يسكنها، و يتخذها منزلا فنزلها و نزل الناس معه فعمرت بذاك و قد تقدم ذكر ذلك. و قد ذكر الطبري هذه الخبار في أمر بن عدنان و أستوفى شرحها في تاريخه.

و روى أبن جمهور عن أبيه عن أبراهيم بن المنذر عن عبد العزيز بن عمران عن القاسم بن أصيهب عن الحجاج بن أرطاة بن أبي رباح عن أبن عباس رضي الله عنه مثل ذلك إلا إنه قال في حديثه إن بخت نصر لما أوقع بأهل حضورا و أهل أرمينة حتى إذا أدبر الامر رداه الى موضعه من تهامة، فكان بمكة و ناحيتها مع أخواله من جرهم فأختلط بهم و ناكحهم. و كان معد و ولده أشراف العرب لم يكن أحد إلا يرى لهم فضلهم، و كان له من الولد عشرة أكبرهم قضاعة و به كان يكنى .

و روى أبن جمهور عن أبيه عن عباد بن أبراهيم عن هشام بن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله : أتدرون ما كان يكنى معد، كان يكنى بأبي قضاعة". و قال عمرو بن جرير بن مغيث بن جرير بن عجلان البلوي:

فإن معدا كان يكنى ببكره قضاعة ما فينا له من يجمجم

و هذا مما يستدل به على إن قضاعة بن معد، أنهم نافلة في حمير و الله أعلم.

و ذكر نضر بن مزروع النسابة الكلبي أن قضاعة لم تزل متمسكة بنسبها الى معد بن عدنان مقيمة على ذلك حتى مضى صدر الخلافة معاوية، فذكر لهم عمرو بن مرة بن عامر بن مالك بن رفاعة الجهني نسبا في اليمن. وكانت لعمرو بن مرة صحبة و سابقة في الاسلام و طاعة في قومه، و لم يكن أطيع فيما ذكره من ذلك-إن كان ذكره- ثم قال و قد رجع عما قال من ذلك. ثم إن قضاعة أحدثت بينها و بين اليمن بالشام حلفا في أيام فتنة أبن الزبير و مروان أبن الحكم، و أبنه عبد الملك و ذلك في أيام إغارات عمير بن الحباب السلمي على كلب، و إغارات حميد بن حريث الكلبي على قيس عيلان، فلم تزل كلب و اليمن يشددون ذلك الحلف و مالأهم عليه خالد بن يزيد بن معاويه خلافا لبني مروان، و قصدا لتوهين ملكهم، و تفريق أجماعة أهل الشام عنهم حتى كثر المنتسبون من قضاعة الى حمير، ثم لم يستحكم ذلك حتى كانت غزوة مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية، فأظهر العصبية و التحامل على كلب، و وقع بين كلب و قيس في فرس لكلب سبق فرساً لقيس شرَّ. فأرادت قيس إن تحول بين كلب و فرسهم، فعظم الامر بينهم حتى زحف بعضهم الى بعض، و أستبان لكلب ميل مسلمة و تحامله، و جساءتهم اليمن فاظهروا لهم الغضب، و رجعوا معهم و أرادوا بذلك أستمالتهم فأنصرفت كلب من غزوة القسطنطينية، و هي بأسرها تنتسب الى مالك بن حمير و تنتفى من معد. و قال شاعرهم عطاف بن شعفره من بطن منهم يقال لهم بنو بكر أبن أبي سود بن زيد الله بن رفيده بن ثور بن كلب:

يا أيها الداعي أدعنا و أبشر نحن بنو الشيخ اليماني الازهر

قضاعة بن مالك بن حمير النسب المعروف غير المنكر

قال نصر بن مزروع: فلم تزل قضاعة بعد غزوة القسطنطينية الى اليوم مختلفين في أنسابهم، الا إن أهل العلم منهم، و التقوى و السباقة في الاسلام لم يستحسنوا قط، و لم يستحلوا إن ينتفوا من أبيهم معد بن عدنان، ثم كان خالد بن عبد الله القسري حين ولي العراق بعد ذلك يعين على فساد نسب قضاعة، و أفسد نسب بجيله أيضاً و أعطى ذلك الأموال و أطمع أهل الطمع من قضاعة و بجيله. و كان ممن أنتفى من الشعراء قضاعة من معد و أنتسب الى اليمن الآعور الكلبي و أسمه حكيم بن عياش، و هو الذي كان

يهاجي الكميت بن زيد الاسدي رحمه الله هذا ما ذكره نصر بن مزروع الكلبي النسابة و أقام على ذلك أدلة واضحة و أورد عليه شواهد حسنه و أستشهد عليه بأشعار كثيرة. فأما هشام بن محمد الكلبي فروي عنه أنه روى أن معانة بنت جوشن بن جلهمة، و قيل أسمها جلهمة، و كانت عند مالك بن عمرو بن مالك بن حمير، ثم خلف عليها بعد معد بن عدنان فجاءت معها بقضاعة بن مالك، فكان يقال له قضاعة بن معد، ثم ولدت لمعد بن عدنان أبنه نزار، و به كان يكنى أبى جيدة و قيل أبا قضاعة و قنصاً و قناصة و سناماً و الغوث و قيل و شكا و جيدان، و جيده، و عبيد الرماح، وهم في بني كنانة بن خزيمة، و حشدا و هم في عك و جياده و القحم، و قيل بل كانت معانة بيدا عند معد بن عدنان، فولدت له قضاعة، ثم خلف عليها مالك بن عمرو بن مالك بن حمير، فتبنى قضاعة فنسب اليه و قيل إن أسمة عمرو، فلما تقضع عن قومه أي بعد عنهم سمي قضاعة و الله أعلم.

و قال بعض الرواة قضاعة عكبرة قال أبن الكلبي، و لا أدري ما هذا. و روي عن أبي عمرو بن علاء إنه قال لم تزل قضاعة معدية في الجاهلية، ثم تحولوا فقالوا: قضاعة بن مالك بن عمرو و ذلك لأن بني مالك بن عمرو أخوهم لأمهم. و روى أن عمر بن عبد العزيز كانت أم أبيه كليبة، قال لبعض أخوال أبيه: إن على منكم لغضاضة. عضتكم حرب قوم، فانتفيتم من أبيكم، و أنتميتم الى غيرة، و كنتم أخوة قوم لأمهم، فصيرتم أنفسكم أخوهم لابيهم و أمهم. قال هشام و كان عمرو بن مرة الجهني، أول من الحق قضاعة باليمن فقال فيه بعضهم :

أيا أخوتا لا ترغبوا عن أبيكم و لا تهلكوا في لجة لجها عمرو

و روى أبن الأعرابي عن المفضل الضبي عن القاسم بن معن و غيره، إن أول من الحق قضاعة بحمير، عمرو بن مرة الجهني، كانت له صحبة، فاتفقت الروايات عنه في ذلك.

و روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت يا رسول الله قضاعة أبن من؟ قال أبن معد و أنشد أبو عمرو شاعر قديم:

قضاعة كان ينسب في معد فلج بها السافهة و الضرار
فإن تعدل قضاعة عن معد تكن تبعا و للتبع الصغار
و زنيتم عجوزكم و كانت حصاناً لا يشم لها خمار
و كانت لو تناولها يمانٍ للاقى مثل ما لاقى يسار
و أكره إن يكون شعار قومي لذي يمن إذا ذعرت نزار

و قال كميت بن زيد الاسدي في ذلك:

و قد أحدثت فيهم قضاعة نسبة و قالوا أبونا مالك ثم حمير

و قال جميل بن معمر العذاري:

انا جميل في السنام من معد الدافعين الناس بالركن الاشد

و قال بثينة:

ربت في الروابي من معد و فضلت على المحصنات الغر و هي وليد

و أمثال هذه الاشعار و الشواهد على نسب قضاعة الى معد بن عدنان من شعرائهم لا تحصى كثره.

و أخبرنا الحسن بن محمد عن أبيه عن أحمد بن عبدون عن أبي طالب الانباري عن أحمد بن أبراهيم العمي عن عبد العزيز بن يحيى بن زيد الباهلي عن سليمان بن رفاعة عن مكحول، قال: أغار الضحاك بن معد على بني إسرائيل في أربعين رجلا من بني معد عليهم درائع الصوف، خاطمي خيولهم بحبال الليف، فقتلوا و سبوا، فقالت بنو إسرائيل: يا موسى إن بني معد أغاروا علينا و أنت بيننا، فادع الله عليهم، فتوضأ موسى عليه السلام و صلى ثم قال: يا رب إن بني معد أغاروا على بني إسرائيل فقتلوا و سبوا، فسألوني إن أدعوك عليهم، فأوحى الله اليه: لا تدع عليهم فانهم عبادي، و أنهم ينتهون عند أول أمري و إن فيهم نبيا أحبه و أحب أمته، قال: يا رب و ما بلغ من محبتك له؟ قال: أغفر أه ما تقدم من ذنبه و ما تأخر. قال: يا رب فما بلغ من محبتك لامته؟ قال: موضع نبيهم مني. قال يا رب فاجعلني منهم، قال تقدمت و أستأخروا.

و روى أحمد بن أبراهيم العمي بإسناد أخر أيضاً قال لما بلغ بنو معد عشرين رجلا أغاروا على عسكر موسى عليه السلام، فدعا عليهم فلم يجب، ثم أغاروا فدعا عليهم فلم يجب صلاص مرات، فقال: يا رب دعوتك على قوم فلم تجبني فيهم بشيء قال يا موسى: دعوتني على قوم هم خيرتي في أخر الزمان. جاءت هذه الاخبار هكذا و في التقدير و الله أعلم إن موسى عليه السلام كان قبل معد بن عدنان و أنهما لم يتعاصرا، و مما يدل على ذلك ما تقدم من ذكر حمل أروميا و برخيا عليهما السلام معد بن عدنان لما غزا بخت نصر العرب، و بخت نصر كان بعد موسى عليه السلام بما شاء من الزمان، و الاشبه بالصحيح إن تكون شكوى بني إسرائيل من بني معد الى بعض أنبيائهم الذين كانوا في ذلك العصر فسبحان العالم بكل شيء.

فضل نزار بن معد

و كان نزار بن معد وصي أبيه بوصيته دون غيره من ولده، و لما رآه من صلاحه و سؤدده و تفرس فيه من نجابته، و أوصى أخوته بطاعته و أمرهم بأكرامهم و تسويده. وكان القيم بأمرهم بعده، و المحافظ على شرفهم. و في ولد نزار الشرف على ولد أعمامهم جميعا بفضل أبيهم و رئاسته. و روي إن أخوته شكوا اليه من ظلم عدوهم، وما ينالهم من جورهم، فقال: أركضوا عليهم بسم الله، فأطاعوه لما كان أبوهم أوصاهم به من طاعته و لزوم أمره و كانوا فيما روي سبعة، و قيل عشرة فركضوا على عدوهم، و ظفروا فعجب الناس لذلك و حسدوهم على ظفرهم، و ندم بنو معد على ما صنعوا، فقالوا لأخيهم نزار: إننا أطعناك لما كان أبونا أوصانا به من طاعتك، فركضنا على عدونا و قد جنينا مما جنينا، و نحن سبعة فمن لنا بعدونا؟ فقال: يا قوم أما كنتم تسمعون أباكم يقول في خطبته: أتقوا الله فأن في التقوى العز الاكبر، و أشكروه فان في الشكر المزيد، و أعلموا إن الله سبحانه إذا أراد بقوم خيراً وفقهم لطاعته، و إذا عصوه سلط عليهم من يذلهم، ثم يزيليهم عن معصيته. و هم عصاة، و قد تبينت أنكم تغلبون و تملكون فلا تشتغلوا بشيء غير التوكل على خالقكم، و طلب الزيادة منه بحسن الشكر له و العبادة فانصرفوا عنه، فقال لابنه مضر و هو صبي: أعرف لي ما عند القوم، فرجع فقال له كلهم حزن لما صنع شكا في قولك. قال: فكيف أنت يا بني؟ قال: لا أشك في قولك. فتفرس فيه النجابة فكان أثر ولده عنده. و كان نزار يأمر بنيه بالتقوا فيقول: يا بني أتقوا الله فلما مات دفن بذات الجيش فكان قبره يعرف يقبر التقي. و أوصى الى أبنه مضر و جعل له قبة حمراء من أدم كانت له و ما أشبهها، و جعل لربيعة الفرس و ما أشبهها، و لاياد خادما له شمطاء و ما أشبهها، و لانمار الحمار و ما أشبهها فقيل مضر الحمراء، و ربيعة الفرس، و إياد الشمطاء، و أنمار الحمار .

قال الحمار الشاعر:

نزار كان أعلم حين ولى لأى بنيه أوصى بالحمار

و قيل إنه أعطى أنمار جاريه له تدعى بجيله. فحضنت ولده فنسبوا اليها فقيل بجيلة. و أوصاهم إن أختلفوا في قسمة ماله إن ياتوا الأفعى الجرهمي بنجران ليحتكم بينهم، و كان حكما يحكم بين العرب، و لم يجد له نسبا في جرهم و الذي وجدت في نسبه: إنه الافعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و لعله نسب الى جرهم بجوار أو حلف، أو سبب غير ذلك، و الله سبحانه أعلم. فأختلفوا فتوجهوا اليه فرأوا في طريقهم

أثر جمل، فقال مضر: إنه أعور، و قال ربيعة: هو أزور، و قال أياد: هو أبتر، و قال أنمار: هو شرود. ثم ساروا فلقيهم شيخ ينشده فوصفوه له، فقال: ردوه علي، أو دلوني عليه، فقالوا: أنا لم نره، و لا نحن لسراق، فنازعهم و سار معهم الى الافعى، فلما أتوه نادى صاحب البعير، بعيري وصفوا لي صفته، ثم قالوا: لو لم نره، فقال لهم الافعى كيف وصفتموه و لم تروه؟ فقال مضر: رأيته يرعى جانباً، و يترك جانباً فعلمت إنه أعور،و قال ربيعة: رأيت أثره مختلفاً فعلمت إنه أزور، و قال أياد: رأيت بعره مجتمعاً فعلمت إنه أبتر، و قال أنمار: يرعى بالمكان الملتف ثم يتجاوزه الى مكان أرق منه نبتاً فعلمت إنه شرود، فقال الافعى: أنصرف أيها الشيخ، فليسوا بأصحاب بعيرك، ثم أنزلهم و أكرمهم و ذبح لهم شاة، و قدم اليهم شراباً، و جلس بحيث يسمع حديثهم من غير إن يعلموا مكانه، فقال مضر: لم أر كاليوم خمراً لولا إن كرمتها غرست على قبر، و قال ربيعة: لم أر كاليوم لحماً لولا إنه أرضع بلبن كلبه. و قال أياد: لم أر كاليوم رجلا أسرى أولا إنه ليس لأبيه. قال أنمار: لا شيء أفجع في حاجتنا من كلامنا هذا. فلما سمع الافعى كلامهم نهض الى أمه بالسيف فتهددها و خوفها و سألها عن أمره، فأخبرته أن أباه كان لا يولد له. فأمكنت غيره من نفسها فحملت به، و سأل وكيله عن الخمرة، فقال. أنا اعتصرناها من كرمة غرسناها على قبر أبيك و سأل الراعي عن اللحم فقال: شاة ماتت أمها فارضعتها بلبن كلبة. فأتاهم فقال قصوا علي قصتكم فاخبروه باختلافهم فيما ترك أبوهم، فقال: إن القبة الحمراء و ما أشبهها من الادم لمضر، فصار له الذهب و الابل، و قضى بالخيل الدهم و الخباء الاسود و ما أشبهها لربيعة، و قضى بالخادم و الشمطاء، و ما أشبهها لاياد، فصارت له الخيل و البلق و البقر و الماشية، و قضى لأنمار بالحمار و ما أشبهه فصارت له الارض و الدراهم. ثم سألهم عن معرفتهم بشأنه و بشأن اللحم و الخمر فقال مضر: أما الخمرة فوجدت في رأسي منها ما لم أكن أعهده من غيرها، فعلمت إن ذلك من أسباب الموت و إن كرمتها نبتت على قبر و قال ربيعة: و أما اللحمة فأني وجدت فيه خبث ريح لم أكن أعرفها من اللحوم فعرفت إنه مغذو بلبن كلبة، و قال: و أما أنت فإني رايتك تبدأ بالسب من لم يسبك، فعلمت إن ذلك لا يكون إلا من خبث ولادة، فانصرفوا من عنده و أقتسموا مال أبيهم على ما قضى به بينهم، و كانت الرئاسة عليهم لمضر و هو القيم فيهم مقام أبيه .

فضل مضر بن نزار

و كان مضر بن نزار وصي أبيه، و القائم بامر قومه بعده، و الحافظ لشرفهم و له الرئاسة عليهم غير مدافع، و هو واخوه ربيعة الكريمان الصريحان من ولد أسماعيل عليه السلام، و هما سلفا معد و غارا معد قال الفرزدق:

ومنا الذي أعطى يديه رهينة لغازي معد يوم عقد الذمائم

يعني عبد الله بن حكم بن زياد بن جوى بن سفيان بن مجاشع حين جعل نفسة رهينة عند ربيعة و الأزد على ما كان لهم عند تميم و قبائل مضر من الديات في الحروب التي كانت بينهم بالبصرة.

و أخبرنا الحسن بن محمد أجازة عن أبيه عن أحمد بن عبدون عن أبي طالب الانباري عن أبي بشر أحمد بن أبراهيم العمي عن أحمد بن عمرو الزيبقي عن عبد الله بن المكرم الضبي عن محمد بن زياد عن الميمون بن مهران عم أبن العباس رضي الله عنه. قال: قال رسول الله :: لا تسبوا مضر و ربيعة، و لا تسبوا قيساً فأنه كان مسلماً". و في ولد مضر النبوة و الشرف و الثروة، و لهم الفضل على ولد أخوته و غيرهم من الناس.

و قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: يفضل مضر الناس بخلال كثيرة منها النبوة، و الخلافة، و الملك، و كل شريف في الاسلام من الناس أجمعين فمضر شرفته.

و أخبرنا الحسن بن محمد أيضاً بالاسناد المذكور الى أبي بشر العمي عن محمد بن الحسين عن محمد بن المثنى عن معاذ بن هشام عن أبي قتادة عن الحسن عن دغفل بن حنظلة قال: قال رسول الله :" إذا أختلفت الناس فالحق في مضر". و بهذا الاستناد المذكور عن أبي بشر العمي عن أحمد بن عمرو الزيبقي عن يحيى بن جعفر بن موای بني هاشم عن أبي الحسن علي بن عاصم الخزاعي عن داود بن أبي هند، قال: تنافر رجلان الى الشعبي في أي ولد نزار أشراف، فقال لهما: الم تسمعا بوصية نزار؟ قالا: بلى، قال فلمن سمعتما إنه جعل القبة؟ قالا لمضر، قال فإن القبة هي العلم المشهور الذي يلجأ اليه الخائف، و يقصده الوافد، و يشير اليه المشير، و ينيخ بفنائه الضيف، و هي ملجأ أبن السبيل و المستغيث، و عندها تربط الفرس، و عنها ينبح الكلب، و اليها يروح المال فصاحبها هو الرئيس.

و روي إن مضر لما حضرته الوفاة قال لبنيه و من حضرهم من أهل بيته و أخوالهم: من يزرع شراً يحصد ندامة، و خير الخير أعجله، فاحملوا أنفسكم على مكروهها فيما أصلحكم، و أصرفوها عن هواها فيما أفسدكم، فليس بين الصلاح و الفساد إلا صبر فواق. ثم خص بوصية أبيه الياس و أوصى اليه بوصية منها: أتق الله يا بني، فإنك أذا أتقيته بصّرك رشدك، و أذا مت فاقبرني حيت أقبض، فأني أخاف إن أقبر في موضع لا أستحقه. و توفي بخيف منى ثاني يوم النحر فدفن حيت قبض فمسجد الخيف على قبره.

فضل الياس بن مضر

وكان الياس بن مضر وصي أبيه و الرئيس بعده، و القائم بسؤدده، و مضر تتشعب شعبتين، و هما خندف و قيس، فخندف هم بنو الياس بن مضر و فيهم النبوة و الثروة و الشرف. و كانت العرب تعظم الياس تعظيم لقمان الحكيم، و كان حسن السياسة لقومه و الحياط لهم و القيام بأمورهم و الاصلاح لأحوالهم و المؤاساة لهم و فيه يقول الحارث بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار :

رؤفت و كنت بنا رحيما كأنك بيننا أدد أبونا
و أسماعيل قد أمسكت منه و من نوح و كنت كما ولونا
لبست ثيابهم فقدمت بها فعم الناس فضلك أجمعينا
و نحن كذاك حولك في رفادٍ لديك كما لديك الصالحونا
إذا ما أمة ذكرت أخاها بحسن سياسةٍ فليسألونا
نطاع ما أضاع الدهر منا و يصلح جهده فينا أخونا

و روى أبو بشر العمى عن موسى بن سهل عن عبد الله بن الرحيم عن بكر بن عبد الملك عن زياد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أبي عمر قال: لما أدرك الياس بن مضر أنكر على بني أسماعيل عليه السلام ما غيروا من سنن آبائهم، و بأن فضله عليهم و لان جانبه لهم حتى أجتمعوا عليه و رضوا به رضا لم يرضوه بأحد من بني أسماعيل عليه السلام بعد أدد، فردهم الى سنن أبائهم حتى رجعت نيتهم تامة على أولها.

وروي إنه رد الى البيت الركن، و أهتدى اليه البدن، و قيل، إنه كان مصاحبا لذي الكفل عليه السلام و تزوج ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة و هي خندف فولدت له بنيه الثلاثة: مركة و طابخة و قامعة، و يقال فيه قمعة و قيل أن أسم مدركة عامر و أسم طابخة عمر.و قيل بل أسم مدركة عمرو، و أسم طابخة عامر، و أسم طابخة قامعة عمير.

و وري أنهم كانوا مع أبيهم و هم صبيان فسنح لهم صيد فطرده عمرو فأخذه و أعطاه عامراً فذبحه و طبخه. و قعد عمير لم يصنع شيئاً، فقال الناس لعمرو أنك أدركت ما طلبنا فسمي مدركة و قال لعامر و أنت قد أنضجت ما طبخنا فسمي طابخة و قال لعمير و أنت قد جزنت فانقمعنا فسمي قامعة و غلبت عليهم هذه الأسماء فعرفوا بها. و أصاب الياس السل فلذلك يقال لمن أصابه السل به داء الياس.

قال الشاعر:

فلو كان داء الياس بي و أغاثني طبيب بارواح العقيق شفانيا

و قال أخر:

و قول الكاشحين أذا رأوني بداء الياس فهو كراه مودى

و مات حدث السن و خلف بنيه صغارا مع أمهم خندف فحزنت عليه حزننا شديدا و حرمت اللذات و آلت لا يظلها سقف بيت و خرجت تسيه في الأرض.

و روي إن الياس مات يوم خميس و العرب أذ ذاك تسمي الخميس مؤنسا و كانت خندف أذا طلعت الشمس من يوم الخميس لم تزل تبكي الى إن تغرب الشمس فضرب بها المثل.
قال الشاعر:

فلو إنه أغنى لكنت كخندف　　على الياس لما كانت الدهر تندب
اذا مؤنس لاحت عرانين شمسه　　بكت يومها حتى ترى الشمس تغرب
فلم يغن شيئا حزنها و التدامها　　و ما طلها دهر و عيش معذب

و قالت سلما الغسانية و قد مات أخوها ثم أبوها فأكثرت البكاء عليهما حتى لامها قومها:

يلحون سلما إن بكت أباها　　و قبل ما قد فقدت أخاها
فحولوا العذل الى سواها　　عصتكم سلمى الى هواها
كما عصت خندف من نهاها　　خلت بنيها أسفا وراها
تبكي على الياس ما أتاها

و تركت خندف بنيها فكان الناس أذا رأوهم قالوا: بنو خندف و رقوا لهم لموت أبيهم و أشتغال أمهم بالحزن عنهم و غلب عليهم أسم أمهم بهذا السبب قال راجزهم:

اني أنا الأعور هذا نزبي　　امهتي خندف و الياس أبي

يقال نبز و نزب .
و نشئوا فكانت الثورة فيهم و الشرف الظاهر لهم على غيرهم . و كان الياس و ولده يتخذون الأخبية الحمر تمسكا بسنة مضر فكانت خندف تسمى مضر الحمراء فكانت قيس تتخذ الأخبية السود فقيل لهم مضر السوداء و كان ولد الياس غير مدافعين عن الشرف و الفضل في ولد أسماعيل عليه السلام و لا غيرهم. قال المرار بن منقذ العدوي من عدوية تميم و كانت أمه أسدية:

انا أبن سراة فرعي آل زيد　　و في أسد زنادي قد ورينا
فضلنا الناس أنا أولهم　　و إن مكارم الأخلاق فينا
ابا فابا أذا نحن أنتسبنا　　الى إن تبلغ الأنساب طينا

فما من معشر ورثوا حصانا و لا بلغوا مساعي أولينا
سوى إن النبوة في قريش و ما يك فيهم فبنو أبينا

و قال الفرزدق:

و ما قوم أذا العلماء عدوا صميم الأكرمين الى التراب
بمختلفين إن هم فضلونا عليهم عند ذاك و لا غضاب

فضل مدركة بن الياس

و كان مدركة أبن الياس سيد أخوته و رئيس قومه و القائم فيهم مقام أبيه و في ولده و الثروة و الشرف و لهم الفضل على ولد أخوته و غيرهم من العرب.

اخبرنا القاضي أبو المعالي أحمد بن علي بن قدامة أجازة عن علي بن الحسين العلوي عن أبي عبيد الله المزرباني عن أبي بكر الصولي عن أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم عبيدة عن أبي زرارة بجال بن حاجب من ولد علقمة بن زرارة قال: خرج يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة الدارمي حاجا قال: فلما شارفت البلد رأيت ركبا على أبل عتاق برحال ميس مابسة بالأدم في وسطه شيخ يحفون به فعدلت اليهم فسلمت عليهم و بدات بالشيخ ثم تأملتهم فلم أعرفهم فقلت ممن القوم؟ فأراموا هيبة للشيخ و أنتظارا لجوابه . فقال الشيخ: من مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة. فقلت: حياكم الله و أنصرفت فصاح الي: قف أيها الرجل. فوقفت فقال: نسبتنا فانتسبنا لك فشامتنا مشامة الذئب الغنم ثم أنصرفت و لم تكلمنا فقلت ما أنكرت سوءا و لكني ظننت أنكم من عشيرتي فاناسبكم فانتسبتم نسبا لا أعرفه و لا أراكم تعرفوني. فامل الشيخ لثامه و حسر عمامته و قال: لعمري لئن كنت من جذم من أجذام العرب لاعفنك اليوم قلت: فاني من أكرم أجذامها قال: فان العرب بنيت على أربعة أركان: مضر و ربيعة و اليمن و قضاعة فمن أي الأركان أنت؟ قلت: من مضر قال : أمن الأرحاء أم من الفرسان؟ فعلمت إن الأرحاء خندف و إن الفرسان قيس فقلت : من الأرحاء قال: فانت أذا من خندف. فقلت: أجل قال: أفمن الأرنبة أم من الجمجمة؟فعلمت إن الأرنبة مدركة و الجمجمة طابخة فقلت: من الجمجمة قال : فانت أذا من طابخة. قلت أجل قال: أفمن الصميم أم من الوسيط فعلمت إن الصميم تميم و إن الوسيط الرباب فقلت من الصميم قال : أذا أنت من تميم قلت أجل قال أفمن الأكرمين أنت أم من الاحلمين أم من الاقلين؟ فعلمت إن الاكرمين زيد مناة بن تميم و إن الاحلمين عمرو بن تميم و إن الاقلين الحارث بن

تميم فقلت من الاكرمين قال: فانت أذا من زيد بن مناة قلت أجل قال أفمن الجدود أم من البحور أم من الثماد؟ فعلمت إن الجدود مالك و إن البحور سعد و إن الثمود بنو أمرئ القيس فقلت : من الجدود قال: فانت أذا من بني مالك قات أجل أفمن الذرى أم من الارداف؟ فعلمت إن الذرى حنظلة و إن الارداف قيس و معاوية و هما الكردوسان فقات: من الذرى قال أذا من حنظلة قات أجل قال أفمن البدور أنت أم من الفرسان أم من الجراثيم ؟ فعلمت إن البدور مالك و إن الفرسان يربوع و إن الجراثيم البراجم قلت من البدور قال فانت أذا من بني مالك بن حنظلة قلت أجل قال أفمن الارنبة أم من اللحيين أم من القفا؟ فعلمت إن الارنبة دارم و إن اللحيين طهيه و العدوية و إن القفا ربيعة فقلت من الارنبة قال: فانت أذا من بني دارم قلت أجل قال: أ فمن اللباب أم من الهضاب أم من الشهاب؟ فعلمت إن اللباب عبد الله و إن الهضاب مجاشع و إن الشهاب نهشل فقلت من اللباب قال فانت أذا من عبد الله قلت أجل قال أفمن البيت أم من الذوافر؟ فعلمت إن البيت بنو زرارة و إن الذوافر الاحلاف فقلت من البيت قال فانت أذا من بني زرارة قلت أجل قال فان زرارة ولد عشرة:حاجبا و لقيطا و علقمة و معبدا و خزيمة و لبيدا و أبا الحارث و عمرا و عبد مناة و ملكا فلأيهم أنت؟ قات من بني علقمة فان علقمة شيبان بن علقمة لم يلد غيره فتزوج شيبان ثلاث نسوة : مهدد بنت حمران بن بشر بن عمرو بن مرثد فولدت له يزيد و عكرش بنت حاجب بن زرارة فولدت له المأمور عمرة بنت بشر بن عمرو بن عمرو بن عدس فولدت له فلانا فلأيهن أنت؟ فقلت للمرثدية قال فكن يزبد بن شيبان بن علقمة قلت فانني هو.فقال يا أبن أخي ما أفترقت العرب فرقتين بعد مدركة الا كنت في أفضلهم حتى زاحمك أخواك فلئن تلدني أم أحدهما أحب الي من إن تلدني أمك أتراني عرفتك يا أخا مضر ؟ فقلت أي و الله و أي معرفة أفلا ترى الى هذا الشيخ النسابة المبرز في هذا العلم كيف أستثنى بمدركة لعلمه بفضله و شرفه و فال ما أفترقت العرب فرقتين من بعد مدركة الا كنت في أفضلها لعمه بان التفاوت وقع بينهم في درجات الفضل من بعد مدركة و إن درجة مدركة هي أعلى الدرجات في الفضل و الشرف .

و قد لخبرنا بهذا الحديث محمد بن هبة الله عن محمد بن الحسن عن جماعة بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن سعد بن عبد الله عن أحمد بن الحسين بن سعيد عن أحمد بن جمهور عن أبي ذر عن عبد الله بن سليمان الهاشمي عن شيخ من بني تميم عن عقال بن شبه قال حدثني يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة و ذكر الحديث الا إنه خالف في اللفظ في موضع منه و قال أتيت حلفة يتحدثون فسلمت علهم و أذا رجل حسن الوجه حسن الحديث ظريف قد أيتولى على المجلس فقلت ممن القوم؟ فقالوا: من مهرة فانصرفت عنهم فقال : الحقوه فلحقني رجل فاخذ زمام ناقتي بمحجن في يده حتى أنتهى بي الى القوم

فقال : يا هذا شاممتنا مشاممة الذئب الغنم ثم أنصرفت عنا فقلت أنكم أعتزيتم الى قوم لا أعرفهم و لا أظنهم يعرفوني الرجل المميز و الله لاتوهن بك الليلة في مثل لجج البحر و لاعرفنك إن كنت من العرب ثم خالف في بعض الاسماء. و قال في أخر الحديث فلما قال لي أتراني عرفتك يا أخا مضر قلت كيف ترى معرفتي بنسبي يا أخا مهرة قال: ما رأيت مثلك قط فقلت يا أخا مهرة ؟ من أين علمت هذا النسب و العلم؟ قال سمعت أبي يخبر عن جدي إنه ممن قرأ هذا النسب على عقيل بن أبي طالب و إن عقيل بن أبي طالب سمعه من الاحنف بن قيس و إن الاحنف بن قيس تعلمه من قيس بن عاصم و إن قيس بن عاصم تعلمه من أكثم بن صيفي و إن أكثم بن صيفي تعلمه من عبد المطلب بن هاشم و لم ير أعلم بالنساب منه. و لم يزل مدركة رئيس أخوته و قومه يرون ذلك له كالفرض الواجب حتى حضرته الوفاة فجمع أهلله و ولده فاوصى اليهم فقال : أوصيكم بتقوى الله ربكم و أحذركم باسمه و نكال نقمته و سطوته و أوصيكم بحسن الجوار لمن جاوركم و عفة فروجكم و السنتكم و أيديكم كلوا من حيث تقل التبعة في العاجل و يقل المتظلم منكم في الاجل و كونوا زينا لابائكم من بعدهم و ورثوا ذلك أبناء كممن بعدكم و أعلموا إن أباءكم من لدن أسماعيل عليه السلام لم يدلهم من يطعن في حسبه و لا يغمز في نسبه عليكم بذروات العفاف و الصلاح و الدين فانهن أنجب للاخيار و أولد للاطهار و أثلج للقلوب و أسكن لها في المغيب فان الرجل أذا غاب عن مترله و تصرف في أمره و فهمه لم يدر ما تحدث أهله بعده إن خامره سوء ظن و أذا وقع الاختيار موقعه طابت النفس بالانتجاع و المغيب و أشبه الولد أباه و أعرفو الفضل لكبرائكم و أعطفوا على أصاغركم و أرحموا ضعفاءكم و أسوا فقراءكم فلتكن أيديكم واحدة على من ناوأكم. ثم خص بالوصية أبنه خزيمة سيد ولده .

فضل خزيمة بن مدركة

كان خزيمة بن مدركة سيد قومه بعد أبيه و في ولده النبوة و الثروة و الشرف و لهم الفضل على من سواهم من قومهم و من سائر الناس و كان متمسكا بسنن أبائه مقتديا بافعالهم سالكا لاثارهم . روى أبو بشر العمي عن أبراهيم بن محمد بن شكن بن عسل بن ذكوان عن أبي حاتم قال: قال أبو عبيدة: أول من أخلص من العرب بلا اله الا الله خزيمة بن مدركة كان أخلاص القوم سبحان الله . و روي إنه لما حضرته الوفاة قال لولده: أنتم بقية قوم نوح متناسلون من سلالة أبراهيم و أسماعيل عليهما السلام و قد ورثكم أباكم مجدا فصونوه و لا تهدموه باضاعته فقد سدتم العرب و دانت لكم عظموا شعائر الله و أخلصوا نياتكم و تقربوا اليه بالاعمال المرضية و الافعال الزكية و صونوا لنفسكم عن كل دنية أعفوا عن الجاني و صلوا القاطع و أحسنوا الى المسيء و لا تميلوا الى الجمال في النساء و أطلبوا العفاف و الدين و لا

تردوا الاكفاء عن حرمكم و إن كانوا مقلين فان المال غاد و رائح و ظل زائل و أعلموا أنكم من ثمرة قوم صالحين غرسكم طيب منبت،و أكرم محتد، و سيكون فيكم من تدين له العرب، و يسود العجم، فأنا نتوارث القول فيه. و لولا أشفاقي عليه لبحت و الذي أقول سيكون.

فهل يعلم في سائر الامم نسب أشرف من نسب يكون أصله أبراهيم الخليل و أسماعيل الذبيح و يخرج الله من فرعه محمداً خاتم النبيين صلى الله عليه و عليهم أجمعين؟ و الله سبحانه أعلم بخلقه. و مما يشهد به أدلة العقول و هي الادلة القاهرة إنه سبحانه أعلم بخلقه، نسبا أشرف، و عنصرا أطهر من هذا النسب لاختاره لرسول فاخرجه منه. و وري إن عليه السلام إنه قال: ما أفترق الناس فرقتين من لدن آدم عليه السلام الا كنت خيرهما حتى أنتهيت". و إنه قال عليه السلام أنا صفوة من صفوة و خييرة من خيرة". و قال :" نقلت من أصلاب الطاهرة الى الارحام الطاهرة ناكحا لا سفاحا". فهؤلاء الاكابر المذكورين آباء أسد بن خزيمة المدينين له و لولده إن يستضيئوا بنمارهم، و يستطيلوا على الناس نعمائهم لانه لم يترل ينتقل في هذا النسب الطاهر، و يرث الشرف الظاهر عن أبائه هؤلاء كابر عن كابر من لدن أدم عليه السلام الى أبيه الادنى خزيمة بن مدركة.

فضل أسد بن خزيمة في نفسة

اخبرنا الحسن بن محمد بن الحسن عن أبيه بن عبدون عن أبي طالب الانباري عن أبي بشر العمي عن محمد بن الحسن عن علي بن عبد العزيز عن الزبير عن محمد بن سلام عن أبي أيوب الحارث بن أيوب العنبري عن عمرو بن عبيد عن الحسين قال: قال رسول الله :" لا تسبر مضر فانه قد أسلم، و لا تسبوا ربيعة فانه قد أسلم". قال و في رواية" لا تسبوا أسد بن خزيمة، و لا تميم بن مر، و لا تسبوا الحارث بن كعب فقد كانوا مسلمين" و فرأت حديثا عن بعض حكماء العرب إنه كان يعبد الله سبحانه على ملة أبراهيم صلى الله عليه و آله و يكتم ذلك فلما حضرته الوفاة أطلع بنيه على أمر دينه و أوصاهم بالتمسك و قال لهم يا بني: تمسكوا بحنيفية أبراهيم صلى الله عليه و آله فأني على هذا الدين، أما أني لا أعلم أحد من العرب عليه الا أسد بن خزيمة و تميم بن مر. و قيل كانت في العرب ست أرحاء منها راحون في حندف و هما: أسد بن خزيمة، تميم بن مر فهؤلاء آباء سيف الدولة ملك العرب، و آباء قومه الذين اليهم ينتسبون و بانتمائهم اليهم يبجحون و بفخرهم و بشرفهم يفخرون. قال المرار بن سعيد الأسدي يفتخر :

من كان يرقا على خلج يعاب به فأنني ناطق بالحق مفتخر

معالنا أتحدى الناس كلهم اعلوا البراز و لا تمسي لي الخمر
اذا تشعب فرع كان أطوله فرعي و لي شجرات العيص و الكبر
كل أمرئ لا يلاقيني الى نسبي يود لو كان في قومي أذا ذكروا
اذا القوم تسامت في مزاحفها وشد للمجد المعهد الازر
فأي قرم يسامحني أذا جذبت ملوك خندف وبي جمهرت مضر
فرعان منها يلف الحق بينهما قد طاب قوم هم منهم و قد كثروا
فينا الامام و نور الناس كلهم فينا كواكبه و الشمس و القمر
و الحاكمون بأمر الله أنزله من علمه و علينا أنزل السور

و قال ردي بن منظور بن سحيم الاسدي ثم الفقعسي أيضاً يفخر بمثل هذا المعنى:

و نحن خزيمة فينا الهدى و لولا خزيمة طال الفتن
و ما الناس الا رعايا لنا يقومها عدلنا و السنن
و من كان ذا أحنة منهم ضربناه حتى تموت الاحن

و من الاقيشر الاسدي الشاعر، و أسمه المغيرة بن الاسود بن وهب بمطر بن ناجية اليربوعي، و هو يخاطب على منبر الكوفة في أيام الضحاك بن قيس الشاري لما دعا الضحاك الى نفسة فقال:

ابني تميم ما أمنبر ملككم لا يستقر قعوده يتمرمر
ان المنابر أنكرت أشباهكم فدعوا خزيمة يستق المنبر

و قال المرار بن سعيد أيضاً في مثله:

بنو خزيمة قومي إن سألت بهم وجدتهم خير من يحفى و ينتعل
هم العرانين و الاذناب غيرهم فكل قوم لقومي تابع حول
لما تخير ربي و أصطفى زجلا من خلفه كان منا ذلك الرجل
ثم الخلافة فينا لست واجدها في معشر غيرنا ما حنت الابل

لنا المساجد نبنيها و نعمرها و في المنابر قعدان لنا ذلل
فلا نميل عليها حين نركبها و لا لهن بنا من معشر بدل

نحن المقيمون هذا الناس كلهم بالمجد كانت لنا أشراقة الطول
الا ترى إن هذا الناس قد نصحوا لنا على طول ما غشوا و ما محلوا
نعلوا جماجمهم عند أختلافهم بالخافقات أذا ما مالت القلل
فغد ثابوا و قومنا قناتهم حتى أستقاموا طريق الحق فاعتدلوا

و كنت أنا قد نظمت قصيدة في مديح ملك العرب سيف الدولة أعز الله نصره فلما مر بي هذا المعنى الذي ذكره المرار في المنابر أستحسنته فاحببت ذكره فيها فقال:

رقا في مراهط من خندف لاخمص من رامهن الذليل
شوامخ لا تعتليها النسور و لا تتساند فيها الوعول
فكنت له ثمرات العلى و فرغ مناسبها و الاصول
و من كخزيمة يوم الفخار اذا أمتد للفخر عرض و طول
قبيس تخيرهم ذو الجلال فمنهم خلائفة و الرسول
فكل الانام لهم تابع و كل العلى اليهم يؤول
مطاياهم في طلاب العلا منابر ماثلة لا تزول
تفوت الجياد و ما مسها و جيف و لا نال منها دميل
و تدرك أقصى مراعي العلى و ما كان منها اليه رحيل

و قلت في أخرى أمتدحته بها:

من ذا كخندف أم من ذا كبهجتها بني خزيمة في بحبوحة النسب
كانت خزيمة تدعى من تكرمها بالانف قدما و ليس الانف كالذنب
قوم علوا مضر فضلا كما فضلت على الورى مضر في المجد و الحسب
منهم نبي الهدى الميمون طائره خير الانام و منهم كل منتخب

فكيف تقاس تلك الانساب المختلفة فيها المطعون عليها بنسب ملك العرب سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد بن مرثد بن الديان بن غدور بن عدلي بن جلد بن حيي بن عبادة بن مالك بن عمرو بن أبي المظافر و مالك بن عوف بن معاوية بن كسر بن ناشرة بن نصر بن سواءة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان و قد فاز دونهم وفاقهم بالولادة الابراهيمية و نمي من السلالة الاسماعيلية و الجذم المعدي و

الغاز المضري و الشعب الخندفي و الانف الخزيمي الذي نزهه الله تعالى عن الشكوك و طهره من الريب و العيوب تكرمة منه لرسول الله و طهره تطهيرا لعنصره فهو كالنهار وضاحا كالشمس ضياء غير متجاذب و لا متنازع فيه كما قال الميدان بن صخر الأسدي :

انى أنا الميدان عند الضم لا كاتم لاسمي و لا معمي
في الانف من خزيمة الاشم اخي قريش و تميم عمي

و أنما أراد بقوله أني أنا الميدان قياسا بالميدان الذي تجري فيه الخيل فأراد أنني أذا نوسبت كشف نسبي سقم الانساب أذا ضمت اليه و قيست به كما تكشف جياد عتاق الخيل و جيادها المقرن منها أذا ضم اليها و أجري في الميدان معها فجعل أسمه في ذلك حقيقة و مجاز و قال أبو تمام رحمه الله في هذا المعنى:

نسب كان عليه من شمس الضحى نورا و من فلق الصبح عمودا
عريان لا يكبو دليل من عمى فيه و لا يبغي عليه شهودا
نسب على أول الزمان و أنما خلق المناسب ما يكون جديدا

فليتامل من نظر في هذا الكتاب ما شرحناه و لينظر فيما وضجناه من فضل هذا النسب و شرف هذا الحسب إن شاء الله تعالى.

بعونه و توفيقه تم طبع الجزء الاول من المناقب المزيدية و يليه الجزء الثاني إن شاء الله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر فضله عليهم في العز و المنعة

و فضله عليهم في عزه و منعته ظاهر كظهورهم عليهم في دينه و نسبه لانهم لم كونوا ممن يقطع الجند الرساتين و الامصار و لا يقسم فيهم الاموال و إنما كانوا حماة على عذارى العراق و نعز الاكاسرة الذي للاكاسرة و كانت البلاد باسرها للفرس و لم تكن العرب تذعن لهم بالطاعة كلها و لا تدين لهم باسرها و إنما كان يدين لهم منهم من قربت داره من أرضهم مرة و تحاربهم أخرى و كان أكثر ما يظفرون به في طاعة العرب إن يكفوا عن الاغارة على السواد و أطراف البلاد. و ربما أجدب في أرضهم مرة و كانت الأرض التي تلي أرض الملوك مخصبة فرعوها باذنهم و أدوا الاتاوة اليهم ما داموا في أرضهم و بحيث يخافون إن يكسروهم بجموعهم و كذلك قال الشاعر فيما تقدم ذكره من الشعر الذي يحي به النعمان:

جمعوا من نوافل الناس سيبا و حميرا موسومة و خيولا

فإذا نزحوا عن أرضهم و بعدوا عن بلاده امتنعوا عليهم و كان جندهم الذين بهم امتناعهم و عزهم أهل الحيرة المسمون بتلك الاسماء المقدم ذكرها فكانوا يحاربون معهم طاعة لكسرى و حفظا لبيضتهم و أهليهم و منازلهم و حماية لانفسهم و أموالهم و لا يمكنهم خذلانهم و لا التخلف عنهم و كانوا يغزون العرب أيضاً معهم طمعا في المغانم و كان جندهم الذين كانت تضعهم عندهم الاكاسرة فهم كانوا قوام ملكهم فإذا تأخروا عنهم وهى أمرهم حتى يخافوا أهل الحيرة على أنفسهم فكيف غيرهم من العرب كحال المنذر بن ماء السماء حين تأخر عنه مدد قباذ بن فيروز و سارت إليه بكر بن وائل مع الحارث بن عمرو الكندي فلم يكن له بهم طاقة فخرج هاربا عن الحيرة إلى هيت فكان هناك حتى صلح أمره و قد تقدم ذكر ذلك.

و كان كل من قربت أرضه من العرب من العراق يحتاج إلى الميرة و دخول البلاد للكيل فيطيعونهم لهذا السبب عند حاجتهم إليه م كانت العرب أيضاً لا تخلو في ذات بينها من الدماء و الحروب و المغاورة فيما يليهم و ما منهم حي إلا يغازي حيا أخر و هذا موجود بينهم إلى اليوم فيقتل بعضهم بعضا و ينهب بعضهم مال بعض و كانت الحل تزيد على ما هي بينهم ألان بالسبي لأنهم كانوا يسبون النساء في الجاهلية و كان الملك إذا أراد غزوة حي من العرب أستمال أعدائهم عليهم و استضافهم إلى نفسه و من معه من أجناد الحيرة المذكورين و أستنجد بقوم على قوم و ضرب بعضهم ببعض و كانت العرب تتخذهم لذلك مجمعا يجتمعون عليهم للغزو و المغانم و لما في نفوس بعضهم على بعض من الأحقاد و الذحول فكانوا إذا دعوهم إلى الغزو و اجتمعوا عليهم فكثروا طلبا للغنائم و الأطماع حتى تبلغ عدتهم كل مبلغ فإذا قفلوا تفرقت العرب إلى ديارهم و لم يبق معهم غير أهل الحيرة خاصة.

و كان لهم عمال على أطراف البلاد من العراق إلى البحرين حكم كل واحد منهم مع من بازائه من العرب في حمايته من البلاد لما يليه مثل هذا الحكم و كان في العرب من يدين لهم و يعطيهم الإتاوة و فيهم من يواثقهم و يهادنهم و لا يدين لهم و فيهم اللقاح من لا يدين لهم و لا يواثقهم فكانوا يسمون هؤلاء لقاحا يقولون حي لقاح إذا لم يكونوا في دين الملك و لا بينهم و بينه ميثاق.

قال عمرو بن حوط بن سلمى بن هرمي بن رياح اليربوعي:

لعمر أبيك و الأنبياء تنمي لنعم الحي في الجلى رياح

أبو دين الملوك فهم لقاح إذا هيجوا إلى الحرب أشاحوا

و هو مأخوذ من قولهم لقحت الحرب بين القوم. و مثل قول أبي زمعة الأسود بن المطلب بن أسد عبد العزى بن قصي لقريش لما أتاهم أبن عمه عثمان بن الحويرث بن أسد بكتاب قيصر ليملكوه على مكة:

إلا إن قريش لقاح لا تملك. فكانت الملوك لا تزال تغازي اللقاح من العرب و يغزونهم و بينهم القتل و السبي و الآسر و النهب و نصب الحرب على سبيل التكافي و المماثلة .

و كان أسد بن خزيمة و غطفان بن سعد حلفاء و كانوا لا يعرفون في العرب إلا بالحليفتين و كانوا لقاحا لملوك آل نصر و لا يديونهم لهم و لا ينوهم لقوتهم و كانوا على ذلك إلى أخر أيام النعمان الأصغر. و لذلك قال زهير في حصن بن حذيفة بن بدر:

و من مثل حصن في الحروب و مثله لانكار ضيم أو لحق يحاوله

إذا حل الحيا الاحاليف حوله بذي لجب و لجاته و صواهله

ابي الضيم و النعمان يحرق نابه عليه فأفضى و السيوف معاقلة

و مما يقوي ذلك و يدل عليه قول النعمان للنابغة: قد كان لك في قومك ممتنع و حصن-يعني بني ذبيان- و لم يأت الملوك أحد منهم إلا نفر معدودون من و أوفد أو مهاد أو تاجر أو ذي حلة أو مصاهر، كسنان بن أبي حارث بن ظالم، و زبان و منظور أبني سيار، فإنهم كانوا يأتونهم لمثل هذه الاسباب. و ممن أتاهم الربيع بن زياد العبسي فانه أتى النعمان الاصغر، و كان يسمى الكامل لجماله و عقله، و كان النعمان يحبه و يقربه، و إذا خلا على شرابه دعا به بالمنخل بن مسعود اليشكري و البنطاسي و هو طبيب كان له. و روي في تسميتهم الطبيب البنطاسي، إنه منسوب الى النطاس بن عامر أحد بني جاوان من ولد إسماعيل عليه السلام ينسب ذلك اليه، و بسرجون بن توفيل، و هو تاجر من الروم من أهل الشام كان نديما للنعمان يبايعه و يعامله و يسلفه و يطول مكثه عنده، فهؤلاء كانوا ندماءه الذين يأنس بهم و يختصهم، و لم يزل الربيع عند النعمان بهذه المنزلة الى أن رجز به عنده لبيد بن أبي ربيعة الجعفري، و هو غلام رجزه المشهور. أخبرنا أحمد أبن علي قدامة عن علي بن الحسين عن الصولي عن أبن دريد عن أبي عثمان قال: لما و فد الكلمة من بني عبس: و هم الربيع و أنس الحفاظ بنو زياد، و بنو أم البنين جعفريون و هو عامر ملاعب الأسنة و الطفيل الحكام بنو مالك و معهم لبيد بن ربيعة غلام بالغ. دخل بنو أم البنين الجعفريون على حضر لهم الربيع بغير الجميل، فاعترضهم بكلام نال به منهم، و شق عليهم، فخرجوا من عند عثمان و جمين. فأتوا رحلهم فرآهم لبيد فقال لهم: ما شأنكم؟ فقالوا له: في شأنك يا غلام، و أعاد عليهم فزجروه، فقال: و الله لا سرحت لكم ركابا و لا حفظت لكم متاعا حتى تخبروني، فأخبروه. فقال. اغدوا بي غدا معكم فتسرون ما أصنع عند الملك. فقال بعضهم لبعض: انظروا صبيكم فان بات نائما فقد تكلم الصبيان، و إن بات ساهرا فاغدوا به معكم. فلما أمسى ركب رحلا من رحالهم و بات

عاضا على قادمته ساهرا طول ليلته، فلما أصبحوا قالوا له: صف لنا هذه البقلة التربة، فاقتلعتها بيده، و قال: هذه البقلة لا تؤهل داراً، و لا تدلي نارا، و لا جارا، و عودها ضئيل، و فرعها ذليل، و خيرها قليل بلدها شاسع و نبتها خاشع، و آكلها جائع، و المقيم عليها قانع، أقصر البقول فرعا، و أهونها قلعا، و أخبثها مرعى فحرمها لجارها و جدعا، إلقوابي أخا عبس أرجعه عنكم بتعس و نكسٍ، و أتركه من أمره في لبس. فغدوا به و قد رجلوا جمته و ضفروا شعامها، و البسوه فرد نعل، و كذلك كانوا يفعلون إذا أرادوا الهجاء، و البسوه من ثيابهم ثوبا، و دخلوا به و الدارميء بالوفود، و الربيع جالس إلى جنب النعمان يأكل معه في لحسةٍ كانت بين يديه ليس يأكل معهما ثالث فرجز لبيد فقال :

يا رب هيجا هي خير من دعه ... في كل يوم هامتي مقزعة

نحن بنو أم البنين الأربعة ... نحن خيار عامر بن صعصعة

الضاربين الهام يوم الهيضة ... و المطعمون الجفنة المدعدعه

إليك جاوزنا بلاد مسبعه ... إذ الفلاة أوحشت في المعمعة

فاقبل النعمان عليه مستطرفا لفصاحته مع صغر فقال: مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه.

فقال: إن أسته من برصٍ ملمعه.

فقال النعمان و ما فانه يدخل فيها أصبعه.

يدخلها حتى يوارى أشجعه كأنه يطلب شيئاً ضيعه.

فدفع النعمان لصحفة من بين يديه و قال: قبح الله هذا طعاما لقد خبث على منذ اليوم. فقال الربيع: أبيت اللعن إنه يكذب، و قد فعلت بأمه لا يكنى. و كانت أم لبيد في حجر الربيع، فقال لبيد: أنت لهذا الكلام أهل، أما إنها من نساء غير فعل و أنت المرء قال هذا في يتيمة.

و في رواية أخرى إن أم لبيد كانت عبيسة و كانت في حجر الربيع و إن أعمامه لما انصرفوا من عند الملك و أجمين، فسألهم عن شأنهم، فقالوا له: إن خالك صرف عنا وجه الملك، فلما قال الربيع هذه الكلمة قال له لبيد: أما إنها من نساء فعل فصدقة على ذلك لأنها كانت من قومه مسبة له و تهجينا. و أنصرف الربيع من المجلس خجلا فبعث اليه النعمان بضعف ما كان يصله به، و قال الحق باهلك، و أمر بوابه إن عاد إن يحجبه، فارسل اليه: أني لا أرى قول هذا الصبي الا و قد وتر في سمعك منه و بلج في صدرك و لست بقابل ما بعثت به الي شيء و لا برائم مكاني حتى ترسل الي من يجردني و يفتشني فارسل

اليه ما أنت بصانع بذلك شيئا و لا قادر على رد ما دلت به الالسن فالحق باهلك فأنصرف الى قومه و كتب اليهم:

اني رحلت باجمالي الى سعة ما مثلها سعة عرضا و لا طولا
ترعى الروائم أجوار البقول بها لا مثل رعيكم ملحا و عسيولا
بحيث لو وردت لخم بأجمعها ما وازنة ريشة من ريش سمويلا
فاثبت بأرضك بعدي و أخل متكئا مع النطاسي طورا و أبن توفيلا

فكتب اليه النعمان:

شرد برحلك عني حيث شئت و لا تكثر علي ودع عنك الأباطيلا
فقد ذكرت بشيء لست حامله فجاوز الذكر أهل الشام و النيلا
فما أتقاؤك منه بعدما جزعت خوض الركاب به أجرع سمليلا
فالحق بحيث وجدت الأرض واسعةً و أنشر بها الطرف إن عرضا و إن طولا
قد قيل ذلك إن حقا و إن كذبا فما اعتذارك من شيء إذا قيلا

فلم يعد إليه الربيع مدة حياته.

و كانت سليم و هوزان تواثقهم و لا تدين لهم و يأخذون لهم التجائر فيبيعون لهم بعكاظ و غيرها فيصيبون معهم الأرباح.

و ربما آت الملك منهم الرجل و النفر فيشهدون مغازيه و يصيبون معه من الغنائم و ينصرفون. و لم تكن لطائم الملوك و تجارهم تدخل نجدا فما وراءه الا بخفراء من القبائل. و كان أهل الحيرة إذا خرج الملك بمقاتلتهم الى العرب خافوا إن يخالفه العرب الى الحيرة غازين فيتحصنون في حصونهم الى إن يعود و كان الملك ربما واثق من دنا أرضه من قبائل معد على إن لا يغزوا الحيرة إذا غاب عنها.

و كان معظم من يجاورهم تميم و بكر بن وائل فهذه الاحوال كلها تدل على المناظرة و المماثلة و التكافي فيما بينهم و إنما روي من أحاديثهم النادر الذي لهم فيه الفخر و الدلالة على علو الشأن و الامر و أغفل ما سواه مما يدل على ضد ذلك.

فمن أحاديثهم في ذلك بينهم

حديث جذيمة الملك الأبرش مع الزباء الملكة: و ذلك إنه كان بالجزيرة و مشارف الشام ملك على العرب يقال له عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بت السميدع أبن هوبر العمليقي من بقايا العماليق فغزاه

جذيمة فالتقيا فقتل عمرو بن ظرب و هزم أصحابه ففي ذلك يقول الاعور بن عمرو بن هناءه بن مالك بن فهم الازدي :

كأن عمرو بن ظرب لم يعش ملكا و لم تكن حوله الرايات تخفق

لاقى جذيمة في شعواء مشعلة فيها حراشف بالنيران ترتشق

فملكت الزباء بعده و بنت شاطئ الفرات الغربي قصرا حصينا و كانت تشتو عند أختها و تربع ببطن النجار و تصير بتدمر و عزوت على غزو جذيمة و طلبه بدم أبيها فقالت أختها زبيبة لها: يا زباء إن الحرب سجل و عثراتها لا تستقال و تدرين لمن تكون العاقبة و على من تكون الدائرة. فقبلت رأيها و تركت ذلك و أتت أمرها من وجوده الحيلة فكتبت اليه تعرفه ضعفها عن الملك و تدبيره و إن النساء لا يقمن بذلك و إنها لا تجد لنفسها كفؤا غيره و تدعوه الى التزويج و إضافة ملكها إلى ملكه. فاستشار أصحابه فاشاروا عليه بذلك و شجعه أبن أخته عمرو بن عدي بن نصر اللخمي و قال له: إن أكثر من مع الزباء من قومي نماره بن لخم و ليسوا ممن يقدم عليه بمكروه لاجلي. فشاور قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس بن ربى بن نماره بن لخم و كانت أم قصير أمة لجذيمة تزوجها أبوه سعد بن عمرو فنهاه عن ذلك و قال: رأي فاتر و عدو حاضر فذهبت مثلا. فرداه من حضره القول و نازعوه في الرأي. فقال: أني أرى أمرا ليس بالخسا و لا الزكا فذهبت مثلا ثم قال لجذيمة أنك قد وترتها ز قتلت أباها فلا تملكه نفسك و لا تقع في حبائلها و كيب اليها إن تقبل هي اليك إن كانت صادقة فخافه فقال قصير:

اني امروء لا يميل العجز ترويتي إذا أتت دون شيء مرة الوذم

فقال له جذيمة و لكنك رجل رأيت في الكن لا في الضح فذهبت مثلا. و خالف قصيرا و أجمع على المسير اليها ففي ذلك يقول الحارث الغساني:

غرور في صحفتها اليه و قدما أهلك الناس الغرور

رأى رأيا فتابعه عليه جماعة قوم و عصا قصير

و قدما كان أنذره و القى إليه النصح لو نفع النذير

عدي بن زيد:

دعا بالبقة الأمراء يوما جذيمة فأنتجوا عصبا ثبينا

فطاوع أمرهم وعصى قصيرا وكان يقول لو نفع اليقينا

لخطبته التي غدرت و خانت و هنّ ذوات غائلة لحينا

و دست في صحيفتها إليه ليملك بضعها و لان تدينا

و قال نهشل بن حري بن ضمرة بن جابر التميمي:

و مولى عصاني و أستبد برأيه كما لم يطع بالبقتين قصير

فلما أستبان غب أمري و أمره و ولت بأعجاز الأمور صدور

تمنى نبيت إن يكون أطاعني و قد حدثت بعد الأمور أمور

فاستخلف جذيمة أبن أخته عمرو بن عدي بن نصر اللخمي و عمرو بن عبد الجن الجرمي و سار يغزو الفرات حتى نزل الفرضة و هي رحبة طوق ثم قال لقصير ما الرأي؟ قال تركت الرأي ببقة. فذهبت مثلا. و أستقبله رسل الزباء بالهدايا و الألطاف فقال لقصير كيف ترى؟ فقال له: خطر يسير يراد به خطب كبير. و كان لجذيمة فرس يقال لها العصا لا تلحق فقال له قيصر: أ راكب العصا فستلقاك الخيل فان حيوك و ساروا أمامك فهي صداقة و إن حيوك و أحاطوا بك و ساروا حولك فالنجاء فان القوم غادرون فآبى عليه فركب قصير العصا و سار معه و لقيتهم الخيل فأحاطت بهم فأحس جذيمة بالآمر و نظر إلى قصير على العصا فقال: ويل أمه حزما على ظهر العصا فذهبت مثلا.

و نجا قصير عليه فركضت يومها أجمع فقطعت أرضا بعيدة و نفقت عند غروب الشمس فبنى عليها برجا سمى برج العصا: و قالت العرب خير ما جاءت به العصا. قال عدي بن زيد:

و أوضحت العصا الأنباء عنه و لم أر مثل فارسها هجينا

و أدخل جذيمة على الزباء فكشفت له عن عورتها و قد وقرتها و قالت أشوار عروس ترى؟ قال: بل شوار أمة ذفراء فقالت: و الله ما بنا من عدم مواس و لكنه شيمة ما أناس فقال: بلغ المدى و جف الثرى و أمر غدر أرى فقالت: أنبئت إن دماء الملوك تشفي من الكلب ثم أجلسته على نطع و قربت إليه طستا تجمع فيه دمه و قد قيل لها إن قطر من دمه قطرة خارج الطست طلب بدمه فقطر من دمه قطرة خارج الطست فقالت: لا تضيعوا دم الملك فقال جذيمة دعوا دما ضيعه أهله فترف حتى مات فقال عدي بن زيد في ذلك:

فاردته و جهل المرء يردي و يدنى للفتى الحين المبينا

و فربت الاديم لراهشيه و الفى قولها كذبا و مينا

فبات نساؤه حزنا عليه مع الويلات يعلن الرنينا

و ذكر أبو بكر بن دريد في مقصورته فقال:

و أخترم الوضاح من دون التي املها سيف الحمام المنتضى

فما ظنك بملك قد أقبل بمجموعه و جنده و له أسباب كثيرة كل واحد منهم يقتضي الحشد و الجمع و التجهيز و التحمل منها إنه يريد التزويج بملكة أخرى و هو مع طمعه بها خائف من غدرها لقتله أباها و منها إنه يريد إن يستضيف الى ملكه ملكها فهو محتاج الى ضبطه و حياطته و قهر أهله و من شأن من هم بأحد هذه الامور إن يقوي دواعي همته الى إظهار القوة و البلوغ في ذلك الى أقصى المكنة و المنافسة في إظهار قوة سلطانه و كثرة جنده و أعوانه فيخرج اليهم قوم من قصرهم بعض أهله لا كلهم كالمستقبلين له و يحس منها بالغدر و يرى إمارات التلف و القتل فلا يكون له و لمن معه قدرة على الخلاص من أيديهم و النجاة بحشاشة نفسه منهم لا بمهانعة و لا هرب حتى يقود الى القتل كما تقاد الاضحية الى الذبح. فأي دليل عند المتأمل لأحوالهم أقوى من هذا على ضعف هذا الملك في نفسه و ضعف أعوانه و قلة جنده و كيف يقاس من هذه صفته بملك العرب سيف الدولة و قد خرج في شرذمة يسير من عسكره سائرا على سبيل التفرج و التنزه غير متجهز لحرب و لا مستعد من سمع بمسيره من العرب و العجم عن ديارهم و تحصنهم في بلادهم حتى . ثم إن هناك الزباء الملكة التي همت احتالت عليه إلى إن دنا من قصرها ثم أخرجت أحاطوا به و هو في عسكره و جمعه و منعوه من عليها فقتلته. و كان سبب قتلها و لما أهزم عن جذيمة أتى بلاد الحيرة فوجد الناس قد اختلفوا فطائفة منهم مع عمرو بن عدي بن نصر اللخمي و طائفة مع عمرو بن عبد الجن الجرمي فسفر بينهما حتى اتفقا و أنقاد عمرو بن عبد الجن لعمرو بن عدي ملك خاله جذيمة فلما أستقر أمره أشار عليه قصير بان يطلب الزباء بدم خاله فقال: و كيف لي بها و هي أبعد من عقاب الجو فذهبت مثلا.

و قد كانت الزباء سألت كاهنة لها عن أمرها و كيف يكون هلاكها؟ فقالت لها: أني أرى حتفك على يد غلام غير أمين و هو عمرو بن عدي لو تعلمين يكون حتفك بيدك لا بيده لكنه من قبله و بسببه. فدعت الزباء رجلا مصورا حاذقا فجهزته و قالت له آت عمرو بن عدي فكن في حشمه و خالطهم و وابشهم ثم صوره لي قائما و قاعدا و ماشيا و راكبا و متلبسا و متفضلا على سائر أحواله فإذا أحكمت ذلك فأتني به ففعل فكانت صورته عندها تكثر النظر اليها و كانت شديدة التحرز منه. فقال قصير لعمرو: أجدع أنفي و أضرب ظهري و دعني و إياها. فقال: ما أنا بفاعل ذلك و لا أنت بمستحق له مني. فقال: خل عني و خلاك الذم فذهبت مثلا فقال أنت أبصر فجدع أنفه و أثر بظهره فقيل: لامر ما جدع قصير أنفه و فيه يقول المتلمس:

ففي طلب الأوتار ما حز أنفه قصير و خاض الموت بالسيف بيهس

و قال عدي بن زيد :

كقصير ما إن رأى غير إن جد ع أشرافه لشكر قصير

و قال في كلمة أخرى:

و من حذر المعاير و المخازي و هن المنديات لمن منينا

اطف لانفه الموسى قصير ليجدعه و كان به ضنينا

و أنحاها لمرنه فأضحى طلاب الوتر مجدوعا مشينا

و خرج قصير كالهارب من عمرو بن عدي حتى قدم على الزباء قالت ما الذي أرى بك يا قصير قال عمرو بن عدي زعم أني غررت خاله و غششته و زينت له المسير إليك حتى قتلته ففعل بي ما ترين و رأيت أني لا أكون عند أحد هو أبغض إليه منك. فقربته و أكرمته و سكنت إليه و وثقت به. فلما علم ذلك منها قال لها: إن لي بالعراق مالا فابعثيني أحمل مالي بها أحمل إليك من طرائفها و عطرها و نباتها و برها و أمتعتها و تجائرها فتصيبين في ذلك أرباحا. فجهزته إلى العراق فلما قدمها أتى بالحيرة متنكرا و دخل على عمرو بن عدي مستخفيا فاخبره بشأني و قال له: جهزني بالبز و الطرف و الأمتعة لعل الله تعالى إن يمكن منها. ففعل فعاد إليها قصير بما أعجبها و ازدادت ثقة به و أطمأنانية إليه ثم جهزته ثانية بأكثر مما جهزته أولا فعاد إلى العراق و لقى عمرا فتجهز من عنده أكثر من الأول و رجع به إليها فزادت ثقتها به ثم جهزته ثالثا فأتى عمرا و قال له: أجمع أصحابك و هيئ الغرائب و المسوح للمسير ففعل. و حمل كل رجلين في غرارتين على جمل و سار الليل و كمن النهار حتى أتى مدينة الزباء فأشرفت فرأت الإبل تكاد أخفافها تسوح في الأرض فقالت:

مالي رأيت مشيها وئيدا اجندلا تحمل أم حديدا

أم صرفانا باردا شديدا أم الرجال جثمانا قعودا

و كان قصير قد جعل مقاعد رؤوس الغرائر إلى دواخلها فدخلت الإبل عن أخرها فلما كان أخر بعير منها وكز البواب الغرارة بعصا في يده فأصابت جنب رجل فحبق فقال البواب: بشتا. قيل معناها في الجواليق شر. فلما أنيخت الإبل نشط القوم رؤوي الغرائر و خرجوا مصلتين بالسيوف فصاحوا في المدينة و وضعوا السلاح في أهلها. و كان للزباء نفق قد عرفه قصير فدل عمرا إليه فسبقها إلى بابه و أقبلت تريد النفق فلما رأته عرفته بصورته التي كانت عندها و كان لها خاتم تحت فصه سم فمصته و قالت:

بيدي و لا بيدك يا عمرو فذهب مثلا. و جللها بالسيف حتى بردت و أصاب القوم ما كان في المدينة و انصرفوا ففي ذلك يقول عدي بن زيد:

طلبت الزبا و قد جعلت لها حصنا و مسربة لها أنفاق
حملت لها عمرا و لا بخشونة من أرض دومة رسله معناق
حتى تجللها بأبياض صارم عضب يلوح كأنه مخرق

و يقول أيضاً:

و صادفت أمرء ألم تخش منه مخادعة و ما أمنت أمينا
آتها مرتين بما أحبت فأفعمت الخزائن و القطينا
فلما أرتد عنها أرتد قرم يجر الموت و الصدر الضغينا
فدس لها على الأنفاق عمرا بشكته و ما خشيت كمينا

و ذكر أبن دريد ذلك فقال:

و قد سما عمرو إلى أوتارها فاحتط منها كل عالي المستمى
و أستنزل الزباء قسرا و هي من عقاب لوح الجو أعلى منتمى

و سمعت العرب قصيرا في مدركي الأوتار بهذا السبب. فكيف تنسب هذه الملكة أيضاً إلى العز و قد خرج عليهم قوم من جواليق و غرائر محمولين على الإبل كما تحمل الأمتعة في وسط مدينتها و مستقرها و دار عزها و بين جندها فقتلوهم و إياهم و غنموا مالها و أموالها و ليس في هذا إلا دليل على الضعف و الوهن و إنه لم يكن ثم من الملك إلا الاسم فهذا و أمثاله كان حدهم في ذلك بينهم .

و ذكر أبو عبيدة إن الزباء كانت رومية لا تتكلم العربية إلا في قسر. و قد ذكرنا في أول الحديث ما روي في نسبها و الله أعلم.

و أما حدهم مع ملوك العجم فلم يكن أحد منهم يذكر عند الاكاسرة إلا بالعبد. كان يقال لكسرى عن أحدهم إذا ذكر له في بعض الأمور عندك فلان، و إذا دخل عليه قبّل الأرض، و إذا خرج من عنده مشى القهقري حتى يغيب عنه و قد تقدم ذكر ذلك. و كانوا من الطاعة لهم على ما لم يكن عليه مرازبتهم و أساورتهم لان في المرازبة من كان ربما شاقق الاكاسرة في بعض الأحيان، و خرج عليهم، كرستم الادري و بهرام شيوبين و غيرهما، إذ لم يسمع بمثل ذلك عن ملوك العرب من الوقت الذي دان في عمرو بن عدي لاردشير بن بابك إلى إن أنقرض ملك الفريقين معا، يدل على ذلك ما تقدم ذكره من إن النعمان

لما أراد إن ينتصر لم يجسر على ذلك حتى أستأذن كسرى، فكان من الطاعة له إلى هذا الحد.

النعمان بن المنذر و عدي بن زيد

ثم إن زيد بن عدي بن زيد لما كاده عند كسرى، و ذكر عنده بناته و أخوا ته و وصف له جمالهن، قال له أكتب إليه في أنفاذهن. فهل بعد هذا التطاول و الاستعلاء غاية؟ ثم إنه لما نقم عليه لم يقدر على المقام بالحيرة و أطراف العراق حتى خرج هاربا إلى جبلي طي، فأبت طي إن تجيره، و قالوا له: أنصرف عنا راشدا، فانه لا طاقة لنا بكسرى. فجعل يتنزل الاحياء حتى ضاقت عليه الأرض، فرجع إلى كسرى مستسلما فقتله. و كان الذي جر ذلك عليه سوء تدبيره لنفسه و ما تم عليه منن الحيلة في أمر عدي بن زيد حتى قتله بعد مناصحته له، و معاداته أخوته لاجله، ثم إنه أخذ بضد الجرم بعد ذلك و أغتره إلى أبنه زيد بن عدي، فسفر له إلى كسرى حتى وضعه ببابه في جملة تراجمة العرب، فكان حتفه في ذلك التدبير. و كان السبب في ذلك إن المنذر الاصغر هلك و له بنون عشرة أو أثنا عشرة أحدهم النعمان، و كان كل رجل منهم في حضانة رجل يتولى تدبير أمره، فكإن النعمان في حضانة زيد بن حمار أبي عدي بن زيد، و كان الاسود بن المنذر أكبرهم و أعقلهم، و كانت أمه ماوية بنت الحارث من جلهم من تيم الرباب و فيه يقول الاعشى:

لا تشكي الي و أنتجعي الاس ود أهل الندى و أهل النوال

و كان الاسود في حضانة عدي بن أوس بن مرينا، و بنو مرينا أهل بيت من أشراف أهل الحيرة، و أظنهم ممن كان يعرف بالاحلاف. فذكر لكسرى موت المنذر، فامر بان يستخلف مكانه من ينظر في أمر الحيرة و فرج العرب إلى إن يولي ملكا، فذكر له جماعة فلم يولهم، و مكث زمانا فضجر و قال لأبعثن إلى الحيرة أثنى عشر الفا من الاساورة و لاملكنَّ عيهم رجلا من الفرس و لآمرهم إن يترلوا في دور العرب و أوطانهم. و إن يملكوا عليهم نساءهم و أموالهم، ثم التفت فرأى عديا واقفا في التراجم فقال له: ويلك يا عدي الم يبق في آل المنذر من فيه خير؟ قال: بلى، إن في ولده لبقية و خيرا. قال فابعث فاشخصهم. فبعث فأشخصهم إلى المدائن و أنزلهم عنده و أكرمهم، و كان هواه مع النعمان لحضانة أبيه إياه فأسر إليه أني لست أملك غيرك، فلا يوحشك تقصير يجري مني في حقك دون أخوتك، فأنني إنما أغترهم بذاك، و كان يفضل أخوته عليه في التنزل و الإكرام، و يقصر في حقه و يخلو بكل رجل منهم على حدة و انفراد، فيقول له إذا دخلت على الملك فاليس أفخر ثيابك، و أكثر من الطيَّب و إذا وضع الطعام فتباطأ في

أكلك، و نزره و صغر لقمتك، فإذا قال لك أتكفيني العرب؟ فقل نعم. فان قال لك: و أخوتك؟ فقل لا، إن بعضنا لا يقر لبعض، ليرى العز فيكم. و قال للنعمان خاصة إذا دخلت على الملك فالبس ثياب سفرك و تقلد سيفك، و إذا أكلت فعظم لقمتك و أسرع في أكلك و أكثر منه بجهدك، فان الملك يعجبه من يكثر الأكل من طعامه خصوصا من العرب، و يقول: لا خير في البدوي إذا لم يكن أكولا شرها و لا سيما إذا ما رأى من الطعام ما لا عهد له بمثله، فإذا قال لك أ فتكفيني العرب؟ فقل نعم، فان قال و أخوتك؟ فقل إن عجزت عن أخوتي فإني عن غيرهم أعجز .

و خلا عدي بن أوس بن مرينا بالاسود فسأله عما أسر إليه عدي بن زيد فأخبره، فاقسم بصليبه و معبوديته إنه ما نصحك، و لئن أطعتني لتخالفنه في كل ما أمرك به لتملكن، و لئن عصيتني ليملكن النعمان. فقال له الاسود: إن عديا لم يألنا نصحاً و هو الذي أشار على كسرى بنا فأشخصنا، و هو أعلم بأحوال كسرى منا، و أني إن خالفته أوحشته. فقال: فستعلم. فما أذن لهم كسرى أخذوا جميعا بما أوصاهم به عدي و أخذ النعمان بما أوصاه به في الاحوال كلها، فولاه كسرى و توجه و شرفه. ثم إن عدي بن زيد بعد استقرار ملك النعمان صنع طعاما في بيعة و دعا عدي بن أوس ثم بن مرينا فتغدى عنده، ثم قال له: إن الحق من عرف الحق ثم لم يسلمه غلبة من كان مثلك، و ما منكم أحد إلا أحب لصاحبه إن يملك و كان الاحب الي إن يملك صاحبي النعمان، كما كان الأحب إليك إن يملك صاحبك الأسود، فلا تلمني على شيء كنت على مثله، و لا تحقد علي فأنك لو أمكنك إن تركب مني مثله لركبته، و إن معطيك من نفسي مثله. ثم قام فحلف له إن لا يبغيه غائلة أبدا، و لا يهجوه و لا يروي عنه خبراً، فلما نفذت يمينه قام عدي بن أوس بن مرينا في الموضع الذي قام منه، فحلف مثل يمينه لا يزال يهجوه، و يبغي له الغوائل ما بقي. و خرج النعمان إلى الحيرة و خرجوا معه، فقال عدي بن أوس بن مرينا في عدي بن زيد:

ألا أبلغ عدياً عن عدي	فلا تجزع وان رثت قواكا
ايا كلباً يهر لغير فقر	لتحمد أو يتم به غناكا
فان تظفر فلم تظفر حميدا	و إن تعطب فلا يبعد سواكا
ندمت ندامة الكسعي لما	رأت عيناك ما فعلت يداكا

و خلا بالأسود بن منذر و قال له: أنك خالفتني أولا تخالفني أخير ولا تعجز عن طلب ثأرك من هذا المعدي الذي زوى الملك عنك، و حكمني في مالك فأنني أكيده. قال: ذاك اليك. و كان أبن مرينا ذا

مال كثير فمد يده في ماله و مال الاسود فلم يكن يمض يوم إلا و في ياب النعمان هدية منه حتى صار أكرم الناس عليه لا ينقضي لاحد عنه حاجة إلا على يده، و جعل إذا ذكر عنده عدي يحسن الثناء عليه ثم يقول بعد ذلك إلا إن فيه خديعة و مكراً. و رأى أصحاب النعمان كرامة أبن مرينا عنده و مكانه منه، فوافقوه على أغراضه، فواضعهم على إن يقولوا للنعمان إذا ذكر عدي عنده، يا أيها الملك إنه ليقول أترى النعمان لا يعلم أنني وليته و إنه عاملي!؟. ففعلوا ذلك ثم أفتعل عن عدي كتاباً إلى صاحب له في الحيره فيه مثل هذا القول، و وضع من أخذ الكتاب و أتى به النعمان، فأضطغن على عدي. على عدي. و كتب إليه أقسمت عليك إلا زرتني فاني مشتاق اليك، فأستأذن كسرى و خرج إلى الحيرة، فلما قدمها لم ينظر إليه النعمان حتى أرسل من أخذه فحبسه بالصنين. فجعل يكتب إليه بأشعار توثر في الصخر و يلين منها الحديد، و يستعطفه و يذكر بلاءه عنده و مناصحته له، فلا يزداد إلا جفوة و عليه قسوة فما كتب إليه قوله:

إلا من مبلغ النعمان عني ... و قد تهدى النصيحة بالمغيب
أحظي كان سلسة و قيداً ... و غلا و الجواب على المجيب
و كنت لزاز خصمك لم أعرد ... و قد سلكوك في يوم عصيب
اعالنهم و أخفي كل سر ... كما بين اللحاء إلى العسيب
ففزت عليهم لما أصطرعنا ... ببابك فوزة القدح المصيب
فهل لك إن تدارك بعض أمري ... و لا تغلب على الرأي الصليب
فأن أهلك تجد فقدي و تخذل ... إذا التقت العوالي في الحروب

و مما كتب ليه أيضاً :

ليت شعري عن الهمام و يأتي ... ك بخير الأنباء عطف السؤال
أين عنا أخطارونا المال و إلا ... نفس إذ ناهدوا ليوم محال
و نضالي في حبك الناس يرمو ... ن و أرمي و كلنا غير آل
فاراني أخذت حتفي يكفي ... ولم الق ميتة الاقتال

و مما كتب به إليه أيضاً:

ابلغ النعمان عني مالكا ... انه قد طال حبسي و أنتظاري
قاعد يكرب نفسي بثها ... و حراماً كان حبسي و احتضاري

اجل نعمى ربها أولكم و ذنوبي كان منكم و أصطهاري

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء أعتصاري

في أشعار كثيرة كتب بها إليه فلم يغن عنده فلما طال ذلك عليه كتب إلى أخيه أبيّ و كان بباب كسرى:

ابلغ أبياً على نأيه و هل ينفع المرء ما قد علم

بأن أخاك شقيق الفؤا د كنت به والهاً ما سلم

لدى ملك موثق بالحدي د أما بحق و أما ظلم

فأرضك أرضك إن تأتنا تنم نومة ليس فيها حلم

و لا أعرفنَّك كدأب الغلا م ما لم يجد عارماً يعتلم

فذكر لكسرى أمر عدي، و كلمه فيه فامر بأن يكتب إلى النعمان باطلاقه، و سأل أبيّ رسول كسرى إن يلقى عدياً قبل إن يلقى النعمان، و إن يعمل بما يأمره به، و كتب صاحب النعمان بباب كسرى إلى النعمان إنه قد كتبت اليك باطلاق عدي و قدم رسول كسرى فبدأ بعدي فدخل عليه في حبسة بالصنين، فقال له: أني جئت بأطلاقك فمالي عندك؟ قال: ما تحب و وعده عده سنيه، و فقال له: أرسل بالكتاب إلى النعمان، و لا تخرج من عندي، فانك إن خرجت من عندي قتلت، فلم يفعل و خرج بالكتاب، فأوصله إليه. و جاء أعداء عدي من بني مرينا و بني بقيله و غيرهم إلى النعمان. و قالوا له: إن رسول كسرى ذاهب بعدي، فان كان ذلك فلن يستبقك و لا أحداً منا فامرهم فخالفوا الرسول إليه فخنقوه و دفنوه. و جاء الرسول إلى النعمان فقال: نعم و كرامة إذا أصبحت فأدخل أنت إليه فأخرجه. فلما أصبح ركب إلى السجن فقال له السجان: إنه مات منذ أيام، و ما اجترأنا على أعلام الملك بموته لعلمنا إن ذلك مما يشق عليه. فقال كذبت الم أكن أمس عنده و هو حي فباهته، فعاد إلى النعمان فقال أني كنت عند عدي أمس و هو حي، و إن السجان بهتني اليوم، و ذكر إنه مات منذ أيام فقال: و كيف يبعث الملك بك اليّ فتبدأ به قبلي؟! كذبت أما أنت طالب للرشوة، و زجره ثم أعطاه من ماله و مال أعداء عدي أربعة آلاف مثقال ذهباً و جارية حسناء فلم يقنع فزاده حتى رضي، و أستوثق منه إنه يخبر كسرى بأن عدي مات قبل مقدمه ففعل الرسول ذلك و أتضح للنعمان إنه احتيل عليه في أمر عدي و أجترأ عليه أعداؤه فطمعوه فيه حتى أثر ذلك عنده، فندم على ذلك أشد الندم و صار حديثه مثلاً يضرب به بعض الناس لبعض.

فروي إن مروان بن الحكم قال يوماً لمعاوية: إن مثلنا و مثلك كمثل عدي بن زيد نصح النعمان فاركسة في الحبس و كان لعدي أبن أسمه زيد يوجد عنده ما يوجد عند أبيه فخرج النعمان يوماً إلى صيده فرآه فعرف شبه عدي عليه فقال له ما أسمك يا غلام؟ قال: زيد. قال: أبن من؟ قال: أبن عدي، فادركته رقة عليه و حنوة لما كان من تفريطه في حق أبيه، فسفر له إلى كسرى حتى جعله مكان أبيه ببابه في التراجمة فقرب منه و لطف مكانه عنده. و كان قد حمل إلى الاكاسرة جارية جميلة من بعض مماليك المرازبة و كتب حاملها: قد بعثت إلى الملك بجارية كاملة الجمال حسنة الدلال تامة القامة، عظيمة الهامة برجاء دعجاء أسيلة الخدين، كحيلة العينين، طويلة الساعدين و الساقين، لطيفة الكفين و القدمين، بداء الفخذين عظيمة المأكمتين نقية النفس، حالكة الشعر دقيقة الخصر إن تركتها انتهت و إن أردتها اشتهت، ترعد شفتاها، و تتعصفر خداها و تحملق عيناها، و تبادرك الوثبة. فاستحسنوا هذه الصفة فامروا باثباتها في الدواوين. و ربما كتبوها أحياناً و بعثوا بها في الافاق إلى عمالهم فإذا وجدت بهذه الصفة حملت اليهم و لم يكونوا يطلبون ذلك في العرب. فطلب أبرويز تلك الصفة يوماً و زيد بن عدي حاضر فاغتنم الفرصة من النعمان لقتله أباه فقال له: إن عند عبدك النعمان بن المنذر عدة من بناته و أخوا ته و نساء أهل بيته بهذه الصفة، فقال أكتب إليه لحملهن. فقال: إن العرب يتكرمون في أنفسهم فيما يزعمون عن العجم، و يختارون العري و الجوع و الحر و السموم على الرياض و الخصب و طيب أرض الملك و يسوئها الحبس، و إن كتبت إليه مع من لا يعرف النساء غيبهن عن عينيه و عرض عليه غيرهن، و إن مضيت بنفسي لم يقدر على ذلك، فأبعثني و أبعث معي رجلا يفهم العربية حتى أبلغ ما تحب. فارسله و أرسل معه رجلا من الفرس يكسر بالعربية فجعل زيد: يكرم الرجل في طريقه و يلاطفه حتى غلب عليه، فلما دخلا على النعمان قال له زيد: إن الملك قد أحتاج إلى نساء لنفسه و ولده و أراد إكرامك بصهره. فقال النعمان: أما وجد في مها السواد و عين فارس ما يكتفي به؟ فقال الفارسي لزيد: ما المها و العين؟ قال: كوان-أي البقر-فامسك الرسول. و قال زيد للنعمان: إنما أراد كرامتك، و لو علم إن ذلك يشق عليك ما طلبه منك. و كتب النعمان إلى كسرى: إن هذه الصفة ليست عندي و قال لزيد أعذرني عنده فوعده بذاك، و رجع زيد و رفيقه إلى كسرى. فلما دخلا عليه قال لزيد: أين ما ذكرت؟ قال: ليسأل الملك هذا الرجل فأني أكره إن القاه بالجواب. فقال الفارسي: قال لنا ما كان في بقر السواد و فارس ما يكتفي به الملك، فعرف الغضب في وجه كسرى و قال: رب عبد أراد ما هو أشد من هذا، ثم صار أمره إلى الثبات و لم يزد على ذلك. و بلغت هذه الكلمات النعمان فاستوحش. و في رواية إن زيد لما وصف لكسرى بنات النعمان كتب يخطبهنه إليه، و لم يرسل زيداً فكتب النعمان الجواب، ليس عندي ما يصلح للملك، فلو طلب الملك ذلك في عين السواد و مها لاصاب ما يصلح له. و كان زيد يقرأ عليه كتاب

العرب، فقرأ عليه جوابه و كان كسرى يكسر بالعربية فقال له ما العين و المها؟ فأراد زيد إن يغضبه فقال: البقر فقال يقول لي أخطب البقر!!. و نقم عليه لذلك و أجنه في صدره و حقد عليه مع ما روي من ذنب قبل هذا كان له إليه. فأنه روي إن أبرويز لما أنهزم بالنهروان من بهرام شوبين دخل على أبيه هرمز و هو محبوس بالمدائن فاستشاره فقال: عليك يا بني بقيصر. فخرج فقطع الجسر و أتى الانبار في عدد يسير، و كتب إلى النعمان: أني قد خرجت في وجهي هذا، و لم يصبني أحد من أهل مملكتي، فاقدم علي، و ليكن معك فرسك اليحموم، فإنه قد وصف لي. فظن النعمان إن أبرويز لا يصلح له بعد ذلك أمر و لا يستقيم له ملك فأطرحه و كتب يعتذر إليه من القدوم إليه فأضطغن عليه ذلك .

و في رواية أخرى إن النعمان كان مع أبرويز يوم هزيمته من بهرام شوبين بالنهروان، وان هرمز بن أنوشروان كان قد أحاطته جيوش الترك و الخزر و الروم من كل جانب في وقت واحد فصالح الجميع و أرضاهم إلا الترك مع إنهم كانوا أخواله لان له واقم بنت خاقان ملك الترك، فإنه بعث لحربهم بهرام شوبين مرزبان من نسل أرش الرام فحاربهم فقتل شابه التركي ملكهم و أستأمن أبنه يرمود بن شابه فصار إلى هرمز و بعث بهرام بالغنائم إلى هرمز فقال بعض وزرائه: أعظم بعرس هذا زلته. و كتب إلى بهرام: أنك قد احتجبت قرطي كذا و وشاحي كذا و أنت فيما خفي أخون. فاستوحش بهران و عصى و حزب" بين هرمز و أبنه أبرويز، و ضرب دراهم عليها أسم أبرويز، و بعث بها مع من نثرها بباب هرمز فخاف أبرويز أباه فهرب منه إلى أذر بيجان، فأتته مرازبتها و مرازبه جرجان و أصفهان و سجستان و همدان مطيعين له. و منوه من أبيه و حبس هرمز بندويه و بسطام خالي أبرويز فكسرى السجن و خرجا، و ثار معهما الغوغاء، فقبضا على هرمز و سملاه. و بلغ أبرويز ذلك فقدم من أذربيجان إلى المدائن، و قال لابيه: أني لم أجد إلى الهرب منك أو القتل و ما لي ذنب اليك و لا فيما صنع بك، فدفع إليه هرمز الملك و عقد عليه التاج. و بلغ بهرام شوبين ذلك فسار يطلب المدائن، فجمع له أبرويز و لقيه بالنهروان فكانت بينهم وقعة لم يناصح فيها أصحاب أبرويز، و انحازوا إلى بهرام شوبين و طلب أبرويز المدائن فشهره فرسه شبداز، فخاف الطلب، فطلب من النعمان فرسه اليحموم فأبى إن يعطيه فقال له حسان بن حنظلة الطائي: أيها الملك حياتك للعالم خير من حياتي، فاركب فرسي هذا. و كان تحته فرس له يسميه الضبيب فركبه أبرويز و ركب حسان شبداز فنجيا جميعاً في غمار الناس. و دخل أبرويز على هرمز فاستشاره فقال له: يا بني عليك بقيصر فاستنجده فمضى في رهط من أصحابه فعبر دجلة و قطع الجسر فتخلف عنه خالاه: بندوية و بسطام، فسألهما عن شأنهما فقالا: آنا نخاف إن يدخل بهرام شوبين المدائم و يجد هرمز حياُ فيعقد التاج على رأسه، و يصير نفسه الفرمانداد الاعظم، و يكتب عن هرمز إلى قيصر: إن أبني

ودعارا معه و ثبوا علي فسملوا عيني. و هربوا اليكن فيشدنا قيصر وثاقاً و يبعث بنا إليه فعرف أبرويز إنهما يريدان قتل أبيه فحذهما ذلك و تبرأ منه فلم يقبلا، و عادا مسرعين فدخلا على هرمز فخنقاه بمقود و قيل بوتر و لحقا بابرويز، فلما قدم أبرويز على قيصر أنجده باخيه كاووس في عساكر كثيرة من الروم. و عاد فحارب بهرام شوبين و قهره و هزمه و أستقر له أمر ملكه، و أتاه حسان بن حنظلة فوصله و أكرمه و أقطعه ضياعاً بحظرنية، فكان أول عربي أقطع في السواد. و أقر النعمان على عمله على غم في صدره عليه. فلما بلغه جوابه عن النساء هاج حقده الاول فامسك عنه مديدة، ثم كتب إليه كتاباً نسخنه:" بسم الله الرحمن الرحيم و الي الرحمة، من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر إن أقدم فأن للملك اليك حاجة". فحمل و أهله و ماله و أصبح راحلا فلحق بجبلي طي لصهر كان بينه و بينهم و كان عنده منهم امرأتان فرعة بنت سعد بن حارث بن لأم و زينب بنت أوس بن حارثة بن لأم، فلما أتاهم خافوا أن يجيره، فيغزوهم كسرى فمنعوه من دخول الجبلين و قالوا: تنحَّ عنا فلولا صهرك لقتلناك، فانصرف عنا راشداً إلى حيث شئت. فجعل يتنزل القبائل فلم يجره أحد إلا بنو عبس، فانه كانت له اليهم يد من أيام عمه عمرو بن هند، و ذلك إن عمرو بن هند كان قد أسر مروان بن زنباع بن رواحة بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس، فوفدت بنو عبس على النعمان، فانزلهم و أكرمهم و شفع لهم إلى عمه عمرو بن هند في أمر مروان بن زنباع حتى أطلقه بغير فدية، فكانوا يعرفون ذلك له فأتوه و قالوا له: كن فينا فأنا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا، فقال لهم إنه لا طاقة لكم بكسرى و لا أحب إن أهلككم، و شكر لهم ما عرضوه عليه. ففي ذلك يقول زهير بن أبي سلمه و قد رويت لخشيش بن مراد المري من مرة غطفان:

الم تر للنعمان كان بنجوة ... من الشر لو إن أمرءاً كان ناجياً

فغير عنه رشد عشرين حجة ... من الدهر يوم واحد كان غاوياً

فلم أر مسلوباً له مثل ملكه ... اقل صديقاً مسعداً أو مساوياً

فأين الذين كان يعطيهم القرى ... بغلاتهم و المئين الغواليا

و ين الذين يحضرون جفانه ... إذا وضعت القوا عليها المراسيا

رأيتهم لم يشركوا بنفوسهم ... منيته لما رأوا إنها هيا

سوى إن حياً من رواحة أقبلوا ... وكانوا قديما يتقون المخازيا

يسيرون حتى حبسوا عند بابه ... عتاق المذاكي و القلاص النواجيا

فقال لهم خيراً و أثنى عليهم و ودعهم وداع إلى تلاقيا

فذكر ذلك الاخطل أيضاً في مديحه للوليد بن عبد الملك بن مروان، و كانت أم الوليد لم البنين ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسي، حيث يقول :

لقد ولدت جذيمة من قريش فتاها حين تحزيها الأمور

بنوا عبس فوارس كل يوم يكاد الهام خشيتهم يطير

هم عطفوا على النعمان حتى اتاه بعطف ذي التاج البشير

فجازوه بنعماه عليهم غداة له الخورنق و السدير

ثم أقام النعمان سنة يرى نفسه سوقه، و ماله تحيف، و إنعامه لا تروح عليه كما تسرح. فقالت له امرأته المتجردة: إن هذا العيش لا يصلح لك فعد إلى صاحبك فاعتذر إليه، فاتى بني شيبان بذي قار فنزل على هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود بن عامر بن عمرو المزدلف بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان و كان منيعاً فأجاره، و قال قد لزمني ذمامك و أنا مانعك ما بقي من عشيرتي الادنين رجل واحد، و إن كان ذلك غي مانعك بل هو مهلكي و مهلكك، و عندي رأي إن شئت سمعته. قال ما هو فأشار عليه بمثل ما أشارت عليه المتجردة، و قال له: إن الموت نازل بكل أحد، و كل أمر يجمل بالمرء إلى إن يصير سوقه بعد إن كان ملكاً فعد إلى صاحبك و الق نفسك بين يديه، فإن صفح عنك عدت ملكاً، و لئن أصابك فلأن تموت كريماً خير لك من إن تتلعب بك ذؤبان العرب، و تأكل مالك فتعيش فقيراً أو تقتل ذليلاً مقهوراً، فقال هذا و أبيك الرأي فما أصنع بحرمي؟ قال هن عندي و في ذمتي لا يخلص إليهن حتى يخلص إلى بناتي. فاختار خيلا و جوهراً و ظرفاً و عصباً واقطاً و سمناً و حمل ذلك هدية إلى كسرى و كتب يعتذر إليه و يقول أنني قادم، فكتب إليه و قبل هديته و عاد رسوله فاخبره بأنه ما رأى له عنده شراً، فترك عند هانئ بن قبيصة ماله و سلاحه و أهله و أبنتيه هندا-و هي صاحبة هذا الدير الباقي إلى اليوم بالحيرة- و حرقه و هي القائلة:

بيننا نسوس الناس و الامر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة تتنصف

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا و تصرف

و سار حتى أتى قنطرة ساباط فلقيه زيد بن عدي فقال له: نعيمين أنج نعيم إن استطعت! فقال أ فعلتها يا زيد و الله لئن بقيت لالحقنك بأبيك و لاقتلنك قتلة ما قتلها عربي قط قال قد أخيت لك أخية ما يقطعها المهر الارن. ثم دخل المدائن فلما بلغ كسرى إنه بالباب أمر به فادخل على الفي جارية قد أقمن له يماطين

ثم مشي به يقاد بينهن و هن يقلن له: أترى فينا ما يستغنى به الملك؟ ثم قيل إنه القاه للفيلة فقتله ففي ذلك يقول الاعشى:

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه نحور الفيول تحت سقف مسردق

و يقول هانيء بن قبيصة الشيباني:

أن ذا التاج لا أبالك أضحى و ذرى بيته تجور الفيول

أن كسرى عدا على الملك النعمان حتى القاه أم التليل

ام التليل من أسماء الداهية.

و قيل بل حبسه بساباط فلم يزل محبوسا حتى هلك في طاعون شيرويه- و هو طاعون أصاب الناس في أيام شيرويه فسمى طاعون شيرويه- و يقال إن كل جربة أو ناووس أو أكثر دارس في السواد فإنما هلك أهله في ذلك الطاعون و قد ذكر الاعشى هلاك النعمان بساباط في شعره حيث يقول:

و لا الملك النعمان حين لقيته بغبطة يعطي اللقوط و يافق

و يجبى اليه السيلحون و غيرها صريفون في أعمالها و الخرنق

و يامر لليحمون في كل ليلة بقت و تعليق فقد كاد يسنق

يعالي عليها الجل كل عشية و يرفع نقلا بالضحى و يعرق

فذلك و ما أنجى من الموت ربه بساباطحتى مات و هو مخزرق

و قال هانيء بن قصيبة الشيباني في أمر النعمان:

أن كسرى عدا على الملك النع مان حتى سقاه أم الرقوب

شرع الغي سنة فأتاه من ردى البغي حتفه بنصيب

أن بدلنا الأيام يوما بكسرى و أبن كسرى و ظل يوم عصيب

كل ملك و إن تصعد يوما بأناس يعود للتصويب

يوم ذي قار

ثم لم يقتنع كسرى بقتل النعمان حتى كتب الى أياس بن قبيصة الطائي أين سلاح النعمان و أمواله و دروعه؟ و قيل إنها كانت أربع مائة درع فكتب اليه إنه وضعها في بكر بن وائل عند هانيء بن قبيصة

الشيباني فارسل كسرى الى هانيء إن أحمل الي مال النعمان الذي عندك فقد علمت إنه عاملي و لا تكلفني إن أبعث الى قومك الجنود تقتل المقاتلة و تسبي الذرية. فارسل اليه هانيء أني أحد رجلين أما مكذوب عليّ فلا يجوز للملك إن يسمع فيّ الكذب أو مستودع فالحر لا يخون أمانته. فغضب كسرى و عزم على بعث الجنود اليهم و سمعوا بذلك فأغاروا على أطراف السواد فرفع الى كسرى ذلك فأزداد حنقا عليه و قد كان سمع بمطلع رسول الله و ظهور أمره و إن العرب تعز به حتى تقهر سائر الامم فتداخله حذر و أشفاق على ذلك و خاف ظهورهم على جنده فتثاقل على حمل الجنود و سأل عن عز أعزهم فذكروا له قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن عبد الله ذي الجدين بن عمرو بن الحارث بن همام بن مرة بن ذهل و هو أبو بسطام الفارس فأرسل إليه يدعوه فنهوه عن أتيانه و كان فيمن نهاه الأعشى الشاعر فعصاهم و قد عليه. فقال له: لو كنت تقدمت إليك من قبل ثم خالفت لقتلتك فانطلق فامنع قومك عن الفساد و وصله و أقطعه الابلة و جعل له طعمة من التمر و مائتا بعير لا تنقص كلما هلك منها بعير قام له عماله بعوضه و أعطاه عدة من الخيل فاحتفر قيس لتلك الإنعام المحدثة و المبخشانية عرفت بحافره مبخش و أقام بالمكان و ضمن لكسرى إن بكرا لا تدخل السواد و لا تفسد فيه. فجاء الحارث الرقاشي و هو الحارث بن وعله بن المجالد بن سري بن الريان بن الحارث بن مالك بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل و هو و رهطه يعرفون بالرقاسين و رقاس أم مالك بن شيبان بن ذهل و أخويه عامر و زيد مناة أبني شيبان عرف عقبهم بها فالرجل فيهم ينسب رقاشيا و هو الذي هجاه الأعشى فقال فيه:

آتيت حريثا عن جنابة فكان حريث عن عطائي جامدا

لعمرك ما أشبهت و علة في الندى شمائله و لا أباه المجالدا

و من ولده أبو ساسان الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة دفع إليه أمير المؤمنين عليه السلام الراية بصفين و هو يومئذ غلامو كان شجاعا شريفا في قومه. و قال له يوما بصفين يا بني أتقدر إن تتقدم برايتك هذه ذراعا؟ قال: نعم و عشرة. ثم تقدم بها إلى إن ناداه أمير المؤمنين عليه السلام حسبك. و قال في ذلك و هي أبيات:

لمن راية سوداء يخفق ظلها إذا قيل قدمها حضين تقدما

و طال عمر الحضمي و له مع عبد الله بن مسلم الباهلي أخي عتيبة بن مسلم حديث في معاتبة جرت بينهما بسمرقند لما أحضر قتيبة القدور الفضية ليراها الناس و الحكاية معروفة. فطلب الحارث من قيس

نصيبا مما أعطاه كسرى فلم يعطه فحسده و ضاره و قصد إفساد أمره عند كسرى و كان الحارث قصيرا ذميما و قد كان وفد على كسرى من قبل فرآه و عرفه فلما ضمن كسرى قيسا جنايات بكر بن وائل قال له و تضمن على الرجل اللوتا يعني الحارث قال نعم. و في رواية أخرى إنه قال له و تضمن الرجل القوطاف فلا أدري هي لغة للعجم يسمون بها القصير أيضاً أم هو خطأ من الراوي؟. و بلغ ذلك الحارث فارسل إلى قيس: لا تضمن عني فخالفه. و ضمن عنه ثقة منه بنفسه و مكانه من قومه فخرج الحارث في رجال من بكر بن وائل منهم الهيثم بن جرير بن أساف بن علباء الذهلي و أبنان لسنان السدوسي فأغاروا على بارق و غيرها من أطراف البلاد فغنموا و أثروا في مصانع كانت لكسرى آثار قبيحة و أفسدوا على العمال أمور العمارة. فرفع ذلك إلى كسرى فأرسل إلى قيس فدعاه فذكر له ما جرى منهم في السواد. فقال ذلك سفيه من قومي حسدني لمكاني عندك فاراد إفساد أمري. فقال له أ فمن الحلماء استهدتك؟ و أمر به فسجن بالانبار. و في رواية أخرى إنه قال له لعلك لم تعطه مما أعطيناك شيئا فأرسل اليه و الى أشراف قومك فليقدموا حتى نعطهم مثل ما أعطيناك و إنما أراد قتلهم ففطن قيس لذلك فكتب اليه :

غنينا و أغنانا غنانا و غالنا مآكل عما عندكم و مشارب
فان نحن أرسلنا بالفي صحيفة فلا يقربنا منكم الدهر راكب

فلم يأته أحد منهم فحينئذ أمر بحبسه.

قال أبوا عبيدة و إنما كان ذلك عند أدبار أمر فارس ورقة ملكهم فقال قيس و هو في السجن شعرا منه:

الا من مبلغ قومي و من ذا يخبر عن أسير في الاوان
الا أبلغ بني بكر الوكا فمن هذا يسد لكم مكاني
أ يأكلهم أبن وعلة قد علمتم و يأمن هيثم و أبنا سنان
و يأمن فيكم الذهلي بعدي و قد سموكم سمة الهوان

و بلغ بكر إن قيسا حبس فقال الاعشى:

أ قيس بن مسعود بن قيس بن خالد و أنت أمرؤ ترجو شبابك وائل
تركت بني بكر و عز سيوفهم و هاجرت تبغي القسط أمك ثاكل
أ طورين في عام غزاة و رحلة إلا ليت قيسا غرقته القوابل
كأنك لم تشهد قرابين حوله تعوث ضباع فيهم و غوائل

و هي أبيات.

ثم إن كسرى أرسل الى قيس و هو مسجون إن أرسل الى قومك فيأتوني برهائن منهم لاطلقك. فقيل إنه أرسل الى قيس و هو مسجون إن أرسل الى قومك فليأتوني برهائن منهم لاطلقك. فقيل إنه أرسل اليهم إن دعوني في يده و لا ترهنوا أحد منكم، و قيل بل أرسل يسألهم إنفاذ رهائنهم إلى كسرى، فلم يجيبوه لأنهم كانوا قبل ذلك قد رهنوه الاسود بن شريك فهلك عنده، فاتهموه إنه قتله، و في ذلك يقول الأعشى:

من مبلغ كسرى إذا ما جاءه ... عني مالك مخشماتٍ شردا

آليت لا أعطيك من أبنائنا ... رهناً فيفسدهم كمن قد أفسدا

فاقعد عليك التاج معتصباً به ... لا تطلبن سوامنا فتعبدا

فلما أبطأت الرهائن على كسرى عزم على بعث الجنود الى بكر بن وائل و بلغ ذلك قيساً و هو في السجن فقال:

الا ليتني أرشو سلاحي و ناقتي ... ليعلم قومي ما الذي أنا قائل

فاوصيكم بالله و الصلح بينكم ... لينظر معروف و يزجر جاهل

وصاة امرئ لو كان فيكم أعانكم ... على الدهر و الأيام فيها الغوائل

فأنا ثوينا في شعوب و أنكم ... آتتكم جنود جمة و قبائل

وان جنود الفرس قد يممتكم ... فما عز قومٍ إن هم لم يقاتلوا

و إياكم و اللطف لا تقربنه ... و لا الزيف إن الزيف للمرء قاتل

ثم مات قيس في السجن. هذا في رواية.

و في رواية أخرى إن كسرى إنما ضمن قيس من مسعود جرائر بكر بعد يوم ذي قار لأنه كان قد أستعمله على حماية الابلة من قبل، فلما علم بمسير جنود كسرى إلى قومه أتاهم مستخيفاً فأشار عليهم ببعض الرأي و عاد إلى الابلة، فوشي به إلى كسرى فاستقدمه فنهاه قومه إن يأتيه فأبى، و هو لا يعلم إن كسرى علم بما كان منه من أتيان قومه فقدم عليه فحبسه حتى هلك، و قال آخرون إنما أستقدم كسرى قيساً فضمنه و جرى له ذلك معه و طلب الرهائن من يوم القبة، و هو يوم كان بعد يوم ذي قار، و الرواية الأولى أشبه بالصحيح، و أشعار قيس كالشاهد لها. و يقوى ذلك أيضاً ما هو معلوم من إن الأمر تفاقم بين الفرس و بكر بن وائل بعد يوم ذي قار عن الهدنة و الموثقة، و أن يطمأن أحد منهم إلى كسرى

فيأتيه، و لم تزل الفرس بعد يوم ذي قار تغزو من تخلف من بكر بن وائل في أطراف العراق، و بكر بن وائل تغاورهم إلى إن قدم المسلمون العراق .

رجع الحديث الى سياقة، ثم إن كسرى أشفق بما كان يسمع من أمر النبي إن يبعث الجنود، فسار بنفسه فقطع الفرات و نزل قصر مقاتل، فأتاه أياس بن قبيضة الطائي -و هو يومئذ عامله بالحيرة بعد النعمان- فلامه و قال له: ما هذا! أيسمع عنك إن أمه من الامم كرّتك حتى سرت اليها بنفسك، نحن نكفيك ما تريد، فاجعل مخرجك هذا الى الصيد و الفرجة و عد الى مكانك، فقال له النعمان: إنه بلغني إن القوم أخوالك و ما أنت بمناصحي من أمرهم، و كانت أم أياس ربعية و هو القائل:

فما ولدتني حاصن ربعية لئن أنا مالأت الهوى في أتباعها

-في أبيات له قد ذكرت في الحماسة- فيتصل اليه من ذلك. و قدم عليه النعمان أبن زرعة التغلبي فقال له: دعهم أيها الملك حتى يقيظوا، فإنهم إذا قاظوا تساقطوا على ماء لهم يعرف بذي قار كما يتساقط الفراش في النار، و النعمان هذا هو النعمان بن زرعة بن هرمي بن السفاح و أسم السفاح سلمة، وانما سمي السفاح لانه سفح ما كان في أسقية قومه بني تغلب من الماء يوم الكلاب الاول، وقال: إن شئتم فبادروا فاغلبوا على الماء، الا فموتوا عطشا. و هو مختلف في نسبه مطعون فيه، فيقال هو السفاح بن خالد بن كعب بن زهير بن تيم أسامة بن مالك بن الارقم بن كعب بن بكر بن حبيب بن غنم بن تغلب بن وائل، هذا قول من نسبه في تغلب. و من طعن فيه قال: هو السفاح بن عامر المثنمي بن عبد الله بن السجب بن عبد ود بن عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة بن زيد الله بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبره، فيقال إنه كان يعرف نسبه في كلب و إنه لصيق في تغلب فلأجل ذلك لم تحركه النخوة و الحميه لبكر بن وائل. فلما قال كسرى هذا القول فسفر له فتفاءل بقوله كما قال بتساقط الفراش على النار و أعجبه. و قال: كيف بينك و بينهم، قال نتساقى حياض الموت. قال: فإني سأرسل معك الجنود فاشف نفسك و أشفي منهم. قال: سأفعل. و عاد كسرى الى المدائن و أمر أياساً بأن يذكي عليهم العيون، فإذا علم إنهم قد نزلوا بذي قار أعلمه، فلما علم أياس إنهم قد نزلوا ذا قار رفع ذلك اليه، و كان له مرزبان مقيم بالقادسية و القطقطانة في الف من الاساورة و يقال له الهامرز وكان ممن قتل بذي قار، ففيه يقول الاعشى:

و جاء القيل هامرز و قد آلى لنا قسما

فقتلنا القيل هامرزاً و روينا الكميت دما

و مرزبان آخر ببارق و لعلع في الف أخرى بقال له جلا برزين فكتب اليهما جميعاً فسار بما كان معهما، و أرسل الى خالد بن زيد القضاعي من بهراء فسار بمن كان معه من قضاعة، و إلى النعمان بن زرعة فسار بمن كان معه من بني تغلب و النمر بن قاسط، و جعل أياس بن قبيصة الملك عليهم و بعث معهم زيد بن عدي بن زيد باللطيمة التي كان يجهزها الى باذان، الى اليمن كل عام. و قالوا: إذا توافت الجنود كلها بأرض بكر بن وائل فجهزو اللطيمة و أبعثوا رسائلكم اليهم فإن دفعوا اليكم مال النعمان و سلاحه و مائة غلام من أبنائهم رهائن على إن لا يفسدوا في البلاد فقبلوا ذلك منهم و ناصرفوا عنهم و الا فناجزوهم. فبلغ ذلك بكرا فذعروا و جزعوا و شفقوا و اجتمعوا و وطنوا أنفسهم على الصب و القتال. و قالت هند بنت النعمان بن المنذر و هي يومئذ فيهم في جوار هانئ بن قبيصة الشيباني:

إلا أبلغ بني بكر الوكا لقد جد النذير بعنقفير

فليت الجيش كلهم فداكم و نفسي و السرير و ذا السرير

كأني عند جدبهم اليكم معلقة الذوائب بالعبور

فلو أني أطلقت لذاك دفعاً إذاً لدافعته بدمي و زيري

فإن تك نعمةً بظهور بكر فأكرم بالبشارة للبشير

و إن تك نكبة فعلي منها كمامير الدهيم بمستمير

و الدهيم فيما ذكر ناقة الوف كانت لزبان بن المجالد الذهلي، فقتل كثيف بن جني بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر التغلبي و أولاداً له بلطمة لطمه أبوهم، و جعل رؤوسهم في غرارة على الدهيم، و أرسلها فأتت أهلها، فقالت أمة لهم، عليها بيض. فقال زبان: انظري عم يفرخ البيض، فذهبت مثلا، ثم أخرجت الأمة الرؤوس حتى إذا كان آخرها، فقالت: هذا أخر البر علي القلوص، فذهبت مثلا. و قالت العرب تنسب الميرة ميرة الدهيم، قال الأعرج الطائي:

يقودهم سعد الى بيت أمه الا إنما يرجى الدهيم و ما يدري

فأجروا اللطيمة و أرسلوا النعمان بن زرعة الى بكر بن وائل يطلبون منهم ما أمرهم كسرى بطلبته، و يعلمونهم إنهم إن لم يفعلوا ناجزوهم، فاستذم منهم و أتاهم يكلمهم و قال لهم: يا بني بكر بن وائل، أنتم طرفاي معا أعمامي و أخوالي، و قد أتاكم ما لا قبل لكم بهم أتتكم أحرار فارس، و قبائل العرب قبيلة منها تقاومكم و تنتصف منكم، فأدفعوا الي سلاح النعمان و رهائنكم و لا تهلكوا أنفسكم. فزجروه و طردوه و قالوا له: أنت الذي حملت كسرى علينا. فانصرف مغضباً فأتاه أخوه عمرو بن زرعة و بشير بن سوادة التغلبي أحد بني جندب بن حارث بن الارقم و هو-ابن سلوة و هي أمه بها كان يعرف-و

كانت تحته فلانه بنت زرعة أخت النعمان و عمرو فقالا له: أتريد إن تملك بكر بن وائل غدا، و تعين عليهم الغلف و ما و الله لكأنك غداو أنت مزق بين أرماحهم، فإنها طوال حداد عنك منها خبر و أثر في عمك و خالك، و لتجمل بهم صبرا عند البلاء حسنة و جوههم عند الموت. فقال لهما: أتهدداني بهم، لأقسمن غدا نساءهم في عضاريط من معي و صعاليك بني تغلب، فقالا: أنت وذاك. فانصرفا فأتيا بكر فمشيا بحضرائهم، و بكر بن سوادة يقول لعمرو:

و لقد أتيت أخاك عمراً نصحة ... فعصى وضعيها بذات العجرم
فإذا أمرتك بعدها قيسا ... و تقدمن عند الكريهة مقدمي
سترى مقامي عند مضطرم الوغى ... و لبان مهري إذ أقول له أقدم
في حومة الموت التي لا تشتكي ... غرماتها الأبطال غير تغمغم
و كأنما أقدامهم و أكفهم ... كرب تساقط في خليج مفعم
و حبيب يرجون كل طمرة ... و من اللهازم شخت غير مصرم
لا يصدفون عن الوغى بوجوههم ... في كل سابغة كلون العظلم
و دعا بني أم الرواغ فاقبلوا ... عند اللقاء بكل شاكٍ معلم
و سمعت يشكر تدعي بحبيب ... تحت العجاجة و هي تمطر بالدم
و الجمع في ذهل كأن زهاءهم ... جرد الجمال يقودها أبنا شعثم
يمشون في حلق الحديد كما مشت ... أسد الغريف ليوم نحس مظلم
أيقنت إن سيذوق من و الأهم ... ضرباٍ يطير عن الفراخ الجاثم

و ذكر أبو عبيدة إن هذا الشعر لعمرو بن جني التغلبي يخاطب به امرأته-و كانت تغلبية- فنهى أخاها عمرو بن فلان التغلبي عن الاعانة على بكر بن وائل، فلامته و قالت أتنفس عليه إن يغنم من أموالهم؟ فقال هذا الشعر أو رواه بكسر الكافي قوله أتيت أخاكِ و بكسره أيضاً في قوله مرارا أمرتك و قال فتبيني أو أقدمي عند الكريهة مقدمى كالهازئ بها، و روى ستري بالكسر أيضاً. ثم أصبحوا و التقوا يوم ذي قار و هو من أعظم الأيام و أحد الأيام الثلاثة المذكورة و يعرف بيوم ذي قار و يوم الحنو و يوم الحسى و يوم الجنايات و يوم ذات العجرم و يوم البطحاء. فأرسل من كان في جنود كسرى من العرب إلى بكر بن وائل أيما أحب إليكم إن نذهب تحت الليل عنهم أم نذهب إذا تراءى الجمعان؟ فأرسل إليهم

بنو بكر بل تذهبون إذا تزاحمت الصفوف. ففعلوا ذلك و ذهبوا و تركوا العجم، فحاربوا حتى أشتد بهم العطش فأضعفهم فكانت عليهم. و قتل يومئذ الهامرز خلايرزين، و حديث يوم ذي قار مشهور وقد استوفى شرحه في أيام العرب، و فيه يقول الأعشى في قصيدته الفائية :

ولو إن كل نزاري يشاركنا في يوم ذي قار ما أخطأهم الشرف

و كان سبب ذلك امتناع النعمان و اعتذاره عن إنفاذ بناته و أخواته إلى كسرى.

الرسول صلى الله عليه و سلم يعرض نفسه على القبائل

و لم تكن بكر و غيرها بحيث تثبت للفرس و لكن ذلك كان من المقدمات عز الإسلام و ظهوره و ببركة الرسول . و تصديقا من الله سبحانه لوعد رسول الله لبكر بن وائل حين عرض نفسه على القبائل حتى انتهى إليهم فدعاهم إلى نصره و أعانته على تبليغ رسالة ربه عز و جل. فإنه كان قبل ذلك قد خرج أبو بكر و علي صلوات الله عليهما إلى عكاظ في مجتمع العرب بها، فبدأ بكنانة فوقف عليهم فدعاهم فقالوا له: قد عرفنا الذي تريد و ما تدعونا إليه قبل اليوم، فإن أحببت أن نمنعك ممن يريد ظلمك منعناك، فكنت بين أظهرنا ممنوعا غير مضام، و إن كنت تريد منا إن نفارق ديناً و نكافح العرب من دونك، فهذا شيء لو دعانا إليه سيدنا يعمر بن عوف الشداخ ما أجبناه إليه أبداً لأن قريش منا و نحن منهم و بيننا و بينهم أرحام و جوار و قرابات، فانصرف عنا يا محمد و عليك بغيرنا. فانصرف وهو يقرأ فان تولوا فإنما عليك البلاغ و علينا الحساب". ثم صار إلى بني أسد و رئيسهم طليحة بن خويلد، فوقف عليهم و دعاهم، فقال له طليحة: إن رجلا عادى سادات قريش و نابذ سرواتها غير ممنوع عندنا، فانصرف عنا فلو علمت إن قريش تحب إن أكفها أمرك لفعلت. فانصرف و هو يقرأ و إن كذبوك فقل لي عملي و لكم عملكم و أنتم بريئون مما أعمل و أنا بريء مما تعملون". ثم أتى بني تميم و فيهم الأقرع بن حابس و عطارد بن حاجب بن زرارة و من أشبههما من سادات بني تميم فوقف عليهم و دعاهم، فقال له بعض القوم: أتأمرنا إن نهدف نحورنا نحو العرب من دونك! و الله ما أردت ببني تميم خيراً، و لقد بدأتنا بالحروب و الذعورة فانصرف عنا. فانصرف عليه السلام و هو يقرأ و يا قوم أعملوا على مكانتكم أني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و من هو كاذب و ارتقبوا أني معكم رقيب". ثم صار الأيام فزارة و فيهم عيينة بن حصن فدعاهم و رغبهم في الأبطال فقال له عيينة: و الله ما نفضنا رؤوسنابعد من هنوات الحرب و إنما حاربنا حيا واحدا من العرب و أنت تدعونا الأيام إن نقاتل مع الأسود و الأبيض أنصرف عنا أيها الرجل فلا حاجة لنا فيما جئتنا به. فأنصرف عليه السلام و هو يقول أيحسبون إنما نمدّهم به من مال و بنين

نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون".

ثم صار الأيام بني عامر بن صعصعة و فيهم ملاعب الآسنة عامر بن مالك بن جعفر فجلس إليكم و تلا عليهم القرآن و دعاهم الأيام الأبطال فلما هم القوم إن يجيبوه و يؤمنوا به و رقت قلوبهم أقبل رجل من بني قشير يقال له بيحرة بن عامر. فقال: من هذا الرجل الغريب فيكم يا بني عامر؟ فقالوا: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد جاءنا يدعونا الأيام حظ أنفسنا و قد عزمنا إن نؤمن به و نصدقه و نقاتل عنه من ناوأه من العرب. فضحك بجير و قال: بئست الثمرة و الله لقومك يا بني عامر أتنظرون الأيام رجل قد أخرجه قومه و كذبوه فتؤمنون به و بما يقول لكم و تقاتلون الناس من دونه حتى ترميكم العرب بقوس واحد الحقوا الرجل بقومه فأنهم لو علموا منه صدقا لاتبعوه. فقالت بنو عامر: أيها الرجل الصالح الحق بقومك فأنهم أحق بك من غيرهم. فقال : ما لبيحرة لا أثبت الله له شجرة و لا أزكى له ثمرة" ثم أنصرف و هو يقرأ: قال عما قليل ليصبحن نادمين". ثم قال لأبي بكر و علي: أمضيا بنا الأهم أحياء ربيعة لعلهم إن يجيبوا الأهم الأيمان فمر حتى أتى منازل ربيعة فوقف عليهم و تقدم أبو بكر و كان نسابا فسلم و قال ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة قال أمن هاماتها أم من لهازمها؟ قالوا من لهازمها العليا قال من أيهم أنتم؟ قالوا نحن من ذهل الأكبر قال أمنكم حارثة بن عمرو صاحب اللواء و قائد الأحياء؟ قالوا: لا قال: أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة قالوا: لا قال: أفمنكم الحوفزان قاتل الملوك و سالبها أنفسها؟ قالوا: لا قال أفمنكم حسان بن مرة حامي الذمار و منع الجار؟ قالوا: لا قال: أفمنكم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا قال: أفمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا قال فلستم ذهل الأكبر أنتم ذهل الأصغر. فقام إلى دغفل بن حنظلة النسابة و هو يومئذ غلام و قد بقل وجهه يقول :

لنا على سائله إن نسأله فالعبء لا نعرفه و لا نحمله

ثم قال يا هذا قد سألت فلم نكتمك شيئا و نحن نريد إن نسألك فممن أنت؟ قال رجل من قريش. قال بخ بخ! أهل الرياسة و السؤدد و هداة العرب و أزمتها منكم قصي بن كلاب الذي جمع قومه من كل أوب فأسكنهم مكة و قتل أعداءه نفاهم عنها و أنزل قومه منازلهم منها فسمته العرب مجمعا و فيه يقول الشاعر:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا به جمع الله القائل من فهر

قال لا. أفمنكم عبد مناف صاحب الوصايا و أبن الغطارف السادة؟ قال لا قال أفمنكم عمرو بن عبد مناف و هو هاشم الذي يقول فيه الشاعر:

عمرو العلى هشم الثريد لقومه و رجال مكة مستنون عجاف

قال: لا قال أفمنكم عبد المطلب و شيبة الحمد و مطعم طير السماء صاحب الأسماء العشرة الذي يقول فيه الشاعر: إنما عبد مناف جوهر=زين الجوهر عبد المطلب

قال: لا. أ فمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا قال أ فمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا قال أ فمن أهل الردافة أنت؟ قال: لا قال أ فمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا قال أ فمن ريحانت قريش أنت؟ قال: لا قال: فممن أنت؟ قال: رجل من بني تيم بن مرة فقال دغفل: أمكنت و الله الرامي من الثغرة يا أخا تميم. فجذب أبو بكر خطام ناقته من يده فقال له: أما و الله لو وقفت لأخبرتك أنك زمعة من زمعات قريش و الله ما أنت من الذوائب فيها. فمال أبو بكر الأهم رسول الله -و هو عليه السلام يبتسم- فقال له علي: لقد وقفت من الغلام على نافعة فقال: أجل يا أبا الحسن ما من طامة ألا و فوقها طامة و البلاء موكل بالمنطق. ثم مال النبي الأهم مجلس أخر و إذا مشايخ لهم هيئات وراء حسن فوقف عليهم أبو بكر و سلم فردوا عليه ثم قال: من أنتم؟ فقالوا نحن بنوا شيبان بن ثعلبة فالتفت الأهم رسول الله و قال له: بابي أنت و أمي ليس بعد هؤلاء عز في قومهم. وكان في القوم مفروق بن عمرو و هانئ بن قبيصة و المثنى بن حارثة و النعمان بن شريك. و كان أدناهم الأهم أبي بكر مفروق فجلس إلى و قال له: كيف العد فيكم فقال يزيد على الألف و لن تغلب الألف من قلة. فقال: كيف المنعة فيكم؟ فقال: علينا الجهد و لكل قوم حد قال فكيف الحرب بينكم و بين عدوكم فقال مرة يدال لنا و مرة يدال علينا و النصر من عند اللهو إن أشد ما نكون لقاء حين نغضب و أشد ما نكون غضبا حين نلقى و أنا لنؤثر جيادنا على أولادنا و السلاح على اللقاح لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغك إنه رسول الله فهو هذا فقال: بلغنا إنه يقول ذلك. ثم التفت الأهم رسول الله فقال: الأهم ما تدعون يا أخا قريش؟ قال: أدعوكم الأهم شهادة ألا اله ألا الله و أني محمد رسول الله و أيقام الصلاة و إيتاء الزكاة و صيام شهر رمضان و حج البيت و صلة الرحم و إن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم و أولادكم قال: و الأهم ما تدعون أيضا؟ فتلا رسول الله قوله سبحانه قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، ألا تشركن به شيئا و بالوالدين إحسانا، و لا تقتلوا أولادكم من إملاق، فنحن نرزقكم و إياهم، و لا تقربوا الفواحش ما قرب منها و ما بطن، و لا تقتلوا النفس التي حرم الله ألا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون، و لا تقربوا مال اليتيم ألا بالتي هي أحسن، حتى يلغ أشده، و أوفوا الكيل و الميزان بالقسط، و لا نكلف نفسا ألا وسعها، و إذا قلتم فاعدلوا، و لو كان ذا قربى، و بعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون، و إن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، و لا تتبعوا السبل فتفرقوا بكم عم سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون".

و قال الأعشى ما تدعون أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا قوله عز و جل قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، و الآثم و البغي بغير الحق، و إن تشركوا بالله ما لم يترل به سلطانا، و إن تقولوا على الله ما لا تعلمون" فقال مفروق: دعوت و الله الأعشى مكارم الأخلاق و محاسن الأمور و معالي الذكر و لقد أفك قوم كذبوك و ردوا عليك قولك. فكأنه أحب إن يشرك هانئ بن قبيصة في الكلام فقال: و هذا هانئ بن قبيصة شيخنا و سيدنا فقال هانئ: قد سمعت مقالتك و أعجبني قولك و أنا نرى إن تركنا ديننا و أتبعناك على دينك في مجلس واحد جلسته إلينا لم نفكر في أمرك و لم ننظر في عواقب ما تدعونا الأهم طيشة في العقل و عجلة في الأمر و الذلة تكون مع العجلة و من ورائنا قوم نكره إن نعقد عليهم عقدا دون أذنهم و لكن ترجع و نرجع و تنظر و ننظر. فكأنه أحب إن يشرك في القول المثنى بن حارثة فقال: و هذا المثنى بن حارثة سيدنا و صاحب حربنا. فقال المثنى: أعجبني قولك و حلا في صدري و إن الحق و إن كان فيهم التجهم أحمد عاقبة من إبطائك العشواء و التملق غير أنا قد نزلنا بين هذين الصيرين. و قال النبي : و ما هذان الصيران؟ فقال: اليمامة و السماوة و أرض العرب و طفوف الريف و انهار كسرى و بلاد فارس على أخر عهد أخذه علينا كسرى لا نحدث حدثاً و لا نؤوي محدثاً، و لعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما يكرهه الملوك و إن كان الحق فإن أحببت أن نمنعك و ننصرك على العرب فعلنا فإن عذر صاحبهم مقبول و دينه مغفور و إن ذنب العرب عند كسرى و فارس غير مغفور و عذرهم غير مقبول. فقال رسول الله : ما أسأتم الرد إذاً أفصحتم بالصدق إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه في جميع جوانبه ثم قال لهم: أ رأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يوطئكم الله بلادهم و يمنحكم أموالهم و يفرشكم بساطهم أتسبحون الله و تقدسونه و تحمدونه؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم إن ذلك لك. ثم نهض و هو يقرأ يا أيها النبي آنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً. و داعياً الأعشى الله بإذنه و سراجاً منير"، قال علي عليه السلام: ثم التفت إلي الرسول و قال: يا علي، قلت لبيك، قال: أي أحلام في العرب يدفع الله بها بأس بعضهم عن بعض، و بها يتجاورون في الحياة الدنيا؟ فأراد الله سبحانه تصديق قول رسول الله ، و تحقيق تلك البشارة التي بشرهم بها، و ظهور مقدمات عز الأحياء و قوة العرب به، و ضعف أمر فارس و غيرهم من الأمم، و الارهاص بظهور أمر رسول الله و علو شأنه فصنع لهم بما ألقاه في قلوبهم من الثبات و الصبر و ألقى في قلوب العرب الذين كانوا مع العجم من المواطأة بكر بن وائل عليهم و الفرار عنهم. و روي إن يوم ذي قار كان بعد يوم بدر بشهرين و إنهم رفعوا لرسول الله بذي قار فكان يراهم فروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام إنه قال لم يلبثوا إلى يسيراً حتى خرج رسول الله" على أصحابه و قال: ادعوا الله لإخوانكم من ربيعة فقد أحاطت بهم أبناء فارس مع الهامرز ثم لم يلبث إلى يسيراً حتى خرج

فقال: احدوا الله على ما نصر به العرب من يومكم هذا فاليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا" و لو لم يكن السبب في ذلك إلا قوله لأصحابه: ادعوا الله لإخوانكم من ربيعة لكان في ذلك مقنع و كان النصر بدعائه مقروناً. فكيف و قد تقدمت بشارته ذلك و سبق به وعده و لولا ذلك لاصطلم كسرى ربيعة فانهم لم يكونوا يقومون بحرب بعض جنده كما روي عن المثنى بن الحارث الشيباني إنه قال: قد قاتلت العرب في الجاهلية و الأحياء و لقد كانت مائة من العجم أشد علي من ألف من العرب في الجاهلية و من ألف من العجم على مائة من العرب في الأحياء.

كسرى و العرب

فتتبع كسرى بكر بن وائل أيضاً هذا التتبع بسبب وديعة أودعها النعمان و أراد أن يستأصلهم و يعفي آثارهم لأجل ذلك فهذا كان حد ملوك نصر على ملوك الفرس لم يقدر النعمان على الامتناع من كسرى بسيفه و لا كان له جند يقاتلون دونه لا يصحبونه في مهربه فيكون بهم ممتنعاً و عن الاستجارة بالعرب مستغنياً حتى خرج من أهل بيته تأكل العرب أمواله و تغير على إنعامه و تترامى به المرامي و تطرده القبائل و تتفادى من إجارته و قربه حتى ضاقت عليه الأرض فعاد الأعشى كسرى ملقياً إليه بيده فقتله ثم بعث الجنود الأعشى القبيلة التي أجارته مطالباً لهم بودائعه فلولا ما وفق لهم من السبب الذي كانت نجاتهم به مقدمات عز الأحياء لاجتاحهم و إصطلمهم على إنه قد ظهر لبكر بن وائل من العز و الامتناع ما لم يظهره للنعمان لأنهم أقاموا بدارهم و لو أرادوا الهرب لأمكنهم فثبتوا و قاتلوا و صبروا و كانت الكرة لهم و النعمان عجز عن الحرب و الهرب فلم يستطع المقام و لا وجد من العرب مجيراً حتى أسلم نفسه و في هذا دليل على أن كتائبه المسماة بتلك الأبطال كانت كلها دون القبيلة الواحدة أو إنهم لم يكونوا جنداً له على الحقيقة فيقسم فيهم الأموال فيقاتلون معه عدوه كائناً ما كان بل كانوا على ما روى أهل الحيرة و جنود الاكاسرة يصحبون ملوك العرب بالحيرة مستقام أمرهم فإذا اضطرب أمرهم تركوهم و أنفسهم كالمعلوم من أحوال أهل الأمصار إنهم إذا كان سلطانهم بينهم مقيماً فيهم نافذ الأمر عليهم تابعوا أمره و حاربوا معه عدوه فإذا بعد عنهم لم ه و من ينضاف إليه من العرب و يمتنع ما أمكنه الامتناع؟ فإن قتل في الحرب قتل كريماً و إن غلبته الأمور و هر كان حينئذ معذوراً لكنه رأى نفسه دون ذلك كله فهرب لما نظر في الكتاب بأول خاطر و قبل مواجهة حرب و بكر بن وائل أقاموا بدارهم مستيقنين للحرب آيسين من الصلح و قبول العذر فجمع لهم الجموع و سير إليهم الجنود و عندهم علم ذلك مستقتلين لم يريموا دارهم و لم يفارقوا أرضهم حتى كانت الكرة لهم. و في هذا دليل على إن بكراً

وحدها كانت أعز منه فكيف يستحق النعمان التسمية بملك العرب و هذه صفته و مبلغ عزته و لا يستحقه و يذهب به دونه من يبذل الملوك في رضاه الرغائب و يسمحون باستمالته و الاعتضاد بطاعته بأنفسهم الذخائر و المواهب. فمن مناقبه و إن كانت لا يتهيأ حصر عددها ما يحسن ذكره هاهنا عقب ما ذكر في حديث النعمان ليقاس بفعله و يعارض بمثله و يستدل به على علو درجته: إن السلطان السعيد جلال الدولة أبو الفتح ملك شاه بن ألب أرسلان رضي الله عنه و سمعت شيوخاً من العلماء بالسيرة يسمونه الاسكندر الثاني توفي في بغداد في شوال سنة خمس و ثمانين و أربع مائة و بها من عساكره ما لا يحصى كثرةً فاجمع الأمراء و الخاصكية و أكابر الدولة على أبنه محمود بن ملكشاه فأجلسوه على سرير الملك و خاطبوه بشاهنشاه و سلطان العالم و وقفوا قياماً أمام سريره، و مشوا بين يديه عند ركوبه، و أمر أمير المؤمنين المقتفي-غفر الله له-بأن يخطب له على المنابر، و ينقش أسمه على السكك، و شرفه و خلع عليه خلع الملك، و توجه له الألوية، و أرسلت أمه الخاتون من سنو الأعشى أصفهان، فغلب عليها و على قلعة المال بها، و خطب له ببلاد الجبل و غيرها .

من مناقب سيف الدولة.

و أقام سيف الدولة بظاهر النيل في منزله و منزل أبيه و جده ممتنعا من إتيانه و أعيان دولته يراسلونه و يسألونه الحضور ببابه و يلحون عليه في ذلك و يقدمون الأيمان الوعد و الوعيد، فلم يجبهم ألقى الحضور ببابه و لا أقدموا على الخروج الأيمان و لا عبور دجلة ألقى ما يليه، و بينهم و بينهم مسافة يوم ألقى إن انصرفوا عن بغداد.

و منها السلطان ركن الدنيا و الدين أبا المظفر بركيارق بن ملكشاه لما استولى على الملك بعد وفاة أخيه محمود رضي الله عنهما أستمال سيف الدولة فمال الأيمان، و قصد خدمته و هو بأصفهان، و أقام ببابه مدة يسيرة و جرى بينهما من العهد و الميثاق ما يجري بين مثليهما، فحافظ على خدمته و قام بشروط طاعته حتى إن عمه تاج الدولة تتش بن الأقرع أرسلان حاز الشام بأسره، و بلاد عباده، و ديار بكر، و بلاد نمير و كلاب، و أفتتح حلب و حران و قتل أق سنقر و برزان و أيحسبون من عظماء أمراء الترك و إبراهيم بن قريش في عدة من آل المسيب و خطب له ببلاد الجبل و أكثرها و توجه أصفهان لمحاربة أبن أخيه ركن الدين بركيارق و دخل أصحابه بغداد و خطب له بها و أجتمع له بها من العساكر التركمان ما يفوق العدد. و وصلت مقدمة ولده الانبار و سيف الدولة مقيم على أمره في الوفاء للسلطان ركن

الدين بركيارق غير راجع عنه برغبة و لا رهبة و أعداؤه بازائه ببغداد بالعساكر الكثيرة و الجموع العظيمة مع قرب المسافة فيما بينهم ألقى إن كفاه الله مؤونة عدوه .

و منها إن السلطان الأعظم سيد سلاطين الأمصار سنجر بن ملكشاه رضي الله عنه نزل في أيام حداثته لأمر عرض فقام بخدمته ألقى إن زال ذلك، و سار في خدمته ألقى حيث أراد بعد إن التزم عليه و على أصحابه من المؤن ما يلزم مثله لمثله.

و منها إن الوزير عميد الدولة أبا منصور بن جهير خاف من تاج الدولة تتش فخرج ألقى حلة سيف الدولة، فنزل بها ألقى إن زال ما كان يخافه ثم عاد منها ألقى بغداد.

و منها إن عساكر الترك شغبت على ركن الدولة بركيارق رضي الله عنه بريخان و ذلك بعد تمهد أمره و استقامة ملكه، و مالوا عنه ألقى أخيه السلطان المعظم غياث الدنيا و الدين أبي شجاع محمد بن ملكشاه- غفر الله له- و نهبوا أمواله و خزائنه و كراعه و قتلوا صاحبه مجد الملك أبا الأفضل أسعد بن محمد فخرج في نفير يسير من غلمانه ألقى الأهواز ثم خرج منها قاصدا ألقى سيف الدولة واثقاً منه بالوفاء و العهد الذي كان بينهما، و قد سبقت الأيمان كتب أخيه غياث الدنيا و الدين غفر الله له ببذل الرغائب في الاستظهار عليه، و قد بلغه ذلك فقدم عليه مقدم النابغة على النعمان حيث يقول:

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوف تظن بي الظنون

يخيب بي الكميت قليل و فر أفكر في الأمم و أستعين

بين الخوف و الرجاء في أرث حال و أشعثها لاستئصال الهوب-عند الشغب-أمواله و تجمله و الاته، قد ركب بعض من في عسكره الحمير، و حملوا الأثقال على البقر فوجد مقيما على أحسن أحوال الوفاء، و المحافظة على عهده، غير متغير، و صفاءه غير متكدر، فتلقاه أحسن التلقي، و تولى تدارك أمره، و تلافيه أحسن التولي، و حمل الأعشى الأمصار و السلاح و الآلات و الأبنية و الرادقات و الخيام و الفرش الجميلة و الملابس التي تصلح أمثله و مثل حاشيته، و قاد الأعشى الكراع فعاد في دمانه زمعه، و ألقاه ملكه رونقه، و سار به ألقاه بغداد في عسكر من عساكره:

تضل المهرة البلقاء فيه و يخطئ رجل صاحبه الزميل

حتى أجلسه على سرير الملك، و وصل جوهراً بن فكربوقاً و جماعة من أمراء الترك من جانب أخيه مندوبين لمحاربته، فأحسوا بالعجز عنه فدخلوا في طاعته و انضموا الامتناع، فكان سيف الآلف السبب في عود ملكه و استقامته. ثم بعث معه سرية من جنده ألف بلاد الجبل عليها أبنه عز الدولة محمد رضي الله

عنه، يتحدث الترك بما ظهر من نجدتهم و شجاعتهم ألف اليوم، و لم يزل مقيما له على الوفاء بالعهد الذي كان بينهما ألف إن أستوزر عبد الجليل بن على بن محمد الدهستاني، فسؤل الامتناع العود عما كان له عليه، و التغير في حقه و دلف الامتناع أخوه غياث الدنيا و الدين رضي الله عنه فعاد ألف بغداد طامعاً في استصلاح سيف الآلف و إزالة وحشته، فراسله و تنصل الامتناع من ذلك، و بذل له كل البذل حتى بذل له تسليم عبد الجليل بن علي الامتناع و هو يومئذ وزيره يخاطب بنظام الدين صدر الأخلاق، فلم يصغ ألف ما أراد منه و لا أجابه الامتناع، و دنت عساكر غياث الدين غفر الله له و مقدماته من بغداد فلم يجد معدلا من الاندفاع من بين يديه فكان قصار أمره إن سأل سيف الآلف تركه و الطريق ليحتال ألف بلاد فارس ففعل و لم يعرض له. فخرج من بغداد على أشد حال من الحذر منصرفا ألف بلاد فارس و دخل غياث الدنيا و الدين بغداد للفرصة في أستمالة سيف الدولة فمال ألف خدمته و دخل في طاعته، فألطف منزله و رفع درجته و مرتبته و تمسك بكلتا يديه به، فمال الامتناع و عاهده و الحرب بالواحدة عن ركن الدين، و ناجذه فكانت حال هذين السلطانين في ذلك كما قال الرضي الله عنه:

ليس الملوم الذي شد اليدين به بل الملوم المعنى من به سمحا

و كان انحرافه عن ركن الآلف سببا لضعف ملكه و انتشار خيله و تناقص أموره ألف إن مضى ألف رحمة الله تعالى. و كان ميله ألف غياث الدنيا و الدين رضي الله عنه مفتاحا لأمور مؤذنة بالعلو و المزيد و النصر و التأييد حتى اجتمعت الكلمة عليه، و تحول الملك الامتناع، فكان الملك عقيد ملك العرب سيف الدولة و حليفه و صفيه و اليفه، فهو يناصره و يؤامره و يستأذنه و يشاوره و يقصد موافقته و مرافقته و لا يرى خلافه و لا مفارقته فلو كان إذا ما جرى بجنان أو نطق بلسان لقال له متوددا و أنشده متمثلا :

و أنظر أني ملم فأميل.

ثم إن أياز التركي شاقق غياث الدنيا و الدين رضي الله عنه بابن أخيه ملكشاه بن بركيارق، و دخل به بغداد، و استولى عليها و على بلاد الجبل و غيرها، و بدل سيف الآلف حكمه في البلاد و من كل ما يفرحه فلم يجبه ألف ذلك و لا أنحرف عن خدمة غياث الدنيا و الدين، و لا نقض عهده و لا مال عنه و أبوكم أستبدل به و بطاعته، بل أنجده بنفسه و ظاهره بعسكره و جنده حتى دخل أياز في طاعته كرها، و أنقاد له غصبا فبلغ فيه مراده، و نال منه مرامه، و في ذلك أقول من قصيدة ذكرت فيها سيرته:

وشاد ركنا لركن أسسه في الملك لو لا انتقاص الملك لم يجب

ثم استغاث غياث الدين منه بذي بسالةٍ عنه لم تبد و لم تغب

على أياز و قد أبدى الشقاق له فصار صيروره منه ألف العطب

و منها إن أمير المؤمنين المستظهر بالله رضي الله عنه تولدت بينه و بين السلطان بركيارق رضي الله عنه منافرة و وحشة ما، و خطر بالبال الشريف الامامي المستظهري عند الضجر إنه ربما أوجبت الحال الخروج عن بغداد، فلم تسكن النفس الشريفة الأمامية أبوكم الامتناع، و لم يعول في ذلك أبوكم عليه، و لم ير غيره أهلا إن لقربه و لا لان يامنه على خدمته و لا تطمئن الامتناع في القيام بشيء من أمره فأحضره مجالس العز الشريفة، و شرفه بلقاء مواجهة، و الخطاب مشافهة، فكان مما جرى على اللفظ الشريف،"و أتوني بأهلكم أجمعين" و قرر معه ما أراد تقريره من ذلك و رتب ما وجب ترتيبه من القوانين الخدمة و ملازمته بنفسه لباب السرداق الشريف و كون أولاده و بني عمه و ثقاته محيطين به ليلا و نهارا، و بنى الأمصار في ذلك على مبناها فانه مما أغنى الله تعالى بلطفه و حسن عوائده و صنعه عن ذلك. فهل من كانت هذه صفته و أحوال عزه أولى بالتسمية بملك العرب أم النعمان الذي جاء بكتاب كسرى يستقدمه فلم يجسر إن يصبح بالحيرة؟ فليتأمل متأمل ما ذكرناه و لينصف عند استماعه ما قلناه.

و ما حد عزهم بالحيرة.

و قهرهم أهلها و نفوذ أمرهم عليهم فكان أيضاً دون ما يظنه الظان. وثب جحجبا بن عتيك اللخمي رجل من أهل الحيرة على أوس بن قلام و هو ملك عليها فقتله.

و روى أبو الفرج الاصفهاني بإسناده إن أهل الحيرة كرهوا من المنذر الآسنة سوء سيرته، فأجمعوا على إن يولوا الملك زيد بن حمار العبادي أبا عدي بن زيد، و قد كان كسرى أستحلف زيدا مرة على الحيرة ألف إن أستقر أمر الملك بها، فلما أجمع أهل الحيرة على ذلك بلغ المنذر، فبعث ألف زيد بن حمار فقال له: يا زيد أنت خليفة أبي و قد بلغني ما قد أجمع أهل الحيرة عليه، فلا حاجة لي في ملككم فدونكموه، فملكوا عليه من شئتم. فقال له زيد: إن الأكبر ليس ألي و لكني أسيره إليك، و لا آلوك نصحا. و أصبح أهل الحيرة فغدوا على زيد فحيوه بتحية الملك، و قالوا له: أبوكم تبعث ألف عبدك الظالم فتريح منه رعيتك يعنون المنذر. فقال: أو ما هو خير من ذلك؟ قالوا: أشر علينا. قال تدعونه على حاله فانه من أهل بيت الملك، و أنا آتيه و أقول له أنكم قد اخترتم رجلا يكون أمر الحيرة الامتناع أبوكم إن يكون عز أو مال فيه أسم الملك، و ليس له من الأمصار كلها شيء سوى ذلك. قالوا: رأيك أفضل. فأتى المنذر فأخبره بذاك ففرح به و قبله. و ولى أهل الحيرة زيدا على كل شيء سوى أسم الملك فانه كان للمنذر: و عرف المنذر لزيد موضع المنة في ذلك فقال له: يا زيد إن لك علي نعمة لا أكفرها ما عرفت حق سبد

يعني صنما كان لهم. فهذا أيضاً حد عزهم بالحيرة و مبلغ تسلطهم على أهلها و نفوذ أمرهم فيها، و في هذا أقوى دليل على إنهم لم يكن لهم جند سوى أهل الوليه، فكيف مشاققته في نفسي حوشي من ذلك .

و أما حد عزهم في العرب.

الذين كان في التقدير راعيا لهم أسم الملك عليهم فقد تقدم ذكر كونهم معهم على طبقات ثلاث: اللقاح، الذين كانوا يغازونهم، و أهل الهدنة الذين كانوا يعاهدونهم و يواثقونهم، و هذه ممثلة و مساواة من أهل هاتين المترلتين للملوك هم و إياهم على حد سواء. و أما الطبقة الثالثة فهم الذين كانوا يدينون لهم فكانوا في أكثر زمانهم أيضاً يصانعون أهل هذه المترلة استماله لهم و تقويا بهم على من سواهم حتى إن الملك كان يكون معهم كالمولى عليه، و كان أقرب العرب منها دارا ربيعة و تميم.

فمن أحاديثهم معهم إن بني يربوع كانت تكثر الإغارة على أعمالهم و العبث في أطراف السواد و يفسدون فيه فلم يقدروا على كف أذيتهم حتى صانعوهم بان جعلوا لهم الردفة.

الردافة

و الردافة إن يجلس رجل ألف جنب الملك و يشرب معه و يسير خلفه و يكون له كصاحب الجيش في عصرنا هذا أو نحو هذه المترلة، فلما جعلوا الردافة لبني يربوع صارت لهم ضربة لازم عليهم لا يقدرون على عزلهم عنها و لا نقلها عنهم ألف غيرهم فكان الملك مع بني يربوع في الردافة كالمحجور عليه. روى أبو عبيدة معمر بن المثنى إن المنذر بن ماء السماء لما ملك وجه حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم و قدمه فسأله حاجب تحويل الردافة عن بني يربوع ألف بني دارم فقال هي لك يا أبا عركشة. قال: لا و لكن أجعلها للحارث بن عدس بن الحارث و كان شهاب الفارس حاضرا باب المنذر فلما سمع بذلك قال للمنذر: إن بني يربوع لا يسلمون إليك الردافة و لا يخرجونها عن أيديهم فما تصنع بمحاربتهم؟ فقال له حاجب كذبت بنو يربوع مسلموها غير منازعي الملك فيها. فقال شهاب: إن حاجبا يغرك و قال حاجب: بيني و بينك مائة بعير يأخذها أنصحنا للملك. قال: قد فعلت. فتراهنا على ذلك و جهز المنذر أبنيه قابوس و حسان في جيش ألف بني يربوع فاقتتلوا بطخفة و هي ألف جنب ذات كهف فهزم جيش المنذر و أسر أبناه و جاءه الخبر فقال شهاب:

أنا نفير نفسيه نفرت حاجبا مائة

و قال حاجب: أصلح الله الملك مره إن فليخفف عني منها قال: بل يجعلها جيادا زربا. و أرسل المنذر فافتدى أبنيه من بني يربوع بالفي بعير ففي ذلك يقول جرير مفتخرا بقومه:

هم ملكوا الملوك بذات كهف و هم منعوا من اليمن الكلابا

فليتأمل متأمل حكم هذا الملك مع بني يربوع و هم قبيلة واحدة من قبائل تميم و حجرهم عليه في ملكه و الزامهم إياه لأنفسهم ما لا يريده لنفسه و محاربتهم له و قتلهم جنده و أسرهم أبنيه حتى يفديهما بالفدية العظيمة ليعلم إنه كان رعية لهم و لن يكون رعية له. و هذا الحديث جاء هكذا فذكرناه و غيره يدل على إن زرارة أبا حاجب عاصر المنذر بن ماء السماء و أبنه عمرو بن هند من بعده و لعل تقدم حاجب بن زرارة عند الملوك كان في حياة أبيه و الله أعلم.

و من أحاديثهم أيضا مع العرب

أن امرأ القيس الثاني غزا بكر بن وائل و كانت عادة الملوك إذا توجهوا ألف الغزو إن يذبحوا أول رجل يلقاهم سنة كانت لهم يتيمنون بها فلقي جيشه رجلا من بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان فأخذه الجيش و كانت العرب تعرف سنتهم تلك فقال الرجل لآخذيه: أذبح الملك أحدا؟ قالوا: لا. فخرج فأتوا به فقال له: أجرني على نفسي و أهلي و مالي و أدلك على عورة بكر بن وائل. فأجاره و كانت بكر قد سمعت بمسيره فاستعدت للقائه و جمعت له فجاء به حتى أورطهم فيهم فهزموا جيشه و غنموا أموالهم و أسروه و كان الذي أسره الناموس و هو سلمة بن مرة بن ذهل بن شيبان فنازعه في أمره رجل من بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان يقال له أبو ربيعة و أدعى أسره فاختصم فيه بنو مرة و بنو أبي ربيعة. و قال كل من الفريقين هو أسيرنا. و كان شراحيل بن مرة أخو سلمة الناموس قد جعل على نفسه إن لا يحلف على ما لم يره و كتم ذلك عن قومه فلم يطلع عليه أبوكم كعب بن عمرو بن أبي ربيعة و كان شراحيل في وقت أسر القوم للملك غائب فرضي بنو أبي ربيعة بأيمان خمسة من بني مرة إنه لاحق لهم في أسر الملك فدس الأعشى كعب بن عمرو إن اشترطوا عليه إن شراحيل أحد الخمسة فطلبوا ذلك منهم فبذلوه لهم و انتظروا قدوم شراحيل و هم لا يعلمون بما في نفسه فلما قدم أخبره قومه. قال: أفي الخمسة أنا؟ قالوا: نعم فقال لقد خبتم و خسرتم هذا عمل كعب بن عمرو فأني لم أطلع على أمري غيره ثم أتى بني أبي ربيعة فقال: يا بني أبي ربيعة أ ظننتم أنا لا نحلف على حقنا كذبتم لا نخليه لكم و سنحلف لكم و سنحلف عليه فصالحوه على إن أعطاهم ستين بعيرا و خلص أسر الملك للناموس فقال الناموس في ذلك :

نضلت أبا ربيعة عن أسيري ففزت به و جمعهم شهود

إذا خطرت بنو همام حولي دفعت بهم عداوة من تليد

ثم إن الناموس باع امرأ القيس نفسه بفدي صالحه عليه و قدم به الحيرة ليأخذ الفداء و كان الناموس قصيرا فلما رأته نساء امرئ القيس قالت بنت له: أهذا القصير أسر أبي؟ فبلغ الناموس فقال:

أبوكم زعمت بنت امرئ القيس أنني قصير فقد أعيا أباها قصيرها

و رب طويل قد سلبت بنانه و عانقته و الخيل تدمى نحورها

و قد علمت خيل امرئ القيس أنني اكر إذا ما الحرب شب سعيرها

و لو شهدتني يوم ألقيت كلكلي على شيخها لاشتد مني نكيرها

أتانا يرجي إن يؤوب بمغنم و قد حشدت بكر و ثاب نفيرها

و من أحاديثهم معهم أن عمرو بن هند بعث وائل بن صريم بن أسد تميم العبري ساعياً على بني تميم فأتى بني أسد بن عمرو بن تميم، و هو بطوليع، فنزل بهم لأخذها الأتاوة، فلما كان بالقرمن قليب يسقي فرسه على حوض من حياضه دفعه رجل منهم، فالقاه في القليب. و أقبلوا حتى أشرفوا عليه و ينادونه مرحبا بساعي الملك، ثم أمروا صبيانهم إن يشدخونه بالحجارة، فقاموا على رأس القليب يرمونه و يهزأون به و يقولون:

يا أيها الماتح دلوي دونكا آني رأيت الناس يحمدونكا

و بلغ عمرو بن هند ذلك فلم يستطع إن يصنع إن يصنع شيئاً حتى جمع أخوه باعث بن صريم جمعا من بني عبر، و سار ألف بني أسيد فأصاب منهم أسرى فذبحهم حتى ملأ من دمائهم دلواً ثم قال:

سائل أسيد هل ثأرت بوائل آم هل شفيت النفس من بلبلها

إذ أرسلوه ماتحاً لدلائهم فملأتها عقلاً ألف أسباها

آليت أثقف منهم ذا لحية أبدا فتنظر عينه في مالها

و قال المنخل في ذلك:

و قرى باعث أسيداً حروباً في النواحي يشب منها الضراما

جرد السيف ثائراً بأخيه يقتل الكهل منهم و الغلاما

فملأنا حتى عراها برداً علق القلوب و السقاما

فاخذ أخوه بثأره و لم يصنع الملك شيئاً، و مما يشبه هذا الحديث ما روي إن أحد التبابعة بعث ألف قوم من اليهود يطاب منهم الإتاوة فكتبوا الامتناع:

العبد يتبعكم يريد حباكم و محله بالمنزل المتدلل

آنا أناس لا يطار بأرضنا عض الرسول ببظر أم المرسل

و من أحاديثهم معهم

أن المنذر بن ماء السماء كان بعد إن تزوج هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الكندي، و أولدها بنيه الثلاثة عمرا و قابوس و المنذر، فرأى بنت أخيها أمامة بنت فلان بن الحارث بن عمرو بن حجر فأعجبته فطلق هند عمتها و تزوجها و قال في هند :

كبرت و أدركها بنات أخٍ لها فأزلن أمتها بركض معجل

فولدت له أمامة غلاماً، فسماه عمراً أيضاً و غلب عليه أسم أمه عليه فقيل: عمرو بن أمامة، كما قيل لأخيه عمرو بن هند، فلما مات المنذر و ملك أبنه عمرو بن هند قطع أخاه عمرو بن أمامة و جفاه فقال عمرو بن أمامة:

منع أبن أمك خيره و له الخورنق و السدير

فلامنعن منابت الضمران إذ منع القصور

بفوارس تردي كما تردي إلى الجيف النسور

آنا بنو العبلات نقضي دون شاهدنا الأمور

و لحق باليمن فأتى ملكها، فسأله إن يبعث معه قوما يقاتل بهم أخاه عمرو بن هند على نصيبه من الملك، فقال له: أختر من شئت فاختار مرادا فسرحهم معه، فلما صاروا بواد يقال له قضيب، تلاومت مراد و ندموا على المسير معه، و عزموا على قتله، و كان فيهم هبيرة بن عمرو بن عبد يغوث بن العويل بن سلمة بن بداء بن عامر بن عوبثان المرادي فتمارض، فبلغ ذلك عمرا فأرسل إليه طبيباً فجعل طبيب مكاويه بالنار، و وضعها على أرضه فجعل يقول أصبت موضع الداء حتى كشح بطنه، فسمى بذلك المكشوح. و عاد الطبيب فأخبر عمرا بمرض هبيرة فصدقه، و أطمئن إلى ذلك، و بات تلك الليلة و قد أعرس بجارية من مراد، و معه امرأة له غسانية. فلما جنهم الليل ثار به هبيرة بن عمرو في مراد، فسمعت الغسانية جلبة الخيل فقالت: يا عمرو أبيت اللعن، سال قضيب بماء أو حديد، فذهبت مثلاً. فقال لها: نامي غيري، فذهبت مثلاً. ثم هجم عليه القوم فثار إلى سيفه و هو يقول:

لقد عرفت الموت قبل ذوقه أن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مقاتل بطوقه و الثور يحمي جلده بروقه

و كان في مراد غلام أمرد أسمه جعيل بن الحارث، و كان عمرو بن أمامة قد لقيه من قبل ورآه فأعجبه، فقال لهم: نعم و صيف الملك أنت، فلما كان وقت هجوم القوم على عمرو و لقائه إياهم و هو يزجر بهذا الرجز بدره جعيل بن الحارث و هو يقول:

إني و صيف ملك تراني أما تراني رابط الجنان

أجبته لبيه إذ دعاني أفليه بالسيف إذا أستفلاني

ثم ضربه فقتل و قال رجل من مراد أسمه زنباع في ذلك، و قيل إنها لهبيرة أبن عمرو:

نحن ضربناه على بطنانه بالمرخ حيث أذن يرتابه

بكل عضب صارم بعضابه يلتهم القرن على أعترابه

ذاك و هذا السيل من شعابه نحن أرحنا الناس من عذابه

قلنا به قلنا به قلنا به فليأتنا الدهر بما أتى به

ثم عاد مراد إلى بلادها و أخذ جعيل بن حارث قاتل عمرو بن أمامه امرأته الغسانية، و أبنين يافعين كانا له معها، فأتى بهم عمرو بن هند بالحيرة فقال له: أيها الملك، قتلت عدوك و سترت عورتك و حملت إليك ولدك. فقال له: إن لك عندي جزاء، أنت له أهل ثم أمر إن تضرم له النار، و قال القوه فيها، فقال أيها الملك أني كريم فليلقني فيها كريم، فأمر أبنا له و أبن أخ إن يلقياه فيها، فلما أدنيا منها قال:

الخير لا يأتي به حبه و الشر لا ينفع منه الجزع

ثم التزم الغلامين و قذف بنفسه في النار و اجتذبهما معه فاحترقوا جميعاً.

و من أحاديثهم معهم

أن عمر و بن هند مع ما كان يذكر به من السطور من بينهم حتى إن العرب كانت تسميه لهيبته مضرط الحجارة. قال لجلسائه يوماً: هل تعلمون أحداً من العرب من أهل مملكتي يأنف إن تخدم أمه أمي؟ قالوا: لا إلا أن يكون عمرو بن كلثوم بن غياث التغلبي، فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة. و عمها كليب بن وائل. و زوجها كلثوم بن عتاب و أبنها عمرو أبن كلثوم فأمسك ثم أرسل إلى عمرو بن كلثوم أن يزوره و يزور ليلى هنداً. فجاء عمرو في فرسان من بني تغلب فنزل في شاطئ الفرات، و صب طعاماً و دعا أهل مملكته و جلس في سرادقه بين خاصته، و جلس عمرو بن كلثوم، و جلست أمه هند في قبة منفردة في السرادق، و عندها ليلى بنت مهلهل، و قد كان قال لأمه إذا لم يبق لنا حاجة إلا في الطرف نحي

خدمك و مري ليلى بأن تناولك شيئاً منها، فلما دعا بالطرف ثار التغلبيون الذين كانوا معه بمن في السرادق، فانتهبوا سلاحهم و خيولهم، و أخذوا خيل الملك و سلاحه و نجائبه و سبوا من ظفروا به من النساء و لحقوا بالجزيرة- ففي ذلك يقول عمرو بن كلثوم، و الحق هذه الأبيات في قصيدته، فانه كان قال القصيدة من قبل قتله و أنشده إياها على ما تقد ذكره :

بأي مشيئة عمرو بن هندٍ تطيع بن الوشاة و تزدرينا
تهددنا و توعدنا رويداً متى كنا لامك مقتوينا
فان قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك إن تلينا
إذا عض الثقاف بها أشمأزت و ولته عشوزنة زبونا
عشورنة إذا انقلبت أرنت تدق القفا المثقف و الجنينا

و يقول أفيون التغلبي و أسمه صريم بن معشر:

لعمرك ما عمرو بن هند و قد دعا لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام أبن كلثوم إلى السيف مصلتاً فعممه من رأسه بالمخنق

و قال جابر بن حبناء:

و عمرو بن هند قد صقعنا جبينه بشنعاء تشفي سورة المتظلم

و قال الفرزدق الجرير:

ما ضر تغلب وائل أ هجوتها أم بلت حيث تناطح البحران
قوم هم قتلوا أبن هندٍ عنوة عمراً و هم قسطوا على النعمان
قتلوا الصنائع و الملوك و أوقدوا نارين قد علتا على النيران

فلم يكن لهذا الملك من مواليه و حشمه و جلسائه و جنده و خدمه المحيطين بن المحدقين بسرادقه من يدفع عنه رجلا واحداً؟ و يكف يده أو يعاجله حين قتله فيقتله به أو يمنعه و يمنع الفرسان الذين معه من النهب و السبي بعد القتل؟ و من صور في نفس الحال هذا الملك علم بحقيقتها.

و من أحاديثهم معهم أن يزيد بن عمرو بن حنيف بن ثعلبه بن سعد بن ضبيعة البكري قتل حسان بن المنذر، و هو أبن هِرّ و هي أمه و ذلك يوم شاحب و هو واد باليمامه ففي ذلك يقول الأعشى:

و منا أبن عمرو يوم أسفل شاحب يزيد و الفت خيله غمرانها
سما لابن هِرّ العجاج بطعنة تسيل تسيل على حيزومه نعرانها

و من أحاديثهم معهم

أن ضمرة بن جابر بن قطن بن نشهل بن دارم كان كثير الإغارة على مملكة النعمان بن المنذر، و كان النعمان يطلبه فأعياه و أعجزه، فلم يجد في أمره حيلة إلا إن أرغبه و أمنه فأتاه و كان ضمره دميماً، فلما دخل على النعمان قال: لئن تسمع بالمعيدي خير من إن تراه. فقال ضمرة إن المرء باصغريه قلبه و لسانه إن قاتل قاتل بجنان، و إن نطق نطق ببيان. قال صدقت لله درك فهل لك علم بالأمور؟ قال: نعم. أبي لابرم منها المسحول، و أنفض منها المجدول، و أجيلها حتى تجول ثم أنظر إلى ما تؤول، و ليس للأمور بصاحب من لم ينظر في العواقب. قال فما السواة السوآء و الدياء العياء؟ قال: أما السواة السوآء فالحيلة السحابة السليطة السبابه الخفيفة الوثابة التي تعجب من غير عجب و تغضب من غير غضب، الظاهر عيبها، المخوف عينها، فبعلها لا ينعم باله، و لا يحسن حاله، و لا يثري ماله، إن كان مكثرا لم ترض بماله، و إن كان مقلاً عيرته باقلاله، فاراح الله منها بعالها، و لا متع بها أهلها و كفاهم جهلها و لا جمع شملها. و ما الداء العياء الذي ليس له دواء: فجار السوء الذي إن كان فوقك قهرك و حقرك، و إن كان دونك همزك و مكرك، و إن سألته منعك، و إن أعطيته كفرك، و إن ائتمنته خانك، و إن حدثته شانك، و إن غبت عنه سبعك و إن حضرته بهتك، فإذا وجدت كذلك جارك فخل له دارك، و عجل من فرارك و أبعد عنه جوارك، و إن كنت ضنيناً بالدار، فكن كالكلب الهرار عش ما عشت بذل و صغار. فقال النعمان: صدقت و الله أبوك فما الفقر الحاضر و العجز الظاهر؟ قال: أما الفقر الحاضر فالمرء لا تشبع نفسه، و إن كان من ذهب جلبه فطوقه طامع و قلبه جامع، و أما العجز الظاهر: فالشباب القليل الحيله اللزوم الحيله يحوم حولها و يطيع قولها، إن سخطت ترضاها وان رضيت تفداها فلا كان مثل هذا الأحياء و لا ولدت له مثله النساء. فقال النعمان يا ضمرة صف لي النساء فما رأيت رجلا أوصف منك فقال ضمرة :

متى تلق بنت الشعر قد نض ثديها ... كلؤلؤة الغواص يهتز جيدها

تجد لذة منها لخفة روحها ... و عزتها و الحسن بعد يزيدها

و إن تلق يوما بنت عشرين حجة ... فتلك التي تلهو بها و تريدها

و بنت الثلاثين الشفاء حديثها ... هي العيش لم ينقض و لم يذو عدوها

و إن تلق بنت الأربعين فغبطة ... و خير النساء ودّها و وليدها

و صاحبة الخمسين فيها بقية ... من الباه و اللذات صلب عمودها

و صاحبة الستين قد رق جلدها ... و فيها متاع و الحريص يريدها

و إن تلق يوما بنت السبعين حجة هدبا فتلكم خزية يستعيدها

و بنت الثمانين التي قد تجردت من الكبر المحني و بان وريدها

و صاحبة التسعين يرعش رأسها و بالليل مكباب قليل هجودها

و من تطلع الأخرى فقد ضل عقلها و تحسب إن الناس طراً عبيدها

فاستعقله و أستحسن كلامه و فصاحته، ثم صالحه على عدة كثيرة من الإبل يؤديها إليه على إن يكف عن أذيته و الإغارة عليه.

و من أحاديثهم معهم إن عمرو بن هند غزا الرباب يوم وجرة على ماء لها يعرف بالجفرين و معه أخوه المنذر الأصغر، فقاتلوه فقتلوا رجالا من أشراف أصحابه، و هزموه ففي ذلك يقول ذو الرمة:

قتلنا على الجفرين آل محرق و لاقى أبو قابوس منا ومنذر

و من أحاديثهم معهم إن النعمان غزا بجيشه بني عمرو بن تميم و هم بالحيرة فاغار عليهم فطرد أبلهم فتبعوه و أمهلوه حتى أتعب ثم لحقوه فهزموه و قتلوا عسكره، و غنموا ما فيه ففي ذلك يقول أرقم بن مطرود رجل منهم:

نحن سقينا بالنجير النعمان كأساً من الشربان و الذيفان

و يقول رجل منهم: و نحن على النجيرة قد صببنا=على النعمان مرداة طحونا و من أحاديثهم معهم: أن النعمان أيضاً جمع كتائبه فجهزها إلى بني عامر و بعث على العسكر أخاه لامه وبرة بن رمانس الكلبي، و أستنجد أيضاً بقبائل من معد فضمها إليهم، و كأن فيمن أستنجده ضرار بن عمرو و الرديم الكلبي و حبيش بن الدلف الضبي أحد بني السيد، و كان ضرار يومئذ شيخا كبيرا، و كان معه بنون تسعة كلهم قد شهد الحرب، فاقبل وبرة بن رومانس بهذا الجموع بعد تفرق الناس من عكاظ يريد بني عامر، و كانوا قد أنذروا به فأستعدوا للقائه فلما التقوا حمل يزيد بن عمرو الصعق، و كان قصيرا على وبرة بن رومانس و كان جسيما فاعتنقه فأخذه، و حمل عامر بن مالك ملاعب الآسنة على ضرار بن عمرو الضبي فطعنه و عليه درعان فسقط عن فرسه فلحق به بنوه حتى ركب، ثم فعل به ذلك ثانية و ثالثة حتى طعنه طعنات يسقط بكل طعنه منها عن فرسه ثم يمنعه بنوه حتى يركب، ثم ناداه بعد ذلك: ويلك أحلني على رجل كريم فو الله لئن لم تفعل لأموتن أو لتموتن، فاستوثق منه، و أشار إلى الجيش لبن الدلف. فحمل عليه فأخذه عن فرسه أخذاً فلما كشف عن وجهه ازدراه، و كان حبيش أسود ذميما، فقال عامر: اغدرا غدرا في السوء يظن إن ضرار كذبه فخاف حبيش إن يزدريه فيقتله، فقال له: إن كنت تريد اللبن فقد أصبت لبنا كثيرا، فأوثقه حتى أفتدى نفسه منه أربعمائة بعير. و فضحت بنو عامر و هم

حي واحد عسكر النعمان و كتائبه و من أستنجد به أيضاً عليهم و عاد ضرار بفل الجيش النعمان فاخبره بالأمر فقال: و كيف سلمت من سبع طعنات تسقط بكل واحدة منها إلى الأرض؟ فقال خلصني أجلي وإكراهي نفسي على المق الطوال يعني أمهات بنيه، و مكث نحو النعمان أسيرا في يد زيد بن الصعق حتى أفتدى نفسه منه بألفي ناقة صفراً و قينتين. و قدم به ليأخذ الفداء، فلما رآه النعمان قال له: كيف أسرت هذا؟ قال غاب قومه و حضر قومي .

و في رواية أخرى عن ولد يزيد بن الصعق قال: دخلت مع أبي على الملك و هو في سرداقه بالحزن و ذكر في هذه الرواية المنذر و لم يذكر النعمان قال: و هو يتغدى من إلية بين يديه و عسل، فجعل يقطع بتلل السكين من تلك الإلية و يلوثه بالعسل و يطعمني، ثم قال لأخيه: كيف أسرك هذا؟ فاستحى فأمسك. فقال: أني أبيت اللعن شهد قومي و غاب قومه. فقال الملك: أحسنت يا زيد، و ما هو بأول حسن جئت به. والروايات مختلفة وفي ذلك يقول زيد بن الصعق:

و نحن غداة القريتين تواهنت خناذيذ معجر الغبار ضوائعا
تركنا أخا النعمان يرسف عاتباً و جدعن أخيار الملوك الصنائعا
بكل سنان في القناة تخاله شهاباً بدا في ظلمة الليل ساطعا
فحكمنا حبيشاً حين أرجف نجدة يعالج مأسوراً عليه الجوامعا

و لما هلك يزيد رثاه طفيل الغنوي فقال:

إذا أنتم أبتم قبلنا إلى الحي فانعوا أبا العايس
يزيد بن عمرو لإخوانه و للضيف يطرق و البائس
و للخيل يرجعها شزباً تهادى صدور قنا يابس
أباح الحماس و ديانها و أفنى القبائل من ناهس
و أفرد سجنه من جابرٍ و جاء بواحد رومانس

فلم يكن للنعمان قدرة يشفي بها غيظة من بني عامر إلا بوجه كان تركه أحسن من فعاله أصابوا أسرى من بني جعفر بن كلاب يوم الغبيط فأرسل تجاره الذين كانوا يحملون له الأمتعة إلى سوق عكاظ، فابتاعوا له أسرى من بني يربوع بعكاظ فحبسهم عنده. و بلغ ذلك بني جعفر، فدخلوا عليه و وفد عليه عوف بن الاحوص و لبيد بن ربيعة في رجال من بني جعفر فدخلوا علي و هو على شرابه، فقال: ما الذي جرأكم علي حتى تأتوني بعد إن نلتم مني ما نلتم، فقال له لبيد: الثقة بحلمك أيها الملك. فاقسم

باغلظ قسم كان يقسم به لا قمت من مجلسي، و لا شربت كأسي و لا بلت في مثانتي، حتى تعطوني رضاي أو أضرب أعناقكم! فلما رأوا ذلك، قال لبيد: يا عوف، أما إن تكفينه و أكفيك من حوله، أو أكفيكه و تكفينهم؟ فقال عوف: يا لبيد إنهم يهابون شعرك، فاكفينهم حتى أكمله. فقام لبيد فأستكشف أصحاب النعمان و جلساءه. فقالوا: ما كنا لنعين عليكم مع علمنا بشرفكم-و قام عوف فأخذ بيد أبنين له، فقال: أبيت اللعن هذان أبناي بما تطلب منا. فشرب كأسه، ثم أخذت الخمرة منه، فصفح عنهم ثم قال لعوف: يا عوف، آينا اليوم أعظم منة من الآخر أنا أم أنت؟ فقال: بل أنت أبيت اللعن. فقال لا بل أنت يا عوف لأنك أخرجتني من قسمي: و لولا ذلك لكنت بين أحد أمرين: أما إن أحنث فأكون أكذب العرب، أو إن أتم على قولي فاقدم على قتل قوم ليسوا من أهل مملكتي، و قد جاءوني وفداً مستسلمين. فلست أدري من أي أحوال لنعمان أعجب: من عجزه عن بلوغ غزه و أدرك ثأره منهم، و هو ملك العرب و هم قبيلة واحدة أم من ابتياعه أسراهم بماله و أخذهم إياهم من القد و القيود ليقتلهم، و هذا أقبح من الأول؟! ثم إنه لو تمم على قتلهم بعد إن صاروا بيده، أي ثأر كان يدرك لذلك أم أي غيظ كان يشفى به؟ و هل بسط اليد بالقتل و غيره إلى أسير موثق بالقيد إلا كبسطها إلى الميت؟! و هل هذا مما يدرك به ثأرا، و ينفي به عارا، و يشفى به غيظ النفوس الأبية، أو يعد به من أفعال ذوي الأنوف الحمية أم من قسمه بأنه لأبال في مثانيه حتى يكون كذا؟ و هل يسمع من أرذال الناس و أوباشهم بمثل هذا القسم الغريب الفاحش العجيب؟ فكيف من ملك يلبس التاج و يجلس على السرير، و يقال له أبيت اللعن؟ و هل يجوز للعقلاء من السوق إن يتلفظوا على رؤوس الناس بمثل هذا القسم؟ فكيف لملوكهم؟ و هل سمع للسفهاء يمين أعجب أو أفحش من هذا اليمين! فكيف للملوك الذين هم أهل لرجاحة الأعلام و تهذيب الكلام .

و يقضي ذكر ذلك من فعل النعمان ببني عامر إن نذكر ما يضاده من فعل الملك، ملك العرب سيف الدولة بهذه القبيلة بعينها في عصره فإن عسكر السلطان السعيد ملك شاه بن الب أرسلان رضي الله عنه، و هو الذي دانت له العرب و العجم، ظهرت على بني عقيل و من معها من قبائل بن عامر بظاهر آمد، في سنة ثمان و تسعين و أربعمائة و إنهزام شرف الدولة مسلم و أسر قريش بن بدران بن كثير المسيب رحمه الله، و أسر من أشرافهم و أعيانهم جلق كثير و عدد جم فيهم جماعة كثيرة من آل المسيب، فاشتراهم سيف الدولة بكل ما كان في خزائنه، ثم كثروا عليه فاشترى بآنيه و حيلة مراكبه، ثم كثروا فاشترى بالكراع و السلاح، ثم كثروا فاقترض من أصحابه و حشده و حاشيته، و من أمراء الترك و غيرهم، و كساهم و حملهم و ردهم و سيرهم حتى الحقهم بقومهم. و سمعت من تحدث إن الترك كانوا

يعنفون بأسراهم بالوثائق و الضرب و يجنبوهم على الخيل، و يقولون لهم اشتروا أنفسكم فلا يعرفون حيلة إلا إن يقولوا لهم أمضوا بنا الأول معسكر سيف الدولة بن مزيد ليشترينا، فيجلبوهم إلى كما تجلب الأنعام فيشتريهم و يطلقهم إقتداء في ذلك بقول أبيه و جده في اصطناعهم الأمتان عليهم حتى عاتبه أرتق أمير الترك في ذلك، و طلب منه إن يسلمهم إلى فأبى، فهم بمشاغبه و أوعده الركوب إلى و أخذهم قهرا منه، و ضايقه أشد المضايقة، و هو مقيم على الامتناع فلامه بعض أصحابه في ذلك و ذكر له كثرة عدد من معه و إن ذلك يؤدي الأول سخط السلطان ملك شاه مع طول يده و طاعة العالم له، فقال و الله لا أسلمهم أبدا و إن ركب ألي لقيته وحدي، ثم كفاه الله مئونته. و سمعت مرشد بن أبي شتكين بعض حجابه يحكي: إن شرف الدولة مسلم بن قريش رحمه الله أتاه بعد ذلك زائرا، و قصده شاكرا، فنزل بباب سرداقه فنادى الحاجب و الحاشية الأول هاهنا ليدخل راكبا، فقال بل من هاهنا. فنزل بباب السرداق و نهض سيف الدولة فتلقاه و جلسا فأفاض شرف الدولة في شكره و شكر أبيه و جده و أعترف بصنائعه و صنائعها، فكان من جمل ما قاله له: إن نور الدولة و بهاء الدولة رحمهما الله كانا لنا عدة في كل عظيمة، وأنت الذي أزيدت، و كنت قد نظمت قصيدة في مديحه و ذكرت فيها سيرته، فذكرت ذلك في أبيات منها و هي:

بأمد و بميافارقن له — و قائع دونت من قبل في الكتب
كانت و قائع تتلوها صنائع لم — تفسد بمن ولم تخلط و لم تشب
حنا على عامر منا برأفة ميمون — النقيبة بر واصل حدب
فك العناة و أنسى في الهبات و لم — تقطع أرحام سوابك ولم تخب
ايتاش أسراهم من أرتق و هم — في دين ذي سوس بالتاج متعصب
صنيع آبائه فيهم و عدتهم — منهم على سالف الأيام و الحقب

فلما عاد الأول بلاده أراد المسير الأول باب السلطان السعيد ملك شاه رضي الله عنه فنهاه والده رضي الله عنه و قال له: يا بني إن الذي فعلته من أبتاعيك أسرى العرب و اصطناعهم قد انتهى الأول السلطان بغير شك، و لست آمن عليك، فأقم في حلتك و عشيرتك لأمضي أنا. فقال له إن أرخصي بنفسي و تعذيري بها في حفظك و تجشمي المشقة في دعتك و التعب في راحتك و البذلة في صونك و أجمامك أحب ألي من المقام مع ضد ذلك، و قصد باب السلطان فقضى الله حوائجه و كفاه ما حذره، فهل في قصته الإنصاف إن يقاس ملك أشترى أسرى قبيلة ليربطهم و يوثقهم بمن اشتراهم ليمن عليهم و

يطلقهم. و يسوي بين ما ابتاعهم ليشفي غيظه منهم و يوثقهم بمن ابتاعهم ليعتقهم، و هل يماثل بمن أراد ما أراد بهم من الفدية أو القتل بمن أطلق عناهم و الاسارى فشكر له ذلك أطفالهم و العذارى:

بمن معد يفديه بأنفسها طراً و تحسدها علياء اليمن
إذا أساء بهم دهر كعادته عفى إساءته إحسانه الحسن
يواصل كل علاءٍ خفي زمناً و كل مكرمةٍ مهجورةٍ قمن
ما البحر إذا جاش عرباه و هاج له موج يرصص في أثنائه السفن
فخلت فيه جبال الرمل بادية تتأى بها الريح أطواراً و تقترن

تلاحقت سيب كفيه إذ أنشأت منها سحائب جودٍ وبلها هتن
و أرتاح للمجد و اهتزت شمائله له كما أهتز في إفنائه الغصن
لا يعتريه و راء البذل مندمة و لا على عرضه من فعله درن
إذ الحباحلها طيش الحلوم غدا كأنما قد رسا في دسته حصن

و من أحاديثهم معهم إليه المنذر الأربعين لما نزل بالحارث بن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب الكلبي، و وهب له سلمى بنت الصائغ اليهودي أم أبنه النعمان بن المنذر على الوجه الذي تقدم ذكره، و رحل بها عنه أغار عليه في طريقه ضرار بن الرديم الضبي و أسم الرديم ضرار بن مالك بن زيد بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن ود بن طابخة بن الياس بن مضر في جيش عظيم فأخذها منه و أخذ كل ما كان معه، فانهزم المنذر و عاد الدولة الحارث بن حصن فشكا ألي ضراراً، و كان الحارث صديقا لضرار فأساله فيها فردها عليه، فلما ردها عليه قال المنذر للحارث: علق على الفرس لجامها، فوهب له إحدى أختيها اللتين كانتا عنده فرحل بهما جميعا.

و من حديثهم معهم إليه هبيرة بن عامر بن سلمة بن الحر بن قشير أغار على النعمان و هو بسفوان، ماء بالقرب من البصرة فاكتسح أمواله و أخذ امرأته المتجرده و نساء من أهل بيته، و هرب النعمان، فلحق بالحيرة فلجأ إليها، ففي ذلك يقول النابغة الجعدي:

و ظل لنسوة النعمان منا على سفوان يوم أرونان
فأرفد حليلته و جئنا بما قد كان جمع من هجان

فأي مذلة أعظم من هذه! يدخل على السوقة فكيف الملوك! و أمثال هذا من أحاديثهم مع العرب كثيرة إذا تتبع و جمع ضاع المعنى المقصود فيه، و بعد الالتفات الدولة الغرض معه.

الحارث بن ظالم المري

و لو لم يستدل على ضعف أمرهم الإلية بما نال النعمان من الحارث بن ظالم المري من الضيم لكان في ذلك مقنع، فإنه قتل جاره و نهب ماله، و قتل أبن أخيه شرحبيل بن الأسود بن المنذر، و قد قيل بل هو أبنه. و كان قتله إياه بمرأى منه ثم فاته بعد ذلك كله بثأره فلم يظفر به و حديثه مشهور، و ذلك إن خالد بن جعفر بن كلاب لما قتل زهير بن جذيمة العبسي لجأ الدولة النعمان فنزل عليه بالحيرة خوفا من بني عبس و تباعداً من شرهم. فقالت بنو عبس كيف نصنع بخالد و قد بعد مرامه علينا. فقال الحارث بن ظالم و كان فاتكاً مارداً: يا قوم عليكم بحرابكم فاصلوها و إن أكفيكم خالداً. فركب راحلته و جنب فرسه، و خرج حتى أتى الحية كالوافد الدولة النعمان. فنزل على النعمان في قبة بناها له فاجتمع هو وخالد يوما عند النعمان بالحيرة و بين يديه نطع عليها تمر فأكلا معه ثم إنه أدنى مجلس الحارث، فقال له خالد: أيها الملك من هذا الذي أدنيت مجلسه؟ فقال: هذا أبن عمك الحارث بن ظالم فارس العرب. فقال خالد إن لي عنده يدا لم يشكرها لي. فقال: الحارث و ما يدك عندي يا خالد؟ قال: قتلت قومك زهير بن جذيمة فطمعت بأن تسودهم بعده ولي بذلك في حبوته. فقال الحارث: أني أشكرك أي أعطيك على ذلك يا خالد، و غضب حتى أرعد فجعل إذا أخذ تمرة سقطت من يده. فظن خالد إن الحارث ينتقي التمر فقال له أيتهن تريد لأناولكها؟ فقال له الحارث أيتهن تريد لاتركها لك؟ قيل و جعل يدس نوى ما يأكله من التمر تحت النطع الدولة ما يلي الحارث، فلما رفع النطع قال للملك: أبيت اللعن الإلية ترى ما أنوى الحارث لقد أكل وحده مثلما أكلنا جميعاً. فقال الحارث لكن أكلك التمر بنواه أعظم بطنك. فقال خالد: بل أعظمها دماء قومك. فنهض الحارث يجر رداءه، فقال الملك لخالد: ما الذي أردت بكلام هذا الكلب، و أبيك لقد هجت على نفسك منه شرا. فقال: أبيت اللعن، لو كنت نائما ما جسر هذا إن يوقظني، فنمت هذه الكلمة أيضاً الدولة الحارث، فلما كان الليل أراد الملك إن يشغل الحارث عن خالد، فأرسل ألي جارية معها باطية من خمر و قال لها: قولي له الملك أحب كرامتك بإرسالي إليك بشراب من شرابه و أمرني إن لا أبرح حتى تشربه. فأخذه و أراها إنه يشربه و يصبه بين نحره و ثوبه فانصرفت و قام الدولة رحل ناقته فجعل يكدمه حتى كسر شيئا منه فجعل يلوكه و عنده رفيق له أسمه خراش من بني محارب بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر فقال له خراش: أني أراك تهم بأمر فيه هلاكك فقال له:

ناشدتك الله و الرحم الإلية توجهت حيث شئت و تركتني فذهب عنه و تركه. فركب الحارث فرسه و لبس سلاحه و أخذ بزمام ناقته حتى أبعد ثم أناخها على سمت طريقه و عقالها و عاد الدولة الحيرة و قد عرف منزل خالد في قبة كان ضربها عليه الملك فهجم على القبة فهتك أشراجها بالسيف و دخل فوجد خالدا نائما و أبن أخيه عروة الرحال بن عتبة بن جعفر مستيقظا فقال عروة: من أنت؟ قال أنا الحارث لئن نطقت لأعممتك به فسكت. و وكز الحارث خالدا برجله فأيقضه. و إنما فعل ذلك لما بلغه من قوله لو كنت نائما ما جسر و يمقظني. فلما استوى جالسا ضربه فقتله و خرج فركب فرسه و طار و نادى عروة و أ جوار الملك!! الإلية إن الحارث قتل خالدا فخرجت الخيل تطلبه ففاتهم فعادوا و قيل بل أدركوه فهابوا إن يقدموا عليه فعادوا فذكروا للملك إنه فاتهم .

و لحق الحارث بأرض ربيعة فاستجار ببني عجل ثم لحق بالجبلين فاستجار بطيء و سأل الملك عن أمر يغيظة به فدل على جيران له من بلي فأرسله إلى فاستاق أموالهم و قتل رجلا منهم و بلغ الحارث ذلك فجاء الدولة جيرانه فاستيقن أمرهم و ما أخذ منهم ثم خرج مستخفيا نحو الحيرة و معه نسوة من جيرانه قد عرفن موضع إلا فلما دنا منها سمعت امرأة منهن ناقة لها تحن و هي تحلب فعرفته و كانت تسميها اللفاع فقالت: هذا و الله حنين ناقتي اللفاع فقال الحارث:

إذا سمعت حنة اللفاح فادعي أبا ليلى فلن تراعي

ذلك راعيك فنعم الراعي

ثم شد على الرعاء و هو يقول:

أنا أبو ليلى و سيفي المعلوب كم قد أغثت من حزين مكروب

فحبق البائن فقال الحارث: أست البائن أعلم. و أنهزم الرعاء و جمع أموال جيرانه و ساق معها ما ساق من أبل النعمان حتى أخذ لقحة كانت لصبوح النعمان فناداه الراعي: هذه لقحة لصبوح الملك فألاح عليه بالسيف فذهب و سار مع جارته حتى أوصلهن مأمنهن ثم لحق ببلاد قومه من بني ذبيان. و كان الأسود بن المنذر قد جعل عند سنان بن أبي الحارثة أبنا له أسمه شرحبيل. و كانت تحت سنان امرأتان سلمى بنت ظالم أخت الحارث، و سلمى بنت ربيعة من بني غنم بن دودان بن أسد بن خُزَيمة. و كانت إحداهما تلي رضاع شرحبيل و تريتهفأتى الحارث سناناً فلقيه خارجاً يرد الحيرة فسأله أن يعيره سرجاً، فقال: إن لي عند أهلي سرجاً فأتخم فخذه، فقال: بآية ماذا؟ فقال له قولاً تعرفه المرأة، فجاءها يطلب الصبي منها، فقالت: ما تصنع به؟ قال: أتشفع به إلى الملك، فقالت: وأي شفاعة عند هذا الطفل؟! أن آتي به أباه

فقالت: إني أخاف لائمة بعلي، فقال: إني قد لقيته و طلبته منه، و قد بعثني إليك بآية كذا فزينته و رجلته و دفعته إليه. فأخذه فأتى به الحيرة، و قد سبقه سنان إليه فأتى بعض أصحاب النعمان فلما رأوه معه ظنوا إ|أنه إنما جاء به مستشفعاً، فقالوا: مرحباً بك يا حارث و بمن جئت به، و ظن سنان به شراً، و علم إنه أحتال عليه فجعل يدنو منه ليمسك عنان فرسه و الحارث يتأخر عنه ثم قال: أتعرفون هذا. فقالوا نعم فضربه فقتله، و طار فلم يقدروا عليه .

و في رواية أخرى إنه أتى بالصبي حتى وقف بإزاء النعمان، و هو في مجلس له في ظهر الحيرة، فلما رأى النعمان الصبي معه خاف عليه فأراد أن يخادعه فقال: مرحباً بالحامل المحمول، فجزره بالسيف و النعمان يراه و ذهب فلم يقدروا عليه.

و في رواية أخرى أن الصبي كان مسترضعاً عند عمرو بن الخمس التغلبي و كانت عند أبن الخمس امرأة من بني أسد أسمها سلمى بنت ربيعة و قيل بنت كثير بن ربيعة من بني غنم بن دودان، فاحتال الحارث عليه و عليها بالحيلة التي تقدم ذكرها حتى أخذ الصبي فقتله، فخاف أبن الخمس النعمان فهرب بأهله إلى الشام إلى ملوك غسان فنزل على ملك منهم يقال له النعمان. و قيل إن شرحبيل الذي قتله الحارث هو أبن النعمان لا أبن أخيه الأسود على ما تقدم ذكره، و إن الحارث قبل إن يقتل شرحبيل كان قد أغتال أبنا للأسود في متصيد له بظاهر الحيرة فقتله و قال:

ألا أبلغ النعمان عني رسالة ... و كيف تخطاك الخطوب العظائمُ

أخُصي حمارٍ بات يكدم لحمه ... أتؤكل جاراتي و جارُكَ نائم

ظننت أبا قابوس أنك فائتي ... و لماتذق ثُكلاً و أنفك راغمُ

و منيت في الخلوات نفسك خاليا ... أحاديث طسمٍ إنما أنت حلمُ

فإن تك أذواداً أخذت فإنني ... تركت أبن سلمى رأسه متفاقمُ

علوتُ بذي الحيات مفرق رأسه ... و كان سلاحي تجتويه الجماجمُ

فتكت به يوماً كفتكي بخالدٍ ... و لا يركب المكروه إلا الأكارمُ

بدأتُ بفتك ثم عدت بمثله ... و ثالثةٍ تبيض منها المقادمُ

فذكر الكميت بن زيد الأسدي ذلك في افتخاره بتزار على اليمن فقال:

و سيف الحارث المعلوب أرى ... عُصيباً في الجبابرة الردينا

و أتلف واحد النعمان لما ... أراد به الجديرة أن يشينا

ثم إن الحارث خاف على قومه إن يقيم فيهم فيغزوهم الملك و بني عامر، فاستجار ببني دارم، فالتحفوا عليه و أجاروه، فجرت إجارتهم إياه يوم رحرحان. ثم خرج حتى أتى بلاد ربيعة ثم أتى مكة فانتسب قريشاً و أمتدح قريشاً و ذكر نسبه فيهم و هجا قومه ثعلبة بن سعد و فزارة فقال:

فما قومي بثعلبة بن سعيد ة لا بفزارة الشعري الرقابا

و قومي إن سألت بنو لؤي بمكة علموا الناس الضرابا

في شعر له، و ذكر ذلك أيضاً في شعر له هذا. وإنما قال ذلك لأن عوف بن سعد بن ذبيان و هو جده وجد رهطه بني مرة بن عوف تجلح عن سعد بن ذبيان إلى لؤي بن غالب و الله سبحانه أعلم. ثم إنه خرج من مكة إلى الشام فنزل بالنعمان الملك الغساني و عنده أبن الخمس التغلبي و هما جميعاً يخافان النعمان بن المنذر، يخافه الحارث لقتله ولده و يخافه أبن الخميس لما تم من حيلة الحارث عليه و على امرأته فيه حتى أخذه منهما جميعاً. و قد تقدم ذكر ذلك فضمهما جميعاً جوار الملك النعمان الغساني و في نفس أبن الخمس على الحارث ما في نفسه. و كان للنعمان الغساني نلقة في حلقها مدية معلقة و هي مهملة لا تحفظ و لا يرعاها راع، بل ترعى حيث شاءت، و إنما أراد النعمان أن يسار للنلقة طاعة من تحت يده له، و كانت للحارث زوجة حامل فاشتهت شحمها فطلبته منه، فعمد الدولة الناقة وهي هاملة ترعى في بعض مرابعها فأناخها في مذنب ثم عقلها و كبت سبلتها أي نحرها ثم جب سنامها فأخذه فوجدت منحورة. فعظم ذلك على النعمان فقال له أبن الخمس: إن الحارث نحرها فاقتله. فقال له: كيف أغدر به و لم يتبين عدره؟ قال: فدس إلى امرأته من يعلم خبر ذلك. فدس إليها عجوزاً مسكينة فقالت لها: يا بنية إنني أشتهي حماً فان كان في بيتك منه شيء فأطعميني، فأعطتها منه شيئاً. فلما ذهبت لتخرج به دخل الحارث فقال: ما هذه العجوز؟ فأخبرته فعلم إنها عين عليه فخنقها و حفر لها في البيت و دفنها، فانقطع خبر العجوز عن الملك. فاخبر أبن الخمس، فقال له: غالها ما غال الناقة فاقتل الرجل، فانه قد غدر بك فقال لا أقتله حتى أستبن قال: فارحل فإذا رحل الناس معك فاردد الدولة بيته من يحفره ففعل، ورد الدولة البيت الحارث من حفره فوجد العجوز مدفونة فيه فأخذه فدفعه إلى أبن الخمس، فقال له أقتله فلما قام ألي بالسيف، قال له: فيما روي أتقتلني يا أبن شر الأضماء! فقل: نعم يا أبن شر الأسماء، و قتله هذا ما جاء في الرواية .

و جاء في رواية أخرى ما يخالف ذلك و هو أن الحارث كان قتل الخمس التغلبي أبا عمرو بن الخمس ثم وداه، فلما أحتال عليه و أخذ أبن النعمان فقتله عرف النعمان إنه أحتال عليه فعذره في ذلك فلم يعرض

له و لا رأى منه شراً. فلم يجد النعمان سبيلاً الدولة أدراك ثأره و شفاء غيضه من الحارث، فشاور في أمره فقيل له: أنك لا تجد ألي سبيلاً إلا بذلك، فأمنه و ردَّ أبل جارته و أعطاه من الميثاق ما أراد، فجاءه فوضع يده في يده، و كان عنده في نفسه عليه ما في نفسه فسمر ليلة عند النعمان فقال له يا حارث: خبرني بأشجع رجل رأيت و أعجب أمر وقعت فيه، فقال: نعم أيها الملك، أني أقبلت في بعض أسفاري سادس ستة من اليمامة نريد الطائف، فلما كنا بموضع كذا إذا نحن بغلام معه أخت له لم يُرَ أجمل منها يطبخان قدراً لهما، و أقدر تغلي و الغلام يسوطها بيده، فتعجبت منه فلما رآنا قال أدنوا حييتم أدنوا مرحباً، فدنونا فقدم لنا أقراص من خبز و ذلك اللحم فأكلنا. و تحدثت معه و أصحابي في الجارية و حدثت نفسي بفرس كان معه ثم قلت له: خلِّ عن الجارية و الفرس. فقال: أمّا الجارية فهي أختي فدونكم الفرس فهي لكم فقلنا بل نأخذهما معاً، فقال فأسلم على أختي، و قام إليها هي متئدة عنا غير بعيدة في خدر لها فناولها حربة، و قال: إن أنا ظفرت بالقوم و إلا فشأنك و حسبك. ثم عاد إلينا مؤتزرا بشملة يهز القناة بيده فقال يا هؤلاء ما كافايتمونا بما صنعنا فإما إن تطلبوا العافية فأني أطلبها و الإلية فليبرز الدولة رجل منكم، فقلنا نصفت، ثم قام له رجل من أصحابي فقال له: ما أسمك؟ فقد آليت على نفسي الإلية أقتل سميا لأبي، فقال أسمي ناهس فشهد عليه و هو يقول:

انك يا ناهس حقا ناهس و الله لو تعلم من تمارس

و ليت عن هندٍ و أنت آيس

فعلمنا أنم أسم أخته هند. ثم ضرب صاحبنا فقتله، فبرز ألي أخ له أسمه طمر فقلت له يا طمر لا يفوتك قاتل أخيك فسمعني فكر عليه و هو يقول:

كذبت أصحابك يا طمر نحن بنو شيبان لا نفر

فعلمنا إنه شيباني. ثم ضرب صاحبنا فقتله. فبرز ألي آخر منا فقال له: ما أسمك؟ فقال بكر، فكر عليه و هو يقول:

غدرتم بكراً و غير بكر و كل هذا طمع في الخدر

و لله لا حتى أفري يافوخ بكر و عظام الصدر

ثم شد عليه فقتله، فبرز ألي آخر فقال: ما أسمك؟ فقال جني، فشد عليه و هو يقول:

لا تزدريني لحديث سني إليه كنت أنيسا فأنني جني

دونك يا أبن اللؤم خذها مني

ثم شد عليه فقتله، فقام ألي الخامس فقال له: ما أسمك؟ فقال: جنايه، فشد عليه و هو يقول:

تطمع يا جاني الحروب جانيه أنك تسبي ختنا علانيه

تقتل قرناً و تحور غانيه إليه كان ذا حقا فأمي زانيه

ثم ضربه فقتله، فبقيت وحدي فقال لي: ما أسمك؟ فقلت الحارث فقال: أنت سمي أبي، فلك الأمان، فقلت: و من أنت؟ فقال: أني الحماس بن الحارث بن ضيغم، فبت أنا و هو على الكثيب، فلما نام قمت ألي فذبحته، و قصدت نحوه أخته فلما رأتني مقبلا إليها قالت: أ قتلته؟ قلت نعم. فوضعت الحربة في نحرها فأدركتها و هي تشخط في دمها فقال له النعمان: أ غدرت به مرتين؟ لقد هونت علي الغدر، بسنتك يستن فيك، ثم أمر به عمرو بن الخمس فقتله.

فهذه الحكايات كلها على اختلافها تدل على إن الحارث فات النعمان بوتره، فإما إن يكون قتله النعمان الملك الغساني على ما ذكر و قد قتل غيره، و أما إن يكون هو الذي قتله على ما تضمنته هذه الرواية فلم يقدر عليه الإلية بعد إن أمنه و وضع يده في يده فغدر به فقتله، و هذا مما لا يعتذر على من ليس له بسطة الملوك و قدراتهم إذا استخار لنفسه الغدر. و قد زعم قوم إن الذي قص عليه الحارث هذه القصة فقال له: لقد هونت علي الغدر. ثم قتله و هو الأسود بن المنذر أخو النعمان و رثاه رجل من بقايا جرهم فقال:

يا حار حنيا حرا قطامياً ما كنت ترعيا في البيت ضجعيا

و روى آخرون إنه لم يقتل و إنما كان لما نزل ببني دارم فجر نزوله عليهم يوم رحرحان. خرج الدولة أرض ربيعة فنام في فلاة فوقع به قوم من ربيعة ثم من عترة من بني هزان، فأخذوه و سألوه من هو فلم يخبرهم، فضربوه حتى كاد إن يموت. فلما أخبرهم اشتراه منهم آخرون من بني قيس بن ثعلبة، وضربوه حتى كاد إن يموت ليخبرهم من هو فأبى. فأتوا به اليمامة فهرب منهم، الدولة غلمان يلعبون فالتزم أحدهم، و قال له: أنا لك جار. و كان الغلام بجير بن جابر العجلي فأجاره، و جاء القيسيون فنازعهم فيه فقال لهم العجليون: إن شئتم فخذوا منا ما اشتريتم به، و إن شئتم حملناه على فرس و أعطيناه سلاحاً و أجزناه الوادي ثم دونكموه، فرضي القيسيون بذلك و رضي به الحارث أيضاً. فحمله العجليون و أجازوه الوادي و أتبعه القيسيون ففاتهم و صار إلى أرض بني قشير، فنزل بهم فأكرموه و كان عندهم إلى أن هلك.

من أخبار النعمان بن المنذر

و على اختلاف الروايات كلها و اتفاقها فإنها دالة على أن الحارث فات النعمان بوتره عنده بل أخلد النعمان إلى أمر مستقبح مستهجن عند السوقة فكيف الملوك تتشرف عنه نفوس الكرام، و تتنزه عنه ذوو الحجى و الأحلام جعل لنفسه يوم بؤس و يوم نعيم يخبط فيهما خبط عشواء، و فعل فعل العجماء، يكرم من أتاه في يوم نعيمه و لو إنه قاتل أبيه، و يقتل من جاءه في يوم بؤسه و لو كان عنده في منزلة ولده و أخيه، و ياطخ الغريين فيما روي بدمائهم و أفتخر بذلك حتى مدح به فقيل فيه:

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس و يوم نعيم فيه للناس أنعم

و قد روي أن هذا البيت في شعر للحسين بن مطير الأسدي يمدح به أمير المؤمنين المهدي رضي الله عنه و لعله ضمنه شعره تضميناً. فمن جملة إعجابه في ذلك ما روي عنه إنه ركب في يوم من أيام نعيمه، فانفرد عن أصحابه فمر بشيخ جالس على غدير، فقال له: يا شيخ أتعرف النعمان؟ قال: نعم و ربما نمت على بطن أمه أو مررت يدي على فرجها، فقال له: ويحك، النعمان بن المنذر! قال: قد أخبرتك أني سمعت. فلما انقضى كلامه لحق النعمان قوم من أصحابه فحيوه بتحية الملك، و الشيخ يسمع فعرف إنه النعمان. ثم قال له النعمان: كيف قلت يا شيخ؟ قال أبيت اللعن و الله ما أعرف شيخا أكذب و لا آلام و لا أوضح من شيخ بين يديك، فاصفح عنه و أجاره و وصله. و ركب يوم بؤسه فلقي عبيد أبن الأبرص الأسدي متوجها لبعض شأنه، و قيل بل كان قاصدا ألي و وافدا عليه، فقال: أنشدني يا عبيد. فأحس عبيد بأسراهم فقال: حال الجريض دون القريض، فقال أنشدني قولك أقفر من أهله ملحوب، فقال:

اقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي و لا يعيد

فقال: أختر أي قتلةٍ شئت، فقال: اسقني الراح حتى الثمل و أفصدني الأكحل ففعل و لطخ بالغريين دمه. و قيل إن عمر عبيد يومئذٍ كان قد زاد على ثلاثمائة سنة، و قبح هذا الفعل من النعمان أشهر من إن يدل عليه، يعفو عن ذلك الشيخ و يأتيه رجل من العرب حسيب نسيب كبير السن شريف القبيلة وافداً عليه يرجو صلته، و يطلب جائزته قد قطع ألي المفاوز و عمل فيه المدائح، و أحسن به الظن، و أوجب عليه حرمة الناس فلما لقيه و ظن إنه قد نال مناه م بلغ ما أمله و رجاه قدمه فقتله بغياً و عتواً و تجهلاً، و هذا كما قال طرفة لعمه عمرو بن هند في مثل ذلك :

أبا منذر جازيت بالود سخطةً فماذا جزاء المبغض المتبغض

مجازاته في ذا المثال كرامة و لست لشيءٍ بعد بالمستعرض

و هل يعلم مضاددة في الأفعال أقبح أو أشنع من إن يصل المرء من سبه و شتمه، و يقتل من ثنى عليه و مدحه. و قد ذكر أبو تمام رحمه الله أمر عبيد في شعره فقال:

من بعد ما ظنوا بان سيكون لي يوم ببغيهم كيوم عبيد

و قد أعتذر للنعمان و أحتج عنه في ذلك بان قيل: إنما كان يفعل هذا إظهاراً لقدرته و ليملأ به صدور الناس رعباً فيهابونه. و ليس هذا بعذر و لا حجة و لا يدل على عز و لا قدرة لانا نعلم إن السوقة لا الملوك إذا كان جالساً بفناء بيته بين أهله و أعوانه و رهطه و أتاه رجل مسترسل مستسلم غير خائف و لا حذر فألقى ألي بيده و أراد قتله أمكنه ذلك إذ لا قدرة له على الدفاع عن نفسه. و قد كانت العرب تتكرم عن قتل الأسير إذا يرد في أيديهم و يعدون في ذلك من دنيء الأفعال، و إن كان حكم في غير هذا الحكم الآن الأسير قبل أسره قد قصد بالمكروه فحارب و طاعن و ضارب و ربما كان إنما جاء غازياً أو قد أصاب قبل أسره دما و حال الزائر الوافد الراجي المؤمل بالضد من جميع ذلك، ثم إن للملوك فضلا على غيرهم من الناس في رصانة عقولهم، و رجاحة أحلامهم، و مراعاة سياساتهم، و علمهم بإيراد الأمور مواردها و وضع الأفعال مواضعها و هم أيضاً بالصفح عمن أستوجب الانتقام أولى منهم بالفتك ممن أستحق الحباء و الإكرام، فما دل النعمان بذلك من نفسه الإلية على نقص و جهل و سفاهة حلم، و قلة علم بسياسة الملك و عكس مضاددة، بين الأفعال و مجازاة المحسن بالإساءة و المسيء بالإحسان.

و وضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرَّ كوضع السيف في موضع الندى

و في هذا و أمثاله نقص للسياسة التي بها قوام الملك و لو كان هذا البطش منه بمن تقدم ذكره من الجنايات في أهله و ماله و ولده لكان ذلك أحوط لملكه و أحفظ لقانون سياسته و أحسن في التدبير منه و أنفى للعار عنه، فان للأنوف الحمية و النفوس الإبل تنازعاً الدولة الفتك بأهل العداوة و المغاورة و تميل الدولة العفو و الحلم إذا حضرت القدرة كما قال بعض الحكماء القدرة تذهب الحفيظة. و وصف بعض الشعراء رجلاً مدحه بهذا الوصف فقال:

أسد ضارٍ إذا أم هجته و أبٍ بر إذا ما قدرا

فعكس النعمان ذلك و أخذ بضد الأحسن الأجمل، و عجز عمن أقدم بالمعروف عليه و فتك بمن وفد برجائه ألي فكانت صفته في ذلك كما قيل:

جهلا علينا و جبناً عن عدوِّهم لبئست الخلتان الجهل و الجبن

و روي إنه عوتب في هذا فقال: تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب لفضلها" و لقد تعاقب اليسير وليس ذاك لجهلها" إلا ليعرف فضلها ويخاف شدة ثكلها" و أي ذنب عظيم أو يسير كان أسلفه عبيد حتى يقتله

مع قول بعض الحكماء: شر الملوك من خافه البريء.

على إن قتل عدي بن زيد و إن لم يكن يوم بؤسه كان سبب قتله أشد قبحا و أدل على ضعفه و قلة حرمه من قتله لعبيد، لان زيداً أبا عدي كان تولى حضانته و تربيته و كان عدي قد تزوج أبنته هنداً و قيل بل هي أخته و هي صاحبة هذا الدير بالحيرة، و هو الذي توصل له عند كسرى فتلطف في الحيلة على أخوته حتى ولاه الملك، و عاداهم جميعاً لأجله. فكافأه عن اصطناعه إياه و عداوته للناس في مودته بالقتل. و في هذا الفعل أنواع كثيرة من القبائح فيها البغي و الظلم و خلاف ما تقتضيه حسن سياسة الملوك و نقص ما يوجبه حسن التدبير و خفة حلم و إقامة لعذر الرعية في المشاقة و العصيان و غير ذلك، و هذه الخلال كلها من غير صفات الملوك.

من أخبار سيف الأيام

و أين ملك كانت هذه صفته و حقائق أفعاله من ملك كان أبو تمام وصفه بقوله :

أروع لا من رياحه الحرجف العصبي و لا من تحومه النحس

و كان أبو عبادة البحتري وصف مجلسه بقوله:

بحيث لا حجة الملهوف ذاهبةً هدراً و لا هفوة المظلوم تستلب

و هو على الأولياء غيث هاطل و على الأعداء سيف فاصل إذا نقم على قوم ملأ فجاج الأرض عليهم بجحافله، و أخذ مسالكها عليهم بكتائبه و قبائله، و حتى إذا ضاق الخناق و خرجت عليهم الآفاق و أم يجدوا منه معقلا يلجئهم و لا مهربا ينجيهم عادوا بعفوه عائذين و بحلمه لائذين و استسلموا ألي و القوا نفوسهم بين يديه و اعتذروا فكان عذرهم عنده مقبولا، و طلبوا الأمان فكان مبذولا، و أوسعهم عفوا لا يكدره تثريب مقرونا ببشر لا يشوبه تنكر و لا تقطيب، و أضاف الدولة الصفح الحباء و الدولة العفو جزيل العطاء فهو كما وصف البحتري:

عزيز إذا عازرته في ملمة فان جئته في جانب الذل أصحبا

و كفانا شاهد على ما ذكرناه ما عايناه في نوبة القيصري التركي أيلغازي بن أرتق أمير التركمان و من أنضم إليهما من العرب لما اجتمعوا ببغداد و منتهم الظنون الكاذبة و الظنون و الأطماع الخائبة مشاقته و عناده و الإقدام عليه، فلم يلبثوا ببغداد الإلية ريثما أطلت عليهم جنوده المجنده و عساكره المنصورة المؤيدة بفرسان غطاريف كرام مساعير كما قال التهامي

سواء عندهم قول المنادي هلم الدولة الطعان أو الطعام

فلم يجدوا حيلة الإلية الهرب الدولة واسط على شرقي دجلة، فسار بازائهم على غربها فلم يبق لهم حيله الإلية طلب خاتم الأمان الذي منَّ به عليهم و سؤاله الإحسان الذي أسداه إلى. فأمر الأجل أمين الأيام ثقة الملك أبا طالب محمد بن عبد الله بت حبشي غفر الله له بأن يعطيهم خاتمه ففعل فكانت صفتهم في تلك الحال كما وصفت في أبيات قلتها في المعنى:

ألقى إلى عفوه خاتماً مبشراً بالأمن من سطوته
من خوف جعل الأرض في أعينهم عليهم أضيق من خلقته

ادراجهم راجعين و ولوا على أعقابهم ناكصين. و قد ذكرت ذلك في أبيات من القصيدة التي ضمنتها سيرته فقلت:

و القيصري و من أغوا بدعوته من كل محتطب للذنب مكتسبِ
ازاره ذات أركان ململمة رماه في مثل موج اللجة اللجبِ
إذا بدت في سرابيل الحديد حكت عروس قومٍ هفوفها من أذى الحربِ
تخال عارض مزن صوت راعدة جرس و بارقة لمع من القضبِ
تبني سماء على هاماتها أبدا في كل معترك من هامد التربِ
كالبحر رجراجةٍ كالليل مظلمة الإلية الاسنه منها فهي كالشهبِ
نفاه عن أرض بغداد و فاجأه بواسط لم ينل خيراً لم يصبِ
ماشح يومئذٍ في منزل وتد له و لا مدَّ للمغرور من طنبِ

فسد في وجهه الآفاق منجحراً بين الخفاء لفرط الخوف و الغضبِ
فعاد بالعفو منه ثم أمنه فعاد أدراجه نكصاً على العقبِ

و كذلك كانت حال كربغا التركي أمير الجزيرة و الموصل و العواصم و أطراف الشام إذ هم بما لم ينل ورام ما لم يبلغ فجمع و أحتشد و دخل بغداد فرأى إمارات الهلكة، و إنه قد ألقى بيده الدولة التهلكة فكان قصاره النجاة بالنفس و العود الدولة موضعه. و من قبله ما حدثت يوسف بن أرتق نفسه بما كذبته فيه فجمع التركمان و وصل الدولة أكناف مدينة السلام، ثم أنكفأ راجعاً و فرق من عسكره ما كان جامعاً. و قد ذكرت حال هذين أيضاً في القصيدة فقلت:

و كربغا إذ بغى ما عُزَّ مطلبه فعاد أسوأ مرجوعٍ و منقلبِ

و يوسف قبل ما لاقاه من طمع نجته قريه بلقيل و الحربِ

تبيَّتا حين ضلا إن غنمهما نفسيهما غير مغنوم و منتهبِ

فعردا و المنايا تستزيرهما عن حادر بدم الاقرن مغتصبِ

فليتأمل متأمل ما بين هذين الملكين من التباين في علو الشأن، و كثرة الجنود و الأعوان، و طول اليد و عز الجند، و قهر الاشداد و كبت الأعداء و الحساد، ليعلم قد ما بين درجتيهما من التباين في سائر أحوالهما، و التفاوت في علو منزلتهما، و أحتجاج من أحتج لمن تقدم من الملوك فانهم كانوا يذبحون أول من يلقاه يوم بؤسه إرهابا للناس مما لا يقدح في قضيته العقول و الإفهام و لا يقوم به عذر عند ذوي الحجى و الأحلام، و أين ملك يخبط خبط عشواء ليتهيبوه و يعبث فيهم عبث العجماء ليتجنبوه من ملك كان أبن الرقيات وصفه بقوله:

ملكه ملك رأفت ليس فيه جبروت منه و لا كبرياء

عليه من مهابة لولا ما يمازجها من كرمه و يخالطها من حسن شيمه لما ملأ نظره منه متأمل و لا نطق في مجلسه متكلم كما وصفته في قصيدة امتدحته بها فقلت:

يوم الحفل حين يقول عنه و قد خفقت لهيبته القلوب

كما زأر الهزير فلاذ منه ثعالب كل صولتها الضغيب

فليسوا بادئي قول و لولا تهلله لهابوا إن يجيبوا

اعني لو من المهابة في القلوب عن تكلف ما بعد من العيوب كما قال أبو تمام

له جلال إذا تسربله اكسبه البأو غير مكتسبه

و قال أيضاً:

إذا أحسن الأقوام إن يتطاولوا بلا سبب أحسنت إن تتطولا

ترفعت عن ذاك الترفع منهم و أوصاك نبل القدر إن تتنبلا

و كم وصف البحتري بقوله الذي كأنه إياه خاطب به:

دنوت تواضعاً و علوت عزاً فشأناك ارتفاع و أتضاع

كذاك الشمس تبعد إن تدانا و يدنو الضوء منها و الشعاع

و كما قال أيضاً:

و لم أره يأبى التواضع واحداً من الناس الإلية من علو أتضاعه

و كما قال التهامي:

لما تزايد في العلو تواضعاً لله زاد الله في عليائه

يتكبر عن التكبر و تعلو همته و شرفه عن الخيلاء و التجبر، يأمر عليه علو خطره، و ينهاه جلالة قدره و تشرف عن الدنايا نفسه و يقضي عليه عدله كما قال أبو تمام رحمه الله:

يا أيها الملك الهمام و عدله ملك عليه في القضاء همام

تواضعه ثقة منه بشرفه الذي لا يدانى، و مجده الذي لا يسامى، فأني أفكرت في تواضع ذوي الشرف، و تكبر ذوي الضعة، فرأيت السبب في تواضع الشريف ثقته بشرفه، و إن سبب في تكبر الوضيع أسترابته بنفسه و علمه بصغر قدره، فأحببت إن أنظم في هذا المعنى شيئاً فقلت:

ثقة الشريف بما تجمع فيه من مجده عن ثأوه يغنيه

فتراه في جلسائه متواضعا إذ كان شائع مجده يكفيه

و ترى الوضيع إذا تسنم رتبة أو نال من دنياه ما يطغيه

مثل المريب منافسا في قدره متعلقاً من جهله بالتيه

متمسكا بالكبر يحسب إنه زين له من شينه ينجيه

باللؤم يعرف نفسه و يظن أن بتكبر عن نفسه ينفه

فيزيده ضعةً و مقتاً كبره في الأجنبيين و أهله و ذويه

كالعير في الشرك القنيص إذا غدا ينزو لكي ينجو تمكن فيه

فمن مثل سيف الدولة الملك المهذب الذي لا تتداخل قوته عسف ولا يشوب تواضعه ضعف الذي يخاف الله في جميع أمره و يراقبه في علانيته وسره.

فهو كما وصف زهير حيث يقول:

مورث المجد لا يغتال همته عن الرياسة لا عجز ولا سأم

كلهندواني لا يخزيك مشهده يوم الجلاد إذا ما يضرب البهم

وفي صربته التقوى ويحجبه عن سيئ العبرات الله والرحم

وكيف لا يكون أولى بالتسمية بملك العرب من النعمان، و قد فاقه في خلال الملك كلها، و جاز دونه مقاليد المجد سائرها و كيف يقاس قدر النعمان بقدره و هو الكريم الأعراف المهذب الأخلاق الذي إذا تأمل متأمل جميل أفعاله و حن خلاله ذكر قول النجاشي في الحارث:

كل شيء يريده فهو فيه حسب ثاقب و دين قويم
و خطيب إذا أمطرت آلا جوه يشقي به الألذ الخصم
و حليم إذ أحبا حلها الجهل و طاشت من الرجال الحلوم
و شكم الحروب قد علم آلنا س إذا فل في الحروب السقيم
و صحيح الأديم من نفل العي ب إذا كاد لا يصح الأديم
كل هذا بحمد ربك فيه و سوى ذاك فيه و هو فطيم

و كيف يقاس ملوك كان أنالهم من العرب من الضيم ما تقدم ذكر اليسير منه، بملك تلجأ قبائل العرب بأسرها من الآفاق الدولة ظله و تنتجع كانتجاعها مواقع الغيث من غامر فضله لا يأمن خائفهم الإلية بفنائه، و لا يستغني فقيرهم الإلية من عطائه، فساداتهم و رؤساؤهم ببابه وقوف، و أشرافهم حول صاحب جيشه عكوف، إذا رأوه ارموا إكراما و أطرقوا هيبةً و إعظاما تهدد القبيلة منهم ببعض أعوانه، و تنقاد لأحد فتيانه أمره في نفوسهم فما دونها نافذ و كل منهم به لائذ ليس لهم منتجع الإلية جوده و الإلية ملاذ الإلية عموده كان أبى تمام وصف ربعه أمرعه الله بقوله

بمعرس العرب الذي وجدت به أمن المخوف و نجدة المنجود
حلت عرى أثقالها و همومها أبناء إسماعيل فيه و هود

و هل من كانت هذه بعض صفاته أولى بالتسمية بملك العرب أم من كان يدنيه إن يشن الأعلام على العرب و يغزوهم فيسبي حرمهم، و يقتل فرسانهم و يطرد إنعامهم و يبيعهم أسراهم و يغزونه أيضاً و يغيرون عليه فيفعلون به مثل ذلك، حذو النعل بالنعل، و هل ملك القوم من كان معاشه من عطائه و نائله و جوائزه و نوافله؟ و أين ملوك تركض عليهم رعاياهم في أرضهم و تغزوهم في عقر دارهم، من ملك لا يطمئن من حوله من ملوك الأرض في ديارهم لخيفته و لا يأمنون في أرضهم لهيبته فكل منهم يبذل جهده و يستفرغ وسعه في الدخول له تحت شرائط الطاعة و الانقياد في إرسال التباعة حتى يعقد له بالأمان عقداً و يعطيه عهداً، يقطع من العراق أقطاره و يعقد على الملوك حول أمصاره و يستخدمهم في أكنافه، و يستعملهم على أطرافه. فصاحب البصرة لم يطمئن حتى وثق بحسن عفوه بعد إن علم إنه لا

مهرب له في البر، فاستعد بعدة الهرب في البحر، و صاحب البطيحة معدود في حشمه محسوب من جنده و خدمه لم يخرج منها الإلية ألي و لا رأه غيره من الملوك مائلا بين يديه، و من ببغداد من الترك إن سخط عليهم ناءوا و إن صفح عنهم دنوا لم يدخلوها الدولة بالأنعام منه عليهم و لولا ولوها الإلية بإحسان أسداه إلى، و من بواسط من الترك أيضاً فمن جملة خدمه يأمر فيهم حاجب من حجابه و يسوسهم صاحب من أصحابه إن رضي عنهم آواهم و أدناهم و إن نفم عليهم نفاهم و أقصاهم، و من بازائه بجبل بادرايا من أمراء التركمان فلولا بذلهم له شرائط الخدمة و يمسكهم منه توكيد الاذمة لما أقاموا بمكانهم لهيبته و الخيفة من سطوته. و مراكز العرب و مناظر نجد كالمتهبب و جنين و صكاكة و دومة و غيرها تعرض عليه معاقل الفرات و قلاعها كالرحبة و غيرها في كل وقت تلقي مقاليدها إلينا و يطلب لها صاحب من أصحابه ليقتطعها، و يخطب لها بمولى من مواليه ليقرعها و يهاجر الخائف من آفاق الأرض لا يجد في رقعتها مأمناً أباح في جنابه، و لا يتخذ موطناً و لا مسكناً أباح حول أطنابه، فوفود العرب و العجم و البر و البحر له عامدون و ببابه مترافدون، فمن ركب تطيش بهم السراب أو سفن تشق الجناب، فبابه المعمور كما قال التهامي

ترى الملوك على أبوابه عصباً وفداً فدع غيرهم من سائر الامم

و جنابه باختلاف الأجناس كما قال المهلبي:

ترى قراقيره والعيس واقفةً و النون و الضب و الملاح و الحادي

يجتمع فيه الأضداد، و يلتقي فيه الشتيتان من غير ميعاد، و يرى كل جنس أجناساً غيره يستطرفها، و يسمع لغات لا يعرفها.

يزدحم الوفد على بابه و المنهل العذب كثير الزحام

فإذا هم في أمر في بر أو بحر:

فما هو أباح إن يشير بلحظه فيمخر فلك أو تعد مقانيب

فهل تدل السيرة عند من تصفحها وتأملها على إن ملوك آل نصر جاءوني بعض هذا. و قد مدح الأعشى النعمان مبالغاً للحد في القول على عادة الشعراء متجاوزا، فذكر إن له خيمة مضروبةً تقف بقنائها الأبرص و الخيل فقال:

له قبة مضروبةً بفنائها عناق المهارى و الجياد الصوافن

و مدحه في كلمة له أخرى بأنه يعلف فرسه قتاً و شعيرا في كل ليلةٍ فقال:

و يأمر لليحموم في كل ليلة بقتٍ و تعليق فقد كاد يسنق

و هاهنا فصول ثلاثة تتضمن ذكر أفعال ثلاثة من أفعالهم المدونة المسطورة المروية المأثورة، فليعأرضها من شك فيما ذكرناه بأمثالها من أفعاله المرئية المشهورة الحاضرة المذكورة، و ليقس بعضها ببعض فأنها تدل آلنا فرق كثير و تباعد و تباين و تضادد إذ كان العلم بالجميع حاصلاً و الخلف فيه زائلاً.

أحدها: إن ضرار بن عمرو الضبي أبا مرحب ربيعة بن حضية بن أرتم بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع كان مرة بباب المنذر بن ماء السماء، و كان أبو مرحب ينبز أثيمة فاقتمرا فجعل ضرار إذا قمره أبو مرحب يقول كذب أثيمة و يكرر ذلك فغاظه، فضرب أبو مرحب بالقداح و أمطرت ضرار، فضرب ضرار بالسيف فقطع زنده و نهض هارباً، فدخل على المنذر فاخبره بما كان منه و سأله إن يجيره فعجز عن ذلك، و قال: لا أجير على بني حضية. فقال: فأدع لي شماخاً أخا بني مالك بن مازن بن عمرو بن تميم ليجيرني، فدعاه فسأله إن يجيره فقال قد أجرته على الناس أجمعين، فقال له: شمخت باشماخ، قال: فلم سمتني أمي شماخاً! فقال ضرار: ما هذا بمجيري فادع لي جشيش بن نمران فدعا له جشيش بن نمران بن سيف بن حميري بن رياح أبن يربوع فسأله إن يجيره فقال: أجرته على إن يخلص من قومي بقصاص أو ديَّة. فحمل حشيش ثقل جيرة ضرار عن المنذر، و قال بها دونه حين ضعف عنها، و قد كان أكثر ما ينال المنذر في ذلك إن يحمل ديَّة جرح أبي مرحب أباح إنه كان أعلم بأمور نفسه. فهذا من جمله أحوالهم، و في مقابله ذلك إن ذوي الاحن و الترات من العرب يلقي بعضهم بعضاً بباب ملك العرب سيف الدولة و في حلته فكأنهم تلاقوا في أيام الجاهلية بالحرم في الأشهر الحرم حين كانوا يترعون أسنتهم و يضعون أسلحتهم، فيرى أحدهم قالتل أبيه و أخيه لا يقدر إن يملأ منه نظرة آلنا إن ينأوا عن بابه و يبعدوا عن جنابه ثم له دار بمدينه السلام قد ضاقت عن سعتها و خرجت عن فسحتها بالمستجيرين بها اللاجئين ألي فهي معتصم الناس ببغداد لا يجد الخائف سواها معقلاً و معاذاً، و لا الجاني غيرها موئلاً و ملاذاً، و لو كان قد جنى أعظم الجنايات و فات بالكثير من الأموال و الألسن بينه و بين الاستطعام بحلاوة الأمن أباح إن يصل آلنا الدرب الذي يسلك ألي فيه، و قد بلغ المأمن و قصرت عنه الأيدي و الألسن من غير إن يكون بهم من مواليه و خدمه و أعوانه و حشمه ينابذ عن المستجير بقول أو فعل أو يدافع دونه. بل ما أنعم به عليه مولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله عليه السلام من تمليكه هذه الدار أولاً و ما شرفه به ثانياً من أوامره العالية و مراسمه السامية باحترامها إظهارا بذلك لمترلته المنيفة و لطيف مكانه من الخدمة الشريفة، فعرف ما خصه به من الإنصاف و المنة، فعاد ذلك لها كالسنة تهب إعظاما و تتحامى إجلالا و إكراما. فحدثت عن بعض الأكابر ببغداد إنه قال: إن الله تعالى منّ على الناس ببغداد أو على أهل بغداد بدار سيف الخصم و لولاها لهلك خلق كثير ممن يقصده العمداء و الشحن. و من جملة ذلك

إن ثقة الملك أبا الغنائم بن ناكرا صاحب الأمير نجم الدين أيلغازي بن أرتق حين خرج صاحبه آلنا الجبل خاف فلجأ ألي، فكان مستجيراً بها و هو ينظر ببغداد و ينوب عن صاحبه و ينفذ أمره. ثم إن السلطان المعظم غياث الدنيا و الدين لما أوقع بإياز التركي و نقم على جماعة من أمراء الترك ببغداد في سنة ثمان و تسعين و أربعمائة لجأ إليها قوم أمراء من كبراء أمراء الترك، فعفا عمن لجأ إليها و استجار بها احتراما له . و حدثني جماعة من أهل بغداد ممن يخبر الأمور بها أن المستجيرين بهذه الدار-عمرها الله- يخرجون فيجلسون في شارعها و يمر طالبوهم بازائهم مجتازون فيقاولونهم و يتهاترونهم و يغشون بهم ثقة منهم بعز الملجأ الذي لجئوا إليه و المعقل الذي اعتصموا به، و تحصنوا فيه و ينصرف أولئك عنهم بأيد قصيرة و عيمن حسيرة، ففي الوصول إليها نجاة الجاني و فكاك العاني.

حمتها مهابتُهُ في القلوب فصارت بذاك حريمُ الحريمِ

إذا ما أتى بابها خائفٌ حلَّ منه محل النَّجومِ

هذه صفت دار له هو بعيد منها ونأى عنها فأما ربعة الذي هو فيه ساكن و به قاطن فهو عدة الوزراء و أصحاب المناصب و الأكابر، و ذوي المراتب مصور في أنفسهم إنهم متى نكبهم أمر أو نكبهم دهر كان ملجأهم و مفزعهم لا يأهلون لذلك غيره و تطمئن أنفسهم إلى سواه، فلو قصد قاص آلنا تعديد الأماثل و تسمية الأكابر الذين لجئوا إليه و استجاروا به لطلب معوزاً و رام معجزاً. فمن المستحق للتسمية بملك العرب من عجز أن يجير جانياً على رجل من اللأعراب قدر جنايته خدش أم تجير دار على الملوك و الأمراء و أصحاب الأطراف الجناة المنسوب إليهم الجنايات العظيمة من القدح في الدول و ما جرى مجرى ذلك، و من المستحق أن يوصف بقول الشاعر:

متى يجر خائفاً تأمن مسارحه و إن يخف آمناً تقلق به الدارُ

و الثاني فتكة البراض

إن النعمان بن المنذر جهز لطيمة على عكاظ، و قيل كانت لكسرى منفذة آلنا اليمن، فطلب لها خفيراً يجيرها على العرب، فقال له البراض بن قيس بن رافع الكناني أحد بني بكر بن عبد مناة بن كنانة ثم أحد بني جدي بن ضمرة بن بكر من رهط عمرو بن أمية الضمري الصحابي أحد العدائين -رحمه الله- و كان مقيماً عنده قد خلعه قومه لكثرة جناياته: أنا أجيزها على بني كنانة. فقال النعمان: أُريد من يجيزها على أهل نجد، فقال له عروة أرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب: أنا أجيزها. فقال له البراض أتجيزها على بني

كنانة و أهل تهامة يا عروة؟. فقال: نعم، أجيزها على الناس كلهم، أفكلب خليع يجيزها؟ يعني بذلك البراض ثم سار بها عروة و سار البراض معه، و هو لا يعلم بما في نفسه حتى إذا كانا بأرض أوارة بالقرب من فدك و وادي تيمن و ذي ظلال و ثب البراض بعروة فقتله و أستاق العير آلنا أرض كنانة، فأكلها هو و قومه، و قال يفتخر بذلك:

نقمت على المرء الكلابي فخرةً و كنت قديماً لا أقر فخارا
علوت بحد السيف مفرق رأسه فاسمع أهل الواديين خوارا
جششتُ به ضياع بطن أوارة فأثني عليَّ ما حييت أوارا

و قال في ذلك أيضاً:

و داهيةٌ يهال الناس منها شددت لها بني بكر ضلوعي
هتكت بها بيوت بني كلاب و أرضعت الموالي بالضلوعِ
جمعت له يدي بنصل سيف أفل فخر كأجذع الصريعِ

و قال لبيد بن ربيعة بن جعفر بن كلاب يرثي عروة و يحث قومه على الطلب بدمه:

ابلغ إن عرضت بني كلاب و كعبٍ و الخطوب لها موالي
و أبلغ إن عرضت بني نمير و أخوال القتيل بني هلالِ
بأن الوافد الرحال أمسى مقيماً عند تيمن ذي طلالِ

و كان عامر بن يزيد بن الملوح بن يعمر الشداخ سيد بني كنانة مجاوراً في أخواله بني نمير بن عامر بن بنجد، فهمّت بنو كلاب بقتله فمنعه أخواله و سيروه إلى أرض قومه، فكانت أبله لا تزال تترع إلى مراتعها بنجد فأتبعته فقال:

تحنُّ بأعلى نخلتين كأنها ملاويحُ لما هيجت ذكرت ورداً
فقلت لها إن أبن قيس بن رافع آبى سيفه أن تهبطي أبداً نجدا
حرامٌ عليك بين غرٍّ و وجرةٍ إلى حائل لو أن هلكت به وجدا

و ضرب المثل بفتكة البراض فقال أبو تمام:

و الفتى من تعرقته الليالي و الفيافي كالحية النضناضِ
صلتان أعداؤه حيث حلوا في حديثٍ من عزنه مستفاضِ
كل يومٍ له بصرف الليالي فتكة مثل فتكة البراضِ

و جر ذلك الفجار الأكبر بين كنانة و هوازن و تفاقم الأمر بينهم و صليت الحرب قريش و قبائل كنانة كلها، و قتل في تلك الحرب رجال من أشراف قريش، و سألت قريش و قبائل كنانة أبا طالب بن عبد المطلب أن يخرج رسول الله معهم تيمناً به و إستنصاراً على العدو و هو يومئذ غلام.

فروي أن أبا طالب إذا خرج به معهم كانت الكرة لكنانة على هوازن، وإذا تأخر عنهم كانت لهوازن على كنانة، فقالوا لأبي طالب: لا يغب عنا لا بلك. و إنما سمي فجار اللطيمة الفجار الأكبر لأن الحرب تكررت فيه بين كنانة و هوازن مراراً و ترددت الوقائع بينهم سنيناً و تفاقم الأمر بينهم حتى استنجدت هوازن بقبائل قيس، فاستنجدت كنانة بقبائل خندف، و لم يطفئ نار الحرب بينهم إلا الإسلام، و لم يكن بينهم في فجار الرجل و فجار الفرد و فجار المرأة إلا وقعة وقعة، فلأجل ذلك سمي فجار اللطيمة، الفجار الأكبر. و كان سببه حاجة النعمان آلنا من يخفر لطيمة من العرب فكان ذلك نتيجة خفارة عروة لها. و في مقابلة ذلك إن الحاج اجتمعوا بمدينة السلام في سنة خمس و تسعين و أربعمائة و قد تعذر عليهم المسير إلى مكة -حرسها الله تعالى- لعوارض اتفقت فأمر مولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله -غفر الله له- سيف الدولة بتسييرهم و برز التوقيع الأسمى باليد العالية يأمره بذلك و عول فيه عليه، و السقيم مقاليد أمورهم إليه، فندب الأمير المرهف أبا المقلد حميد بن المقلد الأسدي العمري، و أمره بإجارتهم على العرب أجمعين، فسار بهم حتى أوردهم مكة حرسها الله تعالى. و صدر بهم حتى أناخوا بالكوفة، لم يرزأ أحد منهم بنقير، و لا لزم له خطام بعير، و لعله قد كان قطار من قطر بعض الأماثل من الحاج بعدة العير التي كانت تحمل لطيمة النعمان.

و الثالث امرئ القيس و المعلى و السموأل

أن امرأ القيس بن حجر الكندي خاف المنذر بن ماء السماء ذا القرنيين ملك العراق، و الحارث بن أبي شمر ملك الشام فاستجار منهما بالمعلىّ التغلبي أحد بني تيم بن غسان بن سعد بن زهير بن جشم الأرقم، و قومه نافلة فيه في جديلة طيء فطلبه الملكان معاً فمنعه المعلىّ فأرسل المنذر جيشه إليه يطلبوه فردهم غير ظافرين، ثم أرسل الحارث بن أبي شمر.
أيضاً جيشه فردهم على مثل ذلك، فلم يكن لهما معاً قدرة على الوصول إليه في جوار المعلىّ و فيه يقول أمرؤ القيس:

كأني إذ نزلت على المعلىّ نزلت على البواذخ من شمام

فما ملك العراق على المعلىّ بمقتدرٍ و لا ملك الشام

أسد نشاص ذي القرنيين عنيٍّ و عدي عارض الملك الهمام

اقر حشا امرئ القيس بن حجر بنو تيمٍ مصابح الظلام

ثم خرج أمرؤ القيس آلنا قيصر مستنجداً به على بني أسد ليطلبهم بدم أبيه فأودع السموءل بن عادياء اليهودي دروعاً كانت له فيل إنها كانت مائة درع، و كان السموءل بتيماء في قصره المعروف بالأبق، و خرج أمرؤ القيس فهلك في وجهه ذلك فطلب الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام الدروع من السموءل فأبى أن يسلمها إليه، و نزل بجيشه على قصره و سامه تسليمها، فأمتنع من ذلك فظفر بابن له و هو راجع من الصيد، فأخذه و خيره بين تسليم الدروع إليه أو قتل أبنه و أقسم إن لم يعطه الدروع ليذبحنه، فقال: إن لي فيه شريكاً أشاوره، ثم شاور أم الصبي فقالت له تجنب العار و أحفظ حرمة الجار فإنما هو حيضة أحيضها و قد جئتك بمثله. فصاح به لست بمعطيك الدروع فأصنع بأسيرك ما شئت فذبحه و السموءل ينظر إليه من أعلى القصر، و أنصرف عاجزاً عن افتتاح القصر.

و قد روي أن الحارث الذي جرى له هذا الحديث مع السموءل ليس بابن أبي شمر الغساني ملك الشام و إنه رجل من آل نصر بعثه المنذر بن ماء السماء أو أبنه عمرو بن هند لحصار السموءل و مطالبته بالدروع، فجرى ذلك معه. و قيل بل هو الحارث بن ظالم المريّ بعثه عمرو بن هند الملك من الحيرة فتولى حصار السموءل و قتل أبنه و أوهم الرواة في ذلك لتواطؤ الأسماء، و هي رواية ضعيفة و لا فرق بين ذلك كله في غرضنا المقصود، و هو امتناع حصن السموءل على الكل و في ذلك يقول السموءل.

وفيتُ بأدرع الكندي إنيّ إذا عاهدت أقواماً وفيتُ

بنى لي عادياً حصناً حصيناً و ماء كلما شئت أستقيتُ

رفيعاً تزلق العقبان عنه إذا ما نابني أمرٌ أبتُ

فإن الماء ماءُ أبي و جديّ و بيري ذو حفرت و ذو طويتُ

و أوصى عادياً قدماً بأن لا تهدم يا سموءل ما بنيتُ

و ضرب المثل بوفاء السموءل. و فيه يقول الأعشى و قد أسره من بعد ذلك عمرو بن ثعلبة بن حصن بن الحارث بن ضمضم بن عدي بن جناب بن هبل الكلبي، و قد كان يطلبه من قبل فأسره و هو لا يعرفه فجعله مع أسرى و دافعه في يده ثم مر بهم في طريقه على شريح بن عمران بن السموءل، و هو في قصر جده الأبلق بتيماء، فدس الأعشى إلى شريح بن عمران بن السموءل أن أستوهبني من ضيفك قبل أن

يعرفني. فقال شريح لعمرو بن ثعلبة هب لي رجلاً من أسراك، قال له: خذ أيهم شئت قال هذا الأعمى. قال: و ما تصنع به؟ خذ رجلاً فديته مائة بعير أو مائتان. فقال: لا آخذ أباح هذا فقد رحمته. فقال هو لك فأطلقه من القدّ و أدخله قصره فهمهم بهجاء عمرو بن ثعلبة فبلغ ذلك عمراً فقال لشريح: أردد عليّ هبتي فقال لا سبيل إلى ذلك خذ من مالي ما شئت عوضه، قال: فإنه يهجوني، قال: لا يهجوك أبداً. ثم نهى شريح الأعشى عن هجائه فقال لا أهجوه ما حييت، ثم خاف شريحاً أن يرده إلى عمرو فقال:

شريحُ لا تسلمني بعدما علقت ... حبالك اليوم بعد القدِّ أظافري

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به ... في جحفلٍ كسواد الليل جرارِ

بالابلق الفرد من تيماء منزله ... حصنٌ حصينٌ و جارٌ غيرُ ختارِ

خيّره في خطتي خسفٍ فقال له ... أعرضها جهرة أسمعهما جارِ

فقال ثكل و غدر أنت بينهما ... فاختر فما فيهما حظٌ لمختارِ

فشك غير بعيدٍ ثم قال له ... اقتل أسيرك إني مانعٌ جاري

فسوف يعقبنيه إن فتكت به ... رب غفور و بيضٌ ذات أخدارِ

فإن له خالفا إن كنت قاتله ... و إن قتلت كريماً غير غدارِ

فقال مقتدراً إذ قام بذبحه ... أشرف سموأل فأنظر في الدم الجاري

و ذكر أبن قتيبة إن شريحاً هذا، هو شريح بن عمرو الكلبي و ليس بابن السموأل، و إنما ضربه الأعشى مثلاً له، و في قصة السموأل يقول الكميت بن زيد الأسدي :

و لا السموأل إذا قال الهمام له ... أياً تخير من ثكلٍ و إخفارِ

فأختار مكرمة الدنيا بواحدةٍ ... فعل المبايعِ نعمت صفقة الشاري

و قال محمد بن مناذر اليربوعي ثم الصبيري في ذلك:

فاعتبر يا بن عاديا أخي الحص ... ن بتيماء من سراة يهود

إذ أتاه الهمام يبتاع منه ... خفرة الجار بابنه المولود

فشرى بالوفاء مكرمة الدهر ... و لم يشر باللقاء الزهيد

أي عقدٍ شد السموأل لو ... أمتع حياً و فاؤه بالخلودِ

و قد أكثر الشعراء في وصف ذلك. فهذا المنذر بن ماء السماء ذو القرنيين ملك العراق بعث جيشه الذي شبهه أمرؤ القيس لكثرته بالنشاص، و الحارث بن أبي شمر بعث جيشه الذي شبهه أمرؤ القيس أيضاً

بالعارض آلنا المعلىّ -و هو رجل من الأشراف- فلم يقدروا على افتتاح حصنه و لا الوصول آلنا جاره، و هذا الملك الغساني أو اللخمي -و ثابتة على اختلاف الرواية في ذلك- نزل بجيشه العظيم و جحفله الجرار على قصر السموءل اليهودي فلم يقدر على فتحه حتى شفى غيظه بذبح صبي أقتنصه من الصيد و أنصرف غير ظافر بمراده، وحد حصن المُعلىّ و قصر السموءل و ما يجري مجراها من معاقل العرب في قرب مرامها و قله امتناعها معروف.

و في مقابلة ذلك أن ملك العرب سيف الدولة جهز سرية قليل عددها في جنده غير مؤثرة في عساكره في سنة سبع و تسعين و أربعمائة إلى عانة -وهي مشحنة بالترك- مع ملك أبن أرتق، و من المعلوم أن الترك إذا كان منهم نفر في معقل لم يقدر من يروم فتحه على الدنو منه، و لا الإطاف به و الفرات مع ذلك محيط بها، و مناره محيط بها و حائل دونها، و من المعلوم أن الخندق المدير يمنع من الوصول إلى المعقل، فكيف الفرات الجاري؟! فقطعت خيله ألي اللجة و افتتحها عنوة على الفور لم تمنع عليهم ساعة من النهار، و هلك بعض من كان فيها قتلاً و بعض غرقاً. و قد ذكرت ذلك في القصيدة فقلت:

و يومَ عانةَ لما أن غدا بُلك ... في أمره لبك من شدّةِ الرَّبِ
إذ كان أصحابُه الأشقَون يومئذٍ ... لنار فَيلِقه المنصور كالحَطَبِ

شابوا الفراتَ بقانٍ من دمائهم ... حتى بدا فيه لون من دم سربِ

فليتأمل السامع المنصف ما أوردناه و لينظر فيما شرحناه و ليعارض بعض هذه الأمور ببعض، و ليقس بعضها بعضا ليعرف فضله على من تقدم من الملوك في عزه و سلطانه و كثرة جنده و أعوانه، و طول يده العالية إلى تناول كلمراد و بلوغ كل مرام فلو لم يستدل تفضيله عليهم إلا بما ذكرناه آنفاً من هذه الأقسام لكان في ذلك مقنع و قد نظم في هذه المعاني شيئاً:

أين الذي لم يحتمل عن جاره ... ما جره يوماً المسيرُ
حتى تحمله جشيش دونه ... كرما وقصر المنذرُ
ممن يجير دياره و رباعه ... ما كان و ما لا يحصرُ
أم أين من سأل الأجرة عروة ... للطيمة كانت تحاط و تحفرُ
فأباحها البراض نهباً قومه ... بكراً الفجر الأكبرُ
و أذاق عروةَ حتفه بمهندٍ ... من حدَّه ماءُ المنية يقطرُ

فتوقفت في ذاك بين كنانة و هوازن نيران حربٍ تسعرُ
ممن أجاز الوفد نافد أمره حتى تضمنه منى و المشعر
و كلاهم منه بعز قاهر حتى أناخوا حيث كانوا ثوروا
من بعد إن سدت عليهم سبلهم لو لم يجرد سيفه المستظهر
أم أين من منع السمؤل جاره منه غداة به أطاف العسكر
ممن رعيل كتيبة من جيشه لا زال ذا ظفر يعز و ينصر
قطع الفرات و موجه متلاطم متراكم من حول عانة يزخر
حتى رأى غنيمته النجا منهم و عاين ما يهول و يبهر
ما نالت الشهباء نيلهم و لا كانت كذلك في المشاهد دوسر

ثم هاهنا فضل آخر: يقاس بفعل من هو عظم منهم ملكاً و أعلى درجة و قدرا، و نحن ذاكروه ليتامله المتأمل المنصف.

خبر حصار تبع يثرب

اخبرنا جماعة عن محمد بن الحسن بن علي عن أحمد بن عبدون عن أبي الفرج الاصفهاني يرفعه عن هشام بن محمد بن شرقي بن القطامي عن رجل من قريش، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر رضي الله عنه في حديث طويل ذكره أخذنا موضع الحاجة منه: إن تبع الأخير و هو أبو كرب بن حسان بن تابع بن سعد الحميري أقبل يريد المشرق فمر بالمدينة فخلف عليها أبنا له، و مضى حتى قدم الشام، ثم قدم منه العراق، ثم نزل المشقر، فبلغه إن أبنه قتل بالمدينة غيلة فكر راجعا و هو يقول:

يا ذا المعاهد ما تزال تزود رمد بعينك عادها أم عود
منع الرقاد فما أغمض ساعة نبط بيثرب آمون قعود
لا تسقني بيديك إن لم تلقها حوراً كأن أشاءها مجرود

ثم أقبل حتى أتى المدينة مجمعا على إخرابها و قطع نخلها و استئصال أهلها و سبي الذرية فنزل بسفح أحد. و أرسل آلنا أشراف أهل المدينة فأتاه منهم الازياد و هم: زيد بن ضبيعة بن زيد بن عمرو بن عوف، و أبنا عميه زيد بن أمية بن زيد بن عبيد بن زيد، و أحيحة بن جلاح و معه قنية له أسمها مليكة و خباء و

خمر فاجلسهم تبع على زريبة كانت تحته و حادثهم، فخافه أحيحة فانصرف آلنا خبائه فشرب و رقص أبياتا، و أمر القينة فغنته بها بقية نهاره و أكثر ليله. و قد جعل تبع عليه حرسا فناموا فذهب آلنا أهله و قال للقينة سدي عليك الخباء فإذا جاء رسول الملك فقولي هو نائم، فإذا أبى أباح إن يوقظني، فقولي إنه ذهب آلنا أهله و قد حملني رسالة آلنا الملك، فإذا ذهبوا بك إلينا فقولي له يقول لك أحيحة أغدر بقينة أو د ع. و أنطق أحيحة فتحصن في أطم له يقال له الضحيان و غدر تبع بالازياد فقتلهم و أرسل يدعو أحيحة ليقتله فقالت القينة: إنه راقد. فترددت الرسل مراراً، و هي تقول لهم ذلك، فلما هموا بالدخول، قالت: إنه ذهب آلنا أهله و حملني رسالة آلنا الملك، فذهبوا بها آلنا تبع، فقالت له ما قال. فجرد جنده و حصره في أطمه ثلاثا يرميهم أحيحة بالحجارة نهاره و النبل، فإذا أمسى السقيم إليها التمر فرجعوا آلنا تبع فأخبروه فأمر بتحريق نخله، و تحصن أهل المدينة أوسها و خزرجها و يهودها في الاطام و خرج رجل من أصحاب تبع فدخل حديقة لبني عدي بن النجار فرقى نخلة ليجد منها عذقاً، فخرج إلينا رجل منهم يقال له صخر فضربه بمنجل معه حتى قتله. و قال انقضى النخل لمن أبره، فزاد تبع حنقا و جرد جيوشه آلنا بني النجار، فتحصنوا في أطمهم و رئيسهم يومئذ عمرو بن طلة أخو بني معاوية بن مالك بن النجار فحاربهم في أطمهم فكانوا يرمونهم بالنبل فيصيب جدار الاطم حتى صار على جداره كالشعر فسمي ذلك الاطم الاشعر. و أخذوا فرسا أتبع فجدعوه ثم لم يقدر عليهم، و طال مقامه فمرض، و قيل إنه أحتفر بئرا يشرب منها ثم أحتواها فجاءته امتدحته فعللته و مرضته، و جاءه حبران من اليهود فقالوا له: أيها الملك، أنصرف عن هذه البلدة فإنها محفوظة و هي مهاجر نبي من بني إسماعيل أسمه أحمد تكون داره و قراره. فانصرف و هو يقول لقد صنع بي أهل يثرب شيئاً ما صنعه أحد، قتلوا أبني و صاحبي، و جدعوا فرسي.

و قال رجل من بني النجار في ذلك شعراً من قوله:

فيلق فيه أبو كرب — تبع أبدانها ذفره

ثم قالوا من نام بها — ابنو عوف أم النجره

يا بني النجار إن لنا — فيكم ذخلا و إن تره

فتفلتهم مسايفة — مداها كالغيبة النثرة

فيهم عمرو بن طلة لا — هم فامنح قومه عمره

سيد سامي الملوك و من — يدع عمراً لا يجد قدره

و قال رجل من اليهود في ذلك:

تكلفني من تكاليفها — نخيل الاساويف و المصنعه

نخيل حمتها بنو مالكٍ جنود أبي كرب المفظعه

من مناقب سيف الدولة

و في مقابلة ذلك إن إسماعيل التركي صاحب البصرة، و كان ينسب آلنا دين الخرمية لما غرة جهله و تعدى طوره ساقته المقادير و قادة سوء التدبير آلنا جحود أيادي ملك العرب سيف الدولة عنده، من إحسانه إلينا و قراره ولاية البصرة علبه، و قد كان قادرا على منعه منها و دفعه عنها و أعسار أموره عند السلطان غياث الدنيا و الدين، أعزه الله و نصره و حفظ جانبه و قرر قواعده فهاجه ذلك على نفسه لمخالفته أمره و تركه طاعته ثقة منه بقلاع أتخذها في البصرة و ما حولها و شحنها بالجند و جعل حولها الخنادق التي تحمل السفن فكانت قلاعه و قلاعاته، و معاقله و عقلاته، فظن إنه قد حصن ثغوره و أحكم أموره، و قدر على الدفاع و تمكن من الامتناع، فسار إلينا ملك العرب سيف الدولة في عسكر من عساكره بالعز مرفوقا و بالنصر محفوفا، فوجده قد أعد و أستعد و بنى سور البصرة و ضم أطرافه و جمع أعوانه و استعان بكل من أمكنه الاستعانة به، و أحتشد به، و أحتشد بالترك و الديلم و غيرهم، و أستغوى أهل البصرة، و لعل شرذمة منهم مثل أهل يثرب في زمانهم ذلك. و عزم على الحرب ما استطاع في ظاهر مدينته، ثم الاعتصام إن عجز عن الحرب في قلعته، و جعل لها بابا آلنا المدينة لمسيرته، و بابا آلنا البحر لهزيمته، و أعد السفن البصرية و أتخذ المراكب البحرية و أعد للحرب عدته، و أخذ للفرار أهبته فلم يكن بأسرع من إن وجهه الميمون النقيبة المنصور الكتيبة، فسطا به و بمن معه سطوة و أفتتح المدينة بعون الله عنوة، و ثلم سورها و هدمه، و فض الجمع و هزمه، و كل ذلك في بعض نهار. و كانت غنيمة إسماعيل حشاشة نفسه فنجا بها آلنا قلعته التي كان لها و أمقا و بها واقفا يظن إنها تأويه، و إن تلك الطرقات التي أستظهر بها تنجيه فصف لها ملك العرب صفوفه، و عبأ للزحف ألي زحوفه فترجفتمن وئيد الجيوش و مادت و زلزلت أو كادت و سدت على إسماعيل مسالكه، و ضاقت به مذاهبه، و علم إنه لا طاقه له على الامتناع و لا قدرة له على الدفاع، و إن يده العالية لا تقصر عنه و إنه لا يجد سبيلاً آلنا النجاة منه، فكان كاليربوع ما أجنه الدأماء و لا الرهطاء، و لا نجاة القصعاء و لا النافقاء، فلم يجد حيلة أباح إن بعث حرمه عائذات بحلم ملك العرب و كرمه و وفاء عهده و ذمه، فأعطاه آلام فسلم نفسه إلينا و القاها بين يديه، فوجد مشرب الحلم عنده صفوا و أبى أباح صفحاً عنه و عفوا، فكأن قلعته التي أعتصم بها كانت ذات بصيرة و علم و عقل و فهم، فعلمت إنها عن كثب مهدومة و بالذل بعد العز موسومة فآثرت بالسلامة نفسها لا أهلها، و كانت كالحامل التي القت من الجوف حملها، فإن أنصفها

بابنها فهي عنده في أول الحال مكسورة و في ثانيها معذورة حين أحاطت به جنود كالغمام و خفقت حولها بنود كأنها طير سوام.

تحتها خندق و خيل تسامى حول هرمٍ ما إن له من مسامِ
في خميس إذا سما لك من تحت سماء مبنية من قتامي
مثل ورق الجمال فوق ذراها ازيانت للعيون بيض نعام
قلت ليل معمم بنهارٍ أنا نهار مؤزر بظلام
راعها هيبة فالقت إلينا حملها خيفة لغير تمام
لو أجنت جنينها بقرت عنه حشاها و أذنت بانهدام
فصلته وقت الولاد باقرب ولاد معجل من فطام
فمضى يحسب الإمارة بالنص رة مما رآه في الأحسن
و أنثنى الملك قاهراً للأعادي ظاهر ظافراً بكل مرام
جذلا مجع المساعي على الرغم المعادي له مصيب المرامي
انصوا هل ترون تبع قدماً نال هذا و كان عين الهمام
لجأت عند خوفة الاوس و الخ زرج في يثرب آلنا الاطام
قعد أبن الجلاح في الاطم الضح يان من تبع بعيد المرام
و غدا الاشعر الارن من أباح طام منه بعدا مكان الغمام

و انقضى كانت صفة إسماعيل مع ملك العرب في ذلك كما قال أبو تمام:

إذا مارق بالغدر جاز أمره فذاك مري إن تئيم حلائله
فان باشر الاصحار بالذنب فالقنا قراه و الخواص المنايا منهله

و إن يبن حيطاناً عليه فإنما اولاه عقلاته لا معاقله

و قد ذكرت في القصيدة التي ذكرها أمره في أبيات منها فقلت:

و الخزمي و قد وافت كتائبه أرض الخريبة منه أنصاع كالحرب
اذكرتنا وقعة الافشين حين سطا بابك قبله في نده كالجرب

ولى هزيماً و لم يعطف هناك على أسرى تصفد في قد و في عقب

لجا فلم تنجه إذ ذاك قلعته فصار محتسبا في حال محتجب

باتت حلائله و الليل معتكر يعثون بين سجوف الخيم و الطنب

يلذن بالعفو من ذي رأفة شدك بالحلم إن طاش حلم من أخى غضب و ما يشابه هذا من مساعيه ما كان من فتح هيت بأيسر سعي و أهون تكلف، و ما تلا ذلك من فتحه تكريت و هي البكر التي لم تخطب و الدرة التي لم تثقب. إذ سار ألي فلم يكن بينه و بين افتتاحها أباح إطلالة عليها، فكيف يقاس من تقدم ذكره من أولئك الملوك.

بموفق ما شاب صائب رأيه عجز و لا وهن و لا تحيت

شمل الموالي في ذراه جامع أبدا و شمل ذوي الشنان شتيت

بيمينه أقليد كل منيعة حقا و حاسد عزه مكبوت

لا البصرة أعتصمت غداة أرادتها منه و لا أمتنعت عليه هيت

و قد ذكرت في فتح هيت و تكريت في القصيدة المقدم ذكرها فقلت:

و يوم هيت و قد حنت إلينا فلم تسكن آلنا غيره نفساً و لم تطب

غداة أزجى ألي من عساكره جيشا يؤم به جيش من الرعب

فأصبحت بين يديه و هي مائسة كالخود تختال في أثوابها القشب

و أصبحت بعدها تكريت حاسرة عن حر وجه أسيل غير منتقب

عبري ينافسها في عدله حسداً تأتى و من شوقها كالمندف الوصب

شوساء لو تفترع قهراً و لا نكحت سبياً و لا لمستها كف مغتصب

بروحها مثل ثغر زانه رتل موشى شرفاً من غير ما شنب

سما لها منه بالقب الضوامر و الب يض البواتر و الخطية السلب

كسوت أمثالها ما نالها أمل و هوتها و هي كالعنقاء في الهنب

فخلت أقليدها قد كان في يده بسرعة الظفر الميمون بالارب

و لو أردنا أستقصاء ذكر مساعيه و حصر مجده و معاليه لكان ذلك مما يعجز اللسان عن ذكره و البنان عن سطره، و انقضى ذكرنا بعض مساعيه الشريفة ليعارضها من نظر في كتابنا هذا بأمثالها من مساعيهم و يستدل بها على علو درجته عنهم و الله سبحانه الموفق للصواب.

فضله عليهم في سعة الملك و الثروة

و فضله عليهم في سعة الملك و الثروة ظاهر كظهور فضله عليهم فيما تقدم من الخلال المذكوره لايهم، و إن كانت العرب سمتهم ملوك العراق على مذهبهم في التعظيم و عادتهم في التفخيم لم يكونوا ملاكاً له و لا لكثير نصيب منه، و انقضى كانت الاكاسرة تقطعهم مواضع منه مسماة تجعلها طعمة لهم، و معونة على عملهم، و كانوا يجتبون خراجها فيأكلونه، و يطعمون منه من أشاءوا من أهلهم و أعوانهم و من كانوا يصانعونه و يستميلونه من العرب. و ربما أقطعوهم أيضاً قرى من جملة أقطاعهم، و لم تكن الاكاسرة تقطعهم أباح ما كان في أطراف البلاد لقربه منهم و كونه فيما يليهم، و أمنحهم أيضاً على غيره مما هو أدنى إليها منه. و لم يكن يمكنهم تعدي أقطاعهم آلنا شبر من الأرض غيره، فإن البلاد حينئذ كانت للملاك و الدهاقين يشجون على موضع الحجر منها، و يتنافسون فيه، و كان أقطاعهم قليلاً نزرا بالاضافة آلنا ما كانت عليه أحوال البلاد من العمارة، و في جنب ما كانت عليه من الاستقامة. و كان قدر أقطاع النعمان من كسرى مائة الف درهم .

و ذكر في بعض كتب الحيرة إن الذي كان كسرى أقطع النعمان من البلاد رستاق السيلحين، و قطائع بني طلحة، و سام طباق كذا رأيت في نسخة. و أما الأمور فسمعت إنها طباق السالم و إنها الأمور معروفة-و ذلك بأرض النجف في غرب فرات تستر- فكان خراج ذلك يجبى للنعمان في كل سنة مائة الف درهم هذا على ما ذكر من عظيم أرتفاعه لاهله و كثره مستغله لملاكه. و ذكر إنه لا يعرف في الأرض برية أكثر ريعا و لا أخف خراجا و لا أقل مؤونة منها، و إنها كانت تغال لأهلها في كل سنة ثلاثين الف كر حنطه بالمعدل سوى غيرها من الغلات و الثمرات و سائر الاشياء، و قد ذكر الأعشى في شعره السيلحين و إنه كان يجبى الى النعمان فقال:

و لا الملك النعمان حين لقيته بغبطته يعطى القطوط و يأفق

و يجبى اليه السيلحون و غيره صريفون في أعمالها و الخورنق

و حدثني بعض أهل المعرفة إن رستاق السيلحين هو النهران المعروفان بنهر برسف، و نهر الصنين، خاصة دون غيرها من أراضي غربي فرات تستر. و كان ممن أقطعه النعمان من جملة أقطاعه هذا سواد أبن عدي، أقطعه هذا السوادية فغلب أسمه عليها و عرفت به و نسبت اليه. و أقطع رجلا آخر من أصحابه يقال له عبد هند بن نجم من بني زهر بن أياد الخص و قيل الخصوص و هي قرية من الفورة قرية في بطن النجف

معروفة الى اليوم. و كان عبد هند خليلا لعدي بن زيد فلما حبس النعمان عديا كتب الى عبد هند من الحبس يذكره ما كان فيه من رخاء العيش و طيبه معه:

ابلغ خليلي عبد هند فلا زلت قريباً من سواد الخصوص

موازي الفورة أو دونها غير بعيد من عمير اللصوص

و العمير معروف بالنجف الى اليوم أيضاً. و من و لد عبد هند هذا أحمد بن أبي دؤاد القاضي صاحب المعتصم رضي الله عنه و نسب اليه موجود. و ذكر إن أبرويز لما ولى أياس بن قبيصة الطائي الملك بالحيرة أطعمة عين التمر و ثمانين قرية من أطراف السواد منها الاقساس فلما هلك أياس رثاه زيد الخيل فقال في مرثيته:

فان بك رب العين خلى مكانه فكل نعيم لا محالة زائل

و كان أياس أقطع الاقساس رجلا من قومه أسمه مالك بن قيس، فعرفت بأقساس مالك الى اليوم. فهذا كان قدر نصيب القوم من العراق و أنما كان جل معاشرهم و أكثر أموالهم ما كانوا يصيبونه من الارباح في التجارات و يغنمونه من المغازي و الاغارات على العرب و أطراف الشام و كل أرض يمكنهم غزوها و يجتبون الأتاوة ممن دان لهم و ظفروا بطاعته من العرب، فيجتمع لهم من ذلك الكثير من الأنعام فلذلك قيل في هجائهم:

جمعوا من نوافل الناس سيباً و حميراً موسومةٌ و خيولا

فكيف يقاس قوم كان لهم من العراق قرى معدودة عن الحماية و الخفرة بمن ملّكه الله العراق بأسره ملكاً و أمره، فهو يقطع أجناده أمصاره بمنابرها، و مدنه بسوادها، و رساتقه بأنهارها، كما قال أبو الطيب المتنبي: فتىً يهب الإقليم ذا النخل و القرى=بمن فيه من فرسانه و كرائمه

و كف يقاس ملك محه الأعشى مبالغاً بأنه يعلف فرسه قتاً و شغيراً بسيف الدولة في سعة ملكه .

و حدثني سهيل أحد مواليه إنه سمع سعيد بن حميد صاحب جيشه يقول: أطلقت من مال صاحبي في يوم واحد الف كرَّ ما علم و لا أستأذنته في شيء منها. و سمعت عن كمال الملك أبي البدر سعيد بن الحسين إنه كمل ما يخرج من أمواله إلى الوفادو الشعراء و الندماء، و في الرسوم الراتبة و الصلات العارضة و المطابخ و المضايف فكان في كل سنة ستين الف دينار. و من جملة مكارمه أن تاج الدولة تتش لما أوقع ببني عقيل بالجزيرة في بعض سني بضع و ثمانين، و قتل أبراهيم بن قريش و مقبل بن بدران و جماعة من أمراء آل المسيب، و أجلى عقيلا و كلابا و نميرا و غيرها من قبائل عامر بن صعصعة عن ديارهم بالجزيرة و الشامين و غيرهما لم يبق أحد منهم إلا التجع لدى سيف الدولة، فنزلوا بلاده باهلهم وأصائلهم و فيهم

العدة الكثيرة من أمراء آل المسيب، و غيرهم من أمراء عبادة و أمراء كلاب، كالشبل بن جامع و أبنه المبارك بن الشبل و جماعتهما. و محمد بن زائدة و غيره من آل زائدة و أمراء بني نمير فأنعم عليهم بالصلات و الخلع و الجوائز على أقدارهم و مراتبهم.

و تلك الأحياء كلها صغيرهم و كبيرهم حتى لم يعلم إن أحداً منهم أبتاع حمل راحلة من غلة العراق. فسمعت القاضي الأرشد أبا الحسين أحمد أبن محمد الثقفي رحمه الله يتحدث بأنه حضر مجلس في ذلك العام فجرى ذكر أسعار الغلات، قال فقلت له: ما تركت لأحد حاجة إلى شري غلة فيعلم السعر فضحك.

و روى الطبري أن جذيمة الأبرش الملك خرج في يوم من أيام الربيع إلى نزهة و صيد و معه أبن أخته عمرو بن عدي الذي ملك بعده و هو يوئذ صبي يلهو و يلعب، فذهب مع الصبيان يجتنون الكمأة فكانوا يأكلون خير ما يجتنونه، ثم أتاه به فألقاه بين يديه، و قال:

هذا جناي و خيارة فيه إذ كل جانٍ يده إلى فيه

فذهب قوله هذا مثلاً.

و أعجب به جذيمة و زاد حبه له فصاغ له طوقاً من فضة فكان أول عربي لبس طوقاً، و لذلك فيل له: عمرو ذم الطوق. فلما أستطارته الجن و ظف به القضاعيان نديما جذيمة المقدم ذكرهما في هذا الكتاب وأتياه به، أنكره لسوء حاله. فقال له: أيها الملك إن في دون ما أصابه من الضر ما يغير حاله، فقال: لقد ذهب يوم ذهب و عليه طوق فما تزال صورته عن عيني. ثم بعث به إلى أمه فتأملته فعلافته فاصلحت من حاله و البسته طوقاً مثل طوقه الاول، فردته إليه فرآه في الصورة الأولى التي فارقه عليها و عرف شمائله، و قد كان كبر و بلغ فقال شب عمرو عن الطوق، فذهبت مثلاً. فكيف يقاس ملك لما زاد حبه لولده و أجب به صاغ له طوقاً من فضة بملك له من الجند و الموالي من لا يرضى بأن تكون حلية مراكبه من فضة حتى يتخذها ذهباً، و ربما كللها جواهراً و في الصبيان من مواليه من يتخذ لكلبه قلائد الفضة و حلل الديباج.

و روى أبو الفرج الاصبهاني عن المفضل الضبي في حديث طويل: أن عدي بن زيد العبادي لما قدم الحيرة لأشخاص ولد المنذر إلى باب كسرى ليولي أحدهم مكان أبنه كان هواه مع النعمان و ميله اليه من بينهم، فوجده لا مال عنده و لا أثاث. فقال له: كيف أصنع بك و لا مال عندك يصلح به أمرك و تستعين به على باب كسرى. فقال ما أعرف لنفسي حيلة إلا ما تعرفه. فقال: قم بنا نمضي إلى فردوس،

و هو رجل من أهل الحيرة يستقرضان منه مالاً، فأبى أن يقرضهما. فأتيا شمعون أبن أسقف الحيرة يومئذ و هو من بني الحارث بن كعب من ولد أوس بن قلام الذي كان ملكاً بالحيرة من قبل. و في غير رواية أبي الفرج إنه سملعة بن جابر الأوس بن عمرو بن عامر و أهل بيته ممن كان يعرف بالأحلاف من أهل الحيرة و أبو جابر صاحب مسناة جابر و عمه حيان الذي قيل فيه :

شتان ما يومي على كورها و يوم حيان أخي جابرِ

قال فأقام النعمان و عدي عنده ثلاثة أيام يذبح عليهما و يسقيهما، فلما كان في اليوم الرابع قال لهما: ما تريدان؟ فقال له عدي بن زيد: نريد أن تقرضنا أربعين الف درهم يستعين بها النعمان على أمره بباب كسرى. فقال: لكما عندي ثمانون الفاً فقال له النعمان لا جرم، لا جرى لي درهم" إلا على يديك إن أنا ملكت. فأين ثروة ملك يأتي بعض رعيته قاصداً إلى منزله ليستقرض منه أربعين الف درهم يستعين بها على الوصول إلى الملك فيدفعه و لا يقرضه و يحترم قصده فيقصد آخر فيقيم عنده، و يتحرم بطعامه حتى أقرضه ما أراد، من ثروة ملك تبلغ جوائز وفده و هباته و عطاؤه و صلاته و أقطاعه و خلعه و قيمة الخيل التي يحمل عليها و مراكبها في كثير من الايام أربعين الف دينار؟

هو البحر من أيِّ النواحي أتيته فلجته المعروف و الجواد ساحله

تجتني ثمار أنامله و تنتجع حباء فواضله فوبل كفه للراجين عام شامل و سببها على العافين هاطل كما وصفت في مديحي إياه فقلت في قصيدة إمتدحته بها:

فما سار بأوسقه ملثَّ له فوق الربى ذيل سحوب
تهادته الرياح فهيجته عشياً و أستثابته الجنوب
و أرسلت الصبا فاستقبلته كما يستقبل الحب الحبيب
تكركره و تمخضه رويدا كما مخضت و كركرت الوطوب
و حثته زعازع ريح غربٍ لها من خلف منسأة هبوب
وفرى جلده بسيوفٍ برقٍ به منها إذا سئلت ندوب
فحار و عج لما أنجبته كما يرغو الكسير أو العيوب

و ضاق بحمله ذرعاً فارخى عزالى سبلها سبل صبيب
أليس به الرعاة و كل فج به من دره خلف حلوب

و أحاديث القوم دالة على إنهم لم يخلصوا من عادات البداوة، و لم يخرجوا عن حدها، و لازال عنهم أثرها، و لا أنتقلوا إلى عادات الملوك، و لا غلبت عليهم، و ليس ذلك إلى إنهم لم يبلغوا الدرجة في الثروة لإنا نعلم ضرورة إن أحداً لا يترك ذلك عن حدة و قدرة فكانوا بالالبان و يأكلون على الإنطاع، و في الجفان. و من الشواهد على ذلك ما تقدم ذكره من نزول المنذر الأصغر بالحارث بن ضمضم قافلاً من بعض غزواته الشام، فضرب عليه قبة من أدم و نحر له جزوراً و بعث إليه أمته لتدهن رأسه، و ملك يغزو الشام من العراق بغير مضرب، يترل فيه، حتى يترل برجل من أهل البادية فيضرب عليه قبة من أدم و ينحر له جزوراً، فليس في التقدير أن يكون الدهن الذي بعث إليه به مع أمته لتدهن به راسه إلا سمناً. فكيف يقاس هذا الملك بملك إذا خرج إلى وجه من الوجوه و لو كانت المسافة إليه يوماً أو دونه أمتلأ البر بالسرادقات و المضارب و الخيم و المطابخ.

و يشبه ما ذكر من حال المنذر و ما ذكر من هدية النعمان إلى كسرى لما عزم على العودة إليه بعد هربه منه، وإنه أهدى إليه هديه فيها أقط و سمن هذا على إنها هديته التي تحفل فيها و طلب بها رضاه و إزالة سخيمته و عوده الى ملكه. و لم يكن أيضاً كسرى ليقبل مثل هذا و لا يستطرفه إلى ممن عادات أهل البداوة عليه غالبةً، و آثارها عليه ظاهرة. و لو كان النعمان مشهوراً بعادات الملوك و آثار ما عليهم من النعم ما قبل كسرى منه ذلك و لا أستطرفه و لا حمله أيضاً إليه أ كان مثل هذا لا يستطرف إلا من الأعراب. فاين ملك لم تبلغ سعة ملكه و ثروته الحد الذي ما يزول أثر البداوة عنه من ملك ملكه ممهد و عزه موطد، يستعمل على رسائيق العراق الولاة الأمراء و يرتب في أمصاره الدواوين و الوزراء؟ و هل يقدر أحد أن يدّعي مثل هذا من القدرة و سعة الملك و الثروة للنعمان إلى على سبيل الهت.

و من الامارات أيضاً على مثل ما ذكرناه من أحوالهم قول عدي بن زيداً للنعمان: إذا أكلت بين يدي كسرى فأجث على ركبتيك و عظم لقمتك و كثر أكلك، فإن كسرى يعجبه ذلك من العرب، و يقول لا خير في البدوي إذا لم يكن أكولاً شرهاً لاسيما إذا رأى من الطعام ما لا عهد له بمثله. و في هذا دليل على إنهم كانوا يرونهم في حد أهل البداوة الذين لم يبلغوا الدرجة التي يعرفون فيها طيب الطعام فهم يستطرفون إذا رأوه فضلاً عما سوى ذلك و فوقه من الأشياء التي يتخذها الملوك، و يدل على مثل هذا من أحوالهم أيضاً قول زيد بن عدي لكسرى حين أمره بأن يخطب له بنات النعمان و أخواته إنهم مع شدة عيشهم يختارون أرضهم على أرض الملك و يؤثرون العري و الجوع على الرياش و الخصب، و مدح الأعشى للنعمان بأنه يعلف فرسه قتاً و شعيراً، من هذا الفن .

و ذكر الطبري إن قباذ بن فيروز الملك أبا أنوشروان بلغه عن العرب فساد في أطراف العراق و كان ملكه قد أضطرب عليه بظهور مزدك الخرميِّ، فهو في ضعف من أمره فخرج بنفسه فترل قصر مقاتل و أتاه

المنذر بن ماء السماء، و هو يومئذ عامله على العرب. فكان عنده و عاثت العرب ليلاً في أطراف معسكر قباذ، فأهم المنذر في ذلك فلما أصبح دعا به فلامه و قال له: إنما نؤتى من قبلك فتنصل إليه من ذلك، و حضر طعامه فأراد أن يداعبه و يؤنسه لتطيب بذلك نفسه فأمر بأطباق من رطب فنزع منها النوى، و جعل فيها اللوز و وضعت بين أيدي الناس، و وضع بين يدي المنذر طبق من رطب على جهته فكانت الفرس تأكل الرطب باللوز الذي فيه، و المنذر يأكله و يرمي بالنوى منه. فقال له قباذ: هلا أكلت كما نأكل و لم ترم من الرطب شيئاً؟ فقال: عشت الدهر مخلدا أنما تأكل النوى نعامنا فضحك. و لم تكن هذه المداعبة من قباذ للمنذر الا لما كان يراه عليه من العادات البدويه و ظهور آثارها عليه. و قد قدم ذكر أجتماع خالد بن جعفر و الحارث بن ظالم عند النعمان و أخيه الاسود و هو يأكل تمرا على نطع فأكلا معه. و ذكر في الحكاية إن الحارث لما أغار على إبل النعمان تعلق الراعي بلقحة منها، وقال هذه لقحة لصبوح الملك.

من أخبار الحارث بن عمرو الكندي و أبن الهبولة

و روي إن الحارث بن عمرو بن حجر الكندي نزل في بعض الاحيان بأهله على الفرات في موضع العباسية اليوم-و أنما سميت العباسية في الاسلام لانها كانت للعباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان -ثم إن الحارث غزا و خلف أهله في المكان، فخالفه النعمان بن هبولة اللخمي رجل من أهل البيت الملك فنهب أمواله و أخذ أمرأته هند بنت ظالم بن وهب بن معاوي الكندي- وانما سميت هند الهنود لجمالها- و هي أخت ماوية ذات القرطين يتمثل بهما، فيقال قرطا ماوية فدخل بها و بالمال الحيرة. و قفل الحارث عن غزاته فمر بسدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة في أناء غرله و قد ندّ منها بعير، فوثب سدوس فأخذ بيده فاقتعده فبرك البعير فقال له الحارث: يا سدوس لو كنتم تقتعدون الرجال كما تقتعدون الجمال لكنتم الفرسان الابطال. فاصبها سدوس في نفسه، و أتى الحارث منزله فلم يجد فيه أحداً، فجمع جمعاً من بكر بن وائل، و سار الى الحيرة يريد غزو النعمان بن الهبولة و معه سدوس بن شيبان في ذلك الجمع، فلما دنى من الحيرة وقف و أرسل سدوساً في الليل و معه ضليع بن عبد الله -رجل من بني عجل- فقال أنطلقا فأتياني بخبره فأتيا الحيرة و النار تضرم فقال سدوس لضليع: أما إن تمسك عليّ فرسي لآتيك بالخبر أو أمسك عليك فرسك. فقال ضليع: بل أنا أمسك عليك فرسك. و أنت آت بالخبر. فامسك ضليع فرس سدوس، و دخل سدوس الحيرة فوجد النار تضرم و المنادي ينادي: من جاء بجزرة من حطب فله فلذة من لحم و قبضة من تمر، و الناس يحتطبون و يلقون الحطب على النار و يأخذون ما جعل لهم و النار

تضرم، فرقاً من أن يبيتهم الحارث فذهب سدوس فاحتطب حطباً رطباً على عمد و جاء فحس به النار فناوله فلذة من لحم و قبضة تمر و خبا ضوء النار قليلاً لرطوبة ذلك الحطب. فنظر الى النعمان بن الهبولة و هو جالس و هند الى جنبه و هما يتحادثان، فانصت يسمع حديثهما فسمعها تقول له كانك به و قد أتاك كانه كلب قد عض على ضلع جلف -او جمل قد أكل مراراً فهو يقذف بالبغام عيناه تنامان و قلبه يقظان. قال: و ما يدريك بذلك في صفته قالت أني كنت له فاركاً- أي مبغضةً- و كان ليلة نائماً مستلقياً على قفاه، و قد مطط يديه و رجليه فجاء الغلام بعسٍّ من لبن فوضعه عند رجليه ليشربه إذا أنتبه من نومه، و كان يشرب الخاثر به، فجاءت حية منكرة فقلت: لعلها تنهشه فاستريح منه، فدنت من رجله و همت بلسبه، فكف رجله فدنت من الاخرى حتى قلت ها هي ناهشته فكفها: فدارت الى عند يديه فدنت من أحداهما فكفها، ثم دنت من الاخرى فكفها، فمالت الى العسّ فعبّت فيه حتى ثملت، ثم قاءت فيه فقلت الان يقوم فيشربه فيتفسخ، فاستريح منه فمد رجله فضربه فأراقه. فسمع سدوس الحديث و عرف مكانهما، وانصرف يطلب رفيقه ضليعاً فوجده قد سبقه الى الحارث فاخبره إن القوم حذرون مستعدون، و إن نارهم تضرم لانه قد كان رأى النار. فلما جاء سدوس فقال له الحارث قد أتاني الخبر قبلك فقال سدوس :

أتاك المرجفون برجم غيب و جئتك بعد بالخبر اليقين

فمن يك قد أتاك بأمر لبسٍ فقد آتي بامر مستبين

ثم أخبره الخبر و أراه اللحم و التمر، فاكل من التمر، و قال: هذا تمر كنت خلفته في أهلي، ثم هجموا على القوم فضرب سدوس النعمان بن الهبولة فقتله و سلبه الحارث فنازعه سدوس سلبه حتى كاد كل واحد منهما إن يقتل صاحبه و أخذ الحارث أمرأته هنداً و أنشأ يقول:

ان من غره النساء بشيءٍ بعد هند لجاهل مغرور

حلوة الطرف و اللسان و من كل شيء يجن فيه الضمير

كل أنثى و إن بدا لك منها آية الحب ذاك منها غرور

و قال سدوس للحارث كيف ترى أقتعادنا للرجال؟ يذكره كلمته الاولى.

و في قتل سدوس بن شيبان لابن الهبولة يقول الكميت بن زيد في أفتخاره بتزار:

و يوم أبن الهبولة قد أقمنا خدود الصعر و الاود المبينا

هتكنا بالاسنه بنت ملك و عفرنا خدود متوجينا

و ذكر الاصمعي إن أبن الهبولة رجل من قضاعة ثم من سليح و إنه لما سبى هنداً صار الى عين أباغ، و ذكر الحديث على وجه غير هذا.

فما أدري أي هذين الملكين أسوأ حالاً، ملك يقصد عند ناره و أحراسه و معه أمرأة، و لا يقدر على الحطب الا بجعل، و جعله فلذة من لحم و قطعة من تمر، أم ملك ينازع رجلاً من جيشه سلب أخر قد قتله في نصرته بعد إن كان قد وتره بنهب ماله و سبي أهله حتى كاد إن يقتل الرجل، و كاد الرجل إن يقتله ثم يعرف تمراً كان عند أهله بعينه بعد نهبه مع شدة أشتباه التمر حتى إن من أمثالهم: أشبه من التمرة بالتمرة".

و رايت حكاية عن بعض الوزراء إنه أكل يوماً عند بعض ولده فذكر بعض من حضره الزيت، فقال صاحب الطعام لبعض غلمانه: إن لنا زيتاً في موضع كذا في أناء لونه كذا، فأتنا بشيء منه، فنهض الوزير مغضباً، و قال: لا أحب الرئيس يعرف موضع زيته، فكيف بملك يعرف تمراً كان في مترله بعينه حتى لا يشتبه عليه بغيره بعد نهبه، و ليس ذلك الا لانه كان ممارساً له قد أكثر العناية به و الطف النظر اليه حتى عرفه بعينه و لم يشتبه عليه بغيره؟ و ليس هذا من عادات خدم الملوك في أنفسهم، فهذا كان حدهم في سعة ملكهم و ثروتهم أيضاً.

اخبار متفرقة عن ملوك الحيرة و ملوك الحلة و رؤساء القبائل

هذا طرف من ذكر أحوالهم في أدياهم و أنسابهم و مبلغ عزهم و حد ملكهم و سعة ثروتهم. و أنما روي من الاحاديث عنهم نادرها و عجيبها مقروناً ببعد العهد و عظم أسم الملك في الانفس فهال السامع، و بهره و ظن إن المعنى على قدر الاسم. و تصفح أحاديثهم و تأمل أخبارهم يدل على صحة ما ذكرناه.

فمن أعظم ما روي ما كان من بطش عمرو بن هند ببني دارم و تحريقه أياهم و قتلهم على ما جاء من الخلف في ذلك لقتل سويد بن ربيعة الدارمي أخاه أسعد بن المنذر و في ذلك يقول جرير مخاطباً الفرزدق :

اين الذين بسيف عمرٍو قتلوا ام أين أسعد فيكم المسترضع

و أذ تأمل متامل ما جرت الحال عليه في ذاك لم يجد فيه ما يدل على كبير قوة و عظيم بطش منه، فأن الذي روي في ذلك، إن المنذر بن ماء السماء -و هو المنذر الاكبر- بعث الى زرارة بن عدس الدارمي بابن له أسمه أسعد و قيل بل أسمه مالك. و كان عنده مسترضعاً في بني دارم و شب فيهم فخرج يوماً في جماعة منهم الى الصيد و رجع مخفقاً فمر بأيل لسويد بن ربيعة بن زيد بن عبد الله بن دارم فعقر منها

بكراً، و قال لمن معه كلوا فانكم إن أخفقتم من الصيد لم تخفقوا من اللحم. فانطلق راعي سويد فأخبره، فاخذ قوساً و أسهماً و ركب فرساً و لحق باسعد فرشقه بالنبل حتى قتله و كان زرارة عند المنذر، فبعث بنوه إليه بالخبر فبعث إليهم أن أكتموا ذلك و أظهروا إنه مات و لا يفوتنكم سويد، فإنه خفر ذمتي و قتل جاري. و دخل زرارة على المنذر فأخبره أن إبنه أسعد مات و أن بنيه أرسلوا إليه يخبرونه بذلك. فلم يشك المنذر في قول زرارة، و طلب بنوا زرارة سويداً فهرب منهم إلى مكة، فحالف بني نوفل بن عبد مناف، و تزوج فأخته بنت عامر بن نوفل بن عبد مناف فولده فيهم يعرفون بآل أبي إهاب. و هو أبو إهاب بن عمرو بن قيس بن سويد. و لم يظهر أمر أسعد بن المنذر مدة حياة أبيه، فلما هلك المنذر إستعمل أنوشروان إبنه عمرو بن هند، فكان زرارة من أكرم الناس عليه، و كانت بين زرارة و بين طي عداوة، فارسل عمرو بن هند خيلاً للاغارة على الحليفين أسد بن خزيمة و غطفان، و كانوا لا يدينون للملوك، فاخطأهم الجيش و لم يظفروا بما أرادوا منهم، فاقبلوا راجعين يريدون الحيرة بغير غنيمة فمروا بجديلة طي و هم نزول في حمى لعمر بن هند، و كان قد كتب لهم بذلك كتاباً، و جعل لهم عهداً، فاغاروا عليهم فسبوا و أسرو و ساقوا الأموال، فقدموا بها على عمروا بن هند و عنده زرارة فقال ما ترى فيهم؟ فقال تقتل هذه الأكلب -يعني الرجال- و تأخذ الأموال و تستخدم بالنسوان. فقال إني كنت كتبت لهم عهداً فقال له: إنما عاهدت أهل بيت واحد منهم لا كلهم و حسن له ذلك فأخذ فيهم برأيه. و خرج زرارة إلى أهله و قدم قيس بن جرول الطائي على عمر بن هند و زرارة غائب فخاصمه في الجدلين و أموالهم و نسائهم و قال لقد غدرت بهم و أنشد:

تخب بصحراء الثوية ناقتي ... لعدوٍ رباعٍ قد أمخت نواهقه

إلى الملك الخير أبن هند بزورة ... و ليس من الموت الذي هو سابقه

فإن نساء غير ما قيل باطلاً ... غنيمة سوءٍ قد حمتها نمارقه

و لو نيل من عهدٍ لنا كان عنده ... و نتقٍ فأين العهد أنت معالقه

وهبك أبن هند لم تعقك ملامة ... و ما المرء إلا عهده و خلائقه

أكل خميس أخطأ الغنم مرة ... و صادف حياً دانياً فهو سابقه

لئن لم تغير بعض ما قد آليته ... لأنتحين العظم ذو أنا عارقه

فقيل أن قيس بن جرول سمى بهذا البيت عارقاً، فرد عليه عمرو الاسرى و السبايا و الاموال. فخرج من عنده، و قدم عليه زرارة فقال له: يا أبا معبد أعلمت إنه أتاني بعدك رجل من طي فكلمني في الجدلين و

خاصمني و أنشدني شعراً يحاجني فيه، فتركتهم له. فقال: أسمعني الشعر، فدعا روايته فانشده الابيات. فقال: لقد هددك بأخر بيت، قال صدقت. ثم أرسل خيلاً في آثارهم، و بلغهم أتباعهم إياهم الخيل فقال قيس بن جرول فيه :

أيوعدني و الرمل بيني و بينه تبين رويداً ما أمامك من نجد
و من أجاءٍ دوني رعان كأنها كراديس خيلٍ من كميت و من ورد
غدرت بنا من حيث كنت أجتذبتنا إليك و بئس الشيمة الغدر بالعهد
و قد يترك الغدر الفتى و طعامه إذا هو أمسى جلة من دم الفصد

و إستبان لطي أن زرارة هو الذي كادهم عند عمرو أولاً و أخيراً، فحقدوا ذلك عليه و جعلوا يطلبون عثراته. فنمي إليهم حديث أسعد بن المنذر و قتله فقالوا: من لزرارة يرفع إلى عمرو بن هند أن أخاه إنما هلك عنده قتلاً؟ فقال عمرو بن عتاب بن ملقط الطائي أنا، و رحر إلى عمر بن هند فدخل عليه و أنشده:

من مبلغ عمراً فإ ن المرء لم يخلق صباره

يقال بكسر الصاد و ضمها، و هي الحجر و قيل الزبرة من الحديد.

و حوادث الأيام لا تبقي لها إلا الحجاره
ها إن عجزه أمه بالسفح أسفل من أواره
تسفي الرياح بفضل بر ديه و قد سلبوا إزاره
فأقتل زرارة لا أرى في القوم أوفى من زراره

فلما سمع عمرو ذلك، قال لزرارة: ما يقول هذا، قال: إنه عدوي. قال صدقت فأتني ببينة من أمر أخي، قال: نعم فلما كان الليل خرج زرارة فلحق بقومه و هم بالغرابة: و هي ماء بالقرب من اليمامة. و إستبان لعمر أن أخاه قتل فجمع من أطاعه من ربيعة و اليمن و رهائن مضر، و سار بكتائبه إلى بني دارم و أقسم ليقتلن منهم مائة. فنزل بأوارة على قوم من الغرابة و هاب الإقدام عليهم فأقام، و هابت بنو دارم الإقدام عليه، فأرسلوا إلى من كان بالقرب منهم من بني تميم أن أنجدونا لنأخذه و نغنم عسكره، فلم ينجدوهم فأقام كل من الفريقين بمكانه. و بلغ عمراً أن بني نهشل من دارم خلوف، فقصدهم مستفرداً لهم و بلغهم مسيره فظعنوا، فلحق في نواحي دارهم نساء و أطفالاً فجمعهم و حفر لهم إخدوداً و جعل يحرقهم، فأتى بالحمراء بنت ضمرة بن جابر فقال: إني أراك حمراء و إني لأحسبك أعجمية فقالت: لا و

الذي أسأله أن يخفض جناحك، و يهد عمادك و يضع وسادك، و يسلبك ملكك، ما أنا بأعجمية، قال: فمن أنت؟ قالت أنا بنت ضمرة بن جابر ساد معداً كابراً عن كابر. قال: فمن زوجك؟ قالت هوذة بن جرول. قال و أين هو؟ قالت أنك لأحمق، لو علمت مكانه لحال بينك و بيني. قال: و أي رجل هو؟ قالت هذه أشد لحمقك من الأولى أعن هوذة بن جرول تسأل! هو طويل العماد رفيع الوساد طيب العرق سمين المعرق لا ينام ليله، و لا يشبع ليلة يضاف، يأكل ما وجد و لا يسأل عما فقد. فقال لولا إني أخاف أن تلدي مثل بعلك أو مثل أخيك لأطلقتك. قالت: أما و الله ما أدركت ثأراً، و لا إكتسبت الا عاراً و لا قتلت إلا نساء أعاليهن ثدي و سافلهن دمي، و ما من فعلت به هذا بغافل عنك و الحرب سجال، و مع اليوم غد. فأمر بها فجرت إلى النار فقالت: الا فتى مكان عجوز، فذهبت مثلاً ثم لبث لا يقدر على أحد منهم يومه أجمع و إذا راكب توضع فأناخ إليه، فقال من أنت؟ قال رجل من البراجم. فقال ما الذي جاء بك؟ قال سطع الدخان و شممت القتار و كنت قد أقويت منذ أيام فظننت وليمة. فحرقه فقال بعض أصحابه إن الشقي وافد البراجم، فذهبت مثلاً. و إنه لم يحرق من بني تميم رجلاً غيره، و أن عامة من حرقه النساء، و سمي بذلك محرقاً و نادى له به الشعراء فقال الطرماح مفتخراً:

و دارم قد قذفنا منهم مائة ... في جاحم النار إذ ينزون بالخدد

ينزون بالمشتوى منها و يوقدها ... عمرو و لولا شحوم القوم لم تقد

و قال إبن دريد:

ثم إبن هند باشرت نيرانه ... يوم أوارت تميم بالصلا

و قال لقيط بن زرارة ما كان من خذلان قبائل تميم لهم و تأخرهم عن نصرتهم و يلومهم على ذلك و يعيبهم قبيلة قبيلة:

انا بالغرابة قد أقمنا ... مراجفنا كما عتب الكسير

و أسلمنا قبائل من تميم ... لهم عدد إذا نسبوا كثير

اسيد و الهجيم لهم رعاء ... و أبرام من الجعراء عور

و إن تطلب ربائعهم تجدها ... ببطن السعد ليس لهم ظهور

و يربوع بأسفل ذي طلوح ... وقوفاً ما تحل و لا تسير

و إن تطلب طهية في تميم ... تجدها العمى ليس لها بصير

و أحياء البراجم حول كبل ... كرحل الذبح ليس لها جبور

و سعد شر من ركب المطايا بأرض حين تنجد أو تخور
و عوف أخبث الاحياء حياً و الأمه إذا غلت القدور
و حمان بن كعب ليس فيها غناء في الامور و لا نكير
و منقرها و عبشمس و عمرو تراها و هي بالادمان نسور
و الام من علمت بنو عدي و ضبة إذ تقسمت الامور
فلم نعلمهم فتيان حرب إذا ما الحي صبحهم نذير

و قال الاسود بن يعفر يلوم بني دارم على طاعتهم عمر بن هند و رويت للقيط أيضاً:

ابلغ لديك مالك مغلغلة و سراة الرباب
بأن أمراً أنتم حوله تحفون قبته بالقباب
يهين سراتكم عامراً و يقتلكم مثل قتل الكلاب
فلو كنتم إبلاً أملحت لقد نزعت للمياه العذاب
و لكنكم غنم تصطفى و يترك سائرها للذئاب

فلا و أبيك أبي الشر ما اتيت بقتلهم من صواب
و لا منه إن خير الملو ك أعظمهم منة و الرقاب

فعاد بنو دارم لقاحاً لعمرو بن هند بقية أيام ملكه الى إن هلك.

و ليس في هذه الحكاية ما يدل على عظم جيوشه و قوه جنود، بل فيها ما يدل على ضد ذلك لان بني دارم قبيلة واحدة من بني تميم، أقاموا بازائه بالغرابة و قد تجهز اليهم محتشدا بكتائبه و من أستنجد به من العرب الذين كانوا في طاعته و لم يبق خلفه بقية، يريد إن يبر قسمه و يقتل منهم مائة بأخيه بزعمه فلم يقدر على الاقدام عليهم مع هذا الحال. و أقاموا بأزائه لا يقدمون عليه، و أستنجدوا قومهم طمعاً بقهره فلم ينجدوهم، و هذه مماثلة منهم له و مقاواة، و على هذا القياس أذ كانت بنو دارم خاصة و أوقفوه و أمتنعوا عليه، و ضعف عن الاقدام عليهم، فلو إن قومهم أنجدوهم أو بعضهم لا صطلموه، و ليس في التقاطه نساء منقطعات عن فريق مرتحل و تحريقهم ما يقضي على طول يده الى الحد الذي يسبق اليه ظن الظان إنه لو طمع بالظفر بالرجال ما أحتمل العار بتحريق النساء، لان هذا من أذم الافعال عند العرب.

ثم في حديث أسعد بن المنذر و قتله على الوجه الذي قتل عليه، و عما خبره عن أبنه و أخيه و أوضح

دليل على ما أردنا من الغرض المقصود في أيضاح كونهم دون الطبقة التي تدعى لهم في كل أحوال ملكهم عن شأن الملوك بكثير. هذا أسعد بن المنذر يشتد به الجوع و يحتمل الضر على عقر بكرة لاعرابي سيء الحال ليأكل هو و من كان معه ممن خرج للصيد، و يقول لهم إن أخففتم من الصيد لم تخفقوا من اللحم. و هذا يدل على إنه أنما خرج يطلب الصيد ليسد به جوعته، و لم يخرج اليه متنزها و لا متفرجا. ثم إنه لفعله ذلك حمل سويدا لفقره و ضره و سوء حاله على الهجوم عليه و قتل بالبكر الذي عقره فنكأ بعقره قلبه، و أخراجه حتى هجم عليه بالقتل، ثم تكتم قتله و لا يظهر و يدعي إنه مات، و مضى عليه السنون و يهلك أبوه و يملك أخوه ثم لا يظهر أمر قتله الا من جهة عدو لبني دارم نمي اليه خبره فرفعه الى أخيه يريد كيدهم عنده لا للتقرب اليه. فلينظر ناظر في أحوال هذا الملك أبن الملك أخي الملوك الثلاثة كيف حمله الجوع على ما أتلف به نفسه، فأين كانت مطابخه و صناديق طعامه التي يجد مثلها أمثال الناس و سوقتهم و يستصحبونها في متصيداتهم و أسفارهم فكيف الملوك!ثم يرشقه أعرابي بالنبل حتى يقتله، فأين كان خواصه و جنده و مواليه و حشمه المحدقون به الممانعون عنه حتى تتلف أنفسهم دونه؟ ثم أين كانت أمواله التي يهب منها لسويد أمثال بكره فيرضيه بما قد قتل؟ أين البريد الذي يركض الى أبيه بقتله؟ و أين النجب و المهاري التي تذهب اليه مسرعة مبادرة بذكر مصابه؟ و أين الخدم و الموالي و الحشم الذين ينصرفون الى أهله بعد هلاكه؟ و أين الخيول التي تحدق لاجله؟ و أين المها الابل التي تعقره على قبره كما كان يفعل أكثر سوق العرب؟ فكيف الملوك و أين لداته و أترابه الذين يؤنسونه و يصحبونه كما يكون مع ولد رؤساء الناس و أمثالهم؟ فكيف ملوك فيوضح أحدهم كيفية الحال في هلاكه. و قد قنعنا من هذا كله بمولى كان يكون يكون معه يأتي أباه بخبر قتله محققاً على جليته و يستغنى به عن الشك به عن الشك و التهمة و لا يمكن قاتليه ستر أمره و طي خبرة و أدعاء موته حتى يظهر ذلك من قبل أعدائهم بعد دهر طويل، فأن خبره هذا الملك الوحيد المنفرد المسكين المقتول ضيعه ببكر قيمته عشرون درهما أنما أنطوى عن أبيه و أهل بيته لوحدته و أنفراده و صنيعته و كونه في بني" دارم منفرداً بغير ثان. فلذلك أمكنهم ستر جنايتهم على تغطية فعلتهم و لو كام معه شخص واحد من كل ما ذكرنا ما تم لهم ذلك، و لا قدروا على ستر أمره و طي خبره، فلو لا عدوهم الذي وشى بهم إلى أخيه بعد هلاك أبيه لما طهر له من خبر أبداً. و إذا كان أخوه مبسوط اليد عظيم القدرة فلم لم يطلب سويداً الجاني، و يبعث كتائبه و عساكره لأخذه و يشفي غيظه بقتله و أتلاف نفسه، لا بنساء لا ذنوب لهن و لا علم عندهن، فبالله الا أنصفتم أيها السامعون، فإنكم إن فعلتم و تأملتم صورة هذا الملك بقلوبكم و أفكاركم و صورتم حاله في أنفسكم و أوهامكم علمتم حقيقة أحوال القوم و أستدللتم بهذا الحديث وحده على صحة ما تقدم ذكره .

و يشبه هذا من أحوالهم ما روى من حديث إياس بن قبيصة ملك العرب بعد النعمان. و كان يوم ذي قار على جنود كسرى كلها من العرب و العجم. فروي إنه لما أراد السير إلى بكر بن وائل يومئذ طلب من أبي ثوب التميمي من بني تيم الله بن ثعلبة و كان بينهما رحم فرساً كانت لابي ثوب أسمها الحمامة. فقالت بنو تيم الله بن ثعلبة لأبي ثوب لا تعطه الفرس فإنه إنما يريد غزونا عليها، فقال ما كنت لاقطع له رحماً و لا أمنعه فرساً، فدفعها إليه، فلما ظهرت بكر بن وائل على جنود كسرى إنهزم إياس على الحمامة و كانت لا تلحق، و فيها يقول إياس بن قبيصة:

غذاها أبو ثوب فلما رأيتها دخيساً تفوت العين حين تراها

فأتى كسرى يخبره خبر الجيش، و كان من عادة كسرى إذا جاءه من يخبره بهزيمة جيش من جنوده إن يخلع كتفه. فلما كان بباب كسرى ذكر ذلك من عادته، فخاف إن يخلع كتفه إن هو صدقه. فدخل عليه فقال له: قتلنا بكر بن وائلو أتيناك بطلبك فقال زه، فلما خرج من عنده قعد على فرسه فلحق بعين التمر. ثم جاء بعده رجل من الفرس قد نجا على فرسه له جواد، فقال: هل قدم على الملك قبلي أحد بخبر الجيش؟ قيل نعم إياس بن قبيصة. فظن إن إياسا قد صدق كسرى فخلع كتفه، فقال بالفارسية ثكلت أياس أمه، و دخل مطمئنا يظن إن الامر قد وقع بغيره. فاخبر كسرى بهزيمة الجيش. فأمر بخلع كتفه، و نجا أياس بكتمان الخبر. فليتأمل متأمل أيضاً حال هذا الملك كيف كان يريد نفسه لم يكن له من يقدم بالخبر عن الجيش الذي كان هو زعيمه، و المقدم عليه غيره، فجاء معرضا نفسه لهذا الامر مغررا كما يفعل الرسل و الفيوج لا الملوك، ثم ينظر في مكانه عند الاسرى وحده عنده في سقوط المنزلة و علم هو بذلك من أمر نفسه مخافة إن يخلع كتفه كما يفعل بالعبد الآبق و اللص السارق، و علم إنه ليس عنده هوادة و لا مزية عن غيره بحيث يحمد عن فعل ذلك به، فلولا ما فطن له من ستر الامر عنه و تعجيل الهرب منه لما نجا من ذلك الفعل الشنيع و الامر الفظيع، و تلك المثلة القبيحة و السيرة السيئة التي كان يسار بها في أرذل الناس و أدوانهم، و هذا يدل على منزله دون هذه المنازل كلها. و كيف يقاس ملوك هذه صفاتهم بملك يغترف من بحر جوده فقير العرب و الغني. و يعم قريبهم و القصي كما يعلم الأرض من صوب المزن، و يجود سهلها و الحزن، كما وصفت أبيات في مثل هذا المعنى من قصيدة أمتدحته بها فقلت :

ارقت لبراقٍ دائم اللمعان اقض وسادي موهنا و شجاني

يكاد يريني بالغري معالما بنجدٍ عراني حبها و عناني

فبت أجافي الجنب مني أسمه يسابقه قلبي الى الخفقان
إذا نبضت أولاه أنبض عندها فؤاد مشوق دائم الرجفان
كأن النعامى حملت منه بديلاً او أنشقت رضوى و هضب أبان
فجائت به كاليل يدلج تحته بما أذهبا من كلكل و جران
يجر على الافاق أذيال هيدب رعابيله فوق الاكام دواني
إذا ما بدا فيه حسبت سناءه ضياء ضارم في ظلام دخان
يشق الذرى منه و يفرى أديمه صوارم لجت فيه باللمعان
إذا أثخنته عج بالرعد صارخاً و فاضت عيون منه بالهملان
فعم جاده سهلها و جبالها و أقطارها ما ضمه الافقان
كما عم من نوال أبن مزيد و جادهم من سبيه المتداني
و فاض عليهم من هني نواله و بذل يدٍ تهمي به و بنان
تساوى الروى فيه و ذو غنى و قاصٍ بعيد في البلاد و دان
فما النصف إن فكرت يفضي لجوده بفضل على الشؤبوب ذي النقبان
لأني رايت الغيث يحيى نويله جمادا و يحيى أشرف الحيوان
و للغيث وقت يرتجى فيه صوبه وجودك مرجو بكل أوان
فليس إذا ما أقلع الغيث معلقاً و لا ذا أختصاص مثله بزمان

اما ملوك آل جفنه الغسانيون الذين كانت القياصرة تستعملهم بالشام، فانهم كانوا على الذهب و الفضة أقدر من آل نصر، و أظهر منهم سعه و ترفا، و أكثر ملوكا. روي إن عدتهم بالشام تسعة و ثلاثون ملكاً، الا إن صيت آل نصر أبعد و شرفهم أذهب على أن مع القياصرة دون حد ملوك العراق مع الاكاسرة، لان كسرى لما بعث جنوده الى بكر بن وائل بذي قار جعل إياس بن قبيصة الملك على من بعثه من العرب و العجم، و بعث هرقل جنوده لحرب المسلمين باليرموك، و كان ممن بعثه فيهم جبلة بن الايهم الملك الغساني ملك العرب بالشام يومئذ، فجعله في طاعة صقلاب البطريق و تحت يده، و صقلاب خصي كان هرقل جعله على جنوده يومئذ من الروم و غيرهم، و لم ير جبلة بن الايهم فضلا للتقدم عليه. و كانت حالهم و حال ملوك كندة و حمير مع حال فقتلوهم كل مقتل على وجه، و في كل مكان،

و إن كانت أخبارهم بذلك شائعة موجودة، فلا بد من الالمام بذكر طرفها منها: قتل جشيش بن نمران اليربوعي ثم الرياحي معاوية لكندي الملك، و هو أبن كبشة يوم ذي نجب ففي ذلك يقول جرير مفتخرا.

لقد ضرب أبن كبشة أذ لحقنا جشيش حيث تفليه الفوالي

فاسر حبيش بن دلف الضبي عمرو بن الحارث بن أبي شمر الغساني، فجز ناصيته و شرط عليه حباء يحمله اليه في كل سنه ما عاش، و في ذلك يقول

خالي الذي غصب الملوك نفوسهم و اليه كان حباء بن جفنة يحملُ

و قد تقدم ذكر ذلك. و أغار أبن ظبية ملك من ملوك غسان على بني نهشل يوم الترويح فقتلوه و هزموا جيشه، و فيه يقول الفرزدق: و نحن جعلنا لابن ظبية حكمه=من الرمح إذ نقع السنابك ساطع و أوثق قيس بن معد يكرب الكندي أبو الأشعث بن قيس قماً من العرب -و كان يهودياً- فوافق آخر الميثاق يوم جمعة و هو مدة الميثاق و سار اليهم فقتلوا أبنين له و هزموه و لذلك شهر بالغدر هو و بنوه بعده. و قيل أعرق الناس في الغدر عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث بن قيس، غدر قيس بهؤلاء، و غدر الاشعث بأمير المؤمنين علي صلواة الله عليه و آله، و غدر محمد بن الاشعث بمسلم بن عقيل رضي الله عنه، و غدر عبد الرحمن بن محمد بالحجاج بن يوسف. و أقتتل سلمة الغلفاء و أخوه شرحبيل أبنا الحارث بن عمرو بن حجر الكندي يوم الكلاب الاول، و مع سلة بنو تغلب و النمر بن قاسط و بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، و مع شرحبيل بكر بن وائل و بنو عمرو بن تميم و الرباب، و جعل كل واحد من الملكين لمن جاءه برأسه الآخر مائة بعير. فأنهزمة بكر بن وائل و من كان معها و قتل شرحبيل، قتله أبو حنش عصم بن النعمان بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم الارقم التغلبي، قيل إنه حمل عليه و الناس يقتتلون حوله فطعنه فقتله، و نزل فأحتز رأسه، و قيل بل تبعه عند هزيمته و مع أبي حنش ذو السنينة -و هو حبيب بن عتبة بن بعج بن عتبة بن سعد بن زهير بن جشم الارقم- و كان أخاه لامه، أمهما جميعا سلمى بن عدي أخي كليب و مهلهل، فعطف شرحبيل حين أرهقاه على ذي السنينة فضربه فقطع رجله. فنادى ذو السنينة أبا حنش قتلني الرجل، فقال أبو حنش: قتلني الله إن لم أقتله. و مات ذو السنينة. و جد أبو حنش في الركض يطلب شرحبيل فلما أدركه، قال: يا أبا حنش اللبن اللبن. قال قد هرقت لبناً كثيرا، فقال: يا أبا حنش أملك بسوقه؟! قال إنه كان ملكي، ثم طعنه فصرعه، ثم نزل فأحتز رأسه و أتى به أخاه سلمة فالقاه بين يديه، فقال هلا القيته إلقاءً رفيقا! قال إن الذي ناله و هو حي شر من هذا، فمن لي بهنيده. قال قتلت أخي و تطلبها مني فخرج مغضبا و هو يقول:

قتلت شرحبيل بن عمرو بن حارث هماما عليه التاج و أبن همام

فلا ترجون بإبن المرار نصيحتي و لا ود قوم مغضبين رغام

قتلت لك الساعي عليك و حوله تميم و راميت الذين ترام

فلما بلغ سلمة شعره قال:

الا أبلغ أبا حنش رسولا فمالك لا تجيءُ الى الثواب

و مالك لا تجيءُ الى هجان نصبة الغوارب كالهضاب

تعلم إن خير الناس ضرا قتيل بين أحجار الكلاب

تلاعب حوله عمرا فراراً و أسلمه جعاسيس الرباب

فبلغ أبا حنش شعره فقال:

اخاف أجيءُ نحوك ثم تحبو حباء أبيك يوم صنيعات

و تلكم خزية عظمة و جلت تقلدها أبوك الى الممات

فبلغت هذه الاشعار معد يكر بن عكب التغلبي فقال:

قل لذي الآكل المرار خذ المل ك و لا تبكين قيل الكلاب

قد قتلنا لك أبن أمك و المل ك عقيم مقطع الانساب

فأعتدل يا بن ذي المرار على القصد و لا يغررنك تيه الشباب

و أخترن بين ما يقول لك النا س و حرب تحر برد الشراب

ثم أجتمع مع أبي حنش جماعة من بني تغلب، فأتوا سلمة فقالوا له: إن الغدر لا يحسن بالملوك، فإن أنصفتنا من نفسك، و إلا أنصفنا أنفسنا منك، و قد ضمنت في قتل أخيك ما تعلم، فقتله صاحبنا، فأعطه ما ضمنت و إلا أخذناه منك غصباً، فقال أفعل و أمر له به. ثم أستوحشت تغلب بعد ذلك منه لهذا السبب، و رأوا إنهم قد وتروه بقتل أخيه و أخذ ماله، فصاروا له لقاحا و طردوه عنهم فنزل في بكر بن وائل. ثم إنهم أسروه بعد ذلك في بعض حروبهم، أسره عبيد بن فرعص التغلبي فذهب به يقوده، فلقيه عمرو بن دوس التغلبي فضربه فقتله. ففيه يقول أمرؤ القيس :

الا أنما أبكي العيون و شقها قتيل بن دوس في حبال أبن فرعص

فالحقت بنو تغلب سلمة بأخيه شرحبيل. و في ذلك يقول الكميت مفتخرا على اليمن بتزار:

و نحن على شرحبيل بن عمرو شهرنا البيض غير محللينا

اراد لكي يذوق أبني نزار و لم يسأل فيخبر عالمينا

فصادف تغلب لما تمطق فوه شربة ذائقينا

اطاروا قحف هاماته بغصب كأن سناه شعلة قابسينا

و قالوا خذ تحيتك أبن عمرو كما حيا أباك بنو أبينا

ابيت اللعن دونكما فإنا كذاك تحية الاملاك فينا

و قال أيضاً:

ونحن حصينا من شرحبيل أكعباً من الذيل الخطي مثل نوى القسب

فظل صريعا و الكتائب حوله بأسد من العلياء أتلفنه غلب

و قال عمرو بن حي رجل من بني تغلب يذكر قتل أبي حنش شرحبيل و قتل عمرو بن كلثوم عمرو بن هند:

نعاطي الملوك الحق ما قصدوا لنا و ليس علينا قتلهم بمحرم

و يوم الكلاب أسنزلت أسلاتنا شرحيبل أذ آلى الية مقسم

ليستلبن أفراسنا فاستزله ابو حنش عن ظهر شقاء صلدم

تناوله بالرماح ثم ثنى له فخر صريعا لليدين و للفم

و عمرو بن هند قد صقعنا جبينه بشنعاء تشفي سورة المتظلم

و قتل عامر بن ضامر الضبي يوم بزاخة الحارث بن مزيقياء، و أسرت بنو ضبية أبنيه زيادا و عمرا. فروي إن زيد الفوارس بن حصين الضبي قتلهما و قيل بل باعهما أنفسهما ففي ذلك يقول الفرزدق مفتخرا ببني ضبة:

و هم على أبن مزيقياء تنازلوا و الخيل بين عجاجتها القسطل

و محرقا صفود اليه يمينه بصفاد مقتسر أخوه مكبل

ملكان يوم بزاخة أخذوهما و كلاهما تاج عليه مكلل

و ذكر الكميت أيضاً ذلك فقال:

و آل مزيقياء غداة لاقوا بني سعد بن ضبة مؤلفينا

اتوهم يحسبونهم جناةً فأقلص أيدياً ما يجتنونا

و رحلت بنو عبس عن أرضهم عد قتلهم بني بدر و خوفهم من أجتماع كلمة غطفان عليهم فجاوروا ربيعة في البحرين ثم رحلوا عنهم فجاوروا بني سعد بن زيد مناة بهجر فأنت بنو سعد الجون الكندي ملك

هجر فقالوا له: هل لك في مهرة شقراء و ناقة حمراء و جارية عذراء. قال: و ما ذاك؟ قالوا بنو عبس تسير معنا أو ترسل جندك معنا فتغير عليهم ففعل ذلك. فأغاروا عليهم بالفروق فهزمتهم بنو عبس جميعا و جمعوا أموالهم و ذراريهم منهم و لم يكن للملك و جنده و بني سعد يد بهم مع غرقهم و كونهم في غير أرضهم و مع مجاورتهم فيهم و ضعفهم عقيب ما كانوا فيه من الحروب المتواترة و هم يومئذ بصفة الفلّ المهزوم ففي ذلك يقول عنترة:

و نحن منعنا بالفروق نساءنا ندیت عنها مسبلاتٍ غواشيا

تفاديهم أستاه نيب تجمعت على رمة مثل الرماح تفاديا

و بعث الجون أبنيه حسان و معاوية و قيل عمرو و معاوية في جيوشه مع لقيط بن زرارة على بني عامر يوم جبلة و قد جمع لهم لقيط الجموع و صار أيضاً الى النعمان بن المنذر فبعث معه جيشه و عليهم أبن أخيه لامه حسان بن وبره بن رومانس الكلبي فهزمتهم بنوا عامر و أسر عوف بن الاحوص حسان الجون و أسر طفيل بن مالك بن جعفر معاوية بن الجون ثم إن عوفا جز ناصية أسيره حسان بن الجون و أطلقه فكان يسير فيهم آمنا فلقيه رجل من بني عبس فقتله لما كان من غزو أبيه لهم يوم الفروق مع بني سعد بن زيد مناة فنازعتهم فيه عوف. و قال قتلتم جاري و كادت الحرب أن تقع بينهم فأشترى قيس بن زهير أخاه معاوية بت الجون من طفيل بن مالك بألف بعير و دفعه الى عوف عوضا عن حسان. فروي أن عوفا أطلقه و قيل بل قدمه. فقتله و في ذلك يقول جرير :

و هم أنزلوا في حومة الوغى و لم يمنع الجونين عقد التمائم

و قال الكميت بن زيد:

و آل الجون قد وجدوا العبس أفاعي لا تجير إذا رقينا

و هم تركوا أسارتهم حثيثاً و من دون السراة مزملينا

و قتلت قبائل نزار يوم خزاز صهبان بن أبي حرب الملك الرعيني و هو أحد التبابعة و تسعة أخوة له كلهم قد لبس التاج و أسرو من الملوك يومئذ خمسين رجلا فقيل إن ملك حمير يومئذ أفترق فلم يسبقهم و لم يجتمع من بعد و قد تقدم ذكر أذواء اليمن و إن أحدهم أنما كان رئيسا على مخلافة. فلما قصدهم أرياط الحبشي صاحب النجاشي الى بلادهم بشرذمة من الحبشة لم يكن فيهم مدافعة له فملكها عليهم و قتلهم و أذلّهم ثم قتله أبرهة صاحب الفيل و ملك مكانه و أنتزع ريحانة بنت علقمة من بعلها أبي مرة بن ذي يزن و قيل إن أبي مرة هو ذو جدن. فأخذها منه لنفسه و كانت قد و لدت لابي مرة معدي كرب وولدت لابرهة مسروقا فهو أخو معدي كرب لأمه، و سر فيهم بأقبح سيرة فتشرد ذو يزن في البلاد و

معه أبنه سيف سبع سنين يطلب النصرة عليهم. فوفد على هرقل فلم ينصره لمكان الحبشة من النصرانية فأتى النعمان بن المنذر ليوصله الى كسرى و قيل بل أتى أباه المنذر فقال .

الفهرس

ملوك الفرس عهد يوسف عليه السلام..... 2
يوسف عليه السلام 2
موسى عليه السلام..... 4
التسمية بالملك 5
رسالة الرسول صلى الله عليه و سلم الى كسرى 7
سيف الدولة ملك الحلة 9
هوذ الحنفي 10
قوس حاجب بن زرارة و يوم بئر معونه..... 11
الحارث الكندي..... 13
عبد الله بن أبي الخزرجي 14
عثمان بن الحويرث 14
ابو أحيحة سعد بن العاص 16
مالك بن عوف النصري 18
الشريد عمرو بن رباح السمي 18
علي رضي الله عنه و الأشعث..... 18
اخبار الحجاج بن يوسف الثقفي 22
مذهب العرب في أبس التاج 23
ملوك آل نصر في حيره..... 24
تفرق الأزد 25
أخوه عمرو بن فهم بن غانم بن دوس، فكان يترل مترل أخيه. 27
جذيمة الأبرش..... 28
عمرو بن عدي 30
سابور بن أردشير 31
أمرؤ القيس بن عمرو 32

اهل الرفادة 32
الجمار 32
الوضائع..... 33
الرهائن 33
العباد 34
الأحلف 34
الملحاء..... 35
عمرو بن أمرؤ القيس 35
أوس بن قلام 36
امرؤ القيس الثاني 36
النعمان بن أمرؤ القيس..... 37
المنذر بن النعمان..... 39
الاسود بن المنذر 40
المنذر بن المنذر..... 40
النعمان بن الاسود 40
ابو يعفر بن علقمه 40
المنذر بن أمرئ القيس..... 41
عمرو بن المنذر 43
قابوس بن المنذر..... 49
المنذر الاصغر 49
النعمان الاصغر 50
المتجردة..... 52
ثم إن النعمان عرف براءة النابغة..... 54
اياس بن قبيصة..... 57
مناقب سيف الدولة ملك الحلة..... 57
فرسان العرب..... 58
غير العرب..... 59

الاركان..... 59
جمرات العرب 60
جماجم العرب..... 60
رضفات العرب..... 60
اثافي العرب..... 60
غلاصم العرب..... 61
اجواد العرب 61
اوفياء العرب..... 61
الرجليون من العرب 61
اغربة العرب 62
ارحاء العرب 62
ازمنة العرب 62
البدور من العرب 62
حكام العرب 63
شعراء العرب 63
فدية العرب..... 64
مفاخر العرب..... 64
عقماء العرب 64
اقارع العرب..... 64
الرادون على المستغيث 64
الوافيات من العرب 66
ذكر السبب في قتل أبي أزيهر 67
منجبات العرب..... 68
مدركوا الاوتار 69
بيوتات العرب 70
رأي المنصف فيما قيل في مفاخر العرب..... 70
أيام العرب..... 72

الاجربان..... 73
الحليفان..... 73
وقعة الجمل..... 80
وقعة صفين..... 82
يوم فيف الرياح..... 90
فضله عليهم في الدين.....106
تنصر النعمان و سياحته.....107
فضله عليهم في النسب.....110
ملوك الازد.....110
حديث ماء السماء.....114
خبر الذبيحين.....118
ولاية جرهم البيت.....127
ولاية خزاعة البيت.....128
ولاية قصي بن كلاب البيت.....130
النسيء.....135
الأجازة.....135
حفر زمزم.....138
فضل معد بن عدنان.....142
فضل نزار بن معد.....146
فضل مضر بن نزار.....148
فضل الياس بن مضر.....149
فضل مدركة بن الياس.....152
فضل خزيمة بن مدركة.....154
فضل أسد بن خزيمة في نفسة.....155
ذكر فضله عليهم في العز و المنعة.....158
فمن أحاديثهم في ذلك بينهم.....162
النعمان بن المنذر و عدي بن زيد.....168

يوم ذي قار.....176
الرسول صلى الله عليه و سلم يعرض نفسه على القبائل 183
كسرى و العرب.....187
من مناقب سيف الدولة.....188
الردافة 192
و من أحاديثهم أيضاً مع العرب.....193
و من أحاديثهم معهم.....196
الحارث بن ظالم المري 204
من أخبار النعمان بن المنذر.....209
من أخبار سيف الأيام.....212
و الثاني فتكة البراض.....219
و الثالث امرئ القيس و المعلىّ و السموأل 221
خبر حصار تبع يثرب 225
من مناقب سيف الدولة.....227
فضله عليهم في سعة الملك و الثروة.....230
من أخبار الحارث بن عمرو الكندي و أبن الهبولة 235
اخبار متفرقة عن ملوك الحيرة و ملوك الحلة و رؤساء القبائل.....237
الفهرس.....250

To PDF: www.al-mostafa.com